التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

لِلقُرآنِ الكَرِيمِ

من سُورَةِ المُمتَحَنَةِ إلى سُورَةِ التَّغابُنِ

إعْدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مُراجَعَة وتَدقِيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن والثلاثون

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثامن والثلاثون - من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤٩٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٥٨-٠٤-٧

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٦٩٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٦٩٧

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٥٨-٠٤-٧

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الممتحنة إلى سورة التغابن)

إِعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإِشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوِي بن عَبدِ القَادِر السَّقَّاف

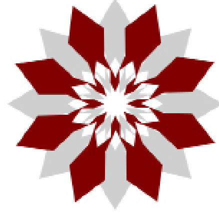
المجلد الثامن والثلاثون

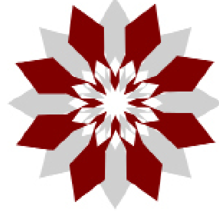
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

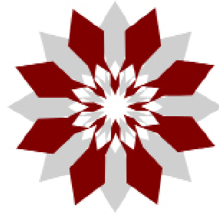
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ المُمْتَحَنَةِ







سورةُ المُمْتَحَنةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُمْتَحَنةِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ المُمتَحَنةِ مَدَنيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تحذيرُ المؤمِنينَ مِن اتِّخاذِ المُشرِكينَ أولياءَ[٤].

---

(١) وجْهُ التَّسْميةِ أنَّها جاءت فيها آيةُ امتحانِ إيمانِ النِّساءِ اللَّاتي يأتِينَ مِن مكَّةَ مُهاجِراتٍ إلى المدينةِ، وهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٩).

وقد عُرِفَت هذه السُّورةُ في كتُبِ التفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ وفي المصاحِفِ بـ«سورة المُمتَحَنةِ». يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

قال ابنُ حَجَرٍ: (والمشهورُ في هذه التسميةِ فَتحُ الحاءِ، وقد تُكسَرُ، وبه جزَم السُّهَيليُّ؛ فعلى الأوَّلِ هي صِفةُ المرأةِ الَّتي نزلت السُّورةُ بسَبَبِها، والمشهورُ فيها أنَّها أمُّ كلثومٍ بنتُ عُقْبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ. وقيل: سَعيدةُ بنتُ الحارثِ. وقيل: أُمَيمةُ بنتُ بِشرٍ. والأوَّلُ هو المعتَمَدُ... ومَن كَسَر جعَلَها صِفةً للسُّورةِ، كما قيل لـ﴿بَرَآءَةٌ﴾ الفاضِحةُ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٣٣). ويُنظر: ((التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام)) للسهيلي (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٠).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣١).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- نَهْيُ المؤمِنينَ عن اتِّخاذِ أعداءِ اللهِ وأعدائِهم أولياءَ، وبيانُ كراهيَةِ أعداءِ اللهِ للحَقِّ، وسوءِ عاقبةِ مَن يُواليهم.

٢- دعوةُ المؤمنينَ إلى الاقتِداءِ بأبيهم إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- الَّذي قَطَع صِلَتَه بأبيه وقَومِه؛ لإصرارِهم على الكُفرِ.

٣- بِشارةُ اللهِ للمُؤمنينَ بجَمْعِ شَمْلِهم بأقارِبِهم، وحُصولِ المودَّةِ بيْنَهم، بهدايةِ أقارِبِهم إلى الحَقِّ.

٤- بَيانُ الرُّخصةِ في حُسنِ مُعامَلةِ الكَفَرةِ الَّذين لم يُقاتِلوا المسلِمينَ قِتالَ عَداوةٍ في دينٍ، ولا أخرَجوهم مِن ديارِهم.

٥- تفصيلُ أحكامِ النِّساءِ اللَّائي أتَيْنَ مُؤمِناتٍ إليهم، بعد أن ترَكْنَ أزواجَهنَّ الكُفَّارَ.

٦- أمْرُ اللهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُبايَعةِ النِّساءِ المؤمِناتِ، وأخْذِ العُهودِ عليهِنَّ بطاعةِ اللهِ، والبُعْدِ عن المحَرَّماتِ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بنَهْيِ المؤمنين عن موالاةِ أعداءِ اللهِ وأعدائِهم.



الآيات (١-٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: أي: أنصارًا وأخِلَّاءَ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ من حيثُ المكانُ أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ أو الاعتِقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[(١)].

﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾: المودَّةُ: المَحَبَّةُ، والوُدُّ: محبَّةُ الشَّيءِ، أو هو خالصُ الحُبِّ وألطفُه وأرَقُّه، يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ وُدًّا: أحببْتُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةٍ[(٢)].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتِدادِه، وسُمِّيَ الطَّريقُ بذلك لامْتِدادِه[(٣)].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٥)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: أي: يَجِدُوكم ويَظفَروا بكم، وأصلُ (ثقف): يدُلُّ على الحِذْقِ في إدراكِ الشَّيءِ، ثمَّ يُتجَوَّزُ به فيُستعمَلُ في الظَّفَرِ والإدراكِ مطلقًا[١].

﴿وَيَبْسُطُوا ...﴾: أي: يُؤذوكُم بالمقالِ والفِعالِ، وبَسطُ اليدِ: مدُّها، ويُستعمَلُ تارةً للطَّلبِ، وتارةً للأخذِ، وتارةً للضَّربِ، وتارةً للبذلِ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾

قَولُه: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ ضميرٌ مُنفَصِلٌ مَبنيٌّ في محلِّ نَصبٍ مَعطوفٌ على ﴿الرَّسُولَ﴾، أي: ويُخرِجونَكم. ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ لأجلِه، أي: يُخرِجونَكم؛ لإيمانِكم، أو كَراهةَ إيمانِكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾: شَرطٌ جَوابُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ عليه، وهو قَولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي﴾[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ المؤمِنينَ قائِلًا: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تتَّخِذوا أعدائي وأعداءَكم أنصارًا تَتودَّدونَ إليهم، وقد كَفَروا بالحَقِّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٩٩).

الَّذي جاءَكم، يُخرِجونَ رَسولَ اللهِ، ويُخرِجونكم مِن ديارِكم؛ بسَبَبِ إيمانِكم باللهِ رَبِّكم، إن كُنتُم هاجَرْتُم وخرَجْتُم مِن أوطانِكم جِهادًا في سَبيلِ اللهِ، وطَلَبًا لنَيلِ رِضوانِه فلا تتَّخِذوا الكُفَّارَ أولياءَ.

تَتودَّدونَ إليهم -أيُّها المؤمِنونَ- بمناصَحتِهم في السِّرِّ، والحالُ أنِّي أعلَمُ بما أضمَرْتُموه وما أظهَرْتُموه، ومَن يَفعَلْ ذلك منكم فقد حادَ عن طريقِ الحَقِّ.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى حالَ هؤلاءِ الأعداءِ عندَما يتمكَّنونَ مِن المؤمنينَ، فقال: إنْ يَظفَرْ بكم الكُفَّارُ يُظهِروا لكم العَداوةَ، ويَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسِنَتَهم بما يَسوؤُكم، وتَمَنَّوا أن تَكفُروا برَبِّكم.

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى عدمَ نفعِ الأرحامِ والأولادِ يومَ القيامةِ، فقال: لا تَحمِلَنَّكم قراباتُكم وأولادُكم على مَعصيةِ اللهِ مِن أجْلِهم؛ فلن يَنفَعوكم يومَ القيامةِ الَّذي يَفصِلُ اللهُ فيه بَيْنَكم وبيْنَهم، فيُدخِلُ المؤمِنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ النَّارَ. واللهُ بصيرٌ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

وسلَّم أنا والزُّبَيرُ والمِقدادُ، فقال: انطَلِقوا حتَّى تأتوا رَوضةَ خاخٍ[١]؛ فإنَّ بها ظَعينةً[٢] معها كتابٌ، فخُذوا منها، فانطلَقْنا تَعادَى[٣] بنا خَيلُنا حتَّى أتَيْنا الرَّوضةَ، فإذا نحن بالظَّعينةِ، قُلْنا لها: أخرِجي الكِتابَ، قالت: ما معي كِتابٌ، فقُلْنا: لَتُخرِجِنَّ الكتابَ، أو لَنُلْقِيَنَّ الثِّيابَ. فأخرَجَتْه مِن عِقاصِها[٤]، فأتَيْنا به رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإذا فيه: مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ إلى ناسٍ بمكَّةَ مِن المشركِينَ، يُخبِرُهم ببَعضِ أمرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا حاطِبُ، ما هذا؟! قال: يا رَسولَ اللهِ، لا تَعْجَلْ علَيَّ، إنِّي كُنتُ امرَأً مُلصَقًا في قُرَيشٍ -يقولُ: كنتُ حَليفًا، ولم أكُنْ مِن أنفُسِها-، وكان مَن معَك مِن المهاجِرينَ مَنْ لهم قَراباتٌ يَحْمُونَ أهلِيهم وأموالَهم، فأحببتُ إذ فاتَني ذلك مِنَ النَّسَبِ فيهم أن أتَّخِذَ عِندَهم يدًا يَحمُونَ قَرابتي، ولم أفعَلْه ارتِدادًا عن ديني، ولا رِضًا بالكُفرِ بعدَ الإسلامِ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَا إنَّه قد صَدَقَكم! فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، دَعْني أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافِقِ! فقال: إنَّه قد شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدريكَ لعَلَّ اللهَ اطَّلَع على مَن شَهِدَ بَدرًا، فقال: اعمَلوا ما شِئتُم؛ فقد غفرْتُ لكم. فأنزل اللهُ السُّورةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]))[٥].

---

(١) مَوضِعٌ بيْن مكَّةَ والمدينةِ بقُربِ المدينةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٤٠١٢).

(٢) الظَّعينةُ: المرأةُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥١).

(٣) تَعادَى: أي: تَتَعادى، والمعنى: تَجْري وتتسابقُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ١٤١).

(٤) عِقاصِها: أي: الخَيطِ الَّذي يُعتقَصُ به أطرافُ الذَّوائبِ، أو الشَّعرِ المضفورِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ٣٨٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٤٢٧٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٩٤). =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، اعمَلوا بمُقتَضى إيمانِكم، فلا تتَّخِذوا أعدائي وأعداءَكم مِن المشرِكينَ والكُفَّارِ أنصارًا وأخِلَّاءَ(١).

= قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ الآيَة نزلت في حاطِبٍ، حينَ كتَبَ إلى مُشرِكي قُرَيشٍ يُخبِرُهم بمَسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم لَمَّا قصَد فتْحَ مكَّةَ، يَنهاه اللهُ عن موالاةِ الكفَّارِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفَقوا على أنَّ الآيَةَ الأولى نزلت في شأنِ كتابِ حاطِبِ بنِ أبي بَلتَعةَ إلى المشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ... واختَلَفوا في آنِ كتابِه إليهم: أكان عندَ تجهُّزِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للحُدَيبيَةِ؟ وهو قولُ قَتادةَ، ودَرَج عليه ابنُ عطيَّةَ، وهو مقتضى روايةِ الحارثِ عن عليِّ ابنِ أبي طالبٍ عندَ الطَّبَريِّ... قال ابنُ عطيَّةَ: نزَلَت هذه السُّورةُ سَنةَ ستٍّ. وقال جماعةٌ: كان كِتابُ حاطِبٍ إلى أهلِ مكَّةَ عند تجهُّزِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفَتحِ مكَّةَ. وهو ظاهِرُ صَنيعِ جمهورِ أهلِ السِّيَرِ، وصَنيعِ البُخاريِّ في كتابِ المغازي مِن صَحيحِه في ترتيبِه للغَزَواتِ، ودرَج عليه مُعظَمُ المفسِّرينَ. ومعظَمُ الرِّواياتِ ليس فيها تعيينُ ما قصَدَه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تجَهُّزِه إلى مكَّةَ: أهو لأجْلِ العُمرةِ أمْ لأجلِ الفَتحِ؟ فإن كان الأصَحُّ الأوَّلَ -وهو الَّذي نختارُه- كانت السُّورةُ جميعُها نازلةً في مدَّةٍ مُتقاربةٍ؛ فإنَّ امتحانَ أمِّ كُلثومِ بنتِ عُقبةَ كان عَقِبَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، ويكونُ نزولُ السُّورةِ مُرَتَّبًا على ترتيبِ آياتِها، وهو الأصلُ في السُّوَرِ.

وعلى القَولِ الثَّاني يكونُ صُدورُ السُّورةِ نازِلًا بعدَ آياتِ الامتحانِ وما بَعْدَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٠، ١٣١). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((سيرة ابن هشام)) (٢/ ٣٩٨)، ((دلائل النبوة)) للبيهقي (٥/ ١٤)، ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ٥٢٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٢-٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٤-٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥).

قال الألوسي: (الصَّحيحُ أنَّ كُلَّ ما عَدَّه العُرفُ تَعظيمًا وحَسِبَه المسلمون موالاةً، فهو مَنهيٌّ عنه، ولو مع أهلِ الذِّمَّةِ، لا سيَّما إذا أوقَعَ شَيئًا في قلوبِ ضُعَفاءِ المؤمنينَ). ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١١٦).

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

أي: تُبادِرونَ إلى موَدَّتِهم والتَّودُّدِ إليهم، ومِن ذلك إيصالُ أسرارِ المُسلِمينَ إليهم، والنُّصحُ لهم[(١)]!

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: والحالُ أنَّ أولئك المُشرِكينَ الَّذين نُهيتُم عن اتِّخاذِهم أولياءَ: قد كَفَروا بالحَقِّ الَّذي جاءَكم مِن عِندِ اللهِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).
قال ابن جُزَي: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عبارةٌ عن إيصالِ الموَدَّةِ إليهم، و«ألْقى» يَتعدَّى بحرفِ جرٍّ وبغيرِ حرفِ جرٍّ، كقولِه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٤).
وقال الشوكاني: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصِلون إليهم الموَدَّةَ، على أنَّ الباءَ زائدةٌ. أو هي سببيَّةٌ، والمعنى: تُلْقون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم بسببِ الموَدَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم. قال الزَّجَّاجُ: (تُلْقون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسِرَّه بالموَدَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٥٥).
وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يقولُ جلَّ ثناؤه: تُلْقون إليهم مَوَدَّتَكم إيَّاهم. ودُخولُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وسُقوطُها سَواءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧).
وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني: بالظَّاهِرِ؛ لأنَّ قَلْبَ حاطِبٍ كان سليمًا، بدليلِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لهم: «أمَّا صاحِبُكم فقد صَدَق»، وهذا نَصٌّ في سلامةِ فُؤادِه، وخُلوصِ اعتِقادِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير =

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وهم يُخرِجونَ رَسولَ اللهِ ويُخرِجونكم أيضًا -أيُّها المؤمِنونَ- مِن ديارِكم، ويَحمِلونَكم على فِراقِ أوطانِكم؛ بسَبَبِ إيمانِكم باللهِ وَحْدَه الَّذي أحسَنَ إليكم، وربَّاكم بنِعَمِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾.

أي: لا تتَّخِذوا الكُفَّارَ أولياءَ، ولا تُلْقُوا إليهم بالمودَّةِ إن كُنتُم هاجَرْتُم وخرَجْتُم مِن أوطانِكم بقَصدِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمتِه، وطَلَبًا لنَيلِ رِضوانِه[(٢)].

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

أي: تَتودَّدونَ إليهم -أيُّها المؤمِنونَ- بمناصَحتِهم في السِّرِّ، والحالُ أنِّي أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ بالَّذي أضمَرْتُموه والَّذي أظهَرْتُموه، فكيفَ تَفعَلونَ ذلك[(٣)]؟!

= القرطبي)) (١٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

قال الواحدي: (﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآنَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

قال ابنُ جرير: (ذلك إخراجُ مُشرِكي قُرَيشٍ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه مِن مكَّةَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٦، ٤٨٧).

وقال السمعاني: (معنى الإخراجِ هاهنا: هو الإلجاءُ إلى الخروجِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

أي: ومَن يَفعَلْ ذلك منكم -أيُّها المؤمِنونَ- فقد حادَ عن طريقِ الحَقِّ، وأخطَأَ الصَّوابَ[(١)].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَهى المؤمنينَ عن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياءَ، وشرَحَ ما به الولايةُ مِن الإلْقاءِ بالمَودَّةِ بيْنَهم، وذكَرَ ما صنَعَ الكُفَّارُ بهم أوَّلًا مِن إخراجِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ- ذكَرَ صَنيعَهم آخِرًا لو قَدَروا عليه؛ من أنَّه إنْ تَمكَّنوا منكم تَظهَرْ عَداوتُهم لكم، ويَبسُطوا أيدِيَهم بالقتْلِ والتَّعذيبِ، وألْسنَتَهم بالسَّبِّ، ووَدُّوا لو ارْتدَدْتُم عن دِينِكم الَّذي هو أحبُّ الأشياءِ إليكم، وهو سَببُ إخراجِهم إيَّاكم[(٢)].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾.

أي: إنْ يَظفَرْ بكم الكُفَّارُ الَّذين توادُّونَهم -أيُّها المؤمِنونَ- يُظهِروا لكم العَداوةَ؛ فلا تَظُنُّوا أنَّ في التَّوَدُّدِ إليهم مَنفَعةً لكم[(٣)].

= (٨/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

قال ابن عطية: (السَّواءُ: الوَسَطُ؛ وذلك لأنَّه تتساوى نِسبَتُه إلى أطرافِ الشَّيءِ، والسَّبيلُ هنا: شَرعُ اللهِ، وطريقُ دِينِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن =

كما قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾.

أي: ولو ظَفِروا بكم لَبَسَطوا إليكم أيديَهم بفِعلٍ يُؤذِيكم، وألسِنَتَهم بكَلامٍ يَسوؤُكم[1].

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أعدى الأعداءِ لك مَن تمَنَّى أن يَفوتَك أعزُّ الأشياءِ لديك، وكان أعزُّ الأشياءِ عندَ كلِّ أحدٍ دِينَه؛ قال مُتمِّمًا للبَيانِ[2]:

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

= عطية)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

قال الرَّسْعَني: (أخبَرَهم بما في أنفُسِهم لهم مِن العداوةِ، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يَظفَروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ظاهِري العداوةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

أي: وتَمَنَّوا وأحَبُّوا لكم أن تَكفُروا برَبِّكم، فتَكونوا على مِثْلِ ما هم عليه مِنَ الكُفرِ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان حاطِبٌ رضِيَ اللهُ عنه قدِ اعتذَرَ بأنَّ له بمكَّةَ قَرابةً، فكَتَبَ إلى أهْلِها بما كَتَبَ لَيَرْعَوه في قَرابتِه؛ قال تعالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[(٢)].

وأيضًا لَمَّا كانت عداوتُهم معروفةً، وإنَّما غطَّاها محبَّةُ القَراباتِ؛ لأنَّ الحُبَّ للشَّيءِ يُعْمي ويُصِمُّ، فخَطَّأَ رأيَهم في موالاتِهم بما أعلَمهم به مِن حالاتِه- زَهَّد فيها بما تُورِثُه مِن الشَّقاءِ الدَّائمِ يومَ البَعْثِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥).

قال مقاتل بن سليمان: (﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ إن ظَهَروا عليكم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (جملةُ ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَكُونُوا۟﴾، والواوُ: واوُ الحالِ، أي: وهم قد ودُّوا مِنَ الآنَ أن تَكفُروا، فكيف لو يأسِرونَكم؟ أليس أهمُّ شَيءٍ عندَهم حينَئذٍ أن يَرُدُّوكم كُفَّارًا؟). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

وقال ابن كثير: (يحرِصونَ على ألَّا تَنالوا خيرًا، فهم عداوتُهم لكم كامِنةٌ وظاهِرةٌ، فكيف توالُونَ مِثلَ هؤلاء؟ وهذا تهييجٌ على عداوتِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: لا تَحمِلَنَّكم قراباتُكم وأولادُكم على مَعصيةِ اللهِ مِن أجْلِهم؛ فإنَّكم إذا أرضَيْتُموهم بما يُسخِطُ اللهَ فلن يَنفَعوكم بأيِّ وَجهٍ مِن الوُجوهِ يومَ القيامةِ الَّذي يَفصِلُ اللهُ فيه بيْنَكم وبَيْنَهم، فيُدخِلُ المؤمِنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ النَّارَ[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦، ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ جُزَي: (يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن الفَصلِ بالحُكمِ بَيْنَهم، أو مِنَ الفَصلِ بمعنى التَّفريقِ، أي: يُفَرِّقُ بَيْنَكم وبيْنَ قرابتِكم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٥).

وقال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنْ يَتعلَّقَ بما قبْلَه، أي: لن يَنفعَكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ عليه، ويُبْتدأُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾. والثَّاني: أنْ يَتعلَّقَ بما بعْدَه، أي: يَفصِلُ بيْنَكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ على ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾ ويُبتدَأُ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٠٢). ويُنظر: ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) للأشموني (٢/ ٣٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظَرفٌ يَتنازَعُه كُلٌّ مِن فِعلِ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، وفِعلُ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾؛ إذ لا يَلزَمُ تقَدُّمُ العامِلَينِ على المعمولِ المتنازَعِ فيه إذا كان ظرفًا؛ لأنَّ الظُّروفَ تتقَدَّمُ على عوامِلِها، وإن أبَيتَ هذا التَّنازُعَ فقُلْ: هو ظَرفُ ﴿تَنفَعَكُمْ﴾، واجعَلْ لـ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ظرفًا محذوفًا دَلَّ عليه المذكورُ. والفَصلُ هنا: التَّفريقُ، وليس المرادُ به القَضاءَ. والمعنى: يومَ القيامةِ يُفَرِّقُ بَيْنَكم وبَينَ ذَوي أرحامِكم وأولادِكم: فريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤١).

وممَّن اختار أنَّ الفصلَ بيْنَهم بإدخالِ المؤمنينَ الطَّائعينَ الجنَّةَ، والكافرين والعاصينَ النَّارَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والرازي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥١).

أي: واللهُ بصيرٌ بأعمالِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بيانُ أنَّ خُلَّةَ غيرِ المتَّقينَ المؤمِنينَ لا مُعوَّلَ عليها؛ ألَا ترَى أنَّ الموالِينَ المُلْقَى إليهم بالمودَّةِ -في أوَّلِ هذه السُّورةِ- لم يُراعُوا للمُسِرِّينَ إليهم بها، ولم يُحامُوا عليهم مِن أجْلِها[٢]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيه بَيانٌ واضِحٌ في أنَّ روابِطَ الدِّينِ أقوى وألزَمُ مِن روابِطِ النَّسَبِ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وهذا كلُّه تكذيبٌ لأطماعِ المشركين الباطِلةِ أنَّ مَنْ تعلَّقوا به مِن دون اللهِ مِن قَرابةٍ أو صِهْرٍ أو نكاحٍ أو صُحْبةٍ يَنفَعُهم يومَ القيامةِ، أو يُجيرُهم مِن عذابِ الله، أو هو يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فإنَّ الأسبابَ كلَّها تَنقَطِعُ يومَ القيامةِ إلَّا ما كان منها متَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رُسُلِه، فمَن رَكِبَ معصيةَ اللهِ وخالَفَ أمْرَه، فلنْ يَنفَعَه صلاحُ غيرِه مِن قريبٍ أو أجنبيٍّ، ولو كان بيْنَهما في الدُّنيا أشدُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥١).

قال السعدي: (فلذلك حَذَّركم مِن مُوالاةِ الكافِرينَ الَّذين تضُرُّكم مُوالاتُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٤).

الاتِّصالِ؛ فلا اتِّصالَ فَوقَ اتِّصالِ البُنُوَّةِ والأبُوَّةِ والزَّوجيَّةِ، ولم يُغْنِ نوحٌ عنِ ابنِه، ولا إبراهيمُ عن أبيه، ولا نوحٌ ولا لوطٌ عن امرأتَيهما مِن اللهِ شَيئًا[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه النَّهيُ الشَّديدُ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ مِن المُشرِكينَ وغَيرِهم، وإلقاءِ المودَّةِ إليهم، وأنَّ ذلك مُنافٍ للإيمانِ[٢]. والسُّورةُ أصلٌ في النَّهيِ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ردَّ أهلُ السُّنَّةِ به وأمثالِه على المُعتَزِلةِ وأمثالِهم قَولَهم: (إنَّ المعصيةَ تُنافي الإيمانَ)؛ لأنَّ اللهَ ناداهم بوَصفِ الإيمانِ مع قَولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فلم يُخرِجْهم بضَلالِهم عن عُمومِ إيمانِهم، ويَشهَدُ لهذا أنَّ الضَّلالَ هنا عن سواءِ السَّبيلِ لا مُطلَقِ السَّبيلِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا كُلُّه مُعاتَبةٌ لحاطِبٍ، وهو يدُلُّ على فَضْلِه وكَرامتِه، ونَصيحتِه لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصِدْقِ إيمانِه؛

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٢).

فإنَّ المُعاتَبةَ لا تكونُ إلَّا مِن مُحِبٍّ لحَبيبِه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنَّه قد تَحصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّةُ أعداءِ اللهِ؛ لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكونُ ذنْبًا يَنقُصُ به إيمانُه ولا يكونُ به كافِرًا، كما حَصَلَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ لَمَّا كاتَبَ المُشركينَ ببَعضِ أخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزَلَ اللهُ فيه الآياتِ(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيه سؤالٌ: اتِّخاذُ العَدُوِّ وليًّا كيف يُمكِنُ، وقد كانت العداوةُ مُنافيةً للمَحَبَّةِ والمودَّةِ، والمحبَّةُ والمودَّةُ مِن لوازمِ ذلك الاتِّخاذِ؟

الجوابُ: لا يَبعُدُ أن تكونَ العداوةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ، والمحبَّةُ والمودَّةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ آخَرَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾(٣) [التغابن: ١٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنَّ الكافرَ عدوٌّ للهِ ولنا(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ مودَّةَ أعداءِ اللهِ ومحبَّتَهم ومُوالاتَهم مُخالِفةٌ لِمَا يجِبُ على المُسلِمِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد نهى عن ذلك(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نزَلَ فيما

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣/ ١٦).

فعَلَه حاطِبٌ خَوفًا على مالِه ووَلَدِه؛ فيُؤخَذُ منه أنَّ الخَوفَ عليهما لا يُبيحُ التَّقِيَّةَ في دِينِ اللهِ(١)، ولا يُبيحُ التَّقِيَّةَ في إظهارِ الكُفْرِ، كما يُبيحُ في الخَوفِ على النَّفْسِ، ويُبَيِّنُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ الهِجْرةَ، ولم يَعْذِرْهم في التَّخَلُّفِ مِن أجْلِ أموالِهم وأولادِهم. وقيل: إنَّما ظَنَّ حاطِبٌ أنَّ ذلك يجوزُ له؛ ليَدفَعَ به عن وَلَدِه، كما يجوزُ له أن يَدفَعَ عن نَفْسِه بمِثْلِ ذلك عندَ التَّقِيَّةِ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال: ﴿عَدُوِّى﴾، فلِمَ لَمْ يكتَفِ به حتَّى قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ لأنَّ عَدُوَّ اللهِ إنَّما هو عَدُوُّ المؤمنينَ؟

الجوابُ: الأمرُ لازِمٌ مِن هذا التَّلازُمِ، وإنَّما لا يَلزَمُ مِن كَونِه عَدُوًّا للمُؤمنينَ أن يكونَ عَدُوًّا لله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾(٣) [التغابن: ١٤]. أو أنَّه ذكَرَ ذلك في مَقامِ التَّنفيرِ؛ إذ هو عدوٌّ لله وعدوٌّ لهم أيضًا.

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يقُلْ: (وَلِيًّا)، والعَدُوُّ والوَلِيُّ بلَفظٍ؟

الجوابُ: كما أنَّ المعَرَّفَ بحَرفِ التَّعريفِ يتناوَلُ كُلَّ فَردٍ، فكذلك المُعَرَّفُ بالإضافةِ(٤)، وكذلك فإنَّ لفظ «العَدُوَّ» مَصدَرٌ يُطلَقُ على الواحِدِ والاثنينِ والجماعةِ(٥).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٨) نقلًا عن القاضي أبي يعلى.
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٠).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ سؤالٌ: لماذا لم يَكُنِ الكَلامُ: «يُخرِجونَكم والرَّسولَ»؛ لأنَّه لا فَصْلَ مع إمكانِ الوَصلِ، كما قال ابنُ مالكٍ في الألفيَّةِ:

«وفي اختيارٍ لا يَجيءُ المُنفَصِلْ إذا تأَتَّى أنْ يجيءَ المتَّصِلْ»؟

الجوابُ: نعَمْ، هو في الإمكانِ أنْ يكونَ هذا، لكنْ يُفوِّتُ الغايةَ؛ ففي قَولِه: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ تقديمُ الرُّتبةِ؛ فذُكِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لئلَّا يكونَ تابعًا لغَيرِه، فيُقالَ: «يُخرِجونَكم والرَّسولَ»[(١)]؛ لأنَّه الأصلُ للمؤمنينَ به[(٢)]. وكذلك قُصِدَ فيها تقدُّمُ ذِكْرِ الرَّسولِ؛ تشريفًا له، وتشنيعًا على مَنْ تجاسَرَ على مثلِ ذلك الفِعلِ الفَظيعِ[(٣)].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: لَمْ يقُلْ: (بما أسرَرْتُم وما أعلَنْتُم)، مع أنَّه أليقُ بما سبقَ، وهو ﴿تُسِرُّونَ﴾؟

الجوابُ: أنَّ فيه مِن المبالغةِ ما ليس في ذلك؛ فإنَّ الإخفاءَ أبلَغُ من الإسرارِ؛ دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، أي: أخفى مِنَ السِّرِّ[(٤)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾ أنَّ الخِلافَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ لا يَنتَهي بالدُّنيا، وإنَّما سوف يَحكُمُ اللهُ بيْنَهم يومَ القيامةِ، ويَنصُرُ أهلَ الحقِّ[(٥)]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿يَفۡصِلُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

- في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ...﴾ وُجِّهَ الخِطابُ بالنَّهيِ إلى جَميعِ المؤمنينَ؛ تَحذيرًا مِن إتيانِ مِثلِ فِعلِ حاطبٍ[١].

- والاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأخْذِ، صِيغَ الافتِعالُ للمُبالَغةِ في الأخذِ؛ فأُطلِقَ على التَّلبُّسِ والمُلازَمةِ[٢].

- وأضافَ العدُوَّ إليه سُبحانَه في قولِه: ﴿عَدُوِّي﴾؛ تَغليظًا لجُرْمِهم، وإعلامًا بحُلولِ عِقابِ اللهِ بهم[٣].

- قولُه: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾ قُدِّم ﴿عَدُوِّي﴾ على (عَدُوَّكُمْ)؛ قيل: لأنَّ الشَّيءَ إذا كان له نِسبةٌ إلى الطَّرَفينِ، فالطَّرَفُ الأعلى مُقدَّمٌ على الطَّرفِ الأدنى. وقيل: لأنَّ عداوةَ العبدِ للهِ هي الأصلُ، وهي أشدُّ قُبحًا؛ فلذا قُدِّمَتْ، وقُبحُها في أنَّهم عبَدوا غيرَ خالِقِهم، وشكَروا غيرَ رازِقِهم، وكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم وآذَوْهم. كذلك فتقديمُه يؤكِّدُ بأنَّه هو السَّببُ في العداوةِ بيْن المؤمنينَ والكافِرين، وما كان سببًا فحقُّه التَّقديمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصر السابق)) (٢٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨١).

- وقولُه: ﴿تُلْقُونَ﴾ بيانٌ لمُوالاتِهم، أو استئنافُ إخبارٍ، كأنَّه لَمَّا قِيل: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، قالوا: كيف نتَّخِذُهم أولياءَ؟ فقِيل: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿تُلْقُونَ ...﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾؛ لأنَّ جَعْلَها حالًا يُتوصَّلُ منه إلى التَّعجيبِ مِن إلْقائِهم إليهم بالمودَّة[1].

- والإلقاءُ مُعبَّرٌ به هنا عن إيقاعِ الشَّيءِ بدونِ تَدبُّرٍ في مَوقِعِه، أي: تَصرِفونَ إليهم مَودَّتَكم بغَيرِ تأمُّلٍ[2].

- والباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ لتأْكيدِ اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه، وأصلُ الكلامِ: تُلْقُون إليهم المَودَّةَ، وذلك تَصويرٌ لقُوَّةِ مَودَّتِهم لهم. أو سَببيَّةٌ، والمفعولُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: تُلْقُون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسَببِ المودَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم[3].

- وبدَأَ هنا في قولِه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بلَفظِ ﴿تُلْقُونَ﴾، وبعْدَه بلَفظِ ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ تَنبيهًا بالأوَّلِ على ذمِّ مَودَّةِ الأعداءِ جَهرًا وسِرًّا، وبالثَّاني على تأْكيدِ ذَمِّها سِرًّا، وخَصَّ الأوَّلَ بالعُمومِ -أي: جَهرًا وسِرًّا-؛ لتَقدُّمِه[4].

- وزِيدَ في تَصويرِ هذه الحالةِ بجُملةِ الحالِ الَّتي بعْدَها، وهي ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠).

﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾، وهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿إِلَيۡهِم﴾ أو مِن ﴿عَدُوِّي﴾. و(مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) هو القرآنُ والدِّينُ، وذُكِر بطَريقِ الموصوليَّةِ؛ لِيَشملَ كلَّ ما أتاهم به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على وجْهِ الإيجازِ، مع ما في الصِّلةِ مِن الإيذانِ بتَشنيعِ كُفْرِهم بأنَّه كُفْرٌ بما ليس مِن شأنِه أنْ يَكفُرَ به طُلَّابُ الهُدى؛ فإنَّ الحقَّ مَحبوبٌ مَرغوبٌ[(١)].

- قولُه: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ فيه تَعديةُ (جَاءَ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ -وهمُ الَّذين آمَنوا-؛ لأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بذلك الحقِّ وتَقبَّلوه، فكأنَّه جاء إليهم لا إلى غَيرِهم، وإلَّا فإنَّه جاء لدَعوةِ الَّذين آمَنوا والمُشرِكين، فقَبِله الَّذين آمَنوا، ونَبَذَه المشرِكون، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَ الكافِرينَ به ناشئٌ عن حَسَدِهم الَّذين آمَنوا قبْلَهم، وفي ذلك أيضًا إلهابٌ لقُلوبِ المؤمنينَ؛ لِيَحذَروا مِن مُوالاةِ المشرِكين[(٢)].

- وجُملةُ ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكُفْرِهم، أو حالٌ مِن ضَميرِ ﴿كَفَرُواْ﴾، أي: لم يَكتَفُوا بكُفْرِهم بما جاء مِن الحقِّ، فتَلبَّسوا معه بإخراجِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإخراجِكم مِن بَلَدِكم؛ لأنْ تُؤمِنوا باللهِ ربِّكم، أي: هو اعتداءٌ حَمَلَهم عليه أنَّكم آمنْتُم باللهِ ربِّكم، وأنَّ ذلك لا عُذْرَ لهم فيه؛ لأنَّ إيمانَكم لا يَضِيرُهم؛ ولذلك أُجرِيَ على اسمِ الجلالةِ وصْفُ ﴿رَبِّكُمۡ﴾. وحُكِيَت هذه الحالةُ بصِيغةِ المضارعِ لتَصويرِ الحالةِ؛ لأنَّ الجُملةَ لَمَّا وَقَعَت حالًا مِن ضَميرِ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾، كان إخراجُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ في تلك الحالةِ عَمَلًا فظيعًا؛ فأُرِيدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٥).

استحضارُ صُورةِ ذلك الإخراجِ العَظيمِ[(١)].

- وأُسنِدَ الإخراجُ إلى ضَميرِ العدُوِّ كلِّهم في قولِه: ﴿يُخۡرِجُونَ﴾؛ لأنَّ جَميعَهم كانوا راضِينَ بما يَصدُرُ مِن بَعضِهم مِن أذَى المسلمين، وربَّما أغْرَوا به سُفهاءَهُم[(٢)].

- وقولُه: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ تَعليلٌ للإخراجِ، أي: يُخرِجونكم لإيمانِكم، وفيه تَغليبُ المُخاطَبِ، والْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على ما يُوجِبُ الإيمانَ مِن الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[(٣)].

- وجِيءَ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه تعالَى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾؛ لإفادةِ استِمرارِ إيمانِ المؤمنينَ، وفيه إيماءٌ إلى الثَّناءِ على المؤمنينَ بثَباتِهم على دِينِهم، وأنَّهم لمْ يَصُدَّهم عنه ما سبَّبَ لهم الخُروجَ مِن بِلادِهم[(٤)].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِي﴾ شرْطٌ ذُيِّل به النَّهيُ مِن قولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، بمَنزلةِ التَّتميمِ لِما قبْلَه دونَ قصْدِ تَعليقِ ما قبْلَه بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، أي: لا يُقصَدُ أنَّه إذا انْتَفى فِعلُ الشَّرطِ انْتَفى ما عُلِّقَ عليه كما هو الشَّأنُ في الشُّروطِ، بلْ يُقصَدُ تأْكيدُ الكلامِ الَّذي قبْلَه بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، فيَكونُ كالتَّعليلِ لِما قبْلَه، وإنَّما يُؤتَى به في صُورةِ الشَّرطِ مع ثِقةِ المُتكلِّمِ بحُصولِ مَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ بحيث لا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

يُتوقَّعُ مِن السَّامعِ أنْ يَحصُلَ منه غَيرُ مَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، فتَكونُ صِيغةُ الشَّرطِ مُرادًا بها التَّحذيرُ؛ لأنَّ معْنى الشَّرطِ يَلزَمُه التَّردُّدُ غالبًا؛ ولهذا يُؤتَى بمِثلِ هذا الشَّرطِ إذا كان المُتكلِّمُ واثقًا بحُصولِ مَضمونِه مُتحقِّقًا صِحةَ ما يقولُه قبْلَ الشَّرطِ، ويَغلِبُ أنْ يكونَ فِعلُ الشَّرطِ في مِثلِه فِعلَ كَونٍ إيذانًا بأنَّ الشَّرطَ مُحقَّقُ الحُصولِ، والمقصودُ استقرارُ النَّهيِ عن اتِّخاذِ عَدُوِّ اللهِ أولياءَ، وعُقِّبَ بفرْضِ شَرْطِه مَوثوقٌ بأنَّ الَّذين نُهُوا مُتلبِّسونَ بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ بلا رَيبٍ، فكان ذِكرُ الشَّرطِ ممَّا يَزيدُ تأْكيدَ الانكفافِ[١].

- والمرادُ بالخُروجِ الخروجُ مِن مكَّةَ مُهاجَرةً إلى المدينةِ، فالخِطابُ خاصٌّ بالمهاجرينَ، على طَريقةِ تَخصيصِ العُمومِ في قولِه تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، رُوعِيَ في هذا التَّخصيصِ قَرينةُ سَببِ نُزولِ الآيةِ على حادثِ حاطبِ بنِ أبي بَلْتعةَ[٢].

- قولُه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أو استئنافٌ، أو بدَلُ اشتمالٍ منها؛ فإنَّ الإسرارَ إليهم بالموَدَّةِ ممَّا اشتَمَلَ عليه الإلقاءُ إليهم بالمَودَّةِ. والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّعجيبِ، فالتَّوبيخُ مُستفادٌ مِن إيقاعِ الخبَرِ عَقِبَ النَّهيِ المُتقدِّمِ، والتَّعجيبُ مُستفادٌ مِن تَعقيبِه بجُملةِ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، أي: كيف تَظنُّون أنَّ إسرارَكم إليهم يَخْفَى علينا، ولا نُطلِعُ عليه رَسولَنا[٣]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

- ومَفعولُ ﴿تُسِرُّونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مَحذوفًا يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: تُخبِرُونهم أحوالَ المسلمينَ سِرًّا، وجِيءَ بِصِيغةِ المُضارِعِ لتَصويرِ حالةِ الإسرارِ إليه؛ تَفظيعًا لها، والباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: تُخبِرونهم سِرًّا بسَببِ المودَّةِ، أي: بسَببِ طَلَبِ المودَّةِ لهم، كما هو في قضيَّةِ كِتابِ حاطبٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ في مَحلِّ المفعولِ لفِعلِ ﴿تُسِرُّونَ﴾، والباءُ زائدةً لتَأكيدِ المَفعوليَّةِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُسِرُّونَ﴾، أو مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهذا مَناطُ التَّعجيبِ مِن فِعلِ المُعرَّضِ به، وهو حاطبُ بنُ أبي بَلْتعةَ[2].

- وتَقديمُ الإخفاءِ على الإعلانِ؛ لأنَّه المناسِبُ لقولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾، ولمُوافَقتِه للقصَّةِ، وللمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه المحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلمَه بما يُسِرُّونه أقدَمُ منه بما يُعْلِنونَه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ[3]. وأيضا قَدَّم العِلمَ بالإخفاءِ على الإعلانِ، مع أنَّ ذلك مُستَلزِمٌ لهذا مِن غيرِ عَكسٍ؛ إذ هما سِيَّانِ في عِلْمِ الله تعالى، ولأنَّ المقصودَ هو بيانُ ما هو الأخفى، فيكونُ مُقَدَّمًا[4].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ النَّهيِ في قولِه تَعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، عُطِفَ على النَّهيِ التَّوعُّدُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨) و(٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٧).

على عدَمِ الانتهاءِ بأنَّ مَن لم يَنتَهِ عمَّا نُهِيَ عنه هو ضالٌّ عن الهُدى. و(مَنْ) شَرطيَّةٌ، الفِعلُ بعْدَها مُستقبَلٌ، وهو وَعيدٌ للَّذين يَفعَلون مِثلَ ما فَعَلَ حاطِبٌ بعْدَ أنْ بَلَغَهم النَّهيُ والتَّحذيرُ والتَّوبيخُ والتَّفظيعُ لعَمَلِه(١).

- وقولُه: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مُعبَّرٌ به هنا عن أعْمالِ الصَّلاحِ والهُدَى؛ لشَبَهِها بالطَّريقِ المُستوي الَّذي يَبلُغُ مَن سَلَكَه إلى بُغيتِه، ويَقَعُ مَنِ انحَرَفَ عنه في هَلَكةٍ، والمُرادُ به هنا: ضلَّ عن الإسلامِ، وضلَّ عن الرُّشدِ(٢).

- و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ للمَوصوفِ، أي: الطَّريقَ المستويَ؛ لقصدِ المبالغةِ في بيانِ قوَّةِ الاتِّصافِ كأنَّه نفْسُ السَّواءِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

- هذه الجُملةُ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ...﴾ تُفيدُ معْنى التَّعليلِ لمُفادِ قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، باعتبارِ بَعضِ ما أفادَتْه الجُملةُ، وهو الضَّلالُ عن الرُّشدِ؛ فإنَّه قد يَخفَى ويُظَنُّ أنَّ في تَطلُّبِ مَودَّةِ العدُوِّ فائدةً، كما هو حالُ المنافقينَ، فقد يُظَنُّ أنَّ مُوالاتَهم مِن الدَّهاءِ والحزْمِ رجاءَ نفْعِهم إنْ دالَتْ لهم الدَّولةُ؛ فبيَّنَ اللهُ لهم خطَأَ هذا الظَّنِّ، وأنَّهم إنِ استَفادوا من مَودَّتِهم إيَّاهم اطِّلاعًا على قُوَّتِهم فتَأهَّبوا لهم وظَفِروا بهم، لم يَكونوا لِيَرْقُبوا فيهم إلًّا ولا ذِمَّةً، وأنَّهم لو أخَذُوهم وتَمكَّنوا منهم لَكانوا أعداءً لهم؛ لأنَّ الَّذي أضْمَرَ العداوة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٥)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٨٤).

زَمَنًا يَعسُرُ أنْ يَنقلِبَ وَدودًا؛ وذلك لشِدَّةِ الحَنَقِ على ما لَقُوا مِن المسلمينَ مِن إبطالِ دِينِ الشِّركِ، وتَحقيرِ أهْلِه وأصنامِهم[١].

- وفِعلُ ﴿يَكُونُوا۟﴾ مُشعِرٌ بأنَّ عَداوتَهم قَديمةٌ، وأنَّها تَستمِرُّ[٢].

- والبَسطُ: مُعبَّرٌ به هنا عن الإكثارِ؛ لِما شاعَ مِن تَشبيهِ الكثيرِ بالواسعِ والطَّويلِ، وتَشبيهِ ضِدِّه -وهو القبضُ- بضِدِّ ذلك، فبَسْطُ اليدِ الإكثارُ مِن عَمَلِها، والمرادُ به هنا: عمَلُ اليدِ الَّذي يضُرُّ، مثل الضَّربِ والتَّقييدِ والطَّعنِ، وعمَلُ اللِّسانِ الَّذي يُؤذِي، مثل الشَّتمِ والتَّهكُّمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ قيل: إنَّه مَعطوفٌ على جَوابِ الشَّرطِ، وعُدِلَ عن المضارعِ المناسبِ لِمَا قبْلَه إلى الماضي، مع أنَّ السِّياقَ يَتطلَّبُ أنْ يكونَ مُضارعًا مُستقبَلًا؛ لاعتبارِه قدْ كان، أي: إنَّ وَدادتَهم كُفْرَكم هو المُهِمُّ لَدَيهم، ولا شَيءَ يَعدِلُه في الرُّجحانِ، يعْني أنَّهم يُريدون أنْ يُلْحِقوا بكم جَميعَ مَضارِّ الدُّنيا والدِّينِ، وارْتدادُكم كُفَّارًا أسبَقُ المَضارِّ لكم؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّ الدِّينَ أعزُّ عليكم مِن أرواحِكم، وهذا مِن بَديعِ التَّعبيرِ[٤]. فلأنَّ مُصيبةَ الدِّينِ أعظَمُ، فهُم إليها أسرَعُ؛ لأنَّ دأبَ العدُوِّ القَصدُ إلى أعظَمِ ضَررٍ يَراهُ لِعَدوِّه، وعُبِّر بما يُفهِمُ التَّمنِّيَ الَّذي يَكونُ في المُحالاتِ؛ لِيَكونَ المعنى أنَّهم أحَبُّوا ذلك غايةَ الحُبِّ وتَمَنَّوْهُ، وفيه بُشْرى بأنَّه مِن قَبِيلِ المُحالِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

وقيل: التَّعبيرُ بالماضي وإنْ كان المعنى على الاستِقبالِ؛ للإشعارِ بأنَّ وَدادَتَهم كُفْرَهم قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّها حاصِلةٌ وإنْ لم يَثقَفوهم. وتحقيقُ ذلك أنَّ الوَدادةَ سابقةٌ بالنَّوعِ، مُتأخِّرةٌ باعتِبارِ بعضِ الأفرادِ؛ فعُبِّر بالماضي نظَرًا للأوَّلِ، وجُعِلَت جوابًا مُتأخِّرًا نظرًا للثَّاني[١].

- وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾، والواوُ واوُ الحالِ، أي: وهمْ قدْ ودُّوا من الآنَ أنْ تَكفُروا، فكيف لو يَأسِرُونكم؟! أليس أهمَّ شَيءٍ عِندَهم حينَئذٍ أنْ يَرُدُّوكم كُفَّارًا؟! فجُملةُ الحالِ دليلٌ على مَعطوفٍ مُقدَّرٍ على جَوابِ الشَّرطِ، كأنَّه قِيل: إنْ يَثقَفوكم يَكونوا لكمْ أعداءً... إلى آخِرِه، ويرُدُّوكم كُفَّارًا، وليستْ جُملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مَعطوفةً على جُملةِ الجوابِ؛ لأنَّ مَحبَّتَهم أنْ يَكفُرَ المسلمون مَحبَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالشَّرطِ؛ ولذلك وقَعَ فِعلُ (ودُّوا) ماضيًا ولم يقَعْ مُضارعًا مِثلَ الأفعالِ الثَّلاثة قبْلَه ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه ليس مَعطوفًا على جَوابِ الشَّرطِ[٢]؛ فليس قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مَعطوفًا على جَوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ وَدادَتَهم كُفْرَهم ليست مُترتِّبةً على الظَّفرِ بهم، والتَّسلُّطِ عليهم، بلْ هم وادُّون كُفْرَهم على كلِّ حالٍ، سواءٌ أظَفِروا بهمْ أمْ لم يَظْفَروا، وإنَّما هو مَعطوفٌ على جُملةِ الشَّرطِ والجزاءِ، أخبَرَ تَعالى بخَبَرَين؛ أحدُهما: اتِّضاحُ عَداوتِهم والبَسطُ إليهم ما ذُكِرَ على تَقديرِ الظَّفرِ بهم، والآخرُ: وَدادتُهم كُفْرَهم، لا على تَقديرِ الظَّفرِ بهم[٣].

- وقُدِّمُ الأوَّلُ -وهو ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤).

بِٱلسُّوٓءِ ﴾-؛ لأنَّه أبيَنُ في العَداوةِ، وإنْ كان الثَّاني -وهو: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾- أنكأَ[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإعلامِ بأنَّ أرحامَهم وأولادَهم لنْ يَنفَعُوهم[(٢)]. وهو تَخلُّصٌ مِن تَبْيينِ سُوءِ عاقبةِ مُوالاةِ أعداءِ الدِّينِ في الحياةِ الدُّنيا، إلى بَيانِ سُوءِ عاقبةِ تلك المُوالاةِ في الآخِرةِ، ومُناسَبةُ حُسْنِ التَّخلُّصِ قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢] الدَّالُّ على معْنى: أنَّ وَدادتَهم كُفْرَكم مِن قبْلِ أنْ يَثقَفوكم تَنقلِبُ إلى أنْ يُكْرِهوكم على الكُفرِ حِينَ يَثقَفونَكم، فلا تَنفَعُكم ذَوُو أرحامِكم -مِثل الأُمهاتِ والإخوةِ الأشِقَّاءِ ولِلأُمِّ-، ولا أولادُكم، ولا تَدفَعُ عنكم عَذابَ الآخِرةِ إنْ كانوا قد نَفَعوكم في الدُّنيا بصِلةِ ذَوي الأرحامِ ونُصرةِ الأولادِ؛ فجُملةُ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ إلى آخِرِها مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مَفروضٍ ممَّن يَسمَعُ جُملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢]، أي: مِن حقِّ ذلك أنْ يَسألَ عن آثارِه لخطَرِ أمْرِها، وإذا كان ناشئًا عن كَلامٍ جَرى مَجرى التَّعليلِ لجُملةِ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فهو أيضًا مُفيدٌ تَعليلًا ثانيًا بحسَبِ المعْنى، ولولا إرادةُ الاستئنافِ البَيانيِّ لَجاءتْ هذه الجُملةُ مَعطوفةً بالواوِ على الَّتي قبْلَها، وزاد ذلك حُسْنًا أنَّ ما صدَرَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ ممَّا عُدَّ عليه هو مُوالاةٌ للعَدُوِّ، وأنَّه اعتذَرَ بأنَّه أراد أنْ يتَّخذَ عِندَ المشركين يدًا يَحمُون بها قَرابتَه (أي: أُمَّه وإخوتَه)؛ ولذلك ابتُدِئَ في نفْيِ النَّفعِ بذِكرِ الأرحامِ؛ لمُوافَقةِ قِصَّةِ حاطبٍ؛ لأنَّ الأمَّ ذاتُ رَحِمٍ، والإخوةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨).

أبْناؤها همْ إخوتُه مِن رَحِمِه، وأمَّا عطْفُ ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ فتتميمٌ[١]؛ لشُمولِ النَّهيِ قومًا لهم أبناءٌ في مكَّةَ[٢].

- قولُه: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾، أي: إنَّهم لا يَنفَعونكم يومَ القِيامةِ، فما لَكم تَرفُضون حقَّ اللهِ مُراعاةً لهم وهم يَفِرُّون منكم يومَ اشتِدادِ الهولِ؟! خطَّأَ رأْيَهم في مُوالاةِ الكفَّارِ أوَّلًا بما يَرجِعُ إلى حالِ مَن والَوهُ، ثمَّ خطَّأهُ ثانيًا بما يَرجِعُ إلى حالِ مَنِ استَعْمَلوا المُوالاةَ مِن أجْلِهم، وهو تَقسيمٌ حاصِرٌ؛ إشارةً إلى أنَّ ما أقدَمَ عليه حاطِبٌ مِن أيِّ جِهةٍ نُظِر إليه يكونُ خطَأً وباطلًا[٣].



(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

الآيات (٤-٦)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُسْوَةٌ﴾: أي: قُدوةٌ وائتِمامٌ واتِّباعٌ، وأصلُ (أسو): يدُلُّ على المُداواةِ والإصلاحِ[١].

﴿بُرَآءُ﴾: جَمعٌ على فُعلاءَ، مُفردُه بريءٌ، مِثلُ: شُركاءَ وشَريكٍ، مِن (برِئ)، بمعنى التَّفصِّي والتَّنزُّهِ ونفْيِ المُخالَطةِ، فالبريءُ: الخليُّ عن التَّلبُّسِ بشَيءٍ وعن مُخالَطتِه، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على التَّباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه[٢].

﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾: العَداوةُ: اختِلافُ القُلوبِ والنِّيَّاتِ والتَّباعُدُ بها، مأخوذةٌ مِن عَدْوَتَيِ الجَبلِ، وهما طَرَفاه؛ سُمِّيَا بذلك لبُعدِ ما بيْنَهما، وقيل: مِن عدا، أي: ظَلَم. والبُغضاءُ: البُغضُ، وهو نِفارُ النَّفْسِ عن الشَّيءِ الَّذي تَرغَبُ عنه، وأصلُ البُغضِ: خِلافُ الحبِّ. والعَداوةُ أخصُّ مِن البَغضاءِ؛ لأنَّ كلَّ عدُوٍّ مبغِضٌ، وقد

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢) و (١١/ ١٧٦).

يُبغَضُ مَن ليس بعَدُوٍّ[١].

﴿أَنَبْنَا﴾: أي: رجَعْنا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٢].

﴿فِتْنَةً﴾: الفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه، وتُطلَقُ الفِتنةُ على الضَّلالِ والشِّرْكِ والكُفرِ والشَّرِّ والعَذابِ[٣].

﴿يَتَوَلَّ﴾: أي: يُعْرِضْ، وتولَّى إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنى الإعراضِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى مَعنى الوَلايةِ والقُرْبِ[٤].

﴿الْحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦، ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨، ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

وقال العسكري: (الفرقُ بيْن العَداوةِ والبِغضةِ: أنَّ العَداوةَ البِعادُ من حالِ النُّصْرةِ، ونقيضُها الوِلايةُ، وهي الهرَبُ مِن حالِ النُّصْرةِ. والبِغضةَ: إرادةُ الاستِحقارِ والإهانةِ، ونقيضُها المحبَّةُ، وهو إرادةُ الإعظامِ والإجلالِ). ((الفروق اللغوية)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- ويأمُرُ بالاقتِداءِ به، فيقولُ تعالى: قد كانت لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه مِن المُؤمِنينَ، حينَ قالوا لِقَومِهم المُشرِكينَ: إنَّا نتبَرَّأُ منكم ومِمَّا تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، كفَرْنا بكم، وظهَرَ بيْنَنا وبيْنَكم العداوةُ والكراهيةُ أبدًا إلى أن تُؤمِنوا بالله وَحْدَه، إلَّا قَولَ إبراهيمَ لأبيه المُشرِكِ: لَأستَغفِرَنَّ لك اللهَ؛ فلا تتَأَسَّوا به في هذا القَولِ؛ إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستَغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوي قُرْبَى. قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ لأبيه: والحالُ أنِّي لا أدفَعُ عنك عُقوبةَ اللهِ.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن قولِ إبراهيمَ والَّذين معَه، حينَ فارَقوا قومَهم وتبرَّؤوا منهم، فلَجَؤوا إلى الله وتضرَّعوا إليه، فقالوا: رَبَّنا عليك وَحْدَك توَكَّلْنا، وإليك وَحْدَك تُبْنَا، وإليك مَرجِعُنا في الآخِرةِ، يا ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيَفْتِنونا، ويُميلونا عمَّا نحن عليه مِن الحقِّ، ويُفتَنونَ أيضًا بأنفُسِهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلَبَةَ ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطِلِ، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا يا رَبَّنا؛ إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يكرِّرُ الله تعالى الحثَّ لهم على الاقتداءِ بهم، فيقولُ: لقد كان لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ ومَن معه مِن المؤمِنينَ؛ لِمَن يرجو رِضوانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

اللهِ والنَّجاةَ مِن عَذابِه، ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ والتَّأسِّي برُسُلِه، فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ الفراغِ مِن بَيانِ خطَأِ مَن يُوالي عدُوَّ اللهِ بما يَجُرُّ إلى أصحابِه مِن مَضارَّ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ تَحذيرًا لهمْ مِن ذلك، انتُقِلَ إلى تَمثيلِ الحالةِ الصَّالحةِ بمِثالٍ مِن فِعلِ أهلِ الإيمانِ الصَّادقِ، والاستِقامةِ القويمةِ، وناهيكَ بها أُسوةً[1]، فلَمَّا نَهى عن مُوالاةِ الكفَّارِ؛ ذكَرَ قصَّةَ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ مِن سِيرتِه التَّبرُّؤَ مِن الكفَّارِ؛ ليَقتدُوا به في ذلك ويَتأسَّوا[2].

وأيضًا لَمَّا أبلغَ اللهُ سُبحانَه في وَعْظِهم في ذلك، وكانت عادتُه التَّربيةَ بالماضِينَ؛ كان مَوضِعَ توَقُّعِ ذلك[3].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

أي: قد كانت لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦).

المُؤمِنينَ(١).

﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ ومَن معه مِن المؤمِنينَ لِقَومِهم المُشرِكينَ الكافِرينَ: إنَّا نتبَرَّأُ منكم ومِمَّا تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ تبَرُّؤًا عظيمًا(٢).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ إبراهيمَ لأبيه وقَومِه: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٨].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ(الَّذِينَ مَعَهُ): أتْباعُه المؤمنونَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ «الَّذِينَ مَعَهُ»: الَّذين آمَنوا به واتَّبَعوا هَدْيَه، وهم زَوجُه سارَةُ، وابنُ أخيه لوطٌ، ولم يكُنْ لإبراهيمَ أبناءٌ؛ فضميرُ «إِذْ قَالُوا» عائدٌ إلى إبراهيمَ والَّذين معه، فهم ثلاثةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

وقيل: المرادُ: الَّذين معه مِن أنبياءِ اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦).

قال ابن عطيَّة: (واختلَف النَّاسُ في الَّذين معه؛ فقال قومٌ مِن المتأوِّلينَ: أراد: مَنْ آمَنَ به مِنَ النَّاسِ. وقال الطَّبريُّ وغيرُه: أراد الأنبياءَ الَّذين كانوا في عصرِه وقريبًا مِن عصرِه، وهذا القولُ أرجَحُ؛ لأنَّه لم يُروَ أنَّ إبراهيمَ كان له أتْباعٌ مؤمنونَ في مكافحتِه نُمْرُودًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بقَولِهم هذا لقَومِهم أنَّهم قالوه مقالَ الصَّادقِ في قَولِه؛ فالائتِساءُ بهم في ذلك القَولِ، والعَمَلِ بما يُترجِمُ عليه القَولُ مِمَّا في النُّفوسِ، فالمؤتَسى به أنَّهم كاشَفُوا قَومَهم بالمنافَرةِ، وصَرَّحوا لهم بالبَغضاءِ؛ لأجْلِ كُفرِهم باللهِ، ولم يُصانِعوهم ويَغُضُّوا عن كُفرِهم لاكتسابِ مودَّتِهم كما فَعَل الموبَّخُ بهذه الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٥).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾.

أي: أنكَرْنا ما أنتم عليه مِن الكُفرِ، وجَحَدْنا أن تكونَ آلهتُكم حَقًّا، وظهَرَ بيْنَنا وبيْنَكم المُعاداةُ والكراهيةُ الدَّائِمةُ ما دُمتُم مُستَمِرِّينَ على كُفرِكم بالله تعالى(١).

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

أي: إلى أن تُؤمِنوا بتوحيدِ اللهِ، فتَعبُدوه وَحْدَه لا شَريكَ له، فحينَئذٍ تَزولُ البَغضاءُ والعَداوةُ، وتَنقلِبُ مودَّةً وولايةً(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤، ١٤٥).

قال الماوَرْدي: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: كفَرْنا بما آمَنْتُم به مِن الأوثانِ. الثَّاني: بأفعالِكم، وكذَّبْنا بها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٨).

وقال البيضاوي: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينِكم أو بمَعبودِكم، أو بكم وبه، فلا نَعتَدُّ بشأنِكم وآلهتِكم). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥).

وقال ابن جرير: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أنكَرْنا ما كنتُم عليه مِن الكفرِ بالله، وجحَدْنا عِبادتَكم ما تَعبُدون مِن دونِ الله أن تكونَ حقًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦).

وقال ابن عطيَّة: (قولُه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: كذَّبْناكم في أقوالِكم، ولم نؤمنْ بشَيءٍ منها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

وقال البِقاعي: (﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: أوجَدْنا السترَ لكلِّ ما يَنبغي سترُه حالَ كَونِنا مُكَذِّبينَ بكلِّ ما يكونُ مِن جِهتِكم مِن دينٍ وغيرِه الَّذي يَلزَمُ منه الإيمانُ، وهو إيقاعُ الأمانِ مِن التَّكذيبِ لِمَن يُخبِرُنا بسببِ كلِّ ما يُضادُّه، مُصَدِّقينَ بذلك). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

أي: لا تَتأسَّوا -أيُّها المؤمِنونَ- بقَولِ إبراهيمَ لأبيه المُشرِكِ: لَأستغفِرَنَّ لك اللهَ؛ إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوي قُربَى[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَده بالاستِغفارِ تَرغيبًا له؛ رهَّبَه لئلَّا يَترُكَ السَّعيَ في النَّجاةِ، بما معناه أنَّه ليس في يَدِي غيرُ الاستِغفارِ، فقال[2]:

﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٥).

قال الشوكاني: (﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ مِن قوله: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ بتقديرِ مُضافٍ مَحذوفٍ لِيَصِحَّ الاستِثناءُ، أي: قد كانت لكم أسْوةٌ حسَنةٌ في مقالاتِ إبراهيمَ، إلَّا قولَه لأبيه. أو مِن ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وصحَّ ذلك لأنَّ القولَ مِن جملةِ الأسْوةِ، كأنَّه قيل: قد كانت أسوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه إلَّا قولَه لأبيه. أو مِن التَّبرِّي والقطيعةِ الَّتي ذُكِرَتْ، أي: لم يواصِلْه إلَّا قولَه، ذكر هذا ابنُ عطيَّة. أو هو منقطِعٌ، أي: لكنْ قولُ إبراهيمَ لأبيه لَأستغفِرَنَّ لك، فلا تأتَسوا به، فتَستغفِرون للمشرِكين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

ونسَبَ الألوسي إلى الأكثرِ أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٠).

أي: قال إبراهيمُ لأبيه: والحالُ أنِّي لا أدفَعُ عنك عُقوبةَ اللهِ إنْ عاقَبَك على كُفْرِك به، ولا أقدِرُ أن أنفَعَك عندَ اللهِ بشَيءٍ[١].

﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾.

أي: قال إبراهيمُ والَّذين معه مِن المؤمِنينَ: رَبَّنا عليك وَحْدَك توَكَّلْنا، ففَوَّضْنا جميعَ أُمورِنا إليك، واعتَمَدْنا عليك في إصلاحِ أُمورِنا، ودَفْعِ ما يَضُرُّنا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

وممَّن قال بأنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ والمؤمنينَ معه: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والسعديُّ، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦).

قال ابنُ جُزَي: (هذا مِن كلامِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ والَّذين معه، وهو متَّصِلٌ بما قبْلَ الاستِثناءِ، فهو مِن جملةِ ما أُمِروا أن يَقتَدوا به). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهرُ أن يكونَ هذا مِن كلامِ إبراهيمَ وقَومِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦).

وذكر ابنُ جرير أنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ وأنبياءِ اللهِ عليهم السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨).

وقيل: المرادُ: قولوا أنتم: ربَّنا عليك توَكَّلْنا...، وممَّن اختاره: الفرَّاءُ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٧).

قال ابنُ عاشور: (يحتَمِلُ أن يكونَ تعليمًا للمؤمِنينَ أن يقولوا هذا الكلامَ، ويَستَحضِروا معانيَه؛ لِيَجريَ عَمَلُهم بمُقتَضاه، فهو على تقديرِ أمرٍ بقَولٍ محذوفٍ، والمقصودُ مِن القَولِ العَمَلُ بالقولِ؛ فإنَّ الكلامَ يُجَدِّدُ المعنى في نفْسِ المتكَلِّمِ به، ويُذَكِّرُ السَّامِعَ مِن غَفلتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤).

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾.

أي: وإليك وَحْدَك رجَعْنا بالتَّوبةِ مِمَّا تَكرَهُ مِن مَعصيتِك إلى ما تُحِبُّ مِن طاعتِك[١].

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وإليك وَحْدَك -يا رَبَّنا- مَرجِعُنا في الآخِرةِ[٢].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: يا ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا، فيَفْتِنونا، ويَمْنَعونا ممَّا يَقْدِرون عليه مِن أمورِ الإيمانِ، ويُميلونا عمَّا نحن عليه مِن الحقِّ، ويُفتنون أيضًا بأنفُسِهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلَبَةَ، ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطِلِ، فازدادوا كفرًا وطُغيانًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

قال ابن عاشور: (فإنَّ المصيرَ مَصيرانِ: مَصيرٌ بعدَ الحياةِ، ومَصيرٌ بعدَ البَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠١، ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال الماوَرْدي: (﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تأويلانِ:

أحَدُهما: معناه: لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفتِنونا. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: لا تُعَذِّبْنا بأيديهم ولا بعذابٍ مِن عِندِك، فنَصيرَ فِتنةً لهم، فيقولوا: لو كانوا على حَقٍّ ما عُذِّبوا. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٨). =

كما قال اللهُ حاكيًا قولَ قومِ موسى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

= وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠١، ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن هُبَيرةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٢٩).

قال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تُقَتِّرْ علينا بالرِّزقِ، وتَبسُطْ لهم في الرِّزقِ؛ فنَحتاجَ إليهم، فيكونَ ذلك فِتنةً لنا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى جَعْلِهم فِتنةً للَّذين كَفَروا: جَعْلُهم مَفتونينَ يَفتِنُهم الَّذين كَفَروا، فيَصدُقُ ذلك بأن يتسَلَّطَ عليهم الَّذين كَفَروا فيُفتَنونَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البروج: ١٠] إلخ. ويَصدُقُ أيضًا بأن تختَلَّ أمورُ دينِهم بسَبَبِ الَّذين كَفَروا، أي: بمحَبَّتِهم والتَّقَرُّبِ منهم، كقَولِه تعالى حكايةً عن دُعاءِ موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وعلى الوَجهَينِ فالفِتنةُ مِن إطلاقِ المصدَرِ على اسمِ المفعولِ... واللَّامُ في ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على الوَجهَينِ للمِلْكِ، أي: مفتونينَ مُسَخَّرينَ لهم. ويجوزُ عندي أن تكونَ ﴿فِتْنَةً﴾ مصدرًا بمعنى اسمِ الفاعِلِ، أي: لا تجعَلْنا فاتِنينَ، أي: سَبَبَ فِتنةٍ للَّذينَ كفَروا، فيكونَ كنايةً عن معنى: لا تُغَلِّبِ الَّذين كفَروا علينا، واصرِفْ عنَّا ما يكونُ به اختِلالُ أمرِنا، وسوءُ الأحوالِ؛ كي لا يكونَ شَيءٌ مِن ذلك فاتِنًا الَّذين كَفَروا، أي: مُقَوِّيًا فِتنتَهم، فيُفتَنوا في دينِهم، أي: يَزدادوا كُفرًا، وهو فِتنةٌ في الدِّينِ، أي: فيَظنُّوا أنَّا على الباطِلِ وأنَّهم على الحَقِّ، وقد تُطلَقُ الفِتنةُ على ما يُفضي إلى غُرورٍ في الدِّينِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، وقَولِه: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. واللَّامُ على هذا الوَجهِ لامُ التَّبليغِ، وهذه مَعانٍ جَمَّةٌ أفادَتْها الآيةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رأسُ مالِ المسلِمِ الأعظَمُ الاعتِرافَ بالتَّقصيرِ وإن بَلَغ النِّهايةَ في المجاهَدةِ؛ فإنَّ الإلهَ في غايةِ العظَمةِ، والعَبدَ في نهايةِ الضَّعفِ، فبُلوغُه ما يَحِقُّ له سُبحانَه لا يمكِنُ بوَجهٍ- قالوا[1]:

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

أي: وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا؛ واستُرْها وأزِلْ آثارَها، وقِنَا واكْفِنا شَرَّها[2].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: إنَّك أنت -يا ربَّنا- العزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فلا يُضامُ مَن لاذ بجَنابِه، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[3].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾.

أي: لقد كان لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ ومَن معه من

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال السعدي: (فبعِزَّتِك وحِكمَتِك انصُرْنا على أعدائِنا، واغفِرْ لنا ذُنوبَنا، وأصلِحْ عُيوبَنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال البقاعي: (مَن كان كذلك فهو حقيقٌ بأنْ يُعطِيَ مَن أمَّله فوقَ ما طَلَب). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٠٣).

المؤمِنينَ؛ لِمَن يَطمَعُ في رِضوانِ اللهِ وثَوابِه، ويَرجو النَّجاةَ مِن عَذابِه(١).

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ والتَّأسِّي برُسُله، فيُوالِ أعداءَه؛ فإنَّ اللهَ ذو الغِنى التَّامِّ المُطلَقِ عن كُلِّ أحَدٍ؛ فليس به حاجةٌ إلى إيمانه وطاعتِه، وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأفعالِه وأقوالِه؛ فلا يَضُرُّه كُفرُ أحَدٍ وعِصيانُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابن عاشور: (فِعْلُ ﴿يَتَوَلَّ﴾ مضارِعُ توَلَّى، فيجوزُ أن يكونَ ماضيه بمعنى الإعراضِ، أي: مَن لا يرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ، ويُعرِضُ عن نَهْيِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن امتِثالِه. ويجوزُ عندي أن يكونَ ماضيه مِن التَّوَلِّي بمعنى اتِّخاذِ الوَليِّ، أي: مَن يتَّخذ عَدُوَّ اللهِ أولياءَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن وَلايتِه، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٥١]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠). ويُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٩).

وقال الرازي: (الحميدُ قد يكونُ بمعنى الحامدِ، وبمعنى المحمودِ؛ فالمحمودُ أي: يَستحِقُّ الحمدَ مِن خَلقِه بما أنعَمَ عليهم، والحامدُ أي: يَحمَدُ الخَلقَ، ويَشكُرُهم حيث يَجزيهم بالكثيرِ مِن الثَّوابِ عن القليلِ مِن الأعمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٠). ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحديد الآية (٢٤).

﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ تحذيرُ وُلاةِ الأمورِ وعامَّةِ النَّاسِ مِن الكُفَّارِ ووَلايتِهم، ونُصْحُهم بأنْ يَتَّخِذوهم أعداءً حقيقيِّينَ، كما هو الواقعُ[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ فيه أنَّه ليس كُلَّ أحدٍ تَسهُلُ عليه هذه الأُسوةُ، وإنَّما تَسهُلُ على مَن ﴿كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ واحتِسابَ الأجرِ والثَّوابِ يُسَهِّلُ على العَبدِ كُلَّ عَسيرٍ، ويُقَلِّلُ لَدَيه كُلَّ كثيرٍ، ويُوجِبُ له الإكثارَ مِن الاقتداءِ بعِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، والأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ فإنَّه يرى نَفْسَه مُفتَقِرًا ومُضطرًّا إلى ذلك غايةَ الاضطرارِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه وُجوبُ الاقتِداءِ بإبراهيمَ ومِلَّتِه إلَّا ما ثبت في شَرعِنا نَسْخُه[(٣)].

وقد استُدِلَّ به على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا ما لَمْ يأتِ شَرْعُنا بخِلافِه، ونحن نَتَّبعُ شَرْعَ مَن قَبْلَنا؛ لا لأنَّه شَرْعُ مَن قَبْلَنا، ولكنْ لأنَّ شَرْعَنا دَلَّنا على العَمَلِ به[(٤)]. فالآيةُ نصٌّ في الأمرِ بالاقتِداءِ بإبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم في فِعلِه، وذلك يُصحِّحُ أنَّ شرْعَ مَن قبْلَنا شرعٌ لنا فيما أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم[(٥)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦).

إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إثباتُ العَداوةِ والوَلايةِ، وهو أصلٌ في الدِّينِ؛ فإنَّ وَلايةَ المؤمِنينَ مِن واجبِ المؤمنِ، والبَراءةَ مِن الكُفَّارِ مِن واجبِ المؤمنِ[١]، فالمُسلِمُ يجِبُ عليه أنْ يُبغِضَ أعداءَ اللهِ، ويَتَبرَّأَ منهم؛ لأنَّ هذه هي طريقةُ الرُّسُلِ وأتْباعِهم[٢]، وإبراهيمُ والَّذين آمَنوا معه تبَرَّؤُوا مِن قَومِهم المُشرِكينَ قبْلَ أنْ يَتبرَّؤوا مِن الأصنامِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ في هذا دَلالةٌ على تفضيلِ نَبيِّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على سائرِ الأنبياءِ؛ لأنَّا حينَ أُمِرْنا بالاقتداءِ به أُمِرْنا أمرًا مُطلَقًا في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]، وحين أُمِرْنا بالاقتداءِ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ استَثنى بَعْضَ أفعالِه[٤]. وذلك بِناءً على أنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأُمورِ المتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[٥].

٥- أنَّ جمهورَ المُشرِكينَ كانوا مُقِرِّين بربِّ العالَمينَ، والمُنكِرُ له قليلٌ، مِثلُ فِرعَونَ ونحوِه؛ فقومُ إبراهيمَ كانوا مُقِرِّين بالصَّانعِ؛ ولهذا قال لهم إبراهيمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

الخليلُ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، فيه سؤالٌ: إن كان قولُه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، مُستثنًى مِن القولِ الَّذي سبَق، وهو: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فما بالُ قولِه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، وهو غيرُ حقيقٍ بالاستثناءِ، ألا ترى إلى قولِه تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؟

الجواب: أراد الله تعالى استثناءَ جملةِ قولِه لأبيه، والقصدَ إلى موعدِ الاستغفارِ له، وما بَعْدَه مبنيٌّ عليه، وتابعٌ له، كأنَّه قال: أنا أستغفِرُ لك، وما وُسعي إلَّا الاستغفارُ[2]، فمَوردُ الاستثناءِ نفْسُ الاستغفارِ لا قيدُه الَّذي هو في نفْسِه مِن خِصالِ الخَيرِ؛ لِكَونِه إظهارًا للعجزِ، وتفويضًا للأمرِ إلى الله تعالى[3].

وقيل: قولُه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مِن تمامِ قولِه المُستثنَى، ولا يَلزَمُ مِنِ استِثناءِ المجموعِ استِثناءُ جميعِ أجزائِه[4].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ إنَّما جرَى ذلك؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّه أسلَمَ، فلمَّا بان أنَّه لم يُسلِمْ تبرَّأَ منه، وعلى هذا يجوزُ الاستغفارُ لِمَن يُظنُّ أنَّه أسلَمَ[5]. أو أنَّه كان يَرْجو إيمانَه، فقال له: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فمَنِ اسْتَغْفَر لحَيٍّ يَرْجو إيمانَه، يَقْصِدُ سُؤالَ اللهِ أنْ يَهْدِيَه لِمَا يكونُ به أهلًا للمغفرةِ فلا بأسَ. قال ابنُ عبَّاسٍ: لم يَزَلْ إبراهيمُ يَستغفِرُ لأبيه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٨).

حتَّى مات، فلَمَّا مات تَبيَّن له أنَّه عدُوٌّ للهِ فتَبَرَّأ منه. وفي روايةٍ عنه: لَمَّا مات على كُفْرِه(١). وقيل: إنَّه تَبيَّن له ذلك بوَحْيٍ مِن اللهِ تعالَى، فحينَئِذٍ تَبرَّأ منه ومِن قَرابَتِه، وترَكَ الاستغفارَ له كما هو مُقتضَى الإيمانِ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ وتعالى قد يَفتِنُ الكافِرينَ بما شاء، لولا ذلك ما كان لهذا الدُّعاءِ معنًى، فهو ردٌّ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ(٣). وذلك على أحدِ المعنيَينِ في تفسيرِ الآيةِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ الَّذي يَتولَّى عن طاعةِ اللهِ إنَّما يَضُرُّ نفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ اللهَ غنيٌّ. وفي الحديثِ القُدُسيِّ: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلْكي شيئًا))(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لضرْبِ المِثالِ الجَديرِ بالاحتِذاءِ في النَّهيِ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ، والرُّكونِ إلى الأعداءِ، وأنَّ الصُّدورَ المَطويَّةَ على الضِّغنِ يَجِبُ أنْ تَبقَى على عَدائِها حتَّى يَزولَ السَّببُ القائمُ، فإذا زال انقلَبَت

(١) يُنظر: ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٤/ ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

العَداوةُ مَودَّةً، والبَغضاءُ مَحبَّةً[(١)].

- وصَدْرُ هذه الآيةِ -﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾- يُفيدُ تأْكيدًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٢]، وجُملةِ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]؛ لأنَّها بما تضمَّنَتْه مِن أنَّ المُوجَّهَ إليهم التَّوبيخُ خالَفوا الأُسوةَ الحَسَنةَ، تُقوِّي إثباتَ الخَطَأِ المُستوجِبِ للتَّوبيخ[(٢)].

- وافتِتاحُ الكلامِ بكَلِمتَيْ ﴿قَدْ كَانَتْ﴾ لتَأْكيدِ الخبَرِ؛ فإنَّ (قَدْ) مع فِعلِ الكَونِ يُرادُ بهما التَّعريضُ بالإنكارِ على المُخاطَبِ، ولَومُه في الإعراضِ عن العمَلِ بما تَضمَّنَه الخبَرُ[(٣)].

- وعطْفُ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ ليَتِمَّ التَّمثيلُ لحالِ المسلمينَ مع رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ والَّذين معه، أي: أنْ يكونَ المسلمونَ تابِعينَ لِرِضا رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما كان الَّذين مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٤)].

- والأُسوةُ: القُدوةُ الَّتي يُقتدَى بها في فِعلٍ ما؛ فوُصِفَت في الآيةِ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ وصْفًا للمدْحِ؛ لأنَّ كَونَها حَسَنةً قد عُلِمَ مِن سِياقِ ما قبْلَه وما بعْدَه[(٥)].

- وحرْفُ (فِي) مُعبَّرٌ به هنا عن قُوَّةِ الملابَسةِ؛ إذ جُعِلَ تَلبُّسُ إبراهيمَ والَّذين معه بكَونِهم أُسوةً حَسنةً، بمَنزِلةِ تَلبُّسِ الظَّرفِ بالمظروفِ في شِدَّةِ التَّمكُّنِ مِن الوصْفِ، ولذلك كان المعْنى: قدْ كان لكم إبراهيمُ والَّذين معه أسوةً في

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حِين قَولِهم لقَومِهم؛ فليس قولُه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مِن قَبيلِ التَّجريدِ(١)؛ لأنَّ الأسوةَ هنا هي قولُ إبراهيمَ والَّذين معَه لا أنفُسُهم(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ بتَأنيثِ الفِعلِ (كانتْ) مع الفاصِلِ (لكُمْ)؛ لقُرْبه وإنْ جاز التَّذكيرُ، وأعادَهُ في قولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]، بتَذكيرِه مع الفاصِلِ؛ لكَثرتِه وإنْ جاز التَّأنيثُ؛ فلم تتَّصِلْ بفِعلِ (كان) تاءُ تأْنيثٍ مع أنَّ اسْمَها مُؤنَّثُ اللَّفظِ؛ لأنَّ تأْنيثَ (أُسوة) غيرُ حَقيقيٍّ، ولوُقوعِ الفَصْلِ بيْن الفِعلِ ومَرفوعِه بالجارِّ والمجرورِ. وإنَّما كرَّر ذلك؛ لأنَّ الأوَّلَ في القولِ، والثَّانيَ في الفِعلِ. وقيل: الأوَّلُ في إبراهيمَ، والثَّاني في محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه أعادَ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ لأنَّ الإسلامَ بُنِيَ أوَّلُه على التَّبرُّؤِ مِن الآلهةِ ومِن عَبَدتِها، ومِن الأصنامِ وعَبَدتِها، فقولُ مَن يَشهَدُ بالتَّوحيدِ: إنَّه يَنْفي الآلهةَ أوَّلًا بقولِه: (لا إلَه)، ويُثبِتُ ثانيًا بقولِه: (إلَّا اللهُ)

(١) التَّجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لَقيتَ زَيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلَقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

الواحدُ الَّذي تَحِقُّ له العبادةُ، فقال في الأُسوةِ الأُولى المتعلِّقةِ بالبَراءةِ مِن الكُفَّارِ ومِن فِعْلِهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّهم يُعادُونَهم إلى أنْ يُؤمِنوا، فهذه الأُسوةُ تَفصِلُ المؤمنَ مِن الكافرِ؛ ليَتميَّزَ عنه في الظَّاهرِ، ويَتبرَّأَ مِن صَداقتِه، ويَتحقَّقَ بعَداوتِه. والثَّانيةُ معْناها: تَأَسَّوا بهم لتَنالُوا مِثلَ ثَوابِهم، وتَنقلِبوا إلى الآخِرةِ كانْقلابِهم مُبشَّرينَ بالجنَّةِ، غيرَ خائفينَ مِن العُقوبةِ[١].

وفيه وَجْهٌ آخَرُ: أنَّ هذا مِن دُعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإنَّما تَكرَّرت الأُسوةُ بهذا؛ إذ كان مِن إبراهيمَ فِعلٌ حسَنٌ، وهو التَّبرُّؤُ مِن أبيهِ وقومِه الكافرينَ، وقولٌ حسَنٌ، وهو هذا الدُّعاءُ[٢].

- وجُملةُ ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وما عُطِفَ عليها بَيانٌ لمعْنى جُملةِ ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الأظهرُ أنْ يكونَ هذا مِن كَلامِ إبراهيمَ وقَومِه، وجُملةُ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى آخِرِها مُعترِضةً بيْنَ أجزاءِ القَولِ؛ فهو ممَّا أُمِرَ المسلِمونَ أنْ يأتَسُوا به، وبه يكونُ الكلامُ شَديدَ الاتِّصالِ معَ قولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَعليمًا للمؤمنينَ أنْ يَقولوا هذا الكلامَ ويَستحضِروا مَعانيَه؛ ليَجرِيَ عَمَلُهم بمُقتضاهُ، فهو على تَقديرِ أمْرٍ بقَولٍ مَحذوفٍ، والمَقصودُ مِن القولِ العمَلُ بالقولِ؛ فإنَّ الكلامَ يُجدِّدُ المعْنى في نفْسِ المُتكلِّمِ به، ويُذكِّرُ السَّامعَ مِن غَفلَتِه. وهذا تَتميمٌ لِما أوصاهم به مِن مُقاطَعةِ الكُفَّارِ بعْدَ التَّحريضِ على الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معه؛ فعلى المعْنى الأوَّلِ يكونُ حِكايةً لِما قاله إبراهيمُ وقومُه بما يُفيدُ حاصلَ مَعانيه؛ فقدْ يكونُ هو معْنى ما حَكاهُ اللهُ عن إبراهيمَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٧، ١٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤).

مِن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢]؛ فإنَّ التَّوكُّلَ على اللهِ في أُمورِ الحياةِ بسُؤالِه النَّجاحَ فيما يُصلِحُ أعمالَ العبدِ في مَساعِيه، وأعظَمُه النَّجاحُ في دِينِه وما فيه قِوامُ عَيشِه، ثمَّ ما فيه دفْعُ الضُّرِّ، وقد جَمَعَها قولُ إبراهيمَ هناك: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وهذا جمَعَه قولُه هنا: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ جمَعَه قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فإنَّ المصيرَ مَصيرانِ: مَصيرٌ بعْدَ الحياةِ، ومَصيرٌ بعْدَ البعثِ، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾؛ فإنَّ وَسيلةَ الطَّمعِ هي التَّوبةُ، وقد تَضمَّنَها قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، وعلى المعْنى الثَّاني هو تَعليمٌ للمُؤمنينَ أنْ يَصرِفوا تَوجُّهَهم إلى اللهِ بإرضائِه، ولا يَلتفِتوا إلى ما لا يَرْضاهُ وإنْ حَسِبوا أنَّهم يَنتفِعون به؛ فإنَّ رِضا اللهِ مُقدَّمٌ على ما دُونَه[1].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿عَلَيْكَ﴾ و(إلَيْكَ) على هذه الأفعالِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ و﴿أَنَبْنَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وهو قصْرٌ بَعضُه ادِّعائيٌّ وبَعضُه حَقيقيٌّ[2]، كما تَصرِفُ إليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦، ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٤).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصور عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ =

القَرينةُ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ بقولِهم: ﴿ رَبَّنَا ﴾؛ لتأْكيدِ إظهارِ التَّضرُّعِ والجُؤارِ مع كلِّ دَعوةٍ مِن الدَّعواتِ الثَّلاثِ(٢).

- وفي قولِهم: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أعْقَبوا دَعواتِهم الَّتي تَعودُ إلى إصلاحِ دِينِهم في الحياةِ الدُّنيا بطَلَبِ ما يُصلِحُ أُمورَهم في الحياةِ الآخِرةِ، وما يُوجِبُ رِضا اللهِ عنهم في الدُّنيا؛ فإنَّ رِضاهُ يُفْضي إلى عِنايتِه بهم بتَسييرِ أُمورِهم في الحياتَينِ. وللإشعارِ بالمُغايَرةِ بيْن الدَّعوتينِ عَطَفَتْ هذه الواوُ ولم تَعطِفِ الَّتي قبْلَها(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ للدَّعواتِ كلِّها؛ فإنَّ التَّوكُّلَ والإنابةَ

= فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقَرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٨).

والمصيرَ تُناسِبُ صِفةَ العزيزِ؛ إذ مِثلُه يُعامِلُ بمِثلِ ذلك، وطلَبَ ألَّا يَجعَلَهم فِتنةً باختِلافِ مَعانيه يُناسِبُ صِفةَ الحكيمِ، وكذلك طَلَبُ المغفرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا ابتَهَلوا إليه ألَّا يَجعَلَهم فِتنةً للكافِرين، وأنْ يَغفِرَ لهم؛ رَأَوا أنَّ حِكمتَه تُناسِبُها إجابةُ دُعائِهم؛ لِما فيه مِن صَلاحِهم وقدْ جاؤوا سائلِينَه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ تكريرٌ لقولِه آنفًا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ...﴾ [الممتحنة: ٤]؛ أُعِيدَ لتأْكيدِ التَّحريضِ والحثِّ على عدَمِ إضاعةِ الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معه، وليُبْنى عليه قولُه: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ...﴾، وقُرِنَ هذا التَّأكيدُ بلامِ القسَمِ مُبالَغةً في التَّأكيدِ. وقولُه: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بدَلٌ مِن ضَميرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿لَكُمْ﴾، وهو شاملٌ لجَميعِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ بضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾ المؤمنونَ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فليس ذِكرُ ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تَخصيصًا لبَعضِ المؤمنينَ، ولكنَّه ذُكِرَ للتَّذكيرِ بأنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يَقْتضي تأَسِّيَهم بالمؤمنينَ السَّابقينَ، وهمْ إبراهيمُ والَّذين معَه. وأُعِيدَ حرْفُ الجرِّ -وهو اللَّامُ- العاملُ في المُبدَلِ منه؛ لتَأكيدِ أنَّ الإيمانَ يَستلزِمُ ذلك، والقصْدُ هو زِيادةُ الحثِّ على الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معَه، وليُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وهذا تَحذيرٌ مِن العَودِ لِما نُهُوا عنه[٢].

- وقيل: لَمَّا سلَّى اللهُ تَعالى المسلِمينَ في قطْعِ مُوالاةِ أقْربائِهم الكُفَّارِ بالائتساءِ بإبراهيمَ والَّذين معَه، واستَثْنى منه استِغفارَه لأبيهِ لَمَّا لم يَظهَرْ له أمارةٌ أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

نصٌّ مِن اللهِ بالبَراءةِ الكُلِّيَّةِ منه، كما ظَهَرَ للمسلمينَ بقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ كرَّرَ الائتساءَ به، وتَرَكَه مُطلقًا لِيَكونَ صالحًا لجميعِ ما يَجِبُ أنْ يُؤتَسَى به، يَشهَدُ لذلك قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، بخِلافِه في الأوَّلِ، حيثُ أُبدِلَ مِن المُؤتَسى فيه قولُه: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ لِيَكونَ تَعميمًا بعْدَ تَخصيصٍ(١).

- وضَميرُ الفصْلِ (هو) في قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تَوكيدٌ للحَصْرِ الَّذي أفادَهُ تَعريفُ الجُزأينِ، وهو حصْرٌ ادِّعائيٌّ(٢) لعَدَمِ الاعتدادِ بغِنى غيرِه ولا بحمْدِه -على قولٍ في معنَى الحميدِ-، أي: هو الغنيُّ عن المُتولِّينَ؛ لأنَّ النَّهيَ عمَّا نُهُوا عنه إنَّما هو لفائدتِهم لا يُفيدُ اللهَ شيئًا؛ فهو الغنيُّ عن كلِّ شَيءٍ(٣).

- وإتْباعُ ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ بوَصْفِ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ تَتميمٌ(٤)، أي: الحميدُ لمَن يَمتثِلُ أمْرَه ولا يُعرِضُ عنه، أو الحَميدُ لِمَن لا يتَّخِذُ عدُوَّه وليًّا، على نحْوِ قولِه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾(٥) [الزمر: ٧]. على قولٍ في معنى الحميدِ.

أو المرادُ: المحمودُ على غِناه؛ لأنَّه ليس كلُّ غنيٍّ يكونُ محمودًا، فالغنيُّ البخيلُ غيرُ محمودٍ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غنيٌّ حميدٌ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

واسعُ العَطاءِ كثيرُه[١].

- والآيةُ مِنَ الاحتباكِ[٢]: ذَكَرَ الرَّجاءَ أوَّلًا؛ دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والتَّوَلِّيَ ثانيًا؛ دليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر سَبَبَ السَّعادةِ ترغيبًا، وسَبَبَ الشَّقاوةِ تَرهيبًا[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).

(٢) الاحتباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِر إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٥).

الآيات (٧-٩)

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَرُّوهُمْ﴾: أي: تُحْسِنوا إليهم، والبِرُّ: التوسُّعُ في فعلِ الخيرِ، والبَرُّ خلافُ البحرِ، وتُصوِّرَ منه التَّوسُّعُ فاشتُقَّ منه البِرُّ[1].

﴿وَتُقْسِطُوٓا۟﴾: أي: تَعْدِلوا، وأصلُ (قسط): يدُلُّ على العَدْلِ[2].

﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾: أي: عاوَنوا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الرَّجُلَينِ أو مِنَ القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبشِّرًا بأنَّه يَهدي إلى الإسلامِ قومًا مِن الأعداءِ الَّذين تربطُهم بالمؤمنينَ رابطةُ الدَّمِ والقرابةِ: عسى اللهُ أن يَجعَلَ بيْنَكم -أيُّها المؤمِنونَ- وبيْنَ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠).

الَّذين عادَيْتُم مِن المُشرِكينَ موَدَّةً بعدَ العداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على كُلِّ شَيءٍ، واللهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحَيمٌ بهم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه للمؤمنينَ القاعدةَ الَّتي يَسيرونَ عليها في موَدَّتِهم وعداوتِهم، وصِلَتِهم ومقاطعتِهم، فيقولُ: لا يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمنونَ- عن الكافِرينَ الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم؛ أن تُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُنصِفينَ، إنَّما يَنهاكم اللهُ عن مُوالاةِ الكافِرينَ المحارِبينَ الَّذين قاتَلوكم بسبَبِ إيمانِكم، وأخرَجوكم مِن بلادِكم، وعاوَنوا غيرَهم على إخراجِكم، ومَن يتَّخِذِ الكافِرينَ أولياءَ يُحِبُّهم ويُناصِرُهم فأولئك هم الظَّالِمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ المؤمنينَ بعداوةِ الكفَّارِ، عادى المؤمنونَ أقرباءَهم المشركين، وأظهَروا لهم العَداوةَ والبَراءةَ، وعَلِمَ اللهُ شدَّةَ ذلك على المؤمنينَ؛ فوعَدَ سُبحانَه المسلمينَ بإسلامِ أقارِبِهم الكفَّارِ(١).

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى وَعْظَهم بما هو الأنفَعُ والأقرَبُ إلى صَلاحِهم، ففعَلوا، وكان ذلك شاقًّا؛ لِمَا جُبِلَ عليه البَشَرُ مِن حُبِّ ذَوي الأرحامِ والعَطْفِ عليهم، فتشَوَّفَت النُّفوسُ إلى تخفيفٍ بنَوعٍ مِنَ الأنواعِ- أتْبَعَه التَّرجيةَ فيما قَصَدَه حاطِبٌ -رَضِيَ اللهُ عنه- بغيرِ الطَّريقِ الَّذي يُتوصَّلُ به، فقال على عادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨١)، ((حاشية الجمل)) (٤/ ٣٤١).

الملوكِ في الرَّمزِ إلى ما يُريدونَه، فيَقنَعُ الموعودُ به، بل يكونُ ذلك الرَّمزُ عندَه أعظَمَ مِنَ البَتِّ مِن غيرِهم[١]:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾.

أي: عسى اللهُ أن يَجعَلَ بيْنَكم -أيُّها المؤمِنونَ- وبيْنَ الَّذين عاديتُم مِن المُشرِكينَ مودَّةً بعدَ النفرةِ والعداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، وذلك بأن يَنتَقِلوا للإيمانِ؛ فلا تيأسُوا مِن إيمانِهم[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((جاءت هندُ بنتُ عُتبةَ، قالت: يا رَسولَ اللهِ، ما كان على ظَهرِ الأرضِ مِن أهلِ خِباءٍ[٣] أحَبَّ إلَيَّ أن يَذِلُّوا مِن أهلِ خِبائِك، ثمَّ ما أصبَحَ اليَومَ على ظَهرِ الأرضِ أهلُ خِباءٍ أحَبَّ إلَيَّ أن يَعِزُّوا من

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ جرير: (ففَعَل اللهُ ذلك بهم، بأنْ أسلَمَ كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياءَ وأضْرابًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠).

وقال الزَّجَّاج: («عسى» واجِبةٌ مِن الله. جاء في التَّفسيرِ أنَّه يعني بهذا أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزوَّجَ أمَّ حَبيبةَ بنتَ أبي سُفيانَ، فهذه هي المَوَدَّةُ. وقيل: إنَّه يعني به مَن أسلَمَ منهم، فيكونُ بيْنَكم وبيْنَهم مودَّةٌ). ((معاني القرآن)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن تيميَّةَ: (نزلت في المُشرِكينَ الَّذين عادَوُا اللهَ ورَسولَه، مِثلُ أهلِ الأحزابِ، كأبي سُفيانَ ابنِ حَربٍ، وأبي سُفيانَ بنِ الحارِثِ، والحارِثِ بنِ هِشامٍ، وسُهَيلِ بنِ عَمرٍو، وعِكْرِمةَ بنِ أبي جَهلٍ، وصَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ، وغيرِهم؛ فإنَّهم بعدَ مُعاداتِهم لله ورَسولِه جَعَل اللهُ بيْنَهم وبيْنَ الرَّسولِ والمؤمِنينَ مودَّةً). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٠٥، ٣٠٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٣) الخِباءُ: خَيمةٌ مِن وَبَرٍ أو صُوفٍ، ثمَّ أُطلِقَت على البَيت كيف كان. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٧١).

أهلِ خِبائِك، قال: وأيضًا والَّذي نَفْسي بيَدِه[(١)]))[(٢)].

وعن ابنِ شِهابٍ، قال: ((أعطى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ صَفوانَ ابنَ أُمَيَّةَ مِئةً مِنَ النَّعَمِ، ثمَّ مِئةً، ثمَّ مِئةً، قال ابنُ شِهابٍ: حَدَّثني سعيدُ بنُ المسَيِّبِ أنَّ صَفوانَ قال: واللهِ لقد أعطاني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أعطاني، وإنَّه لَأبغَضُ النَّاسِ إلَيَّ، فما بَرِحَ يُعطيني حتَّى إنَّه لَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ))[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ بالغةٍ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على جَعْلِ العَداوةِ الَّتي بَيْنَكم وبيْنَ المُشرِكينَ مَودَّةً، فيَهديهم للإيمانِ، ويُؤَلِّفُ بيْنَ قُلوبِكم[(٤)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها ويَمحوها ويَقِي شَرَّها، رحيمٌ بهم؛ فيَغفِرُ للكافِرينَ كُفْرَهم إذا تابُوا، ويَرحَمُهم[(٥)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) أي: ستَزيدين مِن ذلك، ويَتمَكَّنُ الإيمانُ مِن قَلبِك، ويَزيدُ حُبُّكِ لله ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَقوى رُجوعُك عن بُغضِه. وأصلُ لفظةِ أيضًا: آضَ يَئيضُ أيضًا، إذا رجَع. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٨٢٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧١٤).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧).

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بَعْدَ ما ذَكَر مِن تَرْكِ انقِطاعِ المؤمِنينَ بالكُلِّيَّةِ عن الكُفَّارِ؛ رخَّصَ في صِلةِ الَّذين لم يُقاتِلوهم مِنَ الكُفَّارِ[١].

وأيضًا لَمَّا نَزَلت هذه الآياتُ الكريماتُ المُهَيِّجةُ على عداوةِ الكافِرينَ، وقَعَتْ مِن المؤمِنينَ كُلَّ مَوقِعٍ، وقاموا بها أتمَّ القيامِ، وتأثَّموا مِن صِلةِ بَعضِ أقارِبِهم المُشرِكينَ، وظَنُّوا أنَّ ذلك داخِلٌ فيما نهَى اللهُ عنه[٢]؛ فقال الله تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: لا يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم؛ مِن أقارِبِكم وغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم كما أخرَجَكم كُفَّارُ مَكَّةَ؛ أن تُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم عدلًا تامًّا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١، ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

قال الشوكاني: (﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ يُقالُ: أقسَطْتُ إلى الرَّجُلِ، إذا عامَلْتَه بالعدل. قال الزَّجَّاجُ: المعنى: وتَعدِلوا فيما بيْنَكم وبيْنَهم مِن الوفاءِ بالعهدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٤). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٥٨).

وقيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾: تُعطوهم قِسطًا مِن أموالِكم على وَجهِ الصِّلةِ، وليس المرادُ به العَدْلَ؛ فإنَّ العَدلَ واجِبٌ فيمَن قاتَلَ وفيمَن لم يُقاتِلْ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٩).

كما قال تعالى في الوالِدينِ الكافرين: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان غُلامٌ يَهوديٌّ يَخدُمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمَرِضَ، فأتاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعودُه، فقَعَد عندَ رأسِه، فقال له: أسْلِمْ، فنظَرَ إلى أبيه وهو عندَه، فقال له: أطِعْ أبا القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأسْلَمَ، فخرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقولُ: الحَمدُ للهِ الذي أنقَذَه مِنَ النَّارِ))(١).

وعن أسماءَ بنتِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالت: ((قدِمَتْ علَيَّ أمِّي وهي مُشرِكةٌ، في عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستَفتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُلتُ: وهي راغِبةٌ(٢)، أفأصِلُ أُمِّي؟ قال: نعمْ، صِلِي أُمَّكِ))(٣).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((رأى عُمَرُ حُلَّةً(٤) على رجُلٍ تُباعُ، فقال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابتَعْ هذه الحُلَّةَ تَلبَسْها يومَ الجُمُعةِ، وإذا جاءك الوَفدُ. فقال: إنَّما يَلبَسُ هذا مَن لا خَلاقَ(٥) له في الآخِرةِ، فأُتِيَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها بحُلَلٍ، فأرسَلَ إلى عُمَرَ منها بحُلَّةٍ، فقال عُمَرُ: كيف ألبَسُها وقد قُلتَ فيها ما قُلتَ؟! قال: إنِّي لم أَكْسُكَها لِتَلبَسَها، تبيعُها أو تَكسوها. فأرسَلَ

(١) رواه البخاري (١٣٥٦).

(٢) أي: راغِبةٌ في شيءٍ تأخُذُه، أو عن ديني، أو في القُربِ منِّي ومُجاورَتي والتَّودُّدِ إلَيَّ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٣٦٣).

(٣) رواه البخاري (٢٦٢٠) واللفظُ له، ومسلم (١٠٠٣).

(٤) الحُلَّةُ: إزارٌ ورِداءٌ، ولا تُسَمَّى حُلَّةً حتَّى تكونَ ثَوبَينِ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيدٍ القاسم ابن سلَّام (١/ ٢٨٥).

(٥) لا خَلاقَ: أي: لا حَظَّ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٣٦٢).

بها عُمَرُ إلى أخٍ له مِن أهلِ مكَّةَ قبْلَ أن يُسْلِمَ))[(١)].

وعن عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قِصَّةِ المرأةِ المُشرِكةِ صاحِبةِ المَزادتَينِ[(٢)] مِن الماءِ، الَّتي لَقُوها في سفَرٍ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((هاتُوا ما كان عِندَكم، قال عِمرانُ: فجمَعْنا لها مِن كِسَرٍ وتَمرٍ، وصَرَّ لها صُرَّةً[(٣)]، فقال لها: اذهَبي فأطعِمي هذا عِيالَكِ، واعلَمي أنَّا لم نرْزَأْ[(٤)] مِن مائِكِ))[(٥)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُنصِفينَ الَّذين يُنصِفونَ النَّاسَ، ويُعطونَهم الحقَّ، ويَحكُمونَ بيْنَهم بالعَدلِ التَّامِّ[(٦)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٦١٩) واللفظُ له، ومسلم (٢٠٦٨).

(٢) المزادةُ: وِعاءٌ يُحمَلُ فيه الماءُ، أكبَرُ مِن القِرْبةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٩٠).

(٣) وصَرَّ لها صُرَّةً: أي: شدَّ وربَط، والصُّرَّةُ: الربطةُ. يُنظر: ((شرح مسند الشافعي)) لأبي القاسم القزويني (٣/ ١٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٩٣).

(٤) نرْزَأْ أي: نَنْقُصْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٩٢).

(٥) رواه البخاريُّ (٣٤٤)، ومسلمٌ (٦٨٢) واللَّفظُ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المُقْسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابِرَ مِن نُورٍ عن يمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ، وكِلْتا يَدَيه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلونَ في حُكمِهم وأهليهم وما وَلُوا))[(١)].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ما منَعَني أن أشهَدَ بَدرًا إلَّا أنِّي خرَجْتُ أنا وأبي حُسَيلٌ، قال: فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيشٍ، قالوا: إنَّكم تُريدونَ مُحمَّدًا! فقُلْنا: ما نُريدُه، ما نُريدُ إلَّا المدينةَ، فأخَذوا مِنَّا عَهدَ اللهِ ومِيثاقَه لَنَنصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نُقاتِلُ معه، فأتَيْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْناه الخبَرَ، فقال: انصَرِفا، نَفِي لهم بعَهْدِهم، ونَستعينُ اللهَ عليهم!))[(٢)].

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

أي: إنَّما يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ المحارِبينَ الَّذين ناصَبوكم العَداوةَ، فقاتَلوكم بسبَبِ إيمانِكم برَبِّكم[(٣)].

﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾.

أي: وأخرَجوكم مِن بلادِكم، وعاوَنوا غَيرَهم على إخراجِكم[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال السمرقندي: (هم أهلُ مكَّةَ ومَن كان في مِثلِ حالِهم مِن أهلِ الحَربِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾.

أي: أن تتوَلَّوهم، فتكونوا لهم محِبِّينَ مُناصِرينَ(١).

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن يتَّخِذِ الكافِرينَ أولياءَ يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، فأولئك هم الظَّالِمونَ الَّذين وَضَعوا المُوالاةَ في غيرِ مَوضِعِها، وعرَّضوا أنفُسَهم لعذابِ اللهِ تعالى(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى الاقتِصادِ في العَداوةِ والوَلايةِ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الشَّخصَ قد يكونُ عدوًّا للهِ، ثُمَّ يصيرُ وليًّا للهِ، مُواليًا للهِ ورَسولِه والمؤمِنينَ؛ فهو سُبحانَه يَتوبُ على مَن تاب، ومَن لم يَتُبْ فإلى اللهِ إيابُه، وعليه حِسابُه. وعلى المؤمِنينَ أنْ يَفعَلوا معه ومع غيرِه ما أمَرَ اللهُ به ورَسولُه؛ من قَصْدِ نصيحتِهم، وإخراجِهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن

= (٨/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٦٤).

المُنكَرِ، كما أمَرَ اللهُ ورَسولُه، لا اتِّباعًا للظَّنِّ وما تَهوى الأنفُسُ، حتَّى يكونَ مِن خيرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، يأمُرونَ بالمعروفِ، ويَنْهَونَ عنِ المُنكَرِ، ويُؤمِنونَ باللهِ، وهؤلاء يَعلَمونَ الحقَّ ويَقصِدونَه، ويَرحَمونَ الخَلْقَ، وهم أهلُ صِدْقٍ وعَدْلٍ، أعمالُهم خالِصةٌ للهِ، صوابٌ موافِقةٌ لأَمْرِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ وغيرُه: «أخلَصُه وأصْوَبُه؛ والخالِصُ أنْ يكونَ للهِ، والصَّوابُ أنْ يكونَ على السُّنَّةِ»[(١)].

٣- متى عَلِمْتَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ فإنَّه لن يَمنَعَك مانعٌ مِن أنْ تَلتجِئَ إليه سُبحانَه وتعالى بسُؤالِ ما تريدُ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى مُنَبِّهًا على هذا الأمرِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾، ومَعلومٌ أنَّ العَداوةَ بيْنَ المؤمِنينَ والكافِرينَ أمرٌ ثابتٌ، وأنَّ الإنسانَ قد يَستبعِدُ أنْ يَجعَلَ اللهُ في قلْبِه مودَّةً لهذا الكافرِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿قَدِيرٌ﴾: بالنِّسبةِ لتقليبِ القُلوبِ، ﴿غَفُورٌ﴾: بأنْ يُيَسِّرَ هؤلاء الكفَّارَ إلى الإسلامِ، فيَغفِرَ لهم[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ حَثٌّ على العَدلِ في كلِّ شيءٍ[(٣)]. وناهيكَ بتَوصيةِ اللهِ المؤمنينَ أنْ يَستعمِلوا القِسطَ مع المشركين به، ويَتحامَوا ظُلْمَهم، مُترجِمةً عن حالِ مُسلمٍ يَجترِئُ على ظُلمِ أخيهِ المسلمِ[(٤)]! فإذا نهَى عن الظُّلمِ في حقِّ المشركِ، فكيف في حقِّ المسلمِ[(٥)]؟! فحَسْبُك وكافيك تنبيهًا

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٤١٥). ويُنظر أيضًا: ((الإخلاص والنية)) لابن أبي الدنيا (٢٢)، ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦٩).

على قُبحِ صنيعِ مَن يَجترئُ على ظُلمِ أخيه المُسلِمِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه إشارةٌ وبِشارةٌ إلى إسلامِ بَعضِ المُشرِكينَ الَّذين كانوا إذ ذاك أعداءً للمؤمِنينَ، وقد وقَع ذلك(٢)، فقد أسلَمَ عامَ الفَتحِ وقبْلَ عامِ الفَتحِ أُمَّةٌ مِن الكفَّارِ، وصارتِ العَداوةُ في قلوبِ المؤمِنينَ لهم مودَّةً(٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ التَّذييلُ بأنَّ اللهَ قَديرٌ يُشعِرُ بأنَّ تأليفَ القُلوبِ ومَودَّتَها إنَّما هو مِن قُدرةِ اللهِ تعالى وَحْدَه، كما بَيَّنَه قَولُه تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾(٤) [الأنفال: ٦٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أخرَج ذلك القِتالَ بسَبَبِ حَقٍّ دُنيويٍّ لا تعلُّقَ له بالدِّينِ، وأخرجَ مَن لم يقاتِلْ أصلًا، كخُزاعةَ والنِّساءِ، ومِن ذلك أهلُ الذِّمَّةِ، بل الإحسانُ إليهم مِن محاسِنِ الأخلاقِ، ومعالي الشِّيَمِ؛ لأنَّهم جِيرانٌ(٥).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ رُخصةٌ مِن اللهِ تعالى في صِلةِ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٨).

لم يُعادُوا المؤمِنينَ ولم يُقاتِلوهم(١)، يدُلُّ على جوازِ البرِّ بيْنَ المُشرِكينَ والمُسلِمينَ، وإن كانت المُوالاةُ مُنقَطِعةً(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فيه دليلٌ على جوازِ التَّصدُّقِ على أهلِ الذِّمَّةِ، دونَ أهلِ الحربِ، ووُجوبِ النَّفقةِ للأبِ الكافِرِ الذِّمِّيِّ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه لَمَّا نهى في أوَّلِ السُّورةِ عن اتِّخاذِ المُسلِمينَ الكُفَّارَ أولياءَ، وقَطَعَ المودَّةَ بَيْنَهم وبيْنَهم، تَوَهَّمَ بعضُهم أنَّ بِرَّهُم والإحسانَ إليهم مِن الموالاةِ والمودَّةِ؛ فبيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّ ذلك ليس مِن الموالاةِ المنهيِّ عنها، وأنَّه لم يَنْهَ عن ذلك، بل هو مِن الإحسانِ الَّذي يُحِبُّه ويَرضاه، وكتَبَه على كُلِّ شَيءٍ، وإنَّما المنهيُّ عنه تولِّي الكُفَّارِ، والإلقاءُ إليهم بالمودَّةِ(٤). والكافِرُ الَّذي لم يُنْهَ عن برِّه والإقساطِ إليه مَشروطٌ فيه عدَمُ القِتالِ في الدِّينِ، وعدمُ إخراجِ المؤمنينَ مِن ديارِهم، والكافِرُ المَنهيُّ عن ذلك فيه هو المقاتِلُ في الدِّينِ، المُخرِجُ للمؤمِنينَ مِن ديارِهم، المُظاهِرُ للعَدُوِّ على إخراجِهم(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٣/ ٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٦٠٢).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٦).

أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ بعدَ قولِه في أوَّلِ السُّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١] أنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ لا تُعَدُّ مُوالاةً، بلِ الموالاةُ شَيءٌ والصِّلَةُ شيءٌ آخَرُ؛ ولهذا جَمَع اللهُ تعالى بيْنَ الصِّلَةِ وبيْنَ النَّهيِ عن اتِّخاذِ الوَلايةِ في سُورةٍ واحدةٍ؛ فصِلَةُ الرَّحِمِ أمرٌ مُنفَصِلٌ عن الوَلايةِ، فعلى هذا يجبُ على الإنسانِ أنْ يَصِلَ رَحِمَه ولو كانوا كفَّارًا، لكنْ بدونِ مُوالاةٍ ومُناصَرةٍ ومُعاضَدةٍ على ما هم عليه مِن الكُفرِ، وكذلك يجوزُ أنْ يَدْعُوَهم إلى بَيتِه مثلًا، ولكنْ مع ذلك يَنبغي أن يَحرِصَ على عَرْضِ الإسلامِ عليهم ونُصْحِهم وإرشادِهم؛ لعلَّ اللهَ أنْ يَهديَهم بسَبَبِه[(١)]، وأيضًا فليس مِن موالاتِهم أنْ نُضيفَهم إذا استضافُونا، يعني: لو نَزَلَ بك كافرٌ وأكرَمْتَه إكرامَ ضَيفٍ لا يكونُ هذا مِن مُوالاتِهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾، وهذا إحسانٌ، ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا عَدْلٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[(٢)]، وكذلك فإنَّ الصُّلحَ والمُهادَنةَ لا يَلزَمُ منها محَبَّةٌ، ولا موالاةٌ، ولا موَدَّةٌ لأعداءِ اللهِ[(٣)].

٨- قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ لا يُمكِنُ لأمَّةٍ اليومَ أن تَعيشَ مُنعَزِلةً عن غيرِها مِن الدُّولِ؛ لِتَداخُلِ المصالحِ وتَشابُكِها، ولا سِيَّما في المجالِ الاقتصاديِّ عَصَبِ الحياةِ اليومَ؛ مِن إنتاجٍ، أو تصنيعٍ، أو تسويقٍ؛ فعلى هذا تكونُ الآيةُ مُساعِدةً على جوازِ التَّعامُلِ مع أولئك المسالِمينَ ومُبادَلتِهم مصلحةً بمَصلحةٍ، بشَرطِ عَدَمِ المَيلِ بالقَلْبِ، ولو قيل بشَرطٍ آخَرَ، وهو: مع عَدَمِ وُجودِ تلك المصلحةِ عندَ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٨/ ٤٤٨).

المسلِمينَ أنفُسِهم، أي: إنَّ العالَمَ الإسلاميَّ يَتعاوَنُ أوَّلًا مع بَعْضِه، فإذا أعوَزَه أو بَعضَ دُوَلِه حاجةٌ عندَ غيرِ المسلمينَ مِمَّن لم يقاتِلوهم ولم يُظاهِروا عَدُوًّا على قِتالِهم؛ فلا مانِعَ مِن التَّعاوُنِ مع تلك الدَّولةِ في ذلك، وممَّا يؤيِّدُ كُلَّ ما تقَدَّمَ عمَلِيًّا مُعامَلةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليَهودِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أنَّ الحَربيَّ لو أسْلَمَ وبيَدِه مالُ مُسلمٍ قد أخَذَه مِن المسلِمينَ بطَريقِ الاغتِنامِ ونحوِه ممَّا لا يَملِكُ به مُسلمٌ مِن مُسلمٍ؛ لكَونِه مُحَرَّمًا في دِيْنِ الإسلامِ- كان له مِلْكًا، ولم يَرُدَّه إلى المُسلمِ الَّذي كان يَملِكُه. ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّه سُبحانَه بيَّنَ أنَّ المسلِمينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم بغيرِ حَقٍّ حتَّى صاروا فُقَراءَ بعدَ أنْ كانوا أغنياءَ، ثمَّ إنَّ المُشركينَ استَولَوا على تلك الدِّيارِ والأموالِ، وكانت باقيةً إلى حينِ الفَتحِ، وقد أسلَمَ مَن استولى عليها في الجاهليَّةِ، ثمَّ لم يَرُدَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أحدٍ منهم أُخرِجَ مِن دارِه بعدَ الفَتحِ والإسلامِ دارًا ولا مالًا، بل قيل للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ الفَتحِ: أين تَنزِلُ غدًا؟ فقال: ((وهل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ مِن مَنزِلٍ؟!))[٢]، وسألَه المهاجِرونَ أنْ يَرُدَّ عليهم أموالَهم الَّتي استولى عليها أهلُ مكَّةَ، فأبَى ذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقَرَّها بيَدِ مَنِ استَولى عليها بعدَ إسلامِه[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ اعتِراضٌ، وهو استِئنافٌ مُتَّصِلٌ بما قبْلَه مِن أوَّلِ السُّورةِ، خُوطِبَ به

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٢٨٢)، ومسلمٌ (١٣٥١) مِن حديثِ أسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٤).

المؤمنونَ تَسليةً لهم على ما نُهُوا عنه مِن مُوالاةِ أقْربائِهم؛ بأنْ يَرْجُوا مِن اللهِ أنْ يَجعَلَ عداوتَهم آيلةً إلى مودَّةٍ بأنْ يُسْلِمَ المشركونَ مِن قَرابةِ المؤمنينَ[١].

- قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ وعْدٌ مِن اللهِ على عاداتِ الملوكِ، حيث يَقولونَ في بَعضِ الحوائجِ: عَسى أو لعلَّ، فلا تَبْقى شُبهةٌ للمُحتاجِ في تَمامِ ذلك، أو قَصَد به إطماعَ المؤمنينَ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ تذييلٌ[٣]، أي: مُبالغٌ في القُدرةِ، فَيقدِرُ على تَقليبِ القُلوبِ، وتَغييرِ الأحوالِ، وتَسهيلِ أسبابِ المودَّةِ[٤].

- وعُطِفَ على التَّذييلِ جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، أي: يَغفِرُ لِمَن أنابوا إليه ويَرحَمُهم؛ فلا عَجَبَ أنْ يَصيروا أوِدَّاءَ لكم كما تَصيرون أوِدَّاءَ لهم[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ استئنافٌ هو مَنطوقٌ لمَفهومِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها العدُوُّ في قولِه تَعالى: ﴿وَقَدۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٣) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَين: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦ - ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢]، المَسوقةِ مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن اتِّخاذِ عدُوِّ اللهِ أولياءَ، اسْتَثْنى اللهُ أقوامًا مِن المشركين غيرَ مُضمِرينَ العداوةَ للمسلِمينَ، وكان دِينُهم شَديدَ المُنافرةِ مع دِينِ الإسلامِ، وهذه الجُملةُ قد أَخرَجَتْ مِن حُكْمِ النَّهيِ القومَ الَّذين لم يُقاتِلوا في الدِّينِ ولم يُخرِجوا المسلِمينَ مِن دِيارِهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ تَذييلٌ، أي: يُحِبُّ كلَّ مُقسطٍ، فيَدخُلُ الَّذين يُقسِطون للَّذين خالَفُوهم في الدِّينِ إذ كانوا مع المُخالَفةِ مُحسِنينَ مُعاملتَهم[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فذْلَكةٌ[٣] لِما تَقدَّمَ، وحصرٌ لحُكْمِ الآيةِ المُتقدِّمةِ، وهي تُؤذِنُ بانتهاءِ الغَرَضِ المسوقِ له الكلامُ مِن أوَّلِه[٤].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥٣).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و (الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

آخِرِها، قصْرُ قلْبٍ[١]؛ لرَدِّ اعتقادِ مَن ظنَّ أو شكَّ في جَوازِ صِلةِ المشركين على الإطلاقِ[٢].

- والقصْرُ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]، فظُلْمُهم وقَع بعْدَ النَّهيِ الشَّديدِ، والتَّنبيهِ على الأخطاءِ والعِصيانِ؛ وهو اعتداءٌ على حُقوقِ اللهِ، وحُقوقِ المسلمينَ، وعلى حقِّ الظالِمِ نفْسِه، فجُعِلوا كمَن انْحصَر الظُّلْمُ فيهم[٤].

- وأيضًا جِيءَ في جَوابِ الشَّرطِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ باسمِ الإشارةِ (أولئك)؛ لتَمييزِ المشارِ إليهم زِيادةً في إيضاحِ الحُكْمِ[٥].



(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦) و(٢٨/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥٤).

الآيتان (١٠-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُنَاحَ﴾: أي: إثْمٌ وحَرَجٌ، وسُمِّيَ بذلك؛ لِمَيلِه عن طَريقِ الحَقِّ، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على مَيلٍ وتَعَدٍّ[(١)].

﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾: أي: بعقدِ نكاحِ النِّساءِ الكوافِرِ، والكوافِرُ: جَمعُ كافِرةٍ، والعِصَمُ: جمعُ عِصْمةٍ، وهي ما اعتُصِمَ به مِنَ العَقدِ والسَّبَبِ، وأصلُ (عصم): يدُلُّ على إمساكٍ ومَنعٍ ومُلازَمةٍ[(٢)].

﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: قيل: هو مِن العُقْبى، أي: أصَبْتُم عُقْبى، وهي الغنيمةُ. وقيل: من العُقْبةِ، وهي النَّوبةُ والتَّعاقُبُ على الشَّيءِ، أي: فجاءتْ عقبتُكم -أي: نَوبتُكم- مِن أداءِ المهرِ. وقيل: المعنى: فعَلْتُم ما فُعِل بكم، أي: ظَفِرتُم، وهو من قَولِك: العُقْبى لفُلانٍ، أي: العاقِبةُ بعدَ الأُولى. وقيل: غزَوْتُم مُعاقِبينَ غَزوًا بعدَ غزوٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٨).

وقيل: المعنى: أصَبْتُموهم في القتالِ بعُقوبةٍ حتَّى غَنِمتُم، وأصل (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غَيْره(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ الأحكامِ الَّتي تتعلَّقُ بالنِّساءِ المؤمناتِ، اللَّاتي ترَكْنَ أزواجَهنَّ الكفَّارَ، ورَغِبْنَ في الهجرةِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا جاءَكم المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ إليكم فاختَبِروهنَّ، اللهُ أعلمُ بحَقيقةِ إيمانِهنَّ، فإنْ عَلِمْتُم بعدَ اختِبارِهنَّ أنَّهنَّ مُؤمِناتٌ فلا تَرُدُّوهنَّ إلى الكُفَّارِ؛ فليست المُؤمِناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفَّارُ يَحِلُّونَ للمُؤمِناتِ بالنِّكاحِ، وأعطُوا أزواجَ مَن هاجَرْنَ إليكم ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ، ولا إثمَ عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المُهاجِراتِ إليكم إذا أعطيتُموهُنَّ مُهورَهنَّ.

ومَن كانت له منكم -أيُّها المؤمِنونَ- زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها ولا يُمسِكْها عندَه، واسألوا -أيُّها المؤمِنونَ- ما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللَّاتي فارَقْتُموهنَّ لكُفرِهنَّ، ولْيَسألِ المُشرِكونَ ما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمِناتِ اللَّاتي هاجَرْنَ إليكم، وذلكم هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَقضيه بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم -أيُّها المؤمِنونَ- إلى الكُفَّارِ ولم يُعطوكم مُهورَهنَّ، فعاقَبْتُم، فأعطُوا المؤمِنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفَّارِ ما دَفَعوه إليهنَّ من مُهورٍ، وخافوا اللهَ الَّذي أنتم به مُؤمِنونَ.

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ وُرودِ هذه الآيةِ بعْدَ ما قبْلَها -أي: النَّهيِ عن مُوالاةِ المشركين- يَتطرَّقُ إلى ما بيْن المسلمينَ والمشركين مِن عُقودِ النِّكاحِ والمُصاهَرةِ؛ فقد يكونُ المسلمُ زَوجًا لمشركةٍ، وتكونُ المسلمةُ زَوجًا لمُشرِكٍ، فتَحدُثُ في ذلك حَوادثُ لا يَسْتغني المسلِمون عن مَعرفةِ حُكْمِ الشَّريعةِ في مِثلِها[١]؛ لذا بَيَّنَ أحكامَ مُهاجَرةِ النِّساءِ[٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرمةَ ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ عن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ: ((جاءت المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ، وكانت أمُّ كُلثومٍ بنتُ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ مِمَّن خَرَجَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَئذٍ وهي عاتِقٌ[٣]، فجاء أهلُها يَسألونَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَرجِعَها إليهم، فلم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦١).

(٣) العاتِقُ: الشَّابَّةُ أوَّلَ ما تُدْرِكُ. وقيل: هي الَّتي لم تَبِنْ مِنْ والِدَيها، ولم تُزَوَّجْ، وقد أدْرَكَت وشَبَّت. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

يَرجِعْها إليهم؛ لِمَا أنزَلَ اللهُ فيهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾)). وفي روايةٍ: ((ثُمَّ جاءَه نِسْوةٌ مُؤْمِناتٌ فأنْزَل اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ...﴾))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا جاءَكم النِّساءُ المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ مِن بِلادِ الكُفرِ إلى بِلادِ الإسلامِ، فاختَبِروهنَّ[٢].

(١) رواه البخاري (٢٧١١) (٢٧٣١ و٢٧٣٢). ويُنظر ما يأتي (ص: ٨٤).

قال ابنُ تيميَّة: (نزَلَت باتِّفاقِ المُسلمينَ في قَضيَّةِ الصُّلحِ الَّذي كان بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْن أهلِ مكَّةَ؛ صُلحِ الحُدَيبِيَة، لَمَّا شَرَط عليهم أن يَرُدَّ المسلمونَ مَن جاءَهم مُسلِمًا، وألَّا يَرُدَّ أهلُ مكَّةَ مَن ذهبَ إليهم مُرتَدًّا، فهاجَرَ نِسوةٌ كأمِّ كُلثومٍ بِنتِ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، فنَسَخ اللهُ تعالى الرَّدَّ في النِّساءِ، وأمَرَ بردِّ المهرِ عِوَضًا عن رَدِّ المرأةِ). ((مختصر الفتاوى المصرية)) للبعلي (ص: ٥٤٠). ويُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦٧٨).

وقال ابن حجر: (اختُلِف في تَركِ ردِّ النِّساءِ إلى أهلِ مكَّةَ مع وُقوعِ الصُّلحِ بيْنَهم وبيْن المسلمينَ في الحُدَيبِيَة على أنَّ مَن جاء منهم إلى المسلمينَ ردُّوه، ومَن جاء مِن المسلمينَ إليهم لم يَرُدُّوه: هل نُسِخ حُكمُ النِّساءَ مِن ذلك فمُنِعَ المُسلمونَ مِن رَدِّهِنَّ، أو لم يَدخُلْنَ في أصلِ الصُّلحِ، أو هو عامٌّ أُريدَ به الخُصوصُ وبُيِّن ذلك عندَ نُزولِ الآيةِ؟). ((فتح الباري)) (٩/ ٤١٩).

وقال القرطبي: (أكثَرُ العُلماءِ على أنَّ هذا ناسخٌ لِما كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عاهَد عليه قُرَيشًا، مِن أنَّه يَرُدُّ إليهم مَن جاءه منهم مُسلِمًا، فنُسِخ مِن ذلك النِّساءُ. وهذا مذهبُ مَن يرى نَسْخَ السُّنَّةِ بالقرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٣). ويُنظر: ((قواطع الأدلة في الأصول)) للسمعاني (١/ ٤٣٣)، ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) (٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

قال الماوَرْدي: (لأنَّه يُعلَمُ بالامتحانِ ظاهِرُ إيمانِهِنَّ، واللهُ يَعلَمُ باطِنَ إيمانِهِنَّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٠).

قال القرطبي: (اختُلِفَ فيما كان يمتَحِنُهنَّ به؛ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: قال ابنُ عبَّاسٍ: كانت المحنةُ أن تُستحلَفَ باللهِ أنَّها ما خرَجَت مِن بُغضِ زَوجِها، ولا =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يمتَحِنُ مَن هاجَرَ مِن المؤمِناتِ بهذه الآيةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]))[(١)].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بحَقيقةِ إيمانِ أولئك المهاجِراتِ، وما يُسْرِرْنَه في قُلوبِهنَّ؛ فاحكُموا لهنَّ بما يَظهَرُ لكم مِنَ الدَّلائِلِ[(٢)].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

= رغبةً مِن أرضٍ إلى أرضٍ، ولا التِماسَ دُنيا، ولا عِشقًا لرجُلٍ مِنَّا، بل حُبًّا لله ولرَسولِه. فإذا حلَفَت باللهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو على ذلك، أعطى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زَوْجَها مَهْرَها وما أنفَقَ عليها، ولم يَرُدَّها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

الثَّاني: أنَّ المحنةَ كانت أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ أيضًا.

الثَّالثُ: بما بَيَّنَه في السُّورةِ بَعْدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: ما كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمتَحِنُ إلَّا بالآيةِ الَّتي قال اللهُ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢]. رواه مَعمَرٌ عن الزُّهريِّ عن عائشةَ. خَرَّجه التِّرمذيُّ [٣٣٠٦]، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: السمرقنديُّ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

ومعنى ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختَبِروهنَّ بما يَغلِبُ على ظَنِّكم مُوافَقةُ قُلوبِهنَّ لألسِنَتِهنَّ في الإيمانِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٠٨).

(١) رواه البخاريُّ (٤١٨٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

أي: فإن عَلِمْتُم بعدَ اختبارِهنَّ أنَّهنَّ مُؤمِناتٌ، فلا تَرُدُّوهنَّ إلى الكُفَّارِ[١].

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

النَّاسِخُ والمنسوخُ:

هذه الآيةُ نَسَخَت ما كان في أوَّلِ الإسلامِ مِن إباحةِ نِكاحِ الكافِرِ للمُسلِمةِ[٢].

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

أي: ليست المُؤمِناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفَّارُ بجَميعِ مِلَلِهم يَحِلُّونَ للمُؤمناتِ بالنِّكاحِ؛ فقد حَرَّم اللهُ نِكاحَ الكافِرِ للمُؤمِنةِ تَحريمًا مُؤَكَّدًا في جميعِ الأحوالِ والأزمانِ[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٣).

قال ابنُ العربي: (قال أهلُ التَّفسيرِ: أمَرَ اللهُ تعالى مَن كان له زوجةٌ مُشرِكةٌ أن يُطَلِّقَها. وقد كان الكُفَّارُ يَتزَوَّجون المُسلِماتِ، والمسلِمونَ يتزَوَّجونَ المُشرِكاتِ، ثمَّ نَسَخ اللهُ ذلك في هذه الآيةِ وغَيرِها، وكان ذلك نَسْخَ الإقرارِ على الأفعالِ بالأقوالِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٣١). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لأبي بكر بن العربي (٢/ ٣٨٥).

وقال ابن كثير: (هذه الآيةُ هي الَّتي حرَّمت المسلماتِ على المُشركينَ، وقد كان جائزًا في ابتداءِ الإسلامِ أن يتزوَّجَ المُشرِكُ المُؤمِنةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٦).

يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وأعطُوا مَن كانوا أزواجًا للَّاتي أسلَمْنَ وهاجَرْنَ إليكم، ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ[(١)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: ولا إثمَ عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المُهاجِراتِ إليكم بعدَ انقِضاءِ عِدَّتِهنَّ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ مِن الكُفَّارِ في دارِ الشِّركِ، بشَرطِ إعطائِهنَّ مُهورَهنَّ[(٢)].

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾.

أي: ومَن كانت له منكم -أيُّها المؤمِنونَ- زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال القرطبي: (أمَرَ اللهُ تعالى إذا أُمسِكَت المرأةُ المسلمةُ أن يُرَدَّ على زَوجِها ما أنفَقَ، وذلك مِن الوفاءِ بالعَهدِ؛ لأنَّه لَمَّا مُنِع مِن أهلِه بحُرمةِ الإسلامِ أُمِرَ برَدِّ المالِ إليه؛ حتَّى لا يَقَعَ عليهم خُسرانٌ مِن الوَجهَينِ: الزَّوجةِ، والمالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤١٩).

وقال ابنُ عاشور: (المكلَّفُ بإرجاعِ مُهورِ الأزواجِ المُشرِكينَ إليهم هم وُلاةُ أُمورِ المُسلِمينَ مِمَّا بيْنَ أيديهم مِن أموالِ المُسلِمينَ العامَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)، =

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ ومَروانَ بنِ الحَكَمِ: (أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاءه نِسْوةٌ مُؤمِناتٌ، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حتَّى بَلَغَ: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾، فطَلَّق عُمَرُ يومَئذٍ امرأتَينِ كانتا له في الشِّركِ، فتزوَّج إحداهما مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ، والأُخرى صَفوانُ بنُ أُميَّةَ)[1].

﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وطالِبوا -أيُّها المؤمنونَ- بما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللَّاتي فارقتُموهنَّ لكُفْرِهنَّ، ولْيُطالِبِ المُشرِكونَ بما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمناتِ اللَّاتي هاجَرْنَ إليكم[2].

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٨).

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال الجصَّاص: (هذه الأحكامُ في رَدِّ المَهرِ وأخْذِه مِن الكُفَّارِ، وتَعويضِ الزَّوجِ مِن الغنيمةِ أو مِن صِداقٍ قد وَجَب رَدُّه على أهلِ الحَربِ: مَنسوخٌ عندَ جماعةِ أهلِ العِلمِ، غيرُ ثابتِ الحُكمِ إلَّا شَيئًا رُوِيَ عن عطاءٍ؛ فإنَّ عبدَ الرَّزَّاقِ روى عن ابنِ جُرَيجٍ قال: قُلتُ لعَطاءٍ: أرأَيْتَ لو أنَّ امرأةً مِن أهلِ الشِّركِ جاءت المسلِمينَ فأسلَمَت، أيُعَوَّضُ زَوجُها منها شيئًا؛ لِقَولِه تعالى في المُمتَحَنةِ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾؟ قال: إنَّما كان ذلك بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ أهلِ عَهْدِه. قُلتُ: فجاءت امرأةٌ الآنَ مِن أهلِ عَهدٍ؟ قال: نعمْ، يُعاضُ. فهذا مَذهَبُ عَطاءٍ في ذلك، وهو خلافُ الإجماعِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٨٩). ويُنظر: ((مصنَّف عبد الرزاق)) (١٢٧٠٧).

وقال ابن العربي: (قال المفَسِّرون: كُلُّ مَن ذَهَب مِن المسلماتِ مُرتدَّاتٍ مِن أهلِ العَهدِ إلى الكُفَّارِ، يُقالُ للكُفَّارِ: هاتوا مَهْرَها، ويُقالُ للمُسلِمينَ إذا جاء أحدٌ مِن الكافراتِ مُسلِمةً مُهاجِرةً: رُدُّوا إلى الكُفَّارِ مَهْرَها، وكان ذلك نَصَفًا وعَدلًا بيْنَ الحالتَينِ، وكان هذا حُكمَ اللهِ مَخصوصًا بذلك الزَّمانِ في تلك النَّازِلةِ خاصَّةً، بإجماعِ الأمَّةِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٣١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٨). =

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: ما بيَّنه اللهُ تعالى لكم في هذه الآيةِ مِن إرجاعِ مُهورِ النِّساءِ اللَّاتي يَذهَبْنَ إلى الفَريقِ الآخَرِ: هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَقضيه بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ بالعَدلِ التَّامِّ[(١)].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ في تدبيرِهم بما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ، فيُعطي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه[(٢)].

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

أي: وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم -أيُّها المؤمِنونَ- إلى الكُفَّارِ ولم يُعطوكم مُهورَهنَّ، فعاقَبْتُم[(٣)]؛ فأعطُوا المؤمِنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفَّارِ ما دَفَعوه إليهنَّ مِن

= وقال ابنُ عاشور: (كانت هذه الأحكامُ الَّتي في هذه الآياتِ مِن التَّرادِّ في المهورِ شَرعًا في أحوالٍ مخصوصةٍ اقتضاها اختِلاطُ الأمرِ بيْنَ أهلِ الشِّركِ والمؤمِنينَ، وما كان مِن عَهدِ المُهادَنةِ بيْنَ المُسلِمينَ والمُشرِكينَ في أوائِلِ أمرِ الإسلامِ خاصًّا بذلك الزَّمانِ بإجماعِ أهلِ العِلمِ، قاله ابنُ العربي، والقرطبيُّ، وأبو بكرٍ الجصَّاصُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٣) قيل: المعنى: فغَنِمْتُم مِن العدُوِّ شَيئًا بأن صارت العاقِبةُ في الظَّفَرِ لكم، فأعطُوا الأزواجَ مِن الغنيمةِ ما أنفَقوا عليهنَّ مِن المهرِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحديُّ، =

مُهورٍ[(١)].

= والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢، ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، ومسروقٌ، وإبراهيمُ، والضَّحَّاكُ، وسفيانُ بنُ حُسَينٍ، والزُّهريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥).

وقيل: هو مِن العُقْبةِ، وهي النَّوبةُ، والمعنى: فآتُوا مَن فاتَتْه امرأتُه إلى الكُفَّارِ مِثلَ مَهرِها مِن مَهرِ المهاجِرةِ، ولا تُؤتُوه زَوجَها الكافِرَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٣).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه لا تنافيَ بينَ القولَينِ السَّابقَينِ، وأنَّه إذا أمكَنَ عَدَمُ إعطاءِ المهاجِرةِ شَيئًا في مقابِلِ فِرارِ زَوجةِ المؤمِنِ، فهو أولى، وإلَّا فمِن الغنائمِ اللَّاتي تؤخَذُ مِن أيدي الكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥).

وأيضًا ذهب ابنُ جريرٍ إلى عدمِ تخصيصِ إيتائِهم ذلك مِن مالٍ دونَ مالٍ؛ فعليهم أن يُعطوهم ذلك مِن كُلِّ تلك الأموالِ المذكورةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٣).

قال الرَّسْعَني: (وفي المالِ الَّذي يُرَدُّ منه هذا المهرُ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن أموالِ غنائمِهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: مِن أموالِ الفَيءِ. قاله الزُّهْريُّ.

الثَّالثُ: مِن صَداقِ مَن أسلَمْنَ مِنهُنَّ عن زَوجٍ كافرٍ. وهذا مرويٌّ عن الزُّهْريِّ أيضًا). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢، ١٦٣).

ذكر النَّحَّاسُ أنَّ هذه الآيةَ ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ ...﴾ مَنسوخةٌ عندَ أكثَرِ العُلَماءِ، وحكاه السمرقنديُّ إجماعًا. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٧٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠).

وقال ابنُ عطيَّة: (هذه الآيةُ كُلُّها قد ارتفَعَ حُكمُها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨). ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٦٠٨، ٦٠٩). =

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وخافوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعذابَه، بطاعتِه واجتنابِ مَعصيتِه؛ الَّذي أنتم مُؤمِنونَ بوحدانيَّتِه وصِفاتِه، وثوابِه وعِقابِه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ أنَّ المؤمِنَ مُحتاجٌ إلى امتحانِ مَن يريدُ أنْ يُصاحِبَه ويُقارِنَه بنِكاحٍ وغيرِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ في الجُملةِ: الامتِحانُ طَريقٌ إلى المعرفةِ، وجواهِرُ النَّاسِ تتبَيَّنُ بالتَّجرِبةِ، ومَن

= وقال الشوكاني: (هذه الآيةُ منسوخةٌ، قد انقطَع حُكمُها بعدَ الفتحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٧).

وقال ابن العربي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال بعضُهم: المرادُ بهذه الآيةِ: إنِ ارتدَّتِ امرأةٌ منكم فذهبتْ منكم إلى الكفَّارِ فأَعْطوا زوْجَها مِثلَ ما أنفَق عليها -يعني: مِن صَداقٍ-، ثمَّ نسَخ اللهُ ذلك. واختُلِف في نَسخِه على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّه منسوخٌ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية [الأنفال: ٤١].

الثَّاني: أنَّه منسوخٌ بآيةِ القتالِ.

الثَّالثُ: أنَّ آيةَ «براءة» نسخَتْ أحكامَ هذه السُّورةِ). ((الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)) (٢/ ٣٨٦).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (كلُّ هؤلاءِ الآياتِ نسَخَتْها في «براءة» آيةُ السَّيفِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦).

وقال ابن عاشور: (عن ابنِ عبَّاسٍ والجمهورِ: الَّذين فاتَهم أزواجُهم إلى الكفَّارِ يُعطَوْنَ مُهورَ نسائِهم مِن مَغانمِ المسلمينَ. وهذا يَقتضي أن تكونَ الآيةُ منسوخةً بآيةِ سورةِ «براءة»: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾[التوبة: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٨).

أقدَمَ على شَيءٍ مِن غيرِ تجربةٍ تحسَّى كأسَ النَّدَمِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ نَدَب تعالى إلى التَّقوى وأوجَبَها، وذَكَر العِلَّةَ الَّتي بها يجِبُ التَّقوى، وهي الإيمانُ باللهِ، والتَّصديقُ بوَحدانيَّتِه وصِفاتِه، وعِقابِه وإنعامِه[٢]، فالإيمانُ به عزَّ وجلَّ يقتضي التَّقوى منه سُبحانَه وتعالى[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فيه تحريضٌ للمُسلِمينَ على الوَفاءِ بما أمَرَهم اللهُ، وألَّا يَصُدَّهم عن الوَفاءِ ببَعضِه مُعامَلةُ المُشرِكينَ لهم بالجَورِ، وقِلَّةِ النَّصَفةِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المعانِدُ لا يخلو مِن أحَدِ أحوالٍ ثلاثةٍ: إمَّا أن يستَمِرَّ عِنادُه، أو يُرجَى منه أن يترُكَ العِنادَ، أو يترُكَ العِنادَ ويَستسلِمَ، وقد بَيَّن اللهُ تعالى في هذه الآياتِ أحوالَهم، وأمَرَ المسلِمينَ أن يُعامِلوهم في كُلِّ حالةٍ على ما يَقتَضيه الحالُ؛ أمَّا قَولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤] فهو إشارةٌ إلى الحالةِ الأُولى، ثمَّ قَولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧] إشارةٌ إلى الحالةِ الثَّانيةِ، ثمَّ قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٠] إشارةٌ إلى الحالةِ الثَّالثةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ نزَل في شَرطِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ أن يُرَدَّ إلى المُشرِكينَ مَن جاء مُسلِمًا مِن أهلِ مَكَّةَ، فاستُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ في الهُدنةِ شَرطُ رَدِّ مُسلِمةٍ تأتينا منهم، وأنَّه إن لم يُذكَرْ رَدٌّ أو شُرِطَ رَدُّ مَن جاءَنا منهم، فجاءت امرأةٌ؛ لا يجوزُ رَدُّها[١].

٣- إذا تعارضتْ سَيِّئتانِ لا يمكنُ الخُلُوُّ منهما، فإنَّه يُدفَعُ أسوأُهما باحتِمالِ أدناهما، كما في تقديمِ المرأةِ المهاجِرةِ لسَفَرِ الهِجرةِ بلا مَحْرَمٍ على بقائِها بدارِ الحَربِ، كما فعَلَت أمُّ كُلثومٍ الَّتي أنزَلَ اللهُ فيها آيةَ الامتِحانِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ دلَّ على أنَّ مجرَّدَ إظهارِ الإسلامِ لا يكونُ دليلًا على الإيمانِ في الباطنِ؛ إذْ لو كان كذلك لم تَحْتَجِ المهاجِراتُ اللَّاتي جِئْنَ مُسلِماتٍ إلى الامتِحانِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ مَفهومُه أنَّ الرِّجالَ المهاجِرينَ لا يُمتَحَنونَ، وفِعلًا لم يكنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمتَحِنُ مَن هاجَرَ إليه، والسَّبَبُ في امتِحانِهنَّ دونَ الرِّجالِ هو ما أشارت إليه هذه الآيةُ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، كأنَّ الهِجرةَ وَحدَها لا تَكفي في حَقِّهنَّ بخِلافِ الرِّجالِ؛ فقد شَهِدَ اللهُ لهم بصِدقِ إيمانِهم بالهِجرةِ، في قَولِه تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٥٨١).

وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]؛ وذلك أنَّ الرَّجُلَ إذا خرجَ مُهاجِرًا يَعلَمُ أنَّ عليه تَبِعةَ الجِهادِ والنُّصرةِ، فلا يُهاجِرُ إلَّا وهو صادِقُ الإيمانِ، فلا يَحتاجُ إلى امتِحانٍ، بخِلافِ النِّساءِ؛ فليس عليهنَّ جِهادٌ، ولا يَلزَمُهنَّ بالهِجرةِ أيَّةُ تَبِعيَّةٍ، فأيُّ سَبَبٍ يواجِهُهنَّ في حياتِهنَّ سَواءٌ كان بسَبَبِ الزَّوجِ أو غَيرِه، فإنَّهنَّ يَخرُجنَ باسمِ الهِجرةِ؛ فكان ذلك مُوجِبًا للتَّوثُّقِ مِن هِجرتِهنَّ بامتِحانِهنَّ؛ لِيُعلَمَ إيمانُهنَّ، ويُرشِّحُ لهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وفي حَقِّ الرِّجالِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وكذلك مِن جانبٍ آخَرَ، وهو أنَّ هِجرةَ المؤمِناتِ يَتعَلَّقُ عليها حَقٌّ مع طَرَفٍ آخَرَ، وهو الزَّوجُ، فيُفسَخُ نِكاحُها منه، ويُعَوَّضُ هو عمَّا أنفَقَ عليها، وإسقاطُ حَقِّه في النِّكاحِ، وإيجابُ حَقِّه في العِوَضِ قضايا حقوقيَّةٌ تتَطَلَّبُ إثباتًا، بخِلافِ هِجرةِ الرِّجالِ. واللهُ تعالى أعلَمُ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وذلك معلومٌ مِن غَيرِ شَكٍّ؟

الجوابُ: فائِدتُه بيانُ أنْ لا سَبيلَ إلى ما تَطمَئِنُّ به النَّفْسُ مِن الإحاطةِ بحَقيقةِ إيمانِهنَّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا استأثَرَ به علَّامُ الغُيوبِ، وأنَّ ما يُؤدِّي إليه الامتحانُ من العِلمِ كافٍ في ذلك، وأنَّ تَكليفَكم لا يَعْدُوه[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ لم يُرِدْ حَقيقةَ العِلْمِ بضَمائِرِهنَّ واعتقادِهنَّ، وإنَّما أراد ما ظَهَر من إيمانِهنَّ بالقَولِ، وجَعَل ذلك عِلْمًا؛ فدَلَّ على أنَّه لا اعتبارَ بالضَّميرِ في أحكامِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٧، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٢).

الدُّنيا، وإنَّما الاعتبارُ بما يَظهَرُ مِنَ القَولِ[١]؛ فقَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ يعني: بسرائِرِهنَّ في إيمانِهنَّ، وهذا يدُلُّ على أنْ لم يُعْطَ أحَدٌ مِن بني آدَمَ أن يَحكُمَ على غيرِ ظاهِرٍ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف سُمِّيَ الظَّنُّ عِلْمًا؟

الجوابُ: أنَّه مِن بابِ أنَّ الظَّنَّ الغالِبَ، وما يُفضي إليه الاجتِهادُ والقياسُ: جارٍ مَجرى العِلمِ، وأنَّ صاحِبَه غيرُ داخِلٍ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾[٣] [الإسراء: ٣٦].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ويُمكِنُ أن يكونَ في أحَدِ الجانِبَينِ دونَ الآخَرِ؟

الجوابُ: هذا باعتِبارِ الإيمانِ مِن جانِبِهنَّ ومِن جانِبِهم؛ إذِ الإيمانُ مِن الجانبَين شَرطٌ للحِلِّ، ولأنَّ الذِّكْرَ مِن الجانِبَينِ مُؤَكِّدٌ لارتفاعِ الحِلِّ، وفيه مِن الإفادةِ ما لا يكونُ في غَيرِه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ تخصيصُ السُّنَّةِ بالكِتابِ، وهو قليلٌ؛ فإنَّ مِن الشُّروطِ الَّتي بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُشرِكينَ في الحُديبيَةِ: أنَّ مَن جاء مِن المُشرِكينَ مُسلِمًا يُرَدُّ إليهم، وهذا الشَّرطُ عامٌّ يَشملُ الذَّكَرَ والأُنثى؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ[٥]. وهذا على قولٍ.

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٥٢٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٩). =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أنَّ أنكِحةَ الكُفَّارِ لها حُكْمُ الصِّحَّةِ، لا يُحكَمُ عليها بالبُطلانِ(١).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا أوَّلُ دَليلٍ على أنَّ الَّذي أوجَبَ فُرقةَ المُسلِمةِ مِن زَوجِها الكافِرِ إسلامُها لا هِجرتُها(٢)، ....

= قال البغوي: (واختلَف القولُ في أنَّ ردَّ مهرِ مَن أسلمَتْ مِن النِّساءِ إلى أزواجِهنَّ، كان واجبًا أو مندوبًا؟ وأصلُه أنَّ الصُّلحَ هل كان وقَع على ردِّ النِّساءِ؟ فيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّه وقَع على ردِّ الرِّجالِ والنِّساءِ جميعًا؛ لِما رُوِّينا: «أنَّه لا يَأتيك مِنَّا أحدٌ وإن كان على دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا»، ثمَّ صار الحُكمُ في ردِّ النِّساءِ منسوخًا بقولِه: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾. فعلى هذا كان ردُّ المهرِ واجبًا.

والقولُ الآخَرُ: أنَّ الصُّلحَ لم يقَعْ على ردِّ النِّساءِ؛ لأنَّه يُروى: «على أنَّه لا يأتيك مِنَّا رجُلٌ وإن كان على دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا»؛ وذلك لأنَّ الرَّجُلَ لا يُخشى عليه مِن الفِتنةِ في الرَّدِّ ما يُخشى على المرأةِ مِن إصابةِ المشركِ إيَّاها، وأنَّه لا يُؤْمَنُ عليها الرِّدَّةُ إذا خُوِّفَتْ وأُكرِهَتْ عليها؛ لِضَعفِ قلبِها، وقلَّةِ هدايتِها إلى المَخرَجِ منها بإظهارِ كلمةِ الكفرِ مع التَّوريةِ وإضمارِ الإيمانِ، ولا يُخشى ذلك على الرَّجُلِ؛ لقوَّتِه وهِدايتِه إلى التَّقيَّةِ. فعلى هذا كان ردُّ المهرِ مندوبًا.

واختلَفوا في أنَّه هل يجبُ العملُ به اليومَ في ردِّ المالِ إذا شُرِط في مُعاقَدةِ الكفَّارِ؟

فقال قَومٌ: لا يجِبُ، وزعَموا أنَّ الآيةَ منسوخةٌ، وهو قولُ عَطاءٍ ومجاهِدٍ وقَتادةَ. وقال قومٌ: هي غيرُ منسوخةٍ، ويُرَدُّ إليهم ما أنفَقوا). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٥).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الصَّحيحُ أنَّ الصُّلحَ كان عامًّا على رَدِّ مَن جاء مُسلِمًا مُطلَقًا ولم يكُنْ فيه تخصيصٌ، بل وقع بصيغةِ «مَنْ» المتناوِلةِ للرِّجالِ والنِّساءِ، ثمَّ أبطل اللهُ منه رَدَّ النِّساءِ، وعَوَّض منه رَدَّ مُهورِهنَّ، وهذه شُبهةُ مَن قال: إنَّ حُكمَ هذه الآيةِ مَنسوخٌ، ولم يُنسَخْ منه إلَّا رَدُّ النِّساءِ خاصَّةً، وكان ردُّ المهورِ مأمورًا به، والظَّاهِرُ أنَّه كان واجِبًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَسْـَٔلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ فثبَت أنَّ رَدَّ المهورِ حَقٌّ لِمن يَسألُه، فيَجِبُ رَدُّه إليه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٦، ١٦٧).

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٥).

ففيه تحريمُ المؤمِناتِ على الكافِرينَ(١)، وأنَّ الكافِرَ لا يَحِلُّ له نِكاحُ المُسلِمةِ بحالٍ، وأنَّ إسلامَها تحتَه يَفسَخُ النِّكاحَ؛ لأنَّه جَعَل عَدَمَ الإرجاعِ مُرَتَّبًا على الإيمانِ، لا على اختِلافِ الدَّارِ(٢).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

قال ابنُ القَيِّم: (لا رَيْبَ أنَّ الإسلامَ لو كان بمُجَرَّدِه فُرقةً، لم تكُنْ فُرقةً رَجْعيَّةً، بل بائِنةٌ، فلا أثَرَ للعِدَّةِ في بقاءِ النِّكاحِ، وإنَّما أثَرُها في مَنْعِ نكاحِها للغَيرِ، فلو كان الإسلامُ قد نَجَز الفُرقةَ بيْنَهما، لم يكُنْ أحَقَّ بها في العِدَّةِ، ولكِنَّ الَّذي دلَّ عليه حُكمُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ النِّكاحَ موقوفٌ، فإنْ أسلَمَ قبل انقِضاءِ عِدَّتِها فهي زوجُته، وإن انقَضَت عِدَّتُها فلها أن تَنكِحَ مَن شاءت، وإن أحَبَّت انتظَرَتْه، فإن أسلَمَ كانت زوجتَه مِن غَيرِ حاجةٍ إلى تجديدِ النِّكاحِ. ولا نعلَمُ أحدًا جَدَّدَ للإسلامِ نِكاحَه البتَّةَ، بل كان الواقعُ أحدَ أمْرَينِ: إمَّا افتراقُهما ونكاحُها غيرَه، وإمَّا بقاؤُها عليه وإن تأخَّرَ إسلامُها أو إسلامُه. وأمَّا تنجيزُ الفُرقةِ أو مُراعاةُ العِدَّةِ، فلا نَعلَمُ أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قضى بواحدةٍ منهما مع كثرةِ مَن أسلَمَ في عَهْدِه مِن الرِّجالِ وأزواجِهنَّ، وقُربِ إسلامِ أحدِ الزَّوجينِ مِن الآخَرِ وبُعْدِه منه، ولولا إقرارُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الزَّوجَينِ على نكاحِهما وإن تأخَّرَ إسلامُ أحَدِهما عن الآخَرِ بَعْدَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ وزَمَنِ الفَتْحِ، لَقُلْنا بتَعجيلِ الفُرقةِ بالإسلامِ مِن غيرِ اعتبارِ عِدَّةٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وأنَّ الإسلامَ سَبَّب الفُرقةَ، وكُلُّ ما كان سببًا للفُرقةِ تَعْقُبُه الفُرقةُ، كالرَّضاعِ، والخُلْعِ، والطَّلاقِ، وهذا اختيارُ الخَلَّالِ، وأبي بكرٍ صاحِبِه، وابنِ المنذِرِ، وابنِ حَزمٍ، وهو مَذهَبُ الحَسَنِ، وطاووسٍ، وعِكْرِمةَ، وقَتادةَ، والحَكَمِ). ((زاد المعاد)) (٥/ ١٢٥، ١٢٦).

وقال أيضًا: (إذا أسلَمَت المرأةُ أوَّلًا فلها أن تتَربَّصَ بإسلامِ زَوْجِها، أيَّ وَقتٍ أسلَمَ فهي امرأتُه، وإذا أسلم الرَّجُلُ فليس له أن يحبِسَ المرأةَ على نَفْسِه، ويُمسِكَ بعِصْمَتِها، فلا يُكرِهْها على الإسلامِ، ولا يحبِسْها على نَفْسِه، فلا يَظلِمْها في الدِّينِ ولا في النِّكاحِ، بل إن اختارت هي أن تتربَّصَ بإسلامِه ترَبَّصَت، طالت المدَّةُ أو قَصُرت، وإن اختارت أن تتزوَّجَ غَيْرَه بَعْدَ انقضاءِ عِدَّتِها فلها ذلك، والعِدَّةُ هاهنا لحِفظِ ماءِ الزَّوجِ الأوَّلِ، وأيُّهما أسلَمَ في العِدَّةِ أو بَعْدَها فالنِّكاحُ بحالِه، إلَّا أن يختارَ الرَّجُلُ الطَّلاقَ، فيُطَلِّقُ، كما طَلَّق عُمَرُ رَضِيَ الله عنه امرأتينِ له مُشرِكتينِ لَمَّا أنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، أو تختارَ المرأةُ أن تُزَوَّجَ بعدَ استبرائِها فلها ذلك، =

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفُرقةَ إذا جاءت بسَبَبٍ مِن جِهةِ الزَّوجةِ أنَّ عليها ردَّ ما أنفقَ الزَّوجُ عليها(١).

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ استدَلَّ به من أوجَبَ رَدَّ مَهرِ المِثْلِ إلى زَوجِها(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ خروجَ البُضْعِ مُتَقَوَّمٌ؛ حيثُ أَمَرَ سُبحانَه برَدِّ المَهرِ عِوَضًا عن ردِّ المرأةِ، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، فأَمَرَ أنْ يُؤتَى الأزواجُ ما أَنفَقوا على المرأةِ المُمتحَنةِ الَّتي لا تُرَدُّ، والَّذي أَنفَقوا هو المسَمَّى ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾، فشَرَعَ للمؤمِنينَ أنْ يَسألوا الكُفَّارَ ما أَنفَقوا على النِّسوةِ اللَّاتي ارتدَدْنَ إليهم، وأنْ يَسألَ الكُفَّارُ ما أَنفَقوا على النِّساءِ المهاجِراتِ، فلمَّا حَكَمَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بذلك دلَّ على أنَّ خروجَ البُضْعِ مُتَقَوَّمٌ، وأنَّه بالمَهرِ المُسَمَّى، ودَلَّتِ الآيةُ على أنَّ المرأةَ إذا أَفسدَتْ نكاحَها رَجَعَ عليها زوجُها بالمَهرِ(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المرادُ

= وأيضًا فإنَّ في هذا تنفيرًا عن الإسلامِ؛ فإنَّ المرأةَ إذا عَلِمَت أو الزَّوجَ أنَّه بمجَرَّدِ الإسلامِ يَزولُ النِّكاحُ، ويفارِقُ مَن يحِبُّ، ولم يَبْقَ له عليها سبيلٌ إلَّا برضاها ورضا وَلِيِّها، ومَهْرٍ جديدٍ؛ نَفَر عن الدُّخولِ في الإسلامِ، بخِلافِ ما إذا عَلِمَ كلٌّ منهما أنَّه متى أسلم فالنِّكاحُ بحالِه، ولا فِراقَ بيْنَهما إلَّا أن يختارَ هو المفارَقةَ، كان في ذلك مِن التَّرغيبِ في الإسلامِ ومحَبَّتِه ما هو أدعى إلى الدُّخولِ فيه). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٦٩٤).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

بالأُجورِ هنا الصَّدَاقُ، وسمَّاه اللهُ أجرًا؛ لأنَّه عِوَضٌ عنِ استمتاعِ الرَّجُلِ بالمرأةِ، فكأنَّه عِوَضٌ في الإجارةِ(١).

١٧- قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ للتَّنبيهِ على خُصوصِ قولِه: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ ما دُفِعَ للزَّوجِ السَّابقِ مُسقِطٌ استِحقاقَ المرأةِ المهرَ ممَّن يَرُومُ تَزويجَها، ومَعلومٌ أنَّ نِكاحَها بعْدَ استبرائِها بثلاثةِ أقراءٍ(٢).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ النِّكاحَ بغيرِ صَداقٍ غيرُ جائزٍ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى أباح النِّكاحَ في هذه الأمكِنةِ مَقرونًا بإيتاءِ الأُجورِ، وابتغائِه بالمالِ، وليس إفرادُ ذِكْرِه في أماكِنَ بمؤَثِّرٍ -واللهُ أعلمُ- في المواضِعِ المقرونةِ بما ذَكَرْنا، بلِ المفسَّرُ أَحرى أنْ يَحْكُمَ على المُجمَلِ(٣).

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ إذا نهى عن الإمساكِ بعِصمتِها، فالنَّهيُ عن ابتداءِ تَزويجِها أَولى(٤).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أنَّه لا يَحِلُّ لمسلمٍ وَطْءُ كافرةٍ إلَّا الكتابيَّةَ المُستثناةَ له بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٥) [المائدة: ٥].

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني: إذا أسلَمْنَ وانقضَتْ عدَّتُهنَّ؛ لِما ثبت مِن تحريمِ نكاحِ المشركةِ والمعتَدَّةِ. فإن أسلمَتْ قبْلَ الدُّخولِ ثبَتَ النِّكاحُ في الحالِ، ولها التَّزوُّجُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٧٤).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أنَّه ما مِن حُكمٍ مِن أحكامِ الشَّريعةِ إلَّا وله حِكمةٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، لكنْ قد تَظهَرُ لنا بالنَّصِّ أو بالإجماعِ أو بالاستِنباطِ، وقد لا تَظهَرُ؛ وذلك لقُصورِنا، أو لِتَقصيرِنا في طَلَبِ الحِكمةِ(١).

٢٢- إنَّ حُكْمَ اللهِ نوعانِ: حكمٌ كَونيٌّ، كقَولِه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾[الأنبياء: ١١٢]، أي: افعَلْ ما تَنْصُرُ به عبادَك، وتخذُلُ به أعداءَك. وحكمٌ دينيٌّ، كقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقد يَرِدُ بالمعنيَينِ معًا، كقَولِه: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، فهذا يتناولُ حُكْمَه الكونيَّ وحُكْمَه الشَّرعيَّ(٢).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ أنَّ الضَّمانَ بيْنَ الطَّوائفِ المُقتَتِلةِ مِن المسلِمينَ يَقَعُ على مجموعِ الطَّائفةِ، يَستوي فيه الرِّدْءُ والمباشِرُ، لا يقالُ: انظُروا مَن قَتَل صاحِبَكم هذا فطالِبوه بدِيَتِه، بل يقالُ: دِيَتُه عليكم كلِّكم؛ فإنَّكم جميعًا قتَلْتُموه؛ لأنَّ المباشِرَ إنَّما تَمكَّنَ بمعاونةِ الرِّدْءِ له.

ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ أولئك الكُفَّارَ كان عليهم مِثلُ صَداقِ هذه المرأةِ الَّتي ذَهبتْ إليهم، فإذا لم يُؤَدُّوه أُخِذَ مِن أموالِهم الَّتي يَقدِرُ المسلِمونَ عليها، مِثلُ امرأةٍ جاءتْ منهم يَستحِقُّونَ صَداقَها، فيُعطَى المسلمُ زَوْجُ تلك المرتَدَّةِ صَداقَها مِن صَداقِ هذه المُسلِمةِ المهاجرةِ الَّذي يَستَحِقُّه الكُفَّارُ؛ لكَونِها أَسْلَمَتْ وهاجَرتْ، وفَوَّتَتْ زوجَها بُضْعَها، كما فَوَّتَتْ المرتَدَّةُ بُضْعَها لزَوجِها، وإنْ كان

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٦/ ٣٨٠).
(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).

زوجُ المهاجرةِ ليس هو الَّذي تزوَّجَ بالمرتَدَّةِ؛ لأنَّ الطَّائفةَ لَمَّا كانت ممتَنِعةً؛ يَمنَعُ بعضُها بعضًا، صارتْ كالشَّخصِ الواحِدِ(١).

٢٤- قال تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ...﴾ أشارت الآيةُ إلى نِسوةٍ مِن نِساءِ المهاجِرينَ لم يُسْلِمْنَ(٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ مُستَلزِمٌ لِتَقواه، فلإيمانكم يَلْزَمُكم التَّقوى، فمَن قال: إنَه مُؤمِنٌ ولكنْ لم يَتَّقِ اللهَ، فهو إمَّا فاقدٌ للإيمانِ بالكُلِّيَّةِ، وإمَّا ناقِصُ الإيمانِ(٣).

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بيانٌ لحُكمِ مَن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٣).

قال ابن عاشور: (وهُنَّ ثماني نِساءٍ: أمُّ الحَكَمِ بنتُ أبي سفيانَ كانت تحتَ عِياضِ بنِ شَدَّادٍ، وفاطِمةُ بنتُ أبي أُمَيَّةَ -ويُقالُ: قُرَيبةُ، وهي أُختُ أمِّ سَلَمةَ- كانت تحتَ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ، وأمُّ كُلثومٍ بنتُ جَرْوَل كانت تحتَ عُمَرَ، وبَرْوَعُ -بفتحِ الباءِ على الأصَحِّ، والمحَدِّثون يَكسِرونَه- بنتُ عُقبةَ كانت تحتَ شَمَّاسِ بنِ عُثمانَ، وشَهبةُ بنتُ غَيْلانَ، وعَبدةُ بنتُ عبدِ العُزَّى كانت تحتَ هِشامِ بنِ العاصِ، وقيل: تحت عَمرِو بنِ عَبدٍ، وهِندُ بنتُ أبي جهلٍ كانت تحتَ هِشامِ ابنِ العاصِ، وأَرْوى بنتُ رَبيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ كانت تحتَ طلحةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٧).

يُظهِرُ الإيمانَ بعْدَ بَيانِ حُكمِ فَريقَي الكافرينَ(١).

- وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ مُعترِضةٌ، أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ سَرائرَهنَّ، ولكنْ عليكم أنْ تَختبِروا ذلك بما تَسْتطيعون مِن الدَّلائلِ؛ ولذلك فُرِّعَ على ما قبْلَ الاعتِراضِ قولُه: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ ...﴾ إلخ، أي: إنْ حَصَل لكم العِلمُ بأنَّهنَّ مُؤمناتٌ غيرُ كاذباتٍ في دَعواهنَّ(٢).

- ومَوقعُ قولِه: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ مَوقعُ البيانِ والتَّفصيلِ للنَّهيِ في قولِه: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ تَحقيقًا لوُجوبِ التَّفرقةِ بيْن المرأةِ المؤمنةِ وزَوجِها الكافرِ(٣). أو تَعليلٌ للنَّهيِ عن رَجْعِهنَّ إلى الكفَّارِ(٤).

- فإنْ قِيل: ما وجْهُ الإتيانِ بالجُملتينِ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ووَجْه التَّعاكُسِ في تَرتيبِ أجْزائِهما؟

فالجوابُ: أنَّ رُجوعَ المرأةِ المؤمنةِ إلى الزَّوجِ الكافرِ يقَعُ على صُورتَينِ؛ إحداهما: أنْ تَرجِعَ المرأةُ المؤمنةُ إلى زَوجِها في بِلادِ الكفْرِ، وذلك هو ما ألَحَّ الكفَّارُ في طَلَبِه لمَّا جاءت بَعضُ المؤمناتِ مُهاجِراتٍ. والثَّانيةُ: أنْ تَرجِعَ إلى زَوجِها في بلادِ الإسلامِ؛ بأنْ يُخلَّى بيْنها وبيْن زَوجِها الكافرِ يُقيمُ معها في بِلادِ الإسلامِ إذا جاء يَطلُبُها ومُنِعَ مِن تَسلُّمِها.

وكِلْتا الصُّورتينِ غيرُ حلالٍ للمرأةِ المسلمةِ، فلا يُجيزُها وُلاةُ الأمورِ، وقد عُبِّرَ عن الصُّورةِ الأُولى بجُملةِ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾؛ إذ جُعِلَ فيها وصْفُ ﴿حِلّٞ﴾ خبَرًا عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

ضَميرِ النِّساءِ، وأُدخِلَت اللَّامُ على ضَميرِ الرِّجالِ، وهي لامُ تَعديةِ الحِلِّ، وأصْلُها لامُ المِلْكِ، فأفاد ألَّا يَملِكَ الرِّجالُ الكفَّارُ عِصمةَ أزواجِهم المؤمناتِ، وذلك يَستلزِمُ أنَّ بَقاءَ النِّساءِ المؤمناتِ في عِصمةِ أزواجِهنَّ الكافرينَ غيرُ حَلالٍ، أي: لم يُحْلِلْهنَّ الإسلامُ لهم. وقدَّم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ لأنَّه راجعٌ إلى الصُّورةِ الأكثرِ أهمِّيَّةً عندَ المشركينَ؛ إذ كانوا يَسألون إرجاعَ النِّساءِ إليهم، ويُرسِلونَ الوسائطَ في ذلك بقَصْدِ الرَّدِّ عليهم بهذا. وجِيءَ في الجُملةِ الأُولَى بالصِّفةِ المُشبَّهةِ -وهي ﴿حِلٌّ﴾- المُفيدةِ لثُبوتِ الوصْفِ؛ إذ كان الرِّجالُ الكافِرونَ يظُنُّونَ أنَّ العِصمةَ الَّتي لهم على أزواجِهم المؤمناتِ مُثبِتةٌ أنَّهم حِلٌّ لهم. وعُبِّرَ عن الثَّانيةِ بجُملةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، فعُكِسَ الإخبارُ بالحلِّ؛ إذ جُعِل خبَرًا عن ضَميرِ الرِّجالِ، وعُدِّيَ الفعلُ إلى المُحلَّلِ باللَّامِ داخلةً على ضَميرِ النِّساءِ، فأفاد أنَّهم لا يحِلُّ لهنَّ أزواجُهنَّ الكافِرون ولو بقِيَ الزَّوجُ في بلادِ الإسلامِ؛ ولهذا ذُكِرَت الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ كالتَّتِمَّةِ لحكْمِ الجُملةِ الأُولى، وجِيءَ في الجُملةِ الثَّانيةِ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارعًا لدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لإفادةِ نفْيِ الطَّماعيةِ في التَّحليلِ، ولو بتَجدُّدِه في الحالِ بعقْدٍ جديدٍ أو اتِّفاقٍ جديدٍ على البقاءِ في دارِ الإسلامِ[١].

ويَجوزُ في الآيةِ وجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنْ يكونَ المرادُ تأْكيدَ نفْيِ الحالِ؛ فبَعْدَ أنْ قال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ -وهو الأصلُ- أكَّدَ بجُملةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أي: إنَّ انتفاءَ الحلِّ حاصلٌ مِن كلِّ جِهةٍ، كما يُقالُ: لَسْتُ منك ولستَ منِّي، ونظيرُه قولُه تَعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ في سُورةِ البقرةِ [١٨٧]؛ تأْكيدًا لشِدَّةِ التَّلبُّسِ والاتِّصالِ مِن كلِّ جِهةٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٨).

وقيل: جاء قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ على سَبيلِ التَّأكيدِ وتَشديدِ الحُرمةِ؛ لأنَّه إذا لم تَحِلَّ المؤمنةُ للكافرِ، عُلِمَ أنَّه لا حِلَّ بيْنَهما ألبتَّةَ. وقِيل: أفاد قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ استمرارَ الحُكمِ بيْنَهم فيما يُستقبَلُ، كما هو في الحالِ ما داموا على الإشراكِ وهنَّ على الإيمانِ. أو لأنَّ الأوَّلَ لبيانِ زوالِ النِّكاحِ الأوَّلِ، والثَّانيَ لبيانِ امتِناعِ النِّكاحِ الجديدِ(١).

- والمرادُ بـ ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ ما أعْطَوه مِن المُهورِ، والعُدولُ عن إطلاقِ اسمِ المُهورِ والأجورِ على ما دَفَعَه المشرِكون لنِسائِهم اللَّائي أسْلَمْنَ مِن لَطائفِ القرآنِ؛ لأنَّ أولئك النِّساءَ أصبَحْنَ غيرَ زَوجاتٍ، فأُلغِيَ إطلاقُ اسمِ المهورِ على ما يُدفَعُ لهم، وقد سمَّى اللهُ بعْدَ ذلك ما يُعطِيه المسلمون لهنَّ أُجورًا بقولِه تَعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، وهو تتْميمٌ لحُكْمِه، أي: كما تُعْطونَهم مُهورَ أزواجِهم اللَّائي فرَرْنَ منهم مُسلِماتٍ، فكذلك إذا فرَّتْ إليهم امرأةُ مسلمٍ كافرةً ولا قُدْرةَ لكم على إرجاعِها إليكم؛ تَسْألون المشركين إرجاعَ مَهْرِها إلى زَوجِها المسلمِ الَّذي فرَّت منه، وهذا إنصافٌ بيْنَ الفريقَين(٣).

- وقولُه: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ تكملةٌ لقولِه: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾؛ لإفادةِ أنَّ معْنى واوِ العَطْفِ هنا على المَعيَّةِ بالقرينةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ لو

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٨، ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٦٠).

أُرِيدَ حُكْمُه بمُفرَدِه لَكان مُغنِيًا عنه قولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، فلمَّا كُرِّرَ عَقِبَ قولِه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ عَلِمْنا أنَّ المرادَ جمْعُ مَضمونِ الجُملتينِ، أي: إذا أعْطَوا ما عليهم أَعْطُوهم ما عليكم، وإلَّا فلا؛ فالواوُ مُفيدةٌ معْنى المعيَّةِ هنا بالقرينةِ[(١)]. وقيل: أعاده توكيدًا؛ لئلَّا يُتهاوَنَ به مِن حيث إنَّهم مُشركون؛ ولذلك أمَرَهم بالسُّؤالِ؛ فإنَّه حقٌّ مِن حُقوقِهم[(٢)].

- وقولُه: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، أو حالٌ مِن لفْظِ الجلالةِ، أو حالٌ مِن ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ على حذْفِ الضَّميرِ، أي: يَحكُمُه اللهُ، أو جُعِلَ الحكْمُ حاكمًا على المُبالَغةِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ يُشيرُ إلى أنَّ هذا حُكْمٌ يَقتضيهِ عِلمُ اللهِ بحاجاتِ عِبادِه، وتَقتضيهِ حِكمتُه؛ إذْ أعْطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾

- فائدةُ إيقاعِ ﴿شَيۡءٌ﴾ في هذا الموضعِ التَّحقيرُ، والمُبالَغةُ في التَّعميمِ، أي: لا يُغادَرُ شَيءٌ مِن هذا الجنسِ، وإنْ قلَّ وحقُرَ، غيرُ مُعوَّضٍ منه؛ تَغليظًا في هذا الحُكمِ، وتَشديدًا فيه[(٥)]. وقيل: لفظُ ﴿شَيۡءٌ﴾ هنا مُرادٌ به: بعضٌ ﴿مِّنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

﴿أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ بيانٌ لـ﴿شَيۡءٞ﴾، وأُريدَ بـ﴿شَيۡءٞ﴾ تحقيرُ الزَّوْجاتِ اللَّائي أبَيْنَ الإسلامَ؛ فإنَّ المرادَ قد فاتَتْ ذاتُها عن زَوجِها، فلا انتِفاعَ له بها[١].

- والكلامُ إيجازُ حذْفٍ شَديدٍ دلَّ عليه مَجموعُ الألْفاظِ ومَوضِعُ الكلامِ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾، والمعْنى: إنْ فرَّتْ بَعضُ أزواجِكم، ولَحِقَت بالكُفَّارِ، وحصَلَ التَّعاقُبُ بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ، فعقَّبْتُم على أزواجِ الكُفَّارِ، وعقَّبَ الكُفَّارُ على أزواجِكم -وذلك على قولٍ-، وأبى الكُفَّارُ مِن دفْعِ مُهورِ بَعضِ النِّساءِ اللَّائي ذَهَبْنَ إليهم؛ فادْفَعوا أنتُم لِمَن حَرَمَه الكُفَّارُ مَهْرَ امرأتِه -أي: ما هو حقُّه- واحْجُزوا ذلك عن الكُفَّارِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾، أي: جاءت عُقْبَتُكم، أي: نَوبتُكم مِن أداءِ المَهرِ، شبَّهَ الحُكْمَ بأداءِ هؤلاء مُهورَ نِساءِ أولئك تارةً، وأداءِ أولئك مُهورَ نِساءِ هؤلاء أُخرى؛ بأمْرٍ يَتعاقَبون فيه كما يُتعاقَبُ في الرُّكوبِ وغيرِه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والتَّذييلُ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ تَحريضٌ للمُسلِمينَ على الوفاءِ بما أمَرَهم اللهُ، وألَّا يَصُدَّهم عن الوفاءِ ببَعضِه مُعامَلَةُ المشركين لهم بالجَورِ وقِلَّةِ الإنصافِ، فأمَرَ بأنْ يُؤدِّيَ المسلِمونَ لإخوانِهم مُهورَ النِّساءِ اللَّائي فارَقُوهنَّ ولم يَرْضَ المُشركونَ بإعطائِهم مُهورَهنَّ؛ ولذلك أُتبِعَ اسمُ الجلالةِ بوصْفِ ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ يَبعَثُ على التَّقوى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٣).

والمشركون لَمَّا لم يُؤمِنوا بما أمَرَ اللهُ انْتَفى منهم وازِعُ الإنصافِ، أي: فلا تَكونوا مِثلَهم، والجُملةُ الاسميَّةُ في الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ للدَّلالةِ على ثَباتِ إيمانِهم(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

الآيتان (١٢-١٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾: البَيعةُ والمُبايَعةُ: العهدُ على الطَّاعةِ والنُّصرةِ، وما يأخُذُه الإمامُ على رعيَّتِه مِن المَواثيقِ بالسَّمعِ والطَّاعةِ. يُقالُ: بايَعَ السُّلطانَ: إذا تضمَّنَ بَذْلَ الطَّاعةِ بما رضَخ له، والبَيعُ والمُبايَعةُ مأخوذانِ مِن مَدِّ الباعِ؛ لأنَّ المُتبايِعَينِ للسِّلعةِ كلٌّ منهما يمُدُّ باعَه للآخَرِ ويُعاقِدُه عليها، وكذلك مَن بايَع الإمامَ ونحوَه فإنَّه يمُدُّ باعَه إليه ويُعاهِدُه ويُعاقِدُه على ما يُبايِعُه عليه، وقيل: المُبايَعةُ مُفاعَلةٌ مِن البَيعِ؛ لأنَّ صاحِبَها باع نفْسَه لله[(١)].

﴿بِبُهْتَٰنٍ﴾: أي: افتِراءٍ وكَذِبٍ يَبهَتُ سامِعَه لِفَظاعَتِه، يُقالُ: بَهَت فُلانٌ فُلانًا: إذا كَذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرَّجُلُ: إذا تحيَّرَ؛ فالبُهتانُ كَذِبٌ يُحيِّرُ الإنسانَ لعِظَمِه، ثمَّ جُعِل كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا، وكانت المرأةُ تلتَقِطُ الوَلَدَ فتقولُ لزَوجِها: هذا وَلَدي منك، فذلك البُهتانُ المُفتَرَى هنا[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٤٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ض: ١٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠١).

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: أي: يتعمَّدْنَ كَذِبَه، يُقالُ: افترَى فُلانٌ على فُلانٍ: إذا قذَفَه بما ليس فيه، والافتراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الجِلْدِ، أي: قَطْعِه، فقِيلَ للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمبايعةِ المؤمناتِ، ويُبيِّنُ ما تمَّت عليه المبايعةُ، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءك المؤمِناتُ يُبايِعْنَك على ألَّا يَعبُدْنَ أحَدًا غيرَ اللهِ تعالى، ولا يَسرِقْنَ، ولا يَزنِينَ، ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ خوفًا مِنَ الفقرِ أو غَيرِه، ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم، ولا يَعصِينَك -يا محمَّدُ- فيما تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه؛ فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ، واطلُبْ لهنَّ مِنَ اللهِ المغفرةَ؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ يَنهَى اللهُ تعالى في خاتمةِ هذه السُّورةِ عن موالاةِ الكافرينَ، كما نهَى عنها في أوَّلِها، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَتولَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم لكُفرِهم، وقد يَئِسوا مِن ثوابِ اللهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ كما يَئِسَ الكُفَّارُ الموتَى في القُبورِ مِن ثوابِ الله ورحمتِه.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تَكملةٌ لامتحانِ النِّساءِ المُتقدِّمِ ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ الآيةَ [الممتحنة: ١٠]، وبَيانٌ لتَفصيلِ آثارِه؛ فكأنَّه يقولُ: فإنْ عَلِمْتُموهنَّ مُؤمناتٍ فلا تَرجِعوهنَّ إلى الكُفَّارِ، وبيِّنوا لهنَّ شرائعَ الإسلامِ[1].

وأيضًا لَمَّا خاطَبَ اللهُ سُبحانَه المؤمِنينَ الَّذين لهم موضِعُ الذَّبِّ والحمايةِ والنُّصرةِ بما وطَّن به المؤمِناتِ في دارِ الهِجْرةِ، فوَقَع الامتحانُ وعُرِفَ الإيمانُ- أمَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ الحُكمِ بإيمانِهنَّ بمُبايعَتِهنَّ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءك المؤمِناتُ يُبايِعْنَك على ألَّا يَعبُدْنَ أحَدًا غَيرَ اللهِ تعالى[3].

عن أُمَيْمةَ بِنتِ رُقَيْقةَ التَّيْميَّةِ، قالت: ((أتَيْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نِسوةٍ مِن المُسلِمينَ لِنُبايِعَه، فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، جِئْنا لِنُبايِعَك على ألَّا نُشرِكَ باللهِ شَيئًا، ولا نَسرِقَ، ولا نَزنيَ، ولا نَقتُلَ أولادَنا، ولا نأتيَ ببُهتانٍ نَفتريه بيْنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (سَمَّاهنَّ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ بحَسَبِ الظَّاهِرِ مِن أمْرِهنَّ، ورفضُ الإشراكِ هو محضُ الإيمانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

وقال الألوسي: (المبايعةُ وَقَعت غيرَ مَرَّةٍ؛ وقَعَت في مكَّةَ بعدَ الفَتحِ، وفي المدينةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٤).

أيدِينا وأرجُلِنا، ولا نَعصيَك في مَعروفٍ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فيما استطَعْتُنَّ وأطَقْتُنَّ. قالت: قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أرحَمُ بنا مِن أنفُسِنا، بايِعْنا يا رَسولَ اللهِ. قال: اذهَبْنَ؛ فقد بايَعْتُكنَّ، إنَّما قولي لِمِئَةِ امرأةٍ كقَولي لامرأةٍ واحِدةٍ. قالت: ولم يُصافِحْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَّا امرأةً))[(١)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((شَهِدتُ الصَّلاةَ يومَ الفِطرِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبي بكرٍ، وعُمَرَ، وعُثمانَ، فكُلُّهم يُصَلِّيها قبْلَ الخُطبةِ، ثمَّ يَخطُبُ بَعْدُ، فنَزَل نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكأنِّي أنظُرُ إليه حينَ يُجلِّسُ الرِّجالَ بيَدِه[(٢)]، ثمَّ أقبَلَ يَشُقُّهم، حتَّى أتى النِّساءَ معَ بلالٍ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتَّى فَرَغ من الآيةِ كُلِّها، ثمَّ قال حينَ فَرَغ: أنتُنَّ على ذلك؟ فقالت امرأةٌ واحدةٌ لم يُجِبْه غَيرُها: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ. قال: فتَصَدَّقْنَ، وبَسَطَ بِلالٌ ثَوبَه، فجَعَلْنَ يُلقِينَ الفَتَخَ[(٣)] والخواتيمَ في ثَوبِ بِلالٍ))[(٤)].

---

(١) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (١٥٩٧)، وابنُ ماجه (٢٨٧٤) مختصرًا، والنَّسائيُّ (٤١٨١)، وأحمدُ (٢٧٠٠٧) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٤٥٥٣)، وابنُ القطَّانِ في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٥١٦)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٥٢٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٤١٨١)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٨/ ١٢٢)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٤/ ٥٥٨).

قال ابنُ عطيَّة: (الإجماعُ على أنَّه لم تَمَسَّ يَدُه يَدَ امرأةٍ أجنبيَّةٍ قَطُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

(٢) أي: يأمُرُهم بالجلوسِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٧٢).

(٣) الفَتَخُ: خَواتيمُ كِبارٌ تُلبَسُ في الأيدي، ورُبَّما وُضِعَت في أصابعِ الأرْجُلِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٨).

(٤) رواه البخاري (٤٨٩٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٨٤).

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحن في مجلِسٍ: ((تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَسرِقوا، ولا تَزنُوا، ولا تَقتُلوا أولادَكم، ولا تأتوا ببُهتانٍ تَفتَرونَه بيْن أيديكم وأرجُلِكم، ولا تَعصُوا في معروفٍ، فمَنْ وفَى منكم فأجْرُه على اللهِ، ومَن أصاب مِن ذلك شيئًا فعُوقِبَ في الدُّنيا فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب من ذلك شيئًا فستَرَه اللهُ فأمْرُه إلى اللهِ؛ إن شاء عاقَبه، وإن شاء عفا عنه. فبايَعْناه على ذلك))[(١)].

﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾.

أي: ولا يأخُذْنَ مالَ أحدٍ خُفيةً بغَيرِ استِحقاقٍ[(٢)].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَتْ هِندُ بِنتُ عُتبةَ امرأةُ أبي سُفيانَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ أبا سُفيانَ رَجُلٌ شَحيحٌ لا يُعطيني مِنَ النَّفَقةِ ما يَكفيني ويَكفي بَنيَّ إلَّا ما أخذْتُ مِن مالِه بغيرِ عِلْمِه، فهل علَيَّ في ذلك مِن جُناحٍ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خُذي مِن مالِه بالمعروفِ ما يكفيكِ ويكفي بَنِيكِ))[(٣)].

﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾.

أي: ولا يقَعْنَ في الزِّنا بتَمكينِ أحَدٍ مِن وَطْئِهنَّ بغَيرِ عَقدٍ صَحيحٍ[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري (٧٢١٣) واللَّفظُ له، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٣٦٤)، ومسلمٌ (١٧١٤) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾.

أي: ولا يَقتُلْنَ أبناءَهنَّ وبَناتِهنَّ خَوفًا مِنَ الفَقرِ أو غَيرِه[١].

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

أي: ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٠).

قال ابنُ كثير: (هذا يَشملُ قَتْلَه بعدَ وُجودِه، كما كان أهلُ الجاهليَّةِ يَقتُلونَ أولادَهم خَشيةَ الإملاقِ، ويَعُمُّ قَتْلَه وهو جنينٌ، كما قد يفعَلُه بعضُ الجَهَلةِ مِن النِّساءِ، تَطرَحُ نَفْسَها لئلَّا تَحبَلَ؛ إمَّا لغَرَضٍ فاسِدٍ، أو ما أشبَهَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والبقاعي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٤١).

قال القرطبي: (هذا عامٌّ في الإتيانِ بولدٍ وإلحاقِه بالزَّوجِ وإن سبَق النَّهيُ عن الزِّنا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٢).

وقال ابنُ عطية: (الإتيانُ بالبُهتانِ: قال أكثَرُ المفسِّرينَ: معناه أن تَنسُبَ إلى زَوجِها ولَدًا ليس هو له، واللَّفظُ أعَمُّ من هذا التَّخصيصِ؛ فإنَّ الفِريةَ بالقَولِ على أحدٍ مِن النَّاسِ بعظيمةٍ لَمِنْ هذا، وإنَّ الكَذِبَ فيما اؤتُمِنَّ فيه مِن الحَملِ والحَيضِ لَفِريةٌ وبُهتانٌ، وبَعضٌ أقوى من بعضٍ، وذلك أنَّ بَعضَ النَّاسِ قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: يُرادُ به اللِّسانُ والفَمُ؛ في الكَلامِ والقُبلةِ ونَحوِه، وبيْنَ الأرجُلِ: يُرادُ به الفُروجُ، وولَدُ الإلحاقِ، ونحوُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤).

وقال الواحدي: (﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ وذلك أنَّ المولودَ إذا وضَعَتْه الأمُّ، سقَط بيْن =

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

أي: ولا يَعصِينَك -يا محمَّدُ- فيما تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه؛ كأمْرِك لهنَّ بتَركِ النِّياحةِ وشَقِّ الجُيوبِ والتَّبَرُّجِ ووَصلِ الشَّعرِ والخَلوةِ بالرِّجالِ الأجانِبِ، وغَيرِ ذلك[١].

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وعن أمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أخَذَ علينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ البَيعةِ ألَّا نَنُوحَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((ليس مِنَّا مَن ضرَبَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعا بدَعوى الجاهِليَّةِ[٣]))[٤].

﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾.

= يدَيْها ورِجليها، وليس المعنى نَهْيَهُنَّ مِن أنَّ يأتينَ بولدٍ مِن الزِّنا، فيَنسُبْنَه على الأزواجِ؛ لأنَّ الشَّرطَ بنَهيِ الزِّنا قد تقدَّم. ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٧). ويُنظر ما يأتي (ص: ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال الْكِيَا الهَرَّاسي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ هو عُمومٌ في جميعِ طاعاتِ اللهِ تعالى). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤١٠، ٤١١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٤).

وقال ابن رجب: (دخَل في قولِه: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ الانتهاءُ عن جميعِ المعاصي. ويَدخُلُ فيها أيضًا القيامُ بجميعِ الطَّاعاتِ، على رأيِ مَن يَرى أنَّ النَّهيَ عن شَيءٍ أمْرٌ بضِدِّه). ((فتح الباري)) (١/ ٧٧).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٠٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٣٦).

(٣) دَعْوى الجاهِليَّةِ هي: النِّياحةُ ونَدْبُ الميِّتِ، والدُّعاءُ بالوَيلِ وشِبْهِه، والمرادُ بالجاهِليَّةِ: ما كان في الفَترةِ قبْلَ الإسلامِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (١٢٩٧)، ومسلمٌ (١٠٣).

أي: إذا جاءك -يا محمَّدُ- المؤمِناتُ يُبايِعْنَك، فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ[١].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ محلَّ النُّقصانِ؛ رجَّاهنَّ سُبحانَه بقولِه[٢]:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

أي: واطلُبْ -يا محمَّدُ- مِنَ اللهِ أن يَغفِرَ للمُؤمِناتِ المُبايِعاتِ ذُنوبَهنَّ وتَقصيرَهنَّ[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالغُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، بالغُ الرَّحمةِ بهم[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).
قال ابنُ جُزَي: (هذه المبايَعةُ للنِّساءِ غيرُ مَعمولٍ بها اليومَ؛ لأنَّه أجمَعَ العُلَماءُ على أنَّه ليس للإمامِ أن يَشتَرِطَ عليهنَّ هذا؛ فإمَّا أن تكونَ مَنسوخةً ولم يُذكَرِ النَّاسِخُ، أو يكونَ تَرْكُ هذه الشُّروطِ لأنَّها قد تقَرَّرَتْ وعُلِمَت مِن الشَّرعِ بالضَّرورةِ؛ فلا حاجةَ إلى اشتِراطِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أَمَر به نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المبايِعاتِ، بعدَ أن عَدَّ الَّذين آمنوا أصلًا في امتحانِ المُهاجِرات، فعُلِمَ مِن ذلك أنَّ توَلِّيَ النِّساءِ -مع أنَّه لا ضَرَرَ فيهِنَّ بقِتالٍ ونَحْوِه- لا يَسوغُ إلَّا بعدَ العِلمِ بإيمانِهنَّ، وكان الخَتمُ بصِفَتَي الغُفرانِ والرَّحمةِ رُبَّما جرَّأ على مُحاباةِ المؤمنينَ لبَعضِ الكُفَّارِ مِن أزواجٍ أو غَيرِهم؛ لقَرابةٍ أو غيرِها، لعِلَّةٍ يُبديها الزَّوجُ، أو غيرِ ذلك مِن الأمورِ- كرَّر سُبحانَه الأمرَ بالبَراءةِ مِن كلِّ عَدُوٍّ؛ ردًّا لآخِرِ السُّورةِ على أوَّلِها، تأكيدًا للإعراضِ عنهم، وتنفيرًا مِن توَلِّيهم، كما أفهَمَتْه آيةُ المبايَعةِ، وآيةُ الامتحانِ(١).

وأيضًا بعدَ أن استقصَتِ السُّورةُ إرشادَ المُسلِمينَ إلى ما يَجِبُ في المعامَلةِ مع المُشرِكينَ، جاء في خاتِمَتِها الإرشادُ إلى المعامَلةِ مع قَومٍ لَيسُوا دونَ المُشرِكينَ في وُجوبِ الحَذَرِ منهم، وهم اليَهودُ(٢). وذلك على قولٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَتَوَلَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم بسَبَبِ كُفرِهم، فتَتَّخِذوهم أولياءَ لكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قيل: المرادُ بهم: اليهودُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) =

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

أي: قد يَئِسوا مِن ثوابِ اللهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ[1] كما يَئِسَ الكُفَّارُ الموتى في قُبورِهم مِن ثَوابِ اللهِ ورَحمتِه؛ لأنَّهم وقفُوا على حقيقةِ الحالِ[2].

= (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن أبي زَمَنين)) (٤/ ٣٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (لأنَّ الغضَبَ قد صار عُرفًا لليهودِ؛ كقولِه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٧]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩).

وقيل: هم كُفَّارُ قُرَيش. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ: جميعُ أصنافِ الكُفَّارِ وطوائفِهم. وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ كثير، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال البقاعي: (عامٌّ في كُلِّ مَن اتَّصف بذلك، يَتناوَلُ اليهودَ تناوُلًا أوَّليًّا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٢٧).

(١) قال الرَّسْعَني: (﴿قَدْ يَئِسُوا۟﴾ يعني: القومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم ﴿مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: مِن ثوابِ الآخرةِ بسَبَبِ كُفرِهم بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم يَعرِفونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم، هذا قَولُ جمهورِ العُلَماءِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

ممَّن ذهب إلى القَولِ المذكور: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبغويُّ، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والكلبيُّ، وابنُ زَيدٍ، ومنصور بن المعتمر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ -على هذا القَولِ- بيانٌ للكُفَّارِ، فـ(مِنْ) بيانيَّةٌ، أي: كما يَئِسَ الكُفَّارُ الَّذين قُبِروا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

وقيل: المعنى: كما يَئِس الكفَّارُ الأحياءُ مِن أمواتِهم الَّذين في القُبورِ أن يَرجِعوا أحياءً، وأن يُبعَثوا؛ لأنَّهم لا يُوقِنونَ بالبَعْثِ. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقعَدَه مِن النَّارِ لو أساءَ؛ لِيَزدادَ شُكرًا، ولا يَدخُلُ النَّارَ أحدٌ إلَّا أُرِيَ مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ لو أحسَنَ؛ لِيَكونَ عليه حَسرةً!))[١].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشيِّ؛ إن كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإن كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقالُ: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: قد حُرِموا مِن خَيرِ الآخِرةِ، فليس لهم منها نَصيبٌ؛ فاحذَروا أن تَوَلَّوهم، فتُوافِقُوهم على شَرِّهم وكُفرِهم، فتُحرَموا خيرَ الآخِرةِ كما حُرِموا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ

= الرسعني)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣).

و﴿مِنۡ﴾ على هذا القَولِ لابتداءِ الغايةِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٦٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٧٩)، ومسلمٌ (٢٨٦٦) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ ذكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ورَسولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في صِفةِ البَيعةِ خِصالًا شَتَّى صَرَّح فيهِنَّ بأركانِ النَّهيِ في الدِّينِ، ولم يَذكُرْ أركانَ الأمرِ، وهي سِتَّةٌ أيضًا: الشَّهادةُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحَجُّ، والاغتِسالُ مِن الجنابةِ؛ وذلك لأنَّ النَّهيَ دائِمٌ في كُلِّ الأزمانِ وكُلِّ الأحوالِ، فكان التَّنبيهُ على اشتراطِ الدَّائِمِ آكَدَ.

وقيل: إنَّ هذه المناهِيَ كان في النِّساءِ كَثيرٌ مَن يَرتَكِبُها، ولا يَحجُزُهنَّ عنها شَرَفُ النَّسَبِ؛ فخُصَّت بالذِّكرِ لهذا[١].

وقيل: لم يَذكُرْ في بَيعتِهنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ، والصِّيامَ والحَجَّ؛ لوُضوحِ كَونِ هذه الأمورِ ونَحوِها مِن أركانِ الدِّينِ وشَعائِرِ الإسلامِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ تَقييدُ مُبايَعتِهنَّ بما ذُكِرَ مِن مَجيئِهنَّ؛ لحَثِّهنَّ على المُسارعةِ إليها مع كَمالِ الرَّغبةِ فيها مِن غَيرِ دَعوةٍ لهنَّ إليها[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾، وما وَجهُه؟

الجوابُ: أنَّ بطنَها الَّذي تحملُه فيه بيْنَ يديها، ومَخرجُه بين رِجلَيْها[٤].

وقيل: إنَّ المرأةَ إذا التقَطَت ولَدًا فإنَّما التقَطَت بيَدِها، ومَشَت إلى أخْذِه برِجْلِها، فإذا أضافَتْه إلى زوجِها فقد أتت ببُهتانٍ تَفتريه بينَ يَدَيها ورِجْلَيها.

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠).

وقيل: الوَلَدُ إذا وضعَتْه أمُّه سَقَط بينَ يَدَيها ورِجْلَيها[١].

وقيل: لأنَّ الثَّدْيَ بينَ يدينِ، والفَرْجَ بينَ الرِّجلَيْنِ، والمرأةُ تَضَعُ وتُرضِعُ.

وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- إنْ قِيل: لو اقتصَرَ على قولِه: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾؛ فقدْ عُلِمَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَأمُرُ إلَّا بمَعروفٍ؟

فالجوابُ: نبَّهَ بذلك على أنَّ طاعةَ المَخلوقِ في مَعصيةِ الخالقِ جَديرةٌ بغايةِ التَّوقِّي والاجتنابِ[٣]؛ لئلَّا يترخَّصَ أحدٌ في طاعةِ السَّلاطينِ إذا لم تكُنْ طاعةً لله تعالى؛ إذ شَرَطَ في طاعةِ خيرِ العالَمِينَ أن يأمُرَ بالمعروفِ، وكذلك لا يجِبُ طاعةُ أئمَّةِ العِلمِ فيما يتعَلَّقُ بالأغراضِ المتأوَّلةِ، ولا يَسوغُ لِمُسلمٍ اتِّباعُهم[٤]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ طاعةَ أُولي الأمرِ إنَّما تَلزَمُ في المعروفِ، كما ثَبَتَ في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٥]، ونظيرُ هذا قولُه: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وهو لا يدعو إلَّا إلى ذلك، والتَّقييدُ هنا لا مَفهومَ له؛ فإنَّه لا يَقَعُ دعاءٌ لغيرِ ذلك، ولا أَمرٌ بغَيرِ مَعروفٍ[٦]! وقيل: التَّقييدُ به لقصْدِ التَّوسعةِ عليهنَّ في أمْرٍ لا يَتعلَّقُ بالدِّينِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤١٠، ٤١١).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧١٤٥)، ومسلمٌ (١٨٤٠) من حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٧).

فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الطَّاعةَ لا تكونُ إلَّا في معروفٍ، فلا يُطاعُ مخلوقٌ إلَّا في معروفٍ، ولا يُطاعُ في معصيةِ الخالقِ عزَّ وجلَّ. وقد استنبَط هذا المعنى مِن هذه الآيةِ طائفةٌ مِن السَّلفِ. فلو كان لأحدٍ مِن البشَرِ أن يُطاعَ بكلِّ حالٍ، لَكان ذلك للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا خُصَّتْ طاعتُه بالمعروفِ، مع أنَّه لا يأمُرُ إلَّا بما هو معروفٌ؛ دل على أنَّ الطَّاعةَ في الأصلِ لله وحْدَه، والرَّسولُ مُبلِّغٌ عنه، وواسِطةٌ بيْنَه وبيْن عِبادِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] [النساء: ٨٠].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- جُملةُ ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن المؤمناتِ، على معْنى: يُرِدْنَ المُبايَعةَ، وهي المذكورةُ في هذه الآيةِ، وجوابُ (إذا) ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾ جَوابَ ﴿إِذَا﴾، ومعْنى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، أي: الدَّاخلاتُ في جَماعةِ المؤمنينَ على الجُملةِ والإجمالِ، لا يَعْلَمْنَ أُصولَ الإسلامِ، وبيَّنه بقَولِه: ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾، فهو خبَرٌ مُرادٌ به الأمرُ، أي: فلْيُبايِعْنَك، وتكونَ جُملةُ ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ تفريعًا لجُملةِ ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾، وليُبْنى عليها قولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[2].

- وقال هنا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾، ولم يقُلْ: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾[الممتحنة:

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦).

١٠]، كما قال في المُهاجِراتِ؛ قيل: ذلك لأنَّ الامتحانَ حاصلٌ بقولِه تَعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ إلى آخِرِه. أو لأنَّ المُهاجِراتِ يأْتِين مِن دارِ الحرْبِ، فلا اطِّلاعَ لهُنَّ على الشَّرائعِ، فلا بُدَّ مِن الامتحانِ، وأمَّا المؤمناتُ فهُنَّ في دارِ الإسلامِ، وعُلِّمْنَ الشَّرائعَ، فلا حاجةَ إلى الامتحانِ(١).

أو لأنَّ المقصودَ بامتحانِ المُهاجِراتِ التَّحقُّقُ مِن أنَّ انتِقالَها إلى المدينةِ ليس لغرَضٍ دُنيويٍّ ويَنبني عليه عدمُ ردِّها إلى الكفَّارِ، بخِلافِ البَيعةِ هنا؛ فهي لا تختصُّ بالمُهاجِراتِ.

- قولُه: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أي: بعدَ وُجودِهم أو وهُم أجِنَّةٌ. وقيل: أراد وَأْدَ البناتِ الَّذي كان يَفعَلُه أهلُ الجاهليَّةِ، ثمَّ هو عامٌّ في كلِّ نوعٍ مِن قتلِ الولدِ وغيرِه(٢)، وأُسنِدَ القَتلُ إلى النِّساءِ وإنْ كان بَعضُه يفعَلُه الرِّجالُ؛ لأنَّ النِّساءَ كنَّ يَرْضَينَ به، أو يَسكُتْنَ عليه(٣).

- وقولُه: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَأْتِينَ﴾، وهذا مِن الكلامِ الجامعِ لِمَعانٍ كثيرةٍ؛ فالبُهتانُ حَقيقتُه: الإخبارُ بالكذبِ، وهو مَصدرٌ، ويُطلَقُ المصدرُ على اسمِ المفعولِ، كالخلْقِ بمعْنى المخلوقِ، وحقيقةُ (بيْنَ الأيدي والأرْجُلِ): أنْ يكونَ الكذبُ حاصلًا في مَكانٍ يَتوسَّطُ الأيديَ والأرجُلَ، فإنْ كان البُهتانُ على حَقيقتِه -وهو الخبرُ الكاذبُ- كان افتِراؤُه بيْن أيدِيهنَّ وأرْجُلِهنَّ: أنَّه كذِبُ مُواجَهةٍ في وجْهِ المكذوبِ عليه، كقولِها: يا فُلانةُ، زَنَيتِ مع فُلانٍ، أو سرَقْتِ حَلْيَ فُلانةَ؛ لتَبْهَتَها في مَلأٍ مِن النَّاسِ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦).

أنتِ بنتُ زِنًا، أو نحوِ ذلك. وإنْ كان البهتانُ بمعْنى المكذوبِ، كان معْنى افترائِه بيْن أيدِيهنَّ وأرجُلِهنَّ كِنايةً عن ادِّعاءِ الحمْلِ؛ بأنْ تَشرَبَ ما يَنفُخُ بَطْنَها، فتُوهِمَ زَوجَها أنَّها حاملٌ، ثمَّ تُظهِرَ الطَّلْقَ وتأْتيَ بولدٍ تَلتقِطُه وتَنسُبُه إلى زَوجِها؛ لئلَّا يُطلِّقَها، أو لئلَّا يَرِثَه عَصَبتُه، فهي تُعظِّمُ بطْنَها وهو بيْن يَدَيها، ثمَّ إذا وصَلَ إبَّانُ إظهارِ الطَّلْقِ وَضَعَت الطِّفلَ بيْن رِجْلَيْها وتَحدَّثت وتَحدَّثَ النَّاسُ بذلك؛ فهو مَبهوتٌ عليه، فالافتراءُ هو ادِّعاؤها ذلك تأكيدًا لمعْنى البُهتانِ.

وإنْ كان البُهتانُ مُعبَّرًا به عن الباطِلِ الشَّبيهِ بالخبَرِ البُهتانِ، كان ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ مُحتمِلًا للكِنايةِ عن تَمكينِ المرأةِ نفْسَها مِن غيرِ زَوجِها يُقبِّلُها أو يَجُسُّها، فذلك بيْن يَدَيْها، أو يَزْني بها، وذلك بيْن أرْجُلِها(١).

وقيل: إنَّ ذِكرَ اليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ على طريقِ التَّأكيدِ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] يعني: بما كسَبْتُم، وذِكرُ الأيدي على طَريقِ التَّأكيدِ(٢).

- وتَخصيصُ الأُمورِ المَعدودةِ بالذِّكرِ في حَقِّهنَّ؛ لكَثْرةِ وُقوعِها فيمَا بيْنَهنَّ، مَعَ اختصاصِ بَعضِها بِهنَّ(٣).

- ووَجهُ التَّرتيبِ في الأشياءِ المذكورةِ، وتقديمِ بعضِها على بعضٍ في الآيةِ؛ مِن وُجوهٍ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠٩، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١). ويُنظر ما تقدم: (ص: ١١٤-١١٥).

منها: أنَّه قَدَّم الأقبَحَ على ما هو الأدنى منه في القُبحِ، ثمَّ كذلك إلى آخِرِه.

ومنها: أنَّه قدَّم مِن الأشياءِ المذكورةِ ما هو الأظهَرُ فيما بَيْنَهم(١).

وقيل: لَمَّا كان الشِّرْكُ بَذْلَ حَقِّ المَلِكِ لِمَن لا يستَحِقُّه؛ أتْبَعَه أخْذَ مالِ المالِكِ بغَيرِ حقٍّ؛ لاقتضاءِ الحالِ لذلك بتمَكُّنِ المرأةِ مِن اختلاسِ مالِ الزَّوجِ، وعُسْرِ تحَفُّظِه منها، فقال: ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾، وأتبَعَ ذلك بَذْلَ حَقِّ الغَيرِ لغَيرِ أهْلِه، فقال: ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾، أي: يمكِّنَّ أحدًا مِن وَطْئِهِنَّ بغَيرِ عَقدٍ صَحيحٍ، ولَمَّا كان الزِّنا قد يكونُ سَبَبًا في إيجادِ أو إعدامِ نَسَمةٍ بغيرِ حَقِّها؛ أتبَعَه إعدامَ نَسَمةٍ بغيرِ حَقِّه، فقال: ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾، ولَمَّا ذَكَر إعدامَ نَسَمةٍ بغيرِ حَقٍّ ولا وَجهٍ شَرْعيٍّ؛ أتبَعَه ما يَشملُ إيجادَ نَسَمةٍ بغيرِ حِلٍّ، فقال: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ﴾، أي: وَلَدٍ مِن غيرِ الزَّوجِ، ﴿يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ﴾ أي: بالحَمْلِ في البُطونِ ﴿وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ أي: بالوَضعِ مِن الفُروجِ -على قولٍ-، وهذا شامِلٌ لِما كان مِن شُبْهةٍ أو لُقَطةٍ، ولَمَّا حَقَّق هذه الكبائِرَ العظيمةَ؛ تعظيمًا لأَمْرِها لعُسْرِ الاحترازِ منها، وأكَّد النَّهيَ عن الزِّنا مُطابَقةً وإلزامًا لِما يَجُرُّ إليه مِن الشُّرورِ؛ القَتْلِ فما دُونَه، وغَلَّظ أمْرَ النَّسَبِ لِما يَتفرَّعُ عليه مِن إيقاعِ الشُّبُهاتِ، وانتِهاكِ الحُرُماتِ- عمَّ في النَّهيِ، فقال: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾(٢).

- قيل: قدَّمَ المنهِيَّاتِ على المأموراتِ المستفادةِ مِن المعروفِ في قوله: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾؛ لأنَّ التخَلِّيَ عن الرَّذائِلِ مُقَدَّمٌ على التَّحلِّي بالفضائِلِ؛ لأنَّ دَرْءَ المَفاسِدِ أَولى مِن جَلبِ المصالحِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٢٤).

- وقولُه: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ جوابُ (إذا) تَفريعٌ على ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، أي: فاقْبَلْ مِنهنَّ ما بايَعْنَكَ عليه؛ لأنَّ البَيعةَ عِندَه مِن جانبينِ؛ ولذلك صِيغَت لها صِيغةُ المُفاعَلةِ[1].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: فيما فَرَطَ منْهنَّ في الجاهليةِ ممَّا خُصَّ بالنَّهيِ في شُروطِ البَيعةِ وغيرِ ذلك؛ ولذلك حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لفِعلِ (اسْتَغْفِرْ)[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: مُبالِغٌ في المَغفرةِ والرَّحمةِ. وهو تَعليلٌ للأمرِ بالاستِغفارِ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾

- هو كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاختِتامِ السُّورةِ بمِثلِ ما ابتَدَأَها مِن النَّهيِ عن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياءَ[4]؛ تأكيدًا لتَركِ مُوالاتِهم، وتنفيرًا للمُسلِمينَ عن تولِّيهم، وإلقاءِ المودَّةِ إليهم[5].

- على القولِ بأنَّ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم هم اليهودُ، وإذ قد كانوا لا يُنكِرون الدَّارَ الآخرةَ؛ كان معْنى يأْسِهم مِن الآخِرةِ هو اليأسُ مِن خيرِ الآخرةِ وثَوابِها؛ لِعنادِهم الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم المَنعوتَ في كتابِهم، المؤيَّدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١).

بالآياتِ البَيِّناتِ، والمُعجِزاتِ الباهِراتِ. ويحتمِلُ أنْ يُرادَ به الإعراضُ عن العمَلِ للآخِرةِ، فكأنَّهم في إهمالِ الاستِعدادِ لها آيِسُون منها. ووجْهُ تَشبيهِ إعراضِهم هذا بيَأْسِ الكفَّارِ مِن أصحابِ القُبورِ: شِدَّةُ الإعراضِ، وعدَمُ التَّفكُّرِ في الأمْرِ؛ شُبِّهَ إعراضُهم عن العمَلِ لنفْعِ الآخِرةِ بيَأْسِ الكفَّارِ مِن حَياةِ المَوتى والبَعثِ، وفيه تَشنيعُ المُشبَّهِ. و﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ على هذا الوجْهِ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَئِسُوا﴾، والكفَّارُ: المشركون.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ بَيانًا للكُفَّارِ، أي: الَّذين هم أصحابُ القبورِ، أي: الكفَّارُ الموتى، الَّذين هَلَكوا ورَأَوا أنْ لا حظَّ لهم في خَيرِ الآخرةِ؛ فشَبَّهَ إعراضَ اليهودِ عن الآخِرةِ بيَأْسِ الكُفَّارِ مِن نَعيمِ الآخرةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: تَحقُّقُ عدَمِ الانتفاعِ بالآخرةِ، والمعْنى: كيَأْسِ الكُفَّارِ الأمواتِ، أي: يأسًا مِن الآخِرةِ، والمُشبَّهُ به مَعلومٌ للمُسلِمينَ بالاعتقادِ؛ فالكلامُ مِن تَشبيهِ المحسوسِ بالمعقولِ[١].

ويجوزُ أن تكونَ ﴿مِنْ﴾ لابتِداءِ الغايةِ، والمعنى: أنَّ هؤلاء القومَ المغضوبَ عليهم قد يَئِسوا مِن الآخرةِ كما يَئِسوا مِن مَوتاهم أن يُبعَثوا ويَلقوهم في دارِ الدُّنيا، فالمرادُ بالكفَّارِ أولئك القومُ، ووُضِع الظَّاهرُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ تسجيلًا لكفرِهم، وإشعارًا بعِلَّةِ يأسِهم[٢].

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالاستِطرادِ[٣]؛ وهو فنٌّ رَفيعٌ مِن فُنونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

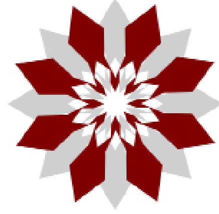
(٣) الاستطراد: خروجُ المتكلِّمِ مِن الغرضِ الَّذي كان يتكلَّمُ فيه إلى غيرِه لِمُناسَبةٍ بيْنَهما، ثمَّ ترْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَض عُروضًا. يُنظر: ((خزانة الأدب)) =

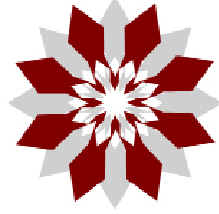
البَيانِ؛ فقدْ ذمَّ اليهودَ واستَطْرَدَ ذَمَّهم بذَمِّ المشركين على نَوعٍ حَسَنٍ مِن النِّسبةِ(١).

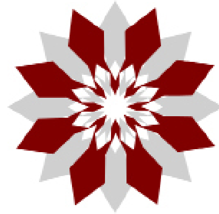


= لابن حِجَّة الحموي (١/ ١٠٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

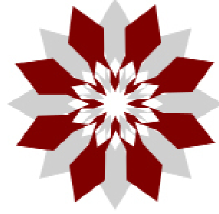


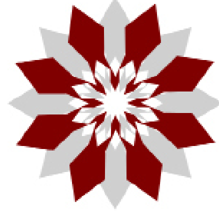


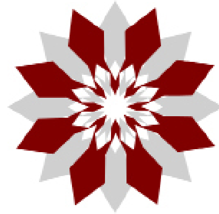


تَفْسِيرُ

سُورَةِ الصَّفِّ







سُورةُ الصَّفِّ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الصَّفِّ)[١].

فعن عَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ، قال: ((تذاكَرْنا أيُّكم يأتي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَسألُه: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ فلم يَقُمْ أحَدٌ مِنَّا، فأرسَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلينا رجُلًا فجَمَعَنا، فقَرَأَ علينا هذه السُّورةَ، يعني: سُورةَ الصَّفِّ كُلَّها))[٢].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الصَّفِّ مَدَنيَّةٌ[٣]، ....

(١) وَجهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ الصَّفِّ فيها، في قَولِه تعالى: ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]، وهو صَفُّ القِتالِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧١).

قال ابنُ عاشور: (اشتَهَرت هذه السُّورةُ باسمِ «سورةِ الصَّفِّ»، وكذلك سُمِّيَت في عَصرِ الصَّحابةِ... وبذلك عُنْوِنَت في «صحيحِ البُخاريِّ» وفي «جامعِ التِّرمذيِّ»، وكذلك كُتِبَ اسمُها في المصاحِفِ، وفي كُتُبِ التَّفسيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧١). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٨٨)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٤١٢).

وقال أبو الحسنِ السَّخاوي: (سورةُ الصفِّ، وتُسمَّى سورةَ الحواريِّينَ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (١/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مِن طُرقٍ الترمذيُّ (٣٣٠٩) بنحوه، وأحمدُ (٢٣٧٨٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٥٩٤).

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (٢/ ٧٩)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٢٠٥) وقال: (على شرطِ الشَّيخَينِ).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ، قال ابنُ عطيَّةَ: (وهي مَدَنيَّةٌ في قَولِ الجُمهورِ، وقال مَكِّيٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، =

وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[(١)].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

التَّحريضُ على نُصرةِ الدِّينِ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، والاستِجابةِ للهِ ولرسولِه[(٢)].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بتَسبيحِ اللهِ تعالى، وتنزيهِه عن كُلِّ ما لا يليقُ به.

٢- النَّهيُ عن الأقوالِ الَّتي لا تُطابِقُها الأفعالُ.

٣- ذِكرُ جانبٍ مِمَّا قاله موسى عليه السَّلامُ لِقَومِه، وما لَقِيَه منهم مِن أذًى.

٤- ذِكرُ دَعوةِ عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ، وبِشارتِه بالنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٥- بيانُ ما جُبِلَ عليه الكافِرونَ مِن كَذِبٍ على الحَقِّ، ومِن كراهيةٍ لِظُهورِ نُورِه.

= والمَهْدويُّ عن عطاءٍ ومجاهِدٍ: إنَّها مَكِّيَّةٌ. والأوَّلُ أصَحُّ؛ لأنَّ معانيَ السُّورةِ تُعَضِّدُه، ويُشبِهُ أن يكونَ فيها المَكِّيُّ والمَدَنيُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦). ويُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢).

وممَّن نَسَب القَولَ بكَونِها مَدَنيَّةً إلى الجُمهورِ أيضًا: ابنُ الفَرَسِ، وابن الجوزي، وابن عاشور. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

٦- دَعوةُ المؤمِنينَ إلى الجِهادِ في سبيلِ اللهِ بالأنفُسِ والأموالِ، وحَضُّهم على أن يَقتَدُوا بالحَواريِّينَ.

٧- البِشارةُ بنَصرِ أهلِ الإيمانِ على أهلِ الكُفْرِ.



الآيات (١-٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمَن تَراه تعاطَى القَبيحَ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[1].

﴿مَّرْصُوصٌ﴾: أي: مُلتَزِقٌ بَعضُه ببَعضٍ، والتَّراصُّ: التَّلاصُقُ؛ يُقالُ: رَصصتُ البِناءَ رَصًّا: إذا ضَمَمْتَ بَعْضَه إلى بَعضٍ، وأصلُ (رصص): يدُلُّ على انضِمامِ شَيءٍ إلى شَيءٍ بقُوَّةٍ وتَداخُلٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

ابتَدَأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّ جميعَ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ قد نَزَّه اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ، وأخبَرَ أيضًا بأنَّه هو العزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ وَجَّه سُبحانَه الخِطابَ إلى المؤمِنينَ، فقال تعالى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفعَلونَ، عَظُم بُغْضًا عندَ اللهِ قولُكم ما لا تَفعَلونَه! إنَّ اللهَ يُحِبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣، ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٠٨).

الَّذين يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ لإعلاءِ دِينِه مُنتَظِمينَ في صَفِّ القِتالِ كأنَّهم بِناءٌ عظيمُ الاتِّصالِ، لاصِقٌ بَعضُه ببَعضٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قعَدْنا نفرٌ مِن أصحابِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَذاكَرْنا، فقُلْنا: لو نَعلَمُ أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْناه، فأنزل اللهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلَامٍ: فقَرَأَها علينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[(١)].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: نزَّه اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجميعُ ما في الأرضِ[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٠٩) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٣٧٨٨)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٥٩٤). صَحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٢٤٨) وقال: (على شرطِ الشَّيخينِ). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٢٠٥)، وقال: (على شرطِ الشَّيخينِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).
وتسبيحُ ما في السَّموات وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ. يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الإسراء الآية (٤٤)، وأوَّل سورة الحديد.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فيَنتَقِمُ مِن أعدائِه، الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ ممَّا خلَقَه وشَرَعَه وقدَّرَه في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ القَولَ الَّذي لا تُصَدِّقونَه بالعَمَلِ؛ فتكونَ أعمالُكم مُخالِفةً لأقوالِكم؟! ومِن ذلك تَركُ فِعلِ الخَيرِ لِمَن وَعَد بفِعْلِه، كالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۞ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦، ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥، ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((آيةُ المنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان))[١].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

أي: عَظُم واشتَدَّ بُغْضًا عندَ اللهِ قولُكم -أيُّها المؤمنونَ- شَيئًا، ثمَّ لا تَفعَلونَه[٢]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيه مَذَمَّةُ المخالِفينَ في القِتالِ، وهم الَّذين وَعَدوا بالقِتالِ ولم يُقاتِلوا، وهذه الآيةُ مَحمَدةٌ لِلموافِقينَ في القِتالِ، وهم الَّذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ وبالَغوا فيه[٣]، فبَعْدَ أنْ ذمَّ المخالِفينَ في أمرِ القتالِ وهم الَّذين وعَدوا ولم يفْعَلوا؛ مدَح الَّذين قاتَلوا في سبيلِه[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ المجاهِدينَ الَّذين يُقاتِلونَ أعداءَ اللهِ لإعلاءِ دِينِه حالَ كَونِهم مُنتَظِمينَ في صَفِّ القِتالِ[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩١)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦، ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦). =

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاصطِفافُ يَصْدُقُ مع التَّقَدُّمِ والتأخُّرِ اليسيرِ؛ نفى ذلك بقَولِه حالًا بعدَ حالٍ[1]:

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

أي: كأنَّهم في اصطِفافِهم للقِتالِ -مِن شِدَّةِ التَّراصِّ والمُساواةِ والثَّباتِ في المراكِزِ- بِناءٌ واحِدٌ عظيمُ الاتِّصالِ، شَديدُ الاستِحكامِ، لاصِقٌ بَعضُه ببَعضٍ، بلا فُرجةٍ ولا خَلَلٍ[2]!

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ المؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشَبَّكَ أصابِعَه))[3].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استُدِلَّ بالآيةِ مِن عُمومِ لَفظِها على الإنكارِ على كُلِّ مَن خالَفَ قَولُه فِعْلَه، سواءٌ في عَهدٍ أو وَعدٍ، أو أمرٍ أو نَهيٍ[4]. ففيها أنَّه

= قال البقاعي: (أي: مُصْطَفِّينَ حتَّى كأنَّهم في اتِّحادِ المرادِ على قَلبٍ واحِدٍ، كما كانوا في التَّساوي في الاصطِفافِ كالبَدَنِ الواحِدِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٣) رواه البخاري (٤٨١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٠٥).

ينبغي للآمِرِ بالخَيرِ أن يكونَ أوَّلَ النَّاسِ إليه مُبادَرةً، ولِلنَّاهي عن الشَّرِّ أن يكونَ أبْعَدَ النَّاسِ منه[1]. فمِن آدابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنْكَرِ -وليس مِن شُروطِه- أنْ يكونَ الإنسانُ أوَّلَ فاعلٍ للمَعروفِ، وأوَّلَ مُنْتَهٍ عنِ المنكَرِ، بمعنى أنَّه لا يأمرُ بالمعروفِ ثُمَّ لا يَفعَلُه، أو لا يَنهى عنِ المُنْكَرِ ثُمَّ يَقَعُ فيه[2]، فإذا كنتَ تقولُ الشَّيءَ ولا تفعَلُه، فأنت بيْنَ أمْرَينِ: إمَّا أنَّك كاذِبٌ فيما تقولُ، ولكنْ تُخَوِّفُ النَّاسَ، فتقولُ لهم الشَّيءَ وليس بحقيقةٍ، وإمَّا أنَّك مُستَكبِرٌ عمَّا تقولُ؛ تأمرُ النَّاسَ به ولا تَفعَلُه، وتنهى النَّاسَ عنه وتَفعَلُه[3]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُحتَجُّ به في وُجوبِ الوَفاءِ بالوُعودِ[4]، والتَّحذيرِ مِن إخلافِها، وفيه الالتزامُ بواجباتِ الدِّينِ[5].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ حَثٌّ مِن اللهِ لعِبادِه على الجِهادِ في سَبيلِه، وتعليمٌ لهم كيف يَصنَعونَ، وأنَّه ينبغي لهم أن يَصُفُّوا في الجِهادِ صَفًّا مُتراصًّا مُتساويًا مِن غيرِ خَلَلٍ يَقَعُ في الصُّفوفِ، وتكونَ صُفوفُهم على نظامٍ وتَرتيبٍ به تحصُلُ المساواةُ بيْنَ المجاهِدينَ، والتَّعاضُدُ وإرهابُ العَدُوِّ، وتنشيطُ بَعضِهم بَعضًا[6]. وفيه تحريضٌ على الثَّباتِ في الجهادِ، وصِدقِ الإيمانِ، والثَّباتِ في نُصرةِ الدِّينِ[7].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ استِحبابُ قيامِ المجاهدِينَ في القتالِ صُفوفًا كصُفوفِ الصَّلاةِ، وأنَّه يُستَحَبُّ سَدُّ الفُرَجِ والخَلَلِ في الصُّفوفِ، وإتمامُ الصَّفِّ الأوَّلِ فالأوَّلِ، وتسويةُ الصُّفوفِ بِعَدَمِ تَقَدُّمِ بَعضٍ على بَعضٍ فيها[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه المحبَّةَ لهؤلاء بأعمالِهم، بعِدَّةِ صِفاتٍ:

أوَّلًا: يُقاتِلونَ فلا يَركَنونَ إلى الخُلودِ والخُمولِ والكَسَلِ والجُمودِ؛ الَّذي يُضعِفُ الدِّينَ والدُّنيا.

ثانيًا: الإخلاصُ؛ لِقَولِه: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

ثالثًا: يَشُدُّ بعضُهم بعضًا؛ لِقَولِه: ﴿صَفّٗا﴾.

رابعًا: أنَّهم كالبُنيانِ، والبنيانُ حِصْنٌ مَنيعٌ.

خامسًا: لا يَتَخَلَّلُهم ما يُمَزِّقُهم؛ لِقَولِه: ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في إجراءِ وَصفِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ عليه تعالى هنا إيماءٌ إلى أنَّه الغالِبُ لعَدُوِّه؛ فما كان لكم أن تَرهَبوا أعداءَه فتَفِرُّوا منهم عندَ اللِّقاءِ؛ وإجراءِ صِفةِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنْ حُمِلَت على معنى المتَّصِفِ بالحِكمةِ: أنَّ الموصوفَ بالحِكمةِ لا يأمُرُكم بجِهادِ العَدُوِّ عَبَثًا، ولا يُخَلِّيهم يَغلِبونَكم، وإن حُمِلَت على معنى المُحكِمِ للأمورِ، فكذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُحتَجُّ به في وُجوبِ الوَفاءِ بالنَّذرِ في نَذْرِ اللَّجاجِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن ألزَمَ نَفْسَه عَمَلًا فيه طاعةٌ لَزِمه أن يَفِيَ بها(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ صفةِ المَقْتِ للهِ تعالى، وأنَّه يتفاوَتُ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ إثباتُ صفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى(٤)، وكذلك قولُه: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقولُه:

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤١٣).
ونَذْرُ اللَّجاجِ والغَضَبِ: هو أن يمنعَ نَفْسَه مِن فِعلٍ، أو يَحُثَّها عليه، بتعليقِ التزامِ قُربةٍ بالفِعلِ أو بالتَّركِ. يُنظر: ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (٨/ ٤٥٩).
وقد اتَّفقَت المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ -الحنَفيَّةُ والمالِكيَّةُ والشَّافِعيَّةُ والحنابلةُ- على أنَّ النَّذرَ على وجهِ اللَّجاجِ والغضبِ يَنعقِدُ، على خِلافٍ بيْنَهم: هل يجبُ عليه الوفاءُ بالنَّذرِ، أو تُجزئُه كفَّارةُ اليمينِ، أو يُخيَّرُ بيْنَهما؟ يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١١٠)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ١٦١)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٣/ ٢٩٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١١/ ٩٠).
والأقربُ هو التَّخييرُ بيْن الوَفاءِ بما التَزَم أو الكَفَّارةِ، وهو مَذهَبُ الشَّافِعيَّةِ، والحَنابلةِ، واختاره ابنُ تيميَّةَ وابنُ القَيِّمِ وابنُ بازٍ وابنُ عُثيمينَ. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ٣٥٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٧٤)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ١١٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٧، ٨٨)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٢/ ٣٣، ٣٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢٣٢).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفَرَس (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٣٢١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. وهذه الآياتُ وأشباهُها تَقتضي أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أصحابَ هذه الأعمالِ؛ فهو يُحِبُّ التَّوَّابينَ، ففي هذه الحالِ يُحِبُّهُم، وهذا مبنيٌّ على الصِّفاتِ الاختياريَّةِ، فمَن نفاها رَدَّ هذا كُلَّه[(١)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ دليلٌ على تَعبئةِ الحَربِ، والتَّظاهُرِ في القِتالِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مُناسَبةُ هذه الفاتحةِ لِما بعْدَها مِن السُّورةِ بَيانُ أنَّ الكافرينَ مَحقوقُون بأنْ تُقاتِلوهم؛ لأنَّهم شَذُّوا عن جَميعِ المخلوقاتِ فلمْ يُسبِّحوا اللهَ، ولم يَصِفُوه بصِفاتِ الكمالِ؛ إذ جَعَلوا له شُركاءَ في الإلهيَّةِ، وفيه تَعريضٌ بالَّذين أَخْلَفوا ما وَعَدوا بأنَّهم لم يُؤدُّوا حقَّ تَسبيحِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ مُستحِقٌّ لأنْ يُوفَى بعَهْدِه في الحياةِ الدُّنيا، وأنَّ اللهَ ناصِرُ الَّذين آمَنوا على عَدُوِّهم[(٣)].

- قولُه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بالماضِي ﴿سَبَّحَ﴾ كما في سُورةِ (الحَديدِ) و(الحَشرِ)، وقال تعالَى في بعضِ السُّورِ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١، التَّغابُن: ١] بصِيغةِ المُضارِعِ، وفي البعضِ: ﴿سَبِّحِ﴾ [الأعلى: ١] بصِيغةِ الأمرِ؛ ليُعلَمَ أنَّ تَسبيحَ اللهِ تَعالى دائمٌ غيرُ مُنقطِعٍ؛ لِما أنَّ الماضيَ يدُلُّ عليه في الماضي مِن الزَّمانِ، والمستقبَلَ يدُلُّ عليه في المستقبَلِ مِن الزَّمانِ، والأمْرَ يدُلُّ عليه في الحالِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾

- النِّداءُ بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إنْ كان للمؤمنينَ حقيقةً -ويدُلُّ عليه سببُ النُّزولِ-، فالاستفهامُ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ يُرادُ به التَّلطُّفُ في العَتْبِ، وإنْ كان النِّداءُ للمُنافِقين؛ فالمعْنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، أي: بألْسِنَتهم، والاستِفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والتَّوبيخُ، وتَهكُّمٌ بهم في إسنادِ الإيمانِ إليهم[١].

- وناداهم بوَصْفِ الإيمانِ تَعريضًا بأنَّ الإيمانَ مِن شأْنِه أنْ يَزَعَ المؤمنَ عن أنْ يُخالِفَ فِعلُه قولَه في الوعْدِ بالخَيرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ اللَّامُ لتَعليلِ المُستفهَمِ عنه، وهو الشَّيءُ المُبهَمُ الَّذي هو مَدلولُ (ما) الاستفهاميَّةِ؛ لأنَّها تدُلُّ على أمْرٍ مُبهَمٍ يُطلَبُ تَعيينُه، والتَّقديرُ: تَقولون ما لا تفعَلون لأيِّ سَببٍ أو لأيَّةِ عِلَّةٍ؟ وهذا كِنايةٌ عن تَحذيرِهم مِن الوُقوعِ في مِثلِ ما فَعَلوه يومَ أُحُدٍ بطَريقِ الرمْزِ، وكِنايةٌ عن اللَّومِ على ما فَعَلوه يومَ أُحُدٍ بطَريقِ التَّلويحِ[٣].

- قولُه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ معناه: لأيِّ شَيءٍ تَقولونَ: (نَفعَلُ) ما لا تَفعَلونَ مِن الخَيرِ والمعروفِ؟ على أنَّ مَدارَ التَّعييرِ والتَّوبيخِ في الحَقيقةِ عدَمُ فِعلِهم، وإنَّما وُجِّهَا إلى قَولِهم تَنبيهًا على تَضاعُفِ مَعصيتِهم، ببَيانِ أنَّ المُنكَرَ ليس تَرْكَ الخَيرِ الموعودِ فقطْ، بلِ الوعدُ به أيضًا، وقد كانوا يَحسَبونَهُ مَعروفًا، ولو قيلَ: (لِمَ لا تفعلونَ ما تَقولونَ)، لَفُهِمَ منه أنَّ المُنكَرَ هُو تَرْكُ الموعودِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٤، ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢).

- وفيه تَعريضٌ بالمُنافِقين؛ إذ يُظهِرون الإيمانَ بأقوالِهم وهم لا يَعمَلون أعمالَ أهلِ الإيمانِ بالقلْبِ ولا بالجسَدِ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ تَصريحًا بالمعْنى المُكنَّى عنه بها[٢].

- في قولِه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المُبالَغةُ والتَّكريرُ؛ ولهذا اعتُبِرَتْ هذه الجُملةُ مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه في معْناهُ؛ لأُمورٍ:

أ- قصَدَ إلى التَّعجُّبِ بغَيرِ صِيغةِ التَّعجُّبِ؛ لتَعظيمِ الأمْرِ في قُلوبِ السَّامعينَ؛ لأنَّ التَّعجُّبَ لا يكونُ إلَّا مِن شَيءٍ خارقٍ للعادةِ والنَّظائرِ.

ب- أسْنَدَ إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، ونصَبَ ﴿مَقْتًا﴾ على تَفسيرِه؛ دَلالةً على أنَّ قولَهم ما لا يَفعَلون مَقْتٌ خالصٌ لا شَوبَ فيه؛ لفَرْطِ تَمكُّنِ المَقتِ منه.

ج- اختيارُ لَفظِ المَقْتِ؛ لأنَّه أشدُّ البُغضِ وأبلَغُه.

د- ثُمَّ لَمْ يَقتصِرْ على أنْ جَعَلَ البُغضَ كَبيرًا حتَّى جعَلَه أشدَّهُ وأفْحَشَه، وقولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلَغُ مِن ذلك؛ لأنَّه إذا ثبَتَ كِبَرُ مَقْتِه عندَ اللهِ، فقد تمَّ كِبَرُه وشِدَّتُه وانجابَتْ عنه الشُّكوكُ.

هـ- التَّكرارُ لقولِه: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وهو لَفظٌ واحدٌ في كلامٍ واحدٍ، ومِن فَوائدِ التَّكرارِ التَّهويلُ والإعظامُ والتَّأكيدُ، وإلَّا فقدْ كان الكلامُ مُستقِلًّا لو قِيلَ: (كَبُرَ مَقتًا عِندَ اللهِ ذلك)، فما إعادتُه إلَّا لمكانِ هذه الفائدةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي =

- وفيه أيضًا اندراجُ الخاصِّ بالعامِّ، وقد ورَدَ النَّهيُ العامُّ عن القولِ غيرِ المؤيَّدِ بالفِعلِ، والمقصودُ اندراجُ الأمْرِ الخاصِّ الَّذي ورَدَ عقِبَ ذلك، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾. وفائدةُ مِثلِ هذا النَّظمِ النَّهيُ عن الشَّيءِ الواحدِ مرَّتينِ مُندرِجًا في العمومِ، ومُفرَدًا بالخُصوصِ، وهو أَوْلى مِن النَّهيِ عنه على الخُصوصِ مرَّتَينِ؛ فإنَّ ذلك مَعدودٌ في حَيِّزِ التَّكرارِ، وهذا لا يَتكرَّرُ، مع ما في التَّعميمِ مِن التَّعظيمِ والتَّهويلِ[1].

- وعدلَ عن جَعْلِ فاعِلِ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرَ القَولِ، بأن يَقتَصِرَ على ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أو يُقالَ: (كَبُرَ ذلك مَقْتًا)؛ لِقَصدِ زِيادةِ التَّهويلِ بإعادةِ لَفْظِه، ولإفادةِ التَّأكيدِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ بَيانٌ لِما هو مَرْضيٌّ عِندَه تعالَى بعْدَ بَيانِ ما هو مَمقوتٌ عِندَه[3]. وهو أيضًا جوابٌ على تَمنِّيهم مَعرفةَ أحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ، وما قبْلَه تَوطئةٌ له على أُسلوبِ الخُطَبِ ومُقدِّماتِها[4].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ المرصوصُ: المتلاصِقُ بعْضُه ببَعضٍ،

= حيان)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥، ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

وهو تَشبيهٌ في الثَّباتِ وعدَمِ الانفلاتِ، وهو الَّذي اقتَضاهُ التَّوبيخُ السَّابقُ في قولِه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. وقيل: المرادُ: استواءُ نِيَّاتِهم في الثَّباتِ حتَّى يَكونوا في اجتِماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المرصوصِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

الآيتان (٥-٦)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَاغُوٓاْ﴾: أي: مالُوا وجارُوا، والزَّيغُ: المَيلُ عن الاستِقامةِ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قَومِ، لِمَ تُؤذُونَني وأنتم تَعلَمونَ أنِّي رَسولُ اللهِ إليكم، فلمَّا مالُوا عن الحَقِّ أمالَ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى، واللهُ لا يَهدي القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى جانبًا ممَّا قاله عيسَى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال عيسى ابنُ مَريمَ: يا بني إسرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهِ أرسَلَني إليكم مُصَدِّقًا للتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت مِن قَبلُ على موسى، ومُبَشِّرًا برَسولٍ يأتي مِن بَعْدي اسمُه أحمَدُ، فلمَّا جاءهم بالمُعجِزاتِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، قال الكافِرونَ: هذا الَّذي جاءَنا به سِحرٌ ظاهِرٌ!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الجِهادَ، ذَكَر قِصَّةَ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ؛ تسليةً لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليصبِرَ على أذى قَومِه، مُبتَدِئًا بقِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، لتقَدُّمِه(١).

وأيضًا لَمَّا كان في المؤمنينَ مَن يقولُ ما لا يَفعَلُ، وهو راجِعٌ إلى الكَذِبِ؛ فإنَّ ذلك في معْنى الإذايةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ كان في أتْباعِه مَن عانَى الكَذِبَ، فناسَبَ ذِكرُ قصَّةِ مُوسى وقَولِه لقَومِه: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾، وإذايتُهم له كانتْ بانتِقاصِه في نفْسِه، وجُحودِ آياتِ اللهِ تعالَى، واقتِراحاتِهم عليه ما ليس لهم اقتِراحُه(٢).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أمْرَ الجِهادِ؛ بَيَّنَ أنَّ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ أَمَرَا بالتَّوحيدِ وجاهَدَا في سَبيلِ اللهِ، وحَلَّ العِقابُ بمَن خالَفَهما(٣).

وأيضًا لَمَّا كان التخَلُّفُ عن أمرِ اللهِ تعالى، والغَفلةُ عن شَيءٍ يُؤَدِّي تَرْكُه إلى التَّهاوُنِ به، والإخلالِ بأدَبٍ مِن آدابِه: مُوجِبًا للكَونِ في صَفِّ الشَّيطانِ، ومُفارَقةِ حِزبِ الرَّحمنِ، فيَكونُ آذى الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيُوجِبُ ذلك الشَّقاءَ كُلَّه؛ لأنَّه جَديرٌ بأن يَجُرَّ إلى أكبَرَ منه؛ إلى أن تُحيطَ الخَطايا فتُبيحَ الرَّزايا، وكان للتَّذكيرِ بالمُشاهَداتِ والأُمورِ الواقِعاتِ ما ليس لغَيرِه في التَّأديبِ، ومَرجِعِ التَّرهيبِ- ذكَّرَ بما كان لبني إسرائيلَ؛ ترهيبًا مِن مِثْلِ حالِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قَوم، لِمَ تُصيبونَني بما يُؤذيني، والحالُ أنَّكم تَعلَمونَ عِلمًا يَقينيًّا أنِّي رَسولُ اللهِ إليكم، وأنَّه يَجِبُ عليكم تَعظيمي والانقيادُ لأَمْري(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ * قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٦].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَسَم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقال رجُلٌ: إنَّ هذه لَقِسْمةٌ ما أُريدَ بها وَجهُ اللهِ! فأخبَرْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فغَضِبَ، حتَّى رأيتُ الغضَبَ في وَجْهِه، وقال: يَرحَمُ اللهُ

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩). ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ (الأحزاب) آية رقم (٦٩).

موسى؛ لقد أُوذِيَ بأكثَرَ مِن هذا فصبَرَ!))[١].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾.

أي: فلمَّا مالَ قَومُ موسى عن الحَقِّ عَمْدًا منهم، أمالَ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى إلى الضَّلالِ؛ عُقوبةً لهم على زَيغِهم عن الحَقِّ، مع تعَمُّدِهم وعِلْمِهم به[٢].

كما قال تعالى حِكايةً عن دُعاءِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ لاتِّباعِ الحقِّ القومَ الَّذين آثَروا الخُروجَ عن طاعتِه، وأصَرُّوا على مَعصيتِه[٣].

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٣٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٠٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧، ١٠٠، ١٣٤، ١٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١، ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى شيئًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع بني إسرائيلَ، ذَكَر أيضًا شيئًا مِن قِصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ[(١)].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال عيسى ابنُ مَريمَ: يا بني إسرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهِ أرسَلَني إليكم؛ لأدعوكم إلى الخَيرِ، وأنهاكم عن الشَّرِّ[(٢)].

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

أي: مُصَدِّقًا للتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت مِن قَبلُ على موسى[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).
قيل: معنى تصديقِ عيسى للتَّوراةِ: تَصديقُه لها في التَّوحيدِ وجمهرةِ شرائِعِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجُملةِ: السمرقنديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠، ١٨١).
وقيل: المرادُ: أنَّ في التَّوراةِ صِفتَه، وأنَّها بَشَّرَت به، وأنَّه لم يأتِ بما يُخالِفُها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

أي: ومُبَشِّرًا لكم برَسولٍ يأتي مِن بَعْدي اسمُه أحمَدُ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وعن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، قال: ((قلْتُ: يا نبيَّ الله، ما كان أولُ بدءِ أمرِك؟ قال: دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى عيسى، ورأتْ أمِّي أنَّه يخرجُ منها نورٌ أضاءَتْ منه قصورُ الشَّامِ))[٢].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لي خَمسةُ أسماءٍ: أنا محمَّدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحي الَّذي يَمحو اللهُ بيَ الكُفرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣، ٨٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٩٠، ٩١)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (١/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٢٣٦) وأحمد (٢٢٢٦١) والطبراني (٧٧٢٩).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٢٥): (إسنادُه حسنٌ، وله شَواهدُ تقويه). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (٣٦/ ٥٩٦).

وأنا الحاشِرُ الَّذي يُحشَرُ النَّاسُ على قَدَمي، وأنا العاقِبُ[١]))[٢].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسَمِّي لنا نَفْسَه أسماءً، فقال: أنا محمَّدٌ، وأحمَدُ، والمُقَفِّي[٣]، والحاشِرُ، ونَبيُّ التَّوبةِ، ونبيُّ الرَّحمةِ))[٤].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿سَاحِرٌ﴾[٥].

٢- قِراءةُ: ﴿سِحْرٌ﴾[٦].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: فلمَّا جاءهم بالمُعجِزاتِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، قال المعانِدونَ الكافِرونَ: هذا الَّذي جاءَنا به سِحرٌ ظاهِرٌ[٧].

---

(١) العاقِبُ: الَّذي ليس بَعْدَه نَبيٌّ، والَّذي يَخلُفُ في الخَيرِ مَن كان قَبْلَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٣٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٣٥٤).

(٣) المُقَفِّي، أي: المُتَّبِعُ؛ مِن قَفَا أثَرَه: إذا تَبِعَه، يعني: أنَّه آخِرُ الأنبياءِ الآتي على أَثَرِهم، ولا نَبيَّ بَعْدَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٩٧).

(٤) رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٥) قرأ بها: حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٦) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ عيسى أو محمَّدًا عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذا مِن العُقوبةِ على الذَّنْبِ بالذَّنبِ[١]، والجزاءِ بالمعاصي على المعاصي[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تُفيدُ أنَّ إضلالَ اللهِ لعبادِه ليس ظُلمًا منه، ولا حُجَّةً لهم عليه، وإنَّما ذلك بسَبَبٍ منهم؛ فإنَّهم الَّذين أغلَقوا على أنفُسِهم بابَ الهُدى بعدَما عَرَفوه، فيُجازيهم بعدَ ذلك بالإضلالِ والزَّيغِ الَّذي لا حيلةَ لهم في دَفْعِه، وتقليبِ القُلوبِ؛ عُقوبةً لهم، وعدلًا منه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣] [الأنعام: ١١٠].

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٤٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ عاقبَهم سُبحانَه بإزاغةِ قُلوبِهم عن الحَقِّ لَمَّا زاغوا عنه ابتِداءً، ونَظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ ولهذا قيلَ: مَن عُرِضَ عليه حَقٌّ فرَدَّه فلم يَقبَلْه، عُوقِبَ بفَسادِ قَلْبِه وعَقْلِه ورَأْيِه، ومِن هنا قيلَ: لا رأيَ لصاحِبِ هَوًى؛ فإنَّ هَواه يَحمِلُه على رَدِّ الحَقِّ، فيُفسِدُ اللهُ عليه رأيَه وعَقْلَه[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما أوغَلَ في المعاصي ازداد بُعْدًا عن الإقبالِ على الحَقِّ؛ ولذلك يجِبُ أنْ يُعلَمَ أنَّ مِن أشَدِّ عُقوباتِ الذُّنوبِ أنْ يُعاقَبَ الإنسانُ بمَرَضِ القَلبِ، فالإنسانُ إذا عُوقِبَ بهَلاكِ حبيبٍ أو فَقْدِ مَحبوبٍ مِن المالِ، فهذه عقوبةٌ لا شكَّ، لكنْ إذا عُوقِبَ بانسلاخِ القَلبِ فهذه العقوبةُ أشدُّ ما يكونُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنَّ مَن أعْرَضَ عن اتِّباعِ الحقِّ الَّذي يَعْلَمُه تَبَعًا لهواهُ، فإنَّ ذلك يُورِثُه الجَهلَ والضَّلالَ حتَّى يَعْمَى قلْبُه عن الحقِّ الواضِحِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه في كلامٍ واحدٍ عن زَيغِهم وإزاغتِهم[٤]، فجمَعَ سُبحانَه بيْنَ الأمْرينِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٣٩).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٣).

ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، فالإزاغةُ فِعلُه، والزَّيغُ فِعلُهم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أنَّ إضلالَ مَن ضَلَّ ليس لمجَرَّدِ المشيئةِ، بل لوجودِ العِلَّةِ الَّتي كانت سَببًا في إضلالِ اللهِ العبدَ[٢]؛ فمَن زاغَ عنِ الحقِّ فهو السَّبَبُ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يَزيغَ إلَّا وهو السَّبَبُ في زَيغِ نَفْسِه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ الخارِجَ عن طاعةِ اللهِ لا يَهديه اللهُ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٩٤].

وأيضًا يُشْكِلُ على هذا أنَّ الواقعَ أنَّ اللهَ قد يَهدي الفاسِقينَ، وقد يَهدي الكافِرينَ، فكيف نَجْمَعُ بيْن الواقعِ وهذا الخبرِ الصَّادقِ؟

الجوابُ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ الآيةَ مِن العامِّ المخصوصِ؛ فهي في خُصوصِ الأشقياءِ الَّذين أزاغ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى لشَقاوتِهم الأزَليَّةِ. فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الَّذين كَتَبَ اللهُ عليهم الفِسْقَ، وأمَّا مَن كَتَبَ عليه أنْ يُؤمِنَ، فيُؤمِنُ ولا بُدَّ، ولكنَّ الفائدةَ مِن هذا -أي: مِن إطلاقِ قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾- الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ هِدايةِ اللهِ للقومِ الفاسِقينَ؛ لأنَّهم اختاروا الفِسْقَ، كما قال

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٢).

اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. فالآيةُ عُمومٌ معناه الخُصوصُ فيمَن حتَمَ فِسقَه وموافاتَه عليه.

الثَّاني: أنَّ المعنى: لا يَهدِيهم ما داموا على فِسْقِهم، فإن تابُوا منه هَداهم.

الثَّالثُ: أنَّه يحتملُ أن يريدَ الإخبارَ عن أنَّ الفاسِقَ في فِسْقِه ليس على هُدًى مِن الله، فتَجيءَ الآيةُ عامَّةً تامَّةَ العُمومِ[(١)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وعيدٌ شديدٌ، وأنَّ الفاسِقَ عُرْضةٌ لِئَلَّا يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ[(٢)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على عَظيمِ إيذاءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتَّى إنَّه يؤدِّي إلى الكُفرِ، وزَيغِ القُلوبِ عن الهُدى[(٣)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾. قال عيسى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ مِن حيثُ لم يكُنْ له فيهم أبٌ، وإن كانت أمُّه منهم؛ لأنَّ النَّسَبَ لا يكونُ إلَّا مِن جِهةِ الأبِ، وإنْ كانت أمُّه مَريمَ مِن أشرَفِهم نَسَبًا[(٤)].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ بني إسرائيلَ بَعْدَ موسى عليه السَّلامُ اشتُهِروا بعنوانِ (بني إسرائيلَ)، ولم يُطلَقْ عليهم عنوانُ: (قومُ موسى) إلَّا في مُدَّةِ حياةِ موسى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٥٨، ٤٦٨)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

خاصَّةً؛ فإنَّهم إنَّما صاروا أمَّةً وقومًا بسَبَبِه وشَريعتِه، فأمَّا عيسى عليه السَّلامُ فإنَّما كان مُرسَلًا بتأييدِ شَريعةِ موسى، والتَّذكيرِ بها، وتغييرِ بَعضِ أحكامِها، ولأنَّ عيسى حينَ خاطَبَهم لم يكونوا قد اتَّبَعوه، ولا صَدَّقوه، فلم يكونوا قومًا له خالِصينَ(١). أو ناداهُم بذلك استمالةً لقُلوبِهم إلى تَصديقِه واستعطافًا، أي: إنِّي أُرسِلْتُ إليكم في حالِ تَصديقي لكتابٍ نَزَلَ إليكم يا بني إسرائيلَ خاصَّةً(٢).

٨- المقصودُ مِن تَنبيهِ عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ على هذا التَّصديقِ حِينَ ابتَدَأَهم بالدَّعوةِ في قولِه: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ تَقريبُ إجابتِهم، واسْتِنزالُ طائرِهم؛ لشِدَّةِ تَمسُّكِهم بالتَّوراةِ، واعتقادِهم أنَّ أحكامَها لا تَقبَلُ النَّسخَ، وأنَّها دائمةٌ؛ ولذلك لَمَّا ابتَدَأَهم بهذه الدَّعوةِ لم يَزِدْ عليها ما حُكِيَ عنه في سُورةِ (آلِ عِمرانَ) مِن قولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فيُحمَلُ ما هنالك على أنَّه خِطابٌ واقعٌ بعْدَ أوَّلِ الدَّعوةِ؛ فإنَّ اللهَ لم يُوحِ إليه أوَّلَ مرَّةٍ بنسْخِ بَعضِ أحكامِ التَّوراةِ، ثمَّ أوحاهُ إليه بعْدَ ذلك، فحِينَئذٍ أخْبَرَهم بما أُوحِيَ إليه(٣).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ إنَّما أخْبَرَهم بمَجيءِ رَسولٍ مِن بعْدِه؛ لأنَّ بني إسرائيلَ لم يَزالُوا يَنتظِرون مَجيءَ رسولٍ مِن اللهِ يُخلِّصُهم مِن بَراثِنِ المُتسلِّطين عليهم، وهذا الانتظارُ دَيدَنُهم، وهم مَوعودون بهذا المُخلِّصِ لهم على لِسانِ أنْبيائهم بعْدَ مُوسى عليه السَّلامُ، فكان وَعدُ عِيسى به كوَعْدِ مَن سَبَقَه مِن أنبيائِهم، وفاتَحهم به في أوَّلِ الدَّعوةِ اعتِناءً بهذه الوصيَّةِ، وفي الابتداءِ بها تَنْبيهٌ على أنْ ليس عِيسى عليه السَّلامُ هو المُخلِّصَ المُنتظَرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠).

وأنَّ المُنتظَرَ رسولٌ يأْتي مِن بعْدِه، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولعِظَم شأْنِ هذا الرَّسولِ الموعودِ به، أراد اللهُ أنْ يُقِيمَ للأُمَمِ الَّتي يَظهَرُ فيها عَلاماتٍ ودَلائلَ؛ ليَتبيَّنوا بها شَخْصَه، فيَكونَ انطباقُها فاتحةً لإقبالِهم على تَلَقِّي دَعوتِه، وإنَّما يَعرِفُها حقَّ مَعرفتِها الرَّاسِخون في الدِّينِ مِن أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم الَّذين يَرجِعُ إليهم الدَّهْماءُ مِن أهْلِ مِلَّتِهم[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ لم يَقُلْ: «ومُصَدِّقًا»، بل قال: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، وهذا أبلَغُ؛ لأنَّ المُبَشَّرَ به يكونُ نِعمةً على مَن بُشِّرَ به، فيَكونُ تصديقُه مِن بابِ تصديقِ الخبرِ، وشُكْرِ النِّعَمِ، ومع ذلك رَفَضوا هذه البِشارةَ وأنكَروها، ولم يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، إذَنْ فهم حقيقةً كافِرونَ بعِيسى، وعيسى خَصْمُهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّ اللهَ سيَقولُ له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦] الآياتِ[2]، وحينَئذٍ؛ فلا يَصِحُّ أنْ يَنتسِبَ النَّصارى إلى عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فيقولوا: إنَّهم مَسيحيُّون؛ إذْ لو كانوا كذلك حقيقةً لَآمَنوا بما بَشَّرَ به المَسيحُ ابنُ مريمَ؛ لأنَّ عيسى ابنَ مريمَ وغيرَه مِن الرُّسُلِ قد أَخَذَ اللهُ عليهم العَهدَ والميثاقَ أنْ يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾[3] [آل عمران: ٨١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سؤالٌ: كيف الجوابُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٣٣، ١٣٤).

عن شُبهةٍ: أنَّ اسمَ الرَّسولِ المُبَشَّرِ به هو «محمَّدٌ» وليس «أحمدَ»؟!

الجوابُ: أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له أسماءٌ مُتعَدِّدةٌ: أحمدُ، محمَّدٌ، العاقِبُ، الحاشِرُ، أسماؤُه كثيرةٌ معروفةٌ، ولا مانعَ مِن أنْ يَتَسَمَّى الواحِدُ بعدةِ أسماءٍ؛ فهو أحمدُ، ومحمَّدٌ، ويدُلُّ على هذا قولُه عزَّ وجلَّ في السُّورةِ نفْسِها: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أحمدَ -على قولٍ- ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، و «جاء» فعلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّ المجيءَ قد سَبَقَ بعدَ البِشارةِ، ولا نَعْلَمُ في التَّاريخِ أنَّ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم- رَسولًا، وألْهَمَ اللهُ تعالى عيسى أنْ يقولَ: ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾؛ لحِكمةٍ بالغةٍ عظيمةٍ؛ حيثُ جاء باسمِ التَّفضيلِ «أحمدَ» لِيُنَبِّهَ بني إسرائيلَ على أنَّ هذا الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم- أحمدُ النَّاسِ للهِ عزَّ وجلَّ. والثَّاني: أنه أحمدُ مَن حُمِدَ؛ فالنَّاسُ يَحمَدونَ فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا، وأحمدُ النَّاسِ، أي: أحقُّ مَن يُحمَدُ هو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حتَّى لا يقولَ بنو إسرائيلَ: إنَّ هناك رَسولًا أفضلَ منه(١)!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

- ومَوقعُ هذه الآيةِ هنا خَفِيُّ المُناسَبةِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً استِئنافًا ابتدائيًّا، انتُقِلَ به مِن النَّهيِ عن عدَمِ الوفاءِ بما وَعَدوا اللهَ عليه إلى التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحْوِ ذلك، فيَكونَ الكلامُ مُوجَّهًا إلى المنافِقينَ؛ فقدْ وُسِموا بأذَى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٠).

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآيةَ، وقولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة: ٦١]، وقولِه: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞ﴾ [التوبة: ٦١]، وعلى هذا الوجْهِ فهو اقتِضابٌ(١) نُقِل به الكلامُ مِن الغرَضِ الَّذي قبْلَه لتَمامِه إلى هذا الغرَضِ(٢).

وقيل: الجملةُ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن شَناعةِ ترْكِ القتالِ(٣).

أو تَكونَ مُناسَبةُ وَقْعِ هذا الكلامِ في هذا الموقعِ حُدوثَ سَببٍ اقْتَضى نُزولَه مِن أذًى قد حدَثَ، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو المُسمَّى بعطْفِ قِصَّةٍ على قصَّةٍ.

ويجوزُ أنْ تكونَ مِن تَتمَّةِ الكلامِ الَّذي قبْلَها؛ ضرَبَ اللهُ مثلًا للمسلمينَ لتَحذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤذي رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويَسوؤُه مِن الخُروجِ عن جادَّةِ الكَمالِ الدِّينيِّ، مِثلُ عدَمِ الوفاءِ بوَعْدِهم في الإتيانِ بأحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالَى، وأشْفَقَهم مِن أنْ يكونَ ذلك سَببًا للزَّيغِ والضَّلالِ كما حدَثَ لقومِ مُوسى لَمَّا آذَوْهُ، وعلى هذا الوجْهِ فالمُرادُ بأذَى قومِ مُوسى إيَّاهُ: عدَمُ تَوخِّي طاعتِه ورِضاه، فيَكونُ ذلك مُشيرًا إلى ما حكاهُ اللهُ عنه مِن قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢١- ٢٤]؛ فإنَّ قولَهم ذلك استِخفافٌ؛ يدُلُّ

---

(١) الاقتِضابُ: هو الانتِقالُ ممَّا افتُتِح به الكلامُ إلى المقصودِ مُباشَرةً بدونِ رابطةٍ بيْنَهما. يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٣/ ١٣٩)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣).

لذلك قولُه عَقِبَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقد يكونُ وَصْفُهم في هذه الآيةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ناظرًا إلى وَصْفِهم بذلك مرَّتين في آيةِ سُورةِ (المائدةِ) في قولِه: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقولِه: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ فيَكونُ المقصودُ الأهمُّ مِن القصَّةِ هو ما تفرَّعَ على ذِكرِها مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. ويُناسِبُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ تَحذيرًا مِن مُخالَفةِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعِبرةً بما عَرَضَ لهم مِن الهَزيمةِ يومَ أُحُدٍ لَمَّا خالَفوا أمْرَه مِن عدَمِ ثَباتِ الرُّماة في مَكانِهم، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ تَحذيرٍ مأخوذٍ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ على النَّهيِ الَّذي في قولِه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] الآيةَ، ويَتبَعُ ذلك تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما حصَلَ مِن مُخالَفةِ الرُّماةِ حتَّى تَسبَّبوا في هَزيمةِ النَّاسِ[1].

- ولَمَّا وبَّخَ اللهُ تعالَى المؤمنينَ الَّذين ما وَفَّوا بما عاهَدوا، وأخْلَفوا المواعيدَ تَمهيدًا وبِساطًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ [الصف: ٤]، حتَّى يَكونوا في اجتِماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المرصوصِ في القِتالِ؛ حذَّرَهم ممَّا لَقِيَ قومُ مُوسى مِن إزاغةِ القُلوبِ، والحِرمانِ مِن التَّوفيقِ بسَببِ الأذى، وممَّا ارتكَبَ قومُ عِيسى بعْدَ مَجيئِه بالبيِّناتِ، مِن تَكذيبِه وقولِهم فيه: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦]، ألَا تَرى كيف جمَعَ الكلَّ في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الصف: ٧]، أي: قَضيَّةُ الدَّعوى إلى الإسلامِ تَوقيرُ مَن يَدْعو إليه، وتوقيرُ حُرمتِه، وإجابةُ دَعوتِه، والتَّفادي عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

إخلافِ المواعيدِ، وعمَّا يُؤذيه مِن القولِ والفعلِ[١]؟

- وابتداءُ كَلامِ مُوسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ شأنَ قَومِ الرَّسولِ أنْ يُطيعوه، بَلْهَ ألَّا يُؤذُوه؛ ففي النِّداءِ بوصْفِ (قَوْم) تَمهيدٌ للإنكارِ في قولِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾، والاستفهامُ للإنكارِ، أي: إنكارِ أنْ يكونَ للإذايةِ سَببٌ[٢].

- وقد جاءتْ جُملةُ الحالِ مِن قولِه: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مُصادِفةً المحلَّ مِن التَّرقِّي في الإنكارِ، وحرْفُ (قَدْ) لَتحقيقِ معْنى الحاليَّةِ، أي: وعِلْمُكم برِسالتي عن اللهِ أمْرٌ مُحقَّقٌ لِمَا شاهَدْتموه من دَلائلِ رِسالتِي. وكما أكَّدَ عِلْمَهم بـ (قدْ) أكَّدَ حُصولَ المعلومِ بـ (أنَّ) المفتوحة؛ فحصَلَ تأْكيدانِ للرِّسالةِ، والمعْنى: فكيف لا يَجْري أمْرُكم على وَفْقِ هذا العِلمِ[٣]؟!

- والإتيانُ بعْدَ حرْفِ (قدْ) بالمُضارعِ ﴿تَّعۡلَمُونَ﴾ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ عِلمَهم بذلك مُجدَّدٌ بتَجدُّدِ الآياتِ والوحْيِ، وذلك أجْدى بدَوامِ امتثالِه؛ لأنَّه لو جِيءَ بفِعلِ المُضيِّ لَما دلَّ على أكثرَ مِن حُصولِ ذلك العِلمِ فيما مَضى[٤]. وقيل: المضارعُ هنا معْناه المُضيُّ، أي: وقدْ عَلِمْتم، وعُبِّرَ عنه بالمضارعِ ليَدُلَّ على استِصحابِ الفعلِ[٥].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٨، ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه مِن الإزاغةِ، ومُؤذِنٌ بعِلَّتِه، أيْ: لا يَهدي القومَ الخارجينَ عن الطَّاعةِ ومِنهاجِ الحقِّ، المُصرِّينَ على الغَوايةِ؛ هِدايةً مُوصِلةً إلى البُغْيةِ، وإلَّا فالهدايةُ إلى ما يُوصِلُ إليها شاملةٌ للكُلِّ، والمُرادُ بهم إمَّا المذكورون خاصَّةً، والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ لذَمِّهم بالفِسقِ، وتَعليلِ عدَمِ الهدايةِ بهِ، أو المرادُ جِنسُ الفاسِقينَ، وهمْ داخلون في حُكمِه دُخولًا أوَّليًّا، وأيًّا ما كانَ فوَصْفُهم بالفِسقِ ناظرٌ إلى ما في قولِه: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١) [المائدة: ٢٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [الصف: ٥]؛ فعلى الوجْهِ الأوَّلِ في مَوقعِ الَّتي قبْلَها -وهو أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً استِئنافًا ابتدائيًّا، انتُقِلَ به مِن النَّهيِ عن عدَمِ الوفاءِ بما وَعَدوا اللهَ عليه إلى التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحْوِ ذلك، فيَكونَ الكلامُ مُوجَّهًا إلى المنافقينَ، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو المُسمَّى بعطْفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ -؛ فمَوقعُ هذه مُساوٍ له. وأمَّا على الوجْهِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ -وهو أنْ تكونَ مِن تَتمَّةِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، بضربِ مثلٍ للمسلمينَ لتَحذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤذي رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-؛ فإنَّ هذه مَسوقةٌ مَساقَ التَّتميمِ لقِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ، بذِكرِ مِثالٍ آخَرَ لقومٍ حادُوا عن طاعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، مِن غيرِ إفادةِ تَحذيرٍ للمُخاطَبينَ مِن المسلمينَ، وللتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ أخبارِ عِيسى بالرَّسولِ الَّذي يَجيءُ بعْدَه(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩، ١٨٠).

- قولُه: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ التَّبشيرُ: الإخبارُ بحادثٍ يَسُرُّ، وأُطلِقَ هنا على الإخبارِ بأمْرٍ عَظيمِ النَّفعِ لهم؛ لأنَّه يَلزَمُه السُّرورُ الحقُّ؛ فإنَّ مَجيءَ الرَّسولِ إلى النَّاسِ نِعمةٌ عَظيمةٌ(١).

- ومَحمَلُ قولِه: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ يَجري على جَميعِ ما يَحمِلُه جُزْءًا هذه الجُملةِ مِن المعاني، والأصلُ حمْلُ ألفاظِ القُرآنِ على جَميعِ المعاني الَّتي يَسمَحُ بها الاستعمالُ الفصيحُ؛ فيُحمَلُ الاسمُ في قولِه: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ على ما يَجمَعُ بيْن هذه الاستعمالاتِ الثَّلاثةِ؛ أي: مُسمَّاهُ أحمدُ، وذِكرُه أحمَدُ، وعَلَمُه أحمَدُ. ويُحمَلُ لفظُ (أحمد) على ما لا يَأباهُ واحدٌ مِن استعمالاتِ (اسمٍ) الثَّلاثةِ إذا قُرِنَ به؛ وهو أنَّ (أحمد) اسمُ تَفضيلٍ يَجوزُ أنْ يكونَ مَسلوبَ المفاضَلةِ مَعْنيًّا به القوَّةُ فيما هو مُشتقٌّ منه، أي: في الحمدِ، وهو الثَّناءُ؛ فيَكونَ (أحمد) هنا مُستعمَلًا في قوَّةِ مَفعوليَّةِ الحمْدِ، أي: حمْدِ النَّاسِ إيَّاه، وهذا مِثلُ قولِهم: «العَودُ أحمَدُ»، أي: محمودٌ كثيرًا.

فالوصْفُ بـ(أحمد) بالنِّسبةِ للمعْنى الأوَّلِ في (اسم) أنَّ مُسمَّى هذا الرَّسولِ ونفْسَه مَوصوفةٌ بأقْوى ما يُحمَدُ عليه مَحمودٌ، فيَشملُ ذلك جميعَ صِفاتِ الكمالِ النَّفسانيَّةِ والخِلْقيةِ، والخُلُقيَّةِ والنَّسبيةِ، والقَوميَّةِ، وغير ذلك ممَّا هو مَعدودٌ مِن الكَمالاتِ الذَّاتيَّةِ والعرَضيَّةِ.

ويَصِحُّ اعتبارُ (أحمد) تَفضيلًا حقيقيًّا في كَلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، أي: مُسمَّاهُ أحمَدُ منِّي، أي: أفضَلُ، أي: في رِسالتِه وشَريعتِه. وعباراتُ الإنجيلِ تُشعِرُ بهذا التَّفضيلِ، ففي إنجيلِ يُوحنَّا في الإصحاحِ الرَّابعَ عشَرَ: (... يُعطيكم «فارقليطَ»(٢)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨١).

(٢) لفظُ الفارقليط في لغتِهم قيل: إنَّه الحمَّادُ، وقيل: إنَّه الحامِدُ، وقيل: إنَّه الحمدُ، إلى غير ذلك. =

آخَرَ؛ ليَثبُتَ معكم إلى الأبَدِ، رُوح الحقِّ الَّذي لا يَستطيعُ العالَمُ أنْ يَقبَلَه؛ لأنَّه لا يَراهُ ولا يَعرِفُه). ثمَّ قال: (... يُعلِّمُكم كلَّ شَيءٍ، ويُذكِّرُكم بكلِّ ما قُلْتُه لكم)، أي: في جُملةِ ما يُعلِّمُكم أنْ يُذكِّرَكُم بكلِّ ما قُلْتُه لكم. وهذا يُفيدُ تَفضيلَه على عِيسى بفَضيلةِ دَوامِ شَريعتِه المعبَّرِ عنها بقَولِ الإنجيلِ: (ليَثبُتَ معكم إلى الأبَدِ)، وبفَضيلةِ عُمومِ شَرْعِه للأحكامِ المعبَّرِ عنه بقولِه: (يُعلِّمُكم كلَّ شَيءٍ).

والوصْفُ بـ (أحمد) على المعْنى الثَّاني في الاسمِ: أنَّ سُمْعتَه وذِكْرَه في جِيلِه والأجيالِ بعْدَه مَوصوفٌ بأنَّه أشدُّ ذِكرٍ مَحمودٍ وسُمعةٍ مَحمودةٍ، وأنَّ اللهَ يَبعَثُه مَقامًا مَحمودًا.

ووَصْفُ (أحمد) بالنِّسبةِ إلى المعنى الثَّالثِ في الاسمِ رمْزٌ إلى أنَّه اسْمُه العَلَمُ يكونُ بمعْنى (أحمَدَ)؛ فإنَّ لفظَ (محمَّد) اسمُ مَفعولٍ مِن حمَّدَ -المضاعَفِ- الدَّالِّ على كَثرةِ حمْدِ الحامِدينَ إيَّاه، كما قالوا: فلانٌ مُمَدَّحٌ؛ إذا تَكرَّرَ مَدْحُه مِن مادِحينَ كَثيرينَ، فاسمُ (محمَّد) يُفيدُ معْنى المحمودِ حمْدًا كثيرًا، ورُمِزَ إليه بـ (أحمَدَ).

وهذه الكلمةُ الجامِعةُ الَّتي أَوحى اللهُ بها إلى عِيسى عليه السَّلامُ، أراد اللهُ بها أنْ تكونَ شِعارًا لجِماعِ صِفاتِ الرَّسولِ الموعودِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، صِيغَت بأقْصى صِيغةٍ تدُلُّ على ذلك إجمالًا بحسَبِ ما تَسمَحُ اللُّغةُ بجَمْعِه مِن مَعانٍ، ووُكِلَ تَفصيلُها إلى ما يَظهَرُ مِن شَمائلِه قبْلَ بَعثَتِه وبعْدَها؛ ليَتوسَّمَها المُتوسِّمون، ويَتدبَّرَ مَطاوِيَها الرَّاسِخون عندَ المُشاهَدةِ والتَّجرِبةِ[1].

- وذِكرُ القُرآنِ تَبشيرَ عِيسى بمحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، إدماجٌ[2] في

= يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٣- ١٨٥).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهَرُ في الكلامِ =

خِلالِ المقصودِ الَّذي هو تَنظيرُ ما أُوذِيَ به مُوسى مِن قومِه وما أُوذِيَ به عِيسى مِن قَومِه؛ إدماجًا يُؤيَّدُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُثبَّتُ فُؤادَه، ويَزيدُه تَسليةً. وفيها تَخلُّصٌ إلى أنَّ ما لَقِيَه مِن قَومِه نَظيرُ ما لَقِيَه عِيسى مِن بني إسرائيلَ[1].

- ولَمَّا فرَغَ مِن كَلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، تَطرَّقَ إلى الإخبارِ عن أحمَدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على أحدِ الاحتمالينِ-، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وذلك على سَبيلِ الإخبارِ للمُؤمنينَ، أي: فلمَّا جاء المبشَّرُ به هؤلاء الكفَّارَ بالمُعجِزاتِ الواضحةِ، قالوا: هذا سِحرٌ مُبينٌ[2]. وعلى هذا الاحتمالِ يكونُ ضَميرُ الرَّفعِ عائدًا إلى (رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي)، وضَميرُ النَّصبِ عائدًا إلى لَفظِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ)، أي: بني إسرائيلَ غيرِ الَّذين دَعاهم عِيسى عليه السَّلامُ، مِن بابِ: عِندي دِرهمٌ ونِصفُه، أي: نِصفُ ما يُسمَّى بدِرهمٍ، أي: فلمَّا جاءَهم الرَّسولُ الَّذي دعاهُ عِيسى باسمِ أحمَدَ بالبيِّناتِ

= إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرَضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرَضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦).

-أي: دَلائلِ انطباقِ الصِّفاتِ الموعودِ بها- قالوا: هذا سِحرٌ مُبينٌ، ويحتمِلُ أنْ يَعودَ ضَميرُ الرَّفْعِ في قولِه: ﴿جَآءَهُم﴾ إلى عيسَى، وأنْ يعودَ ضميرُ النَّصْبِ إلى الَّذينَ خاطَبَهم عيسَى. والتَّقديرُ: فكَذَّبوه، فلَمَّا جاءَهم بالمُعجِزاتِ قالوا: هذا سِحْرٌ مُبينٌ. فيكونَ هذا التَّركيبُ مِن قَبيلِ الكلامِ المُوجَّهِ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)، وحصَلَ أذاهم بهذا القولِ لِكِلا الرَّسولينِ؛ فالجُملةُ على هذا الاحتِمالِ تُحمَلُ على أنَّها اعتراضٌ بيْن المُتعاطِفات، ومُمهِّدةٌ للتَّخلُّصِ إلى مَذمَّةِ المشرِكين وغيرِهم ممَّن لم يَقبَلْ دَعوةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- وتَسميةُ ما جاء به سِحرًا؛ للمُبالَغةِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤).

الآيات (٧-٩)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

غريب الكلمات

﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: أي: اختلَق، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترَى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[1].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: أي: لِيُعليَه ويَنصُرَه؛ من المُعاوَنةِ والغَلَبةِ، يُقالُ: ظهَرَ على الشَّيءِ؛ إذا غلَبَه وعلاه، ويصِحُّ أن يكونَ مِن البُروزِ، وظَهَر الشَّيءُ أصْلُه: أن يَحصُلَ شَيءٌ على ظَهْرِ الأرضِ فلا يخفى، ثمَّ صار مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ مُبصَرٍ بالبصَرِ والبَصيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومَن أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ وهو يُدعَى إلى الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ؟! واللهُ لا يَهْدي القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى غرَضَ هؤلاءِ الظَّالِمينَ مِن وراءِ افتِرائِهم الكذبَ على الدِّين

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٠).

الحقِّ، فيقولُ: يُريدُ الكافِرونَ أن يُبْطِلوا الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن عندِ اللهِ بما يَتفَوَّهونَ به مِن أكاذيبَ، واللهُ مُتِمُّ الحَقِّ، ولو كَرِهَ ذلك الكافِرونَ.

ثمَّ يُؤكِّدُ الله تعالى وعْدَه بإتمامِ نورِه، فيقولُ: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالعِلمِ النَّافِعِ وبدِينِ الإسلامِ؛ ليُعليَ اللهُ الإسلامَ على سائرِ الأديانِ، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه كانتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُماثِلةً دَعوةَ عِيسى عليه السَّلامُ، وكان جَوابُ الَّذين دَعاهم إلى الإسلامِ مِن أهلِ الكتابَينِ والمشركينَ مُماثِلًا لجَوابِ الَّذين دَعاهم عليه السَّلامُ، فلمَّا أُدمِجَ في حِكايةِ دَعوةِ عِيسى بِشارتُه برَسولٍ يَأْتي مِن بَعْدِه، ناسَبَ أنْ يُنقَلَ الكلامُ إلى ما قابَلَ به قومُ الرَّسولِ الموعودِ دَعوةَ رَسولِهم؛ فلذلك ذُكِرَ في دَعوةِ هذا الرَّسولِ دِينُ الإسلامِ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ ﴾.

أي: ولا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَقَ على اللهِ الكَذِبَ، والحالُ أنَّه يُدْعَى إلى الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٨، ١٨٩).

قال ابنُ جرير: (هو قولُ قائِلِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هو ساحِرٌ، وما جاء به سِحرٌ، فكذلك =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم، فاختَلَقوا على اللهِ الكَذِبَ، وأصَرُّوا على رَدِّ الحَقِّ مع وُضوحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ⑧﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

أي: يُريدُ الكافِرونَ أن يُبْطِلوا الحَقَّ الَّذي جاء به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ، بما يَتفَوَّهونَ به مِن أكاذيبَ وافتراءاتٍ لا بُرْهانَ عليها[2]!

= افتراؤُه على اللهِ الكَذِبَ ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، يَقولُ: إذا دُعِيَ إلى الدُّخولِ في الإسلامِ قال على اللهِ الكَذِبَ، وافترى عليه الباطِلَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤).

وقال القرطبي: (هذا تعَجُّبٌ ممَّن كَفَر بعيسى ومحمَّدٍ بعدَ المُعجِزاتِ الَّتي ظهَرَت لهما). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٤).

وقال القاسمي: (هذه الآيةُ إمَّا مُستأنَفةٌ لتحقيقِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، طليعةٌ للآياتِ بَعْدَها، وإمَّا مُتَمِّمةٌ لِما قبْلَها؛ لتقبيحِ ما بَهَت به الإسرائيليُّونَ عيسى عليه السَّلامُ، مع الإشارةِ بعُمومِها إلى ذمِّ كلِّ مَن كان على شاكِلَتِهم. ولا يُقالُ: الإسلامُ يؤيِّدُ الأوَّلَ لأنَّه عُنوانُ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ؛ لأنَّه قد يُرادُ به معناه اللُّغَويُّ، وقد كثُر ذلك في آياتٍ شَتَّى، نعمْ الأقرَبُ الأوَّلُ، واحتِمالُ مِثلِ الآيةِ لهذَينِ الوجهَينِ من بدائعِ التَّنزيلِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٩١)، ((تفسير =

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

أي: واللهُ قد تكفَّل بإتمامِ الحَقِّ، وإشاعةِ نُورِه في الآفاقِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ ذلك الكافِرونَ باللهِ مِن المُشرِكينَ أو اليَهودِ، أو النَّصارى أو غَيرِهم[٢].

ثمَّ ذكَرَ الله تعالى سببَ الظُّهورِ والانتِصارِ للدِّينِ الإسلاميِّ[٣]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَثَ رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومَعرفةِ أحكامِ اللهِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على

= السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قال ابنُ كثير: (أي: يحاوِلونَ أن يَرُدُّوا الحَقَّ بالباطِلِ، ومَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ بفِيه! وكما أنَّ هذا مُستحيلٌ، كذلك ذاك مُستحيلٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩، ١٩٠).

وقال ابن جرير: (﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعني: بقَولِهم: إنَّه ساحِرٌ، وما جاء به سِحرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

الأعمالِ الصَّالِحةِ النَّافِعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ(١).

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتِصارِ في قِتالِ الكُفَّارِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائِرِ الأديانِ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: لِيُظهِرَ دينَه الحَقَّ -الَّذي أرسَلَ به رَسولَه- على كُلِّ دينٍ سِواه، وذلك عندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ، وحينَ تَصيرُ المِلَّةُ واحِدةً، فلا يكونُ دينٌ غيرُ الإسلامِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥).

وقال ابنُ عاشور: (قد تمَّ وَعدُ اللهِ، وظَهَر هذا الدِّينُ، ومَلَك أهلُه أُممًا كثيرةً، ثمَّ عَرَضَت عوارِضُ مِن تفريطِ المسلمينَ في إقامةِ الدِّينِ على وَجهِه؛ فغلَبَت عليهم أُمَمٌ، فأمَّا الدِّينُ فلم يَزَلْ عاليًا مَشهودًا له مِن علماءِ الأُمَمِ المُنصِفينَ بأنَّه أفضَلُ دينٍ للبَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢، ١٩٣).

وقال السَّمْعاني: (مِصداقُ هذه الآيةِ على الكمالِ إنَّما يكونُ عِندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ، حَيثُ لا يَبقى إلَّا دينُ الإسلامِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الضَّميرُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، أو للدِّينِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٦).

وقال الشنقيطي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ التَّوبةِ (الآية ٣٣): (الضَّميرُ في قولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ فيه وجْهانِ للعُلماءِ:

قال بعضُهم -وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ-: الضَّميرُ عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. أي: أرسلَه بهذا الهُدى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُطلِعَه على جميعِ الأديانِ؛ فيُبيِّنَ لأهلِها حقيقَها مِن باطلِها، كما ... في قولِه: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلِم مِن كتابِ اللهِ ما جاء في جميعِ الكُتبِ المُتقدِّمةِ.
=

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيَكونُ من ذلك ما شاء اللهُ))[(١)].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى[(٢)] لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها))[(٣)].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[(٤)] له في ظِلِّ الكعبةِ، قُلْنا له: ألا تَستَنصِرُ لنا، ألا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه!

= القولُ الثَّاني: -وعليه الأكثرُ- أنَّ الضَّميرَ للدِّينِ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: لِيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، أي: يُعلِيَه على جميعِ الأديانِ كلِّها. وهذا الإعلاءُ يَدخُلُ فيه إظهارُه بالحُجَّةِ والبُرهانِ؛ فبَراهينُه قاطِعةٌ، وحُجَجُه ساطِعةٌ لا شكَّ فيه، وكتابُه محفوظٌ، فلا شَيءَ يُوازيه ولا يُشابِهُه.

قال بعضُ العُلماءِ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: يَنصُرَه ويُغَلِّبَه على جميعِ الأديانِ، وقد وفَى اللهُ بهذا فيما مضى، وسيَفِي به أيضًا في المُستقبَلِ). ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٤٥١).

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) زَوَى: أي: طَوى له -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الأرضَ، وجعَلَها مَجموعةً كهَيئةِ كَفٍّ في مِرآةِ نَظَرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحْمِه[١] مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ[٢]، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ[٣] هذا الأمرَ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!))[٤].

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٥] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[٦].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

أي: سيُظهِرُ اللهُ تعالى دِينَه على جميعِ الأديانِ، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ ذلك[٧].

---

(١) ما دُونَ لَحمِه، أي: تحتَ لَحمِه، أو عندَ لَحمِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٦/ ١٤٤).

(٢) فيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعَصَبِ؛ لِحدَّتِها وقوَّتِها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (١٢/ ٣٧٣٤).

(٣) لَيُتِمَّنَّ: بضَمِّ حرفِ المُضارَعةِ وكسرِ التَّاءِ، على أنَّ الفاعلَ هو الله، أي: لَيُكمِلَنَّ. وفي نسخةٍ بفتحِ الياءِ وكسرِ التَّاءِ وتشديدِ الميمِ، وفي أخرى بصيغةِ المجهولِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٥) بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمْعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ من الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبلِ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شرطِ الشَّيخينِ، وقال الألبانيُّ في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير الجلالين)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، وأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أظْلَمَ كان عن الهدايةِ أبْعَدَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلَّقَ نفْيَ الهدايةِ بالظُّلْم، وتعليقُ الحُكمِ بالظُّلمِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه، وكلَّما قَوِيَت العِلَّةُ قَوِيَ الحُكْمُ المُعَلَّقُ عليها[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: لِيُعْلِيَه على سائِرِ الأديانِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ، ويُظهِرَ أهْلَه القائِمينَ به بالسَّيفِ والسِّنانِ، فأمَّا نَفْسُ الدِّينِ فهذا الوَصفُ مُلازِمٌ له في كُلِّ وَقت، فلا يُمكِنُ أن يُغالِبَه مغالبٌ، أو يُخاصِمَه مُخاصِمٌ إلَّا فَلَجَه وبَلَسَه[٢]، وصار له الظُّهورُ والقَهرُ، وأمَّا المُنتَسِبونَ إليه فإنَّهم إذا قاموا به، واستناروا بنُورِه، واهتَدَوا بهَدْيِه في مصالحِ دِينِهم ودُنياهم؛ فكذلك لا يقومُ لهم أحدٌ، ولا بدَّ أن يَظهَروا على أهلِ الأديانِ، وإذا ضَيَّعوه واكتَفَوا منه بمُجَرَّدِ الانتِسابِ إليه، لم يَنفَعْهم ذلك، وصار إهمالُهم له سَبَبَ تَسليطِ الأعداءِ عليهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّه سُبحانَه تَكَفَّلَ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والإظهارِ على جميعِ أديانِ أهلِ الأرضِ؛ ففي هذا تَقويةٌ لقُلوبِ أهلِ الإسلامِ، وبِشارةٌ لهم وتَثبيتٌ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوَعدِ الَّذي لا بُدَّ أنْ يُنْجِزَه سُبحانَه[٤].

= (ص: ٧٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) وبَلَسَه: أي: ظَفِرَ وفاز عليه وكَسَرَه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٩، ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ما الجمعُ بَينَ هذه الآيةِ الكريمةِ وبينَ نُصوصٍ أخرى يَرِدُ فيها مِثلُ هذه العبارةِ في ذَنبٍ آخَرَ غيرِ هذا، وتدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفِعلَ أظلمُ شيءٍ؛ مثل قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧]؛ فكيفَ نَجمعُ بين هذه النُّصوصِ؟

والجوابُ مِن أحدِ وجهينِ:

الأول: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا من الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّةِ، فأفعلُ التفضيلِ لا تمنعُ التَّساوي ولكنَّها تمنعُ الزِّيادةَ. وعلى ذلك فلا مُعارَضَةَ البتَّةَ بينَ الآياتِ، فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم متساوونَ في مرتبةِ الظُّلْم.

الوجه الثاني: أنَّ هذه المواضعَ تَتخصَّصُ بصِلاتِها. ومعنَى (تتخصصُ بصِلاتِها): أنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صلةُ موصُولِه، أي أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المفتَرِينَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ اللَّهِ، ولاَ أحدَ مِنَ المعْرِضِينَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعْرَضَ عنها... إلخ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أَضَلَّه اللهُ فإنَّما ذلك لظُلمٍ منه، وأمَّا مَن طَلَبوا الحقَّ وتَحَرَّوه وتَشَوَّفوا له، فإنَّهم جَديرونَ بالهِدايةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢- ١٢٣). والوجهُ الأوَّل مخرجٌ على قاعدةِ: (نفيُ التفضيلِ لا يستلزمُ نفيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ إذْ لو كان كلُّ مَبعوثٍ إليه رَسولًا، وكلُّ مدلولٍ على طريقِ الهدايةِ: يَقْدِرُ بنَفْسِه أنْ يهتديَ مِن غيرِ أنْ يهديَه اللهُ؛ ما كان في ذلك فائِدةٌ، ولا كان ذلك عليهم عُقوبةً[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ لا يَمْنَعُ فَضْلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوعُ هو السَّبَبَ؛ فلِظُلْمِهم لم يَهْدِهم اللهُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[2] [الصف: ٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أخَذَ بالعَدْلِ كان حَريًّا بالهدايةِ؛ لمفهومِ المخالفةِ في الآيةِ، فإذا كان الظَّالمُ لا يَهديه اللهُ، فصاحِبُ العَدْلِ حَرِيٌّ بأنْ يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الإنسانَ الَّذي يريدُ الحقَّ ويَتَّبِعُ الحقَّ -والحقُّ هو العَدْلُ- غالبًا يُهْدَى ويُوَفَّقُ للهدايةِ؛ ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في ((العقيدةِ الواسطيَّةِ))[3] عبارةً مِن أحسَنِ العباراتِ؛ قال: (مَن تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهُدى منه تَبيَّنَ له طريقُ الحَقِّ)، وهذه كَلِمةٌ مأخوذةٌ مِن القُرآنِ مَنطوقًا ومَفهومًا[4].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه سؤالٌ: التَّمامُ لا يكونُ إلَّا عندَ النُّقصانِ، فكيفَ نُقصانُ هذا النُّورِ؟

الجوابُ: إتمامُه بحَسَبِ النُّقصانِ في الأَثَرِ، وهو الظُّهورُ في سائِرِ البلادِ مِن المشارِقِ إلى المغارِبِ؛ إذِ الظُّهورُ لا يَظهَرُ إلَّا بالإظهارِ، وهو الإتمامُ، يُؤَيِّدُه قَولُه

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦).

تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[١] [المائدة: ٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ رسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تتضَمَّنُ شيئينِ؛ هما: العِلمُ النَّافِعُ، والعَمَلُ الصَّالحُ؛ فالهُدى هو: العِلمُ النَّافعُ، ودِينُ الحَقِّ هو: العَمَلُ الصَّالحُ الَّذي اشتَمَل على الإخلاصِ للهِ، والمتابعةِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّه لا هُدَى إلَّا فيما جاء به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يَقْبَلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا يَدينُه به إلَّا أنْ يكونَ مُوافِقًا لدِينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد نزَّه سُبحانَه وتعالى نفْسَه عمَّا يَصِفُه به العِبادُ إلَّا ما وصَفَه به المُرسَلونَ، فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨١]، وسلَّمَ على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما وصَفُوه به مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فإنَّه غالِبٌ، ومعنى «يُظْهِرُه» يُعْلِيه؛ لأنَّ الظَّهْرَ والظُّهُورَ كلُّه يدُلُّ على الغلَبةِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ سيَعْلُو على جميعِ الأديانِ[٥]، فتَعليلُ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ بقولِه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ إعلامٌ بأنَّ اللهَ أراد ظُهورَ هذا الدِّينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥).
(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٤).

وانتشارَه؛ كيْلَا يَطمَعوا أنْ يَنالَه ما نال دِينَ عِيسى عليه السَّلامُ مِن القمْعِ والخَفْتِ في أوَّلِ أمْرِه، واستمرَّ زَمانًا طويلًا، فلمَّا أخبرَ اللهُ بأنَّه أراد إظهارَ دِينِ الإسلامِ على جَميعِ الأديانِ، عُلِمَ أنَّ أمْرَه لا يَزالُ في ازديادٍ حتَّى يَتِمَّ المرادُ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ حُجَّةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على كلِّ مَن أسَرَّ دِينًا مِن أهلِ البدعةِ؛ فإنَّ كلَّ مَن كان على شَيءٍ يَزْعُمُ أنَّه مِن الدِّينِ، وهو يَسْتُرُه ولا يُظْهِرُه خَشيةَ إنكارِه؛ فقد عُرِفَ بُطلانُه قبْلَ أنْ يُسْألَ بُرهانَه، واستوى في معرفةِ تزييفِه العالِمُ والجاهِلُ؛ إذْ مِن شَرْطِ الآيةِ أنْ يكونَ بعدَ نزولِها دِينُ الحَقِّ ظاهِرًا، فإنْ كُتِمَ عُدِمَ شَرْطُه المشروطُ فيه، وفي عَدَمِ شَرْطِه دُخولُ الخَلَلِ عليه، وزوالُ الحقِّ عنه[2].

١٢- كثيرًا ما يجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هذينِ الأصلَينِ: (الْهُدَى، ودِينِ الْحَقِّ)؛ لأنَّ بهما تمامَ الدَّعوةِ، وظهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[3]، وقد بعَثَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ إلى النَّاسِ؛ فبالهُدى يُعرَفُ الحقُّ، وبدِيْنِ الحَقِّ يُقصَدُ الخيرُ ويُعمَلُ به، فلا بُدَّ مِن عِلْمٍ بالحَقِّ، وقَصْدٍ له، وقُدرةٍ عليه، والفِتنةُ تُضادُّ ذلك؛ فإنَّها تمنعُ معرفةَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها مِن الشُّبُهاتِ الَّتي تَلبِسُ الحقَّ بالباطِلِ، أو تمنَعُ قصدَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها مِن الأهواءِ والشَّهواتِ، أو تمنعُ القُدرةَ على الخَيرِ؛ لِمَا فيها مِن ظُهورِ قُوَّةِ الشَّرِّ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٥٢١-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٤٧).

﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وُصِفوا بأنَّهم أظلَمُ النَّاسِ تَشنيعًا لحالِهم؛ فالمرادُ مِن هذا الاستِفهامِ هم الَّذين كذَّبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذلك عُطِفَ هذا الكلامُ بالواوِ ودونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس مُفرَّعًا على دَعوةِ عيسى عليه السَّلامُ، وقد شَمِلَ هذا التَّشنيعُ جميعَ الَّذين كذَّبوا دَعوةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهلِ الكتابَينِ والمشركينَ(١). وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ إنكارٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِن هؤلاء؛ فالمُكذِّبون مِن قبْلِهم إمَّا أنْ يَكونوا أظلَمَ منهم، وإمَّا أنْ يُساوُوهم على كلِّ حالٍ، فالكلامُ مُبالَغةٌ. وإنَّما كانوا أظلَمَ الناسِ؛ لأنَّهم ظَلَموا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنِسبتِه إلى ما ليس فيه إذْ قالوا: هو ساحرٌ. وظَلَموا أنفُسَهم إذْ لم يَتوخَّوا لها النَّجاةَ، فيَعرِضوا دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على النَّظَرِ الصَّحيحِ حتَّى يَعلَموا صِدقَه. وظَلَموا النَّاسَ بحَمْلِهم على التَّكذيبِ، وظَلَموهم بإخفاءِ الأخبارِ الَّتي جاءتْ في التَّوراةِ والإنجيلِ مُثبِتةً صِدقَ رسولِ الإسلامِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكَمَلَ لهم هذا الظُّلمُ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيُعلَمُ أنَّه ظُلمٌ مُستمِرٌّ(٢).

- قولُه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ كان لجُملةِ الحالِ ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ موقعٌ متينٌ هنا، أي: فعَلوا ذلك في حِينِ أنَّ الرسولَ يدْعوهم إلى ما فيه خيرُهم، فعاضُوا الشُّكرَ بالكُفرِ. وإنَّما جُعِلَ افتِراؤهم الكذِبَ على اللهِ؛ لأنَّهم كذَّبوا رَسولًا يُخبِرُهم أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، فكانت حُرمةُ هذه النِّسبةِ تَقْتضي أنْ يُقبِلوا على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ فيما دَعاهم إليه؛ ليَصِلوا إلى التَّصديقِ، فلمَّا بادَرُوها بالإعراضِ وانتَحَلوا للدَّاعي صِفاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٨٨).

النَّقصِ، كانوا قد نَسَبوا ذلك إلى اللهِ دونَ تَوقيرٍ؛ فأمَّا أهلُ الكتابِ فجَحَدوا الصِّفاتِ الموصوفةَ في كِتابِهم، كما قال تَعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وذلك افتراءٌ، وأمَّا المشرِكون فإنَّهم افترَوا على اللهِ؛ إذْ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾(١) [الأنعام: ٩١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، وقال في سُورةِ (الأنعام): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال فيها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في آخِرِ سُورةِ (العَنكبوتِ): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]؛ فاختُصَّ هذا الموضعُ هنا بلَفظِ التَّعريفِ في (الكذِب)، مع أنَّ نَظائرَه في الآيِ المذكورةِ بلَفظِ التَّنكيرِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الكذِبَ مَصدرٌ يُسمَّى به الكلامُ المكذوبُ فيه، وهو في قولِه تَعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ على أصْلِه، مَصدرٌ غيرُ مَنقولٍ، والمصدرُ إذا عُرِّفَ قُصِدَ به الجِنسُ. ولأنَّ ﴿كَذِبًا﴾ بالنَّكرةِ أكثرُ استعمالًا معَ المصدرِ مِن المعرفةِ. وخُصَّت هذه السُّورةُ بالمعرفةِ؛ لأنَّه إشارةٌ إلى ما تقدَّم مِن قولِ اليهودِ والنَّصارى(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٩-١٢٧٤)، ((أسرار التكرار في =

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، واسمُ (الإسلام) عَلَمٌ للدِّينِ الذي جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على قولٍ-، وهو جامِعٌ لِما فيه خَيرُ الدُّنيا والآخرةِ؛ فكان ذِكرُ هذا الاسمِ في الجُملةِ الحاليَّةِ زيادةً في تَشنيعِ حالِ الَّذين أعْرَضوا عنه، أي: وهو يُدْعى إلى ما فيه خَيرُه، وبذلك حقَّ عليه وَصْفُ (أظْلَم)[١].

- وإيقاعُ الإسلامِ مُقابلًا لافتراءِ الكذبِ إيذانٌ باتِّصالِ قِصَّةِ عِيسى عليه السَّلامُ بقصَّةِ محمَّدٍ صَلواتُ اللهِ عليه، وأنَّ ذِكرَ الإسلامِ كالتَّخلُّصِ مِن القِصَّةِ إلى القِصَّةِ؛ ولذلك ذُيِّلت الآيةُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كأنَّه قيل: قد عُلِمَ ظُلْمُ أولئك الكفرةِ برُوحِ اللهِ، وما أرادوا به مِن المكْرِ والكَيدِ، وعُرِفَ أنَّ اللهَ ما هَداهم إلى ما أرادوا، بلْ خَذَلَهم اللهُ ونَصَرَ أولياءَه، كما قال تَعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فما ظُلْمُ هؤلاء الكفرةِ لحَبيبِ اللهِ؟ وما مَكْرُهم به؟ وكيف يَفعَلُ اللهُ به وبهم؟ قِيل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ إلى آخِرِ الآيتينِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ للآيةِ، وهو تَقريرٌ لقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؛ لأنَّ الظُّلمَ وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، فالمعْنى: وأيُّ النَّاسِ أشدُّ ظُلمًا ممَّن يَدْعوه ربُّه على لِسانِ نَبيِّه إلى الإسلامِ، فيَجعَلُ إجابتَه افتراءَ الكذِبِ على اللهِ؟! يعْني: كان جَزاءُ الدَّاعي القَبولَ والتَّصديقَ، فوَضَعوا مَوضِعَه أنْ كذَّبوه، وسمَّوا ما جاء به سِحرًا[٣]!

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢، ٤٦٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٥).

وهذه الجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأْييسٌ لهم مِن الإقلاعِ عن هذا الظُّلمِ، أي: إنَّ الَّذين بَلَغوا هذا المَبلَغَ مِن الظُّلمِ لا طَمَعَ في صَلاحِهم؛ لتَمكُّنِ الكفْرِ منهم حتَّى خالَطَ سَجاياهم، وتقوَّمَ مع قَوميَّتِهم؛ ولذلك أُقحِمَ لَفظُ (القوم)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الظُّلمَ بلَغ حدَّ أنْ صار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وهذا يَعُمُّ المُخبَرَ عنهم وأمثالَهم الَّذين افترَوا على عِيسى؛ ففيها معْنى التَّذييلِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم افترَوا على اللهِ الكذِبَ في حالِ أنَّهم يُدْعَون إلى الإسلامِ؛ لأنَّه يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا دَعاهم إلى هذا الافتراءِ، فأُجيبَ بأنَّهم يُريدونَ أنْ يُخْفُوا الإسلامَ عن النَّاسِ، ويَعُوقوا انتشارَه[2].

- ومُثِّلَت حالتُهم بحالةِ نَفَرٍ يَبتَغون الظَّلامَ للتَّلصُّصِ أو غيرِه ممَّا يُرادُ فيه الاختفاءُ، فلاحَتْ لهم ذُبالةُ[3] مِصباحٍ تُضِيءُ للنَّاسِ، فكَرِهوا ذلك وخَشُوا أنْ يُشَعَّ نُورُه على النَّاسِ فتَفْتضِحَ تُرَّهاتُهم، فعَمَدوا إلى إطفائه بالنَّفخِ عليه فلمْ يَنطفِئْ، فالكلامُ تَمثيلٌ دالٌّ على حالةِ المُمثَّلِ لهم، والتَّقديرُ: يُريدون عَوقَ ظُهورِ الإسلامِ كمَثَلِ قَومٍ يُريدون إطفاءَ النُّورِ، فهذا تَشبيهُ الهيئةِ بالهيئةِ تَشبيهَ المَعقولِ بالمحسوسِ. ثمَّ إنَّ ما تَضمَّنَه مِن المحاسنِ أنَّه قابلٌ لِتَفرقةِ التَّشبيهِ على أجزاءِ الهَيئةِ؛ فاليهودُ في حالِ إرادتِهم عَوقَ الإسلامِ عن الظُّهورِ مُشبَّهون بقَومٍ يُريدون إطفاءَ نُورِ الإسلامِ، فشُبِّهَ بمِصباحٍ، والمشركون مِثلُهم، ووَصْفهم القرآنَ بأنَّه سِحرٌ ونحْوِ ذلك مِن تَمْويهاتِهم، فشُبِّهَ بنفْخِ النَّافخينَ على المِصباحِ؛ فكان لذِكرِ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وقْعٌ عَظيمٌ في هذا التَّمثيلِ؛ لأنَّ الإطفاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الذُّبَالةُ: الفَتيلةُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٢).

قدْ يكونُ بغَيرِ الأفواهِ مِثل المروحةِ والكِيرِ، وهمْ أرادوا إبطالَ آياتِ القرآنِ بزعْمِ أنَّها مِن أقوالِ السِّحرِ[(١)].

- قولُه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ اللَّامُ مِن قولِه: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ تُسمَّى اللَّامَ الزائدةَ، وتُفيدُ التَّأكيدَ، وأصْلُها لامُ التَّعليلِ، ذُكِرَت عِلَّةُ فِعلِ الإرادةِ عِوَضًا عن مَفعولِه بتَنزيلِ المفعولِ مَنزلةَ العِلَّةِ، والتَّقديرُ: يُريدون إطفاءَ نُورِ اللهِ لِيُطْفِئوا. ويَكثُرُ وُقوعُ هذه اللَّامِ بعْدَ مادَّةِ الإرادةِ ومادَّةِ الأمْرِ[(٢)].

- وإضافةُ ﴿نُورَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ (الله) إضافةُ تَشريفٍ[(٣)].

- وإطفاءُ نُورِ اللهِ بأفواهِهم تَهكُّمٌ بهم في إرادتِهم إبطالَ الإسلامِ بقولِهم في القُرآنِ: هذا سِحرٌ، مُثِّلَت حالُهم بحالِ مَن يَنفُخُ في نُورِ الشَّمسِ بفِيهِ لِيُطفِئَه[(٤)].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، وهي إخبارٌ بأنَّهم لا يَبلُغون مُرادَهم، وأنَّ هذا الدِّينَ سيَتِمُّ، أي: يَبلُغُ تَمامَ الانتشارِ. والجُملةُ الاسميَّةُ تُفيدُ ثُبوتَ هذا الإتمامِ[(٥)].

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، و(لو) وصْليَّةٌ، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩، ١٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠).

شَرْطِها أجدَرُ ما يُظَنُّ ألَّا يَحصُلَ عندَ حُصولِه مَضمونُ الجوابِ، والمعْنى: واللهُ مُتِمُّ نُورِه على فرْضِ كَراهةِ الكافِرينَ، ولَمَّا كانت كَراهةُ الكافِرينَ إتمامَ هذا النُّورِ مُحقَّقةً، كان سِياقُها في صُورةِ الأمْرِ المفروضِ تهكُّمًا(١).

- وشَمِل لَفظُ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جَميعَ الكافِرينَ بالإسلامِ مِن المشركينَ وأهلِ الكتابِ وغَيرِهم، ولكنْ غلَبَ اصطلاحُ القُرآنِ على تَخصيصِ وصْفِ الكافرينَ بأهلِ الكِتابِ ومُقابَلتِهم بالمشركينَ أو الظَّالمين، ويتَّجِهُ على هذا أنْ يكونَ الاهتمامُ بذِكرِ الكافرينَ بعْدَ (لو) الوصْليَّةِ؛ لأنَّ المقامَ لإبطالِ مُرادِهم إطفاءَ نُورِ اللهِ، فإتمامُ اللهِ نُورَه إبطالٌ لمُرادِهم إطفاءَهُ، وسيَرِدُ بعْدَ هذا ما يُبطِلُ مُرادَ غَيرِهم مِن المُعانِدين، وهم المشرِكون(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَ هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ وذلك لأنَّهم أنْكروا الرَّسولَ، وما أُنزِلَ إليه -وهو الكِتابُ-، وذلك مِن نِعَمِ اللهِ، والكافِرون كلُّهم في كُفرانِ النِّعَمِ سواءٌ، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولأنَّ لَفظَ (الكافر) أعمُّ مِن لَفظِ (المشرِك)، والمرادُ من الكافرينَ هاهنا: اليهودُ والنَّصارى والمشرِكون، وهنا ذَكَر النُّورَ وإطفاءَه، واللَّائقُ به الكُفْرُ؛ لأنَّه السَّترُ والتَّغطيةُ؛ لأنَّ مَن يُحاوِلُ الإطفاءَ إنَّما يُريدُ الزَّوالَ. وفي الآيةِ الثَّانيةِ ذَكَرَ الرَّسولَ والإرسالَ ودِينَ الحقِّ، وذلك مَنزلةٌ عَظيمةٌ للرَّسولِ عليه السَّلامُ، وهي اعتراضٌ على اللهِ تَعالى، والاعتراضُ قَريبٌ مِن الشِّركِ، ولأنَّ الحاسِدينَ للرَّسولِ عليه السَّلامُ كان أكثَرُهم من قُريشٍ، وهم المشرِكون، ولَمَّا كان النُّورُ أعمَّ مِن الدِّينِ والرَّسولِ، لا جَرَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قابَلَه بالكافِرين الَّذين هِمْ جَميعُ مُخالِفي الإسلامِ، ولَمَّا كان الرَّسولُ والدِّينُ أخصَّ مِن النُّورِ، قابَلَه بالمشْركين الَّذين هِمْ أخصُّ مِن الكافرينَ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ زِيادةُ تَحدٍّ للمشركين وأحلافِهم مِن أهلِ الكِتابِ، فيه تَقويةٌ لمَضمونِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وفيه معْنى التَّعليلِ للجُملةِ الَّتي قبْلَه؛ فقدْ أفاد تَعريفُ الجُزأينِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ قصْرًا إضافيًّا(٢)؛ لقلْبِ زعْمِ الكافِرين أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أتى مِن قِبَلِ نفْسِه، أي: اللهُ لا غَيرُه أرسَلَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهُدى ودِينِ الحقِّ، وإنَّ شيئًا تَولَّى اللهُ فِعلَه لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يُزيلَه(٣).

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلدِّينِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ للاستِغراقِ، أي: ليُعلِيَ هذا الدِّينَ الحقَّ على جَميعِ الأديانِ، ويَنصُرَ أهْلَه على أهلِ الأديانِ الأُخرَى الَّذين يَتعرَّضون لأهلِ الإسلامِ(٤).

- وخُصَّ المُشرِكون بالذِّكرِ هنا؛ إتمامًا للَّذين يَكرَهون إتمامَ هذا النُّورِ، وظُهورَ هذا الدِّينِ على جَميعِ الأديانِ، ولِيُعلَمَ أنَّ غيرَ المشركين يَكرَهون ظُهورَ هذا الدِّينِ؛ لأنَّهم أرادوا إطفاءَ نُورِ الدِّينِ؛ لأنَّهم يَكرَهون ظُهورَ هذا الدِّينِ، فحصَلَ في الكلامِ احتِباكٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٩٣).
وتقدَّم تعريفُ الاحتباك (ص: ٥٩).

الآيات (١٠-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ
ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إِقامةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثَباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾

قَولُه ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾: جملةٌ تَفسيريَّةٌ لـ ﴿تِجَٰرَةٖ﴾ فلا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. أو استِئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: ما هذه التِّجارةُ؟ فقيل: تُؤْمِنُونَ ...، والمُضارِعُ هنا خبَرٌ بمعنى الأمرِ، أي: آمِنوا وجاهِدوا، ويُؤَيِّدُه قِراءةُ عبدِ اللهِ «آمِنُوا ... وجاهِدُوا» بالأمرِ فيهما.

﴿يَغۡفِرۡ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ في جوابِ الأمرِ المدلولِ عليه بلَفظِ الخَبرِ ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾. وقيل: جوابٌ لشَرطٍ أو استفهامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عليه الكلامُ، والتَّقديرُ: إنْ تُؤمِنوا وتجاهِدوا يَغْفِرْ لكم. أو هل تَقبَلونَ أن أَدُلَّكم؟ أو هل تتَّجِرونَ بالإيمانِ والجهادِ؟ يَغْفِرْ لكم. وقيل: هو جوابٌ للاستِفهامِ المذكورِ، أي: هل أَدُلُّكم...

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

يَغْفِرْ، وتُعُقِّبَ بأنَّ مُجَرَّدَ الدَّلالةِ لا يُوجِبُ المَغفِرةَ، وأُجيبَ بأنَّه لَمَّا كانت الدَّلالةُ مَظِنَّةً لذلك نُزِّلَت مَنزِلةَ المحَقَّقِ، أو لأنَّ مُتعَلَّقَ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ هو التِّجارةُ المُفَسَّرةُ بالإيمانِ والجِهادِ، فكأنَّه قيل: هل تتَّجِرونَ بالإيمانِ والجِهادِ يَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم[1]؟

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُرشدًا المؤمنينَ إلى ما فيه سعادتُهم ونجاتُهم مِن العذابِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عَظيمةٍ تُخَلِّصُكم مِن عَذابٍ مُؤلِمٍ؟ تلك التِّجارةُ هي تحقيقُ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجِهادُ أعدائِه ببَذْلِ الأموالِ والأنفُسِ لإعلاءِ كَلِمتِه ودِينِه، ذلك الأمرُ خيرٌ لكم إنْ كُنتُم تَعْلَمونَ.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه جزاءَهم وحُسنَ عاقبتِهم، فيقولُ: فإنْ فعَلْتُم ذلك يَغْفِرِ اللهُ ذُنوبَكم، ويُدْخِلْكم جنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ، وقُصورًا حَسَنةً في جناتِ إقامةٍ دائِمةٍ، ذلك الأجرُ هو الفَوزُ العَظيمُ، ولكم في الجِهادِ خَصلةٌ أُخرى محبوبةٌ إليكم؛ حُصولُ نَصرٍ من اللهِ، وفَتحٍ عاجِلٍ، وبَشِّرْ -يا محمَّدُ- المؤمِنينَ بهذا الثَّوابِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أنتَجَ كلُّ ما مضَى نصْرَ رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على كلِّ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤، ١٩٥).

حالٍ، ودمارَ مَن يخالفُ أمرَه؛ أنتَج قطعًا أنَّ الجهادَ معه متجرٌ رابحٌ؛ لأنَّ النَّصرَ مضمونٌ، والموتَ منهلٌ لا بدَّ مِن وُرودِه(١).

وأيضًا فالآيةُ نتيجةُ ما مضَى باعتبارِ أنَّه لَمَّا وبَّخ الله -تعالى- على انحلالِ العزائمِ، وأخبَر بما يجبُ مِن القتالِ، وبكَّت على أذى الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالمُخالَفةِ، وأخبَر أنَّ مَن خالَفه لا يضُرُّ إلَّا نفْسَه؛ كان موضعَ الاستباقِ في طاعتِه، فرتَّب عليه الاشتياقَ إلى ذِكرِ ثمرتِه، فذَكَرها(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عَظيمةٍ نافِعةٍ، تُخَلِّصُكم مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ(٣)؟

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾.

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

أي: تلك التِّجارةُ العَظيمةُ هي أنْ تُؤمِنوا باللهِ تعالى وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيمانًا تامًّا مستلزمًا لأعمالِ الجوارحِ، الَّتي مِن أجَلِّها أنْ تُجاهِدوا أعداءَ الإسلامِ ببَذْلِ الأموالِ والأنفُسِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله ونصرِ دِينِه(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ١١١].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ قال: إيمانٌ باللهِ، وجِهادٌ في سَبيلِه))[(١)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ فقال: إيمانٌ باللهِ ورَسولِه. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مَبرورٌ))[(٢)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الصَّلاةُ على وَقتِها. قُلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ بِرُّ الوالِدَينِ. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ))[(٣)].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ذلك الأمرُ العَظيمُ مِن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، وتَصديقِه بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم: خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرةِ إنْ كُنتُم تَعلَمونَ[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٣).

(٣) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

قال ابنُ عطية: (﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتَمِلُ أن يكونَ للتَّفضيلِ، فالمعنى: مِن كُلِّ عَمَلٍ. ويحتَمِلُ أن يكونَ إخبارًا أنَّ هذا خيرٌ في ذاتِه ونَفْسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

=

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أي: إنْ آمَنتُم باللهِ ورَسولِه وجاهَدْتُم في سَبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم، فإنَّ اللهَ يَمْحو عنكم ذُنوبَكم ويَستُرُها ويَقيكم شرَّها؛ فلا يُعَذِّبُكم بها[(١)].

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: ويُدْخِلْكُم اللهُ جناتٍ تَجْري الأنهارُ مِن تَحْتِ أشجارِها وقصورِها[(٢)].

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

أي: ويُدخِلْكُم اللهُ مَنازِلَ جمَعتْ كلَّ طيبٍ في بنائِها وسَعتِها وعُلوِّها وبهجةِ

= وقال السعدي: (فإنَّ فيه الخيرَ الدُّنيويَّ؛ مِن النَّصرِ على الأعداءِ، والعِزِّ المنافي للذُّلِّ، والرِّزقِ الواسِعِ، وسَعةِ الصَّدرِ وانشراحِه. وفي الآخرةِ الفَوزُ بثوابِ اللهِ، والنَّجاةُ مِن عِقابِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

وقال الشوكاني: (﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنْ كنتُم ممَّن يعلمُ فإنَّكم تَعلمونَ أنَّه خيرٌ لكم، لا إذا كنتُم مِن أهلِ الجهلِ، فإنَّكم لا تعلمونَ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٥).

وقال ابن جرير: (﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضارَّ الأشياءِ ومنافعَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٧).

وقال ابن عثيمين: (كأنَّه يقولُ: فاعلَموا ذلك إنْ كنتم أهلًا للعلمِ). ((شرح رياض الصالحين)) (٥/ ٣٤٩).

وقال ابن المُنَيِّر: (المقصودُ بهذا الشَّرطِ: التَّنبيهُ على المعنى الَّذي يَقتضي الامتِثالَ وإلهابَ الحَميَّةِ للطَّاعةِ، كما تقولُ لِمَن تأمُرُه بالانتِصافِ مِن عدُوِّه: إنْ كنتَ حُرًّا فانتَصِرْ؛ تُريدُ أن تُثيرَ منه حميَّةَ الانتِصارِ لا غيرُ). ((الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)) (٤/ ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٢٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

مَناظِرِها ودوامِها إلى غيرِ ذلك، في جَنَّاتِ إقامةٍ دائِمةٍ؛ فلا خُروجَ منها، ولا انتِقالَ عنها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧، ٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

قال ابن عطية: (طِيبُ المساكِنِ: سَعَتُها وجمالُها. وقيل: طِيبُها: المَعرِفةُ بدوامِ أمْرِها. وهذا هو الصَّحيحُ، وأيُّ طِيبٍ مع الفَناءِ والموتِ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤).

وقال العُلَيمي: (طيبتُها بسَعتِها، ودوامِ أمرِها). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿طَيِّبَةً﴾ أي: في الاتِّساعِ، واختِلافِ أنواعِ المَلاذِّ، وعُلوِّ الأبْنيةِ والأَسِرَّةِ، مع سُهولةِ الوُصولِ إليها، وفي بهجةِ المَناظِرِ، وتيسُّرِ مَجاري الرِّيحِ بانفِساحِ الأبنيةِ، مع طِيبِ الغُرَفِ، لم يُفسِدِ الماءُ الجاري تحتَها شيئًا مِن ريحِها ولا في اعتِدالِها في شيءٍ ممَّا يُرادُ منها). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧، ٣٨).

وقال السعدي: (﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أي: جمعَتْ كلَّ طَيِّبٍ؛ مِن علوٍ وارتفاعٍ، وحُسنِ بناءٍ وزَخرفةٍ، ...، وفيها مِن الطِّيبِ والحُسنِ ما لا يأتي عليه وصفُ الواصِفينَ، ولا خطَرَ على قلبِ أحدٍ مِن العالَمينَ، لا يمكنُ أن يُدرِكوه حتَّى يَرَوْه، ويَتمتَّعوا بحُسنِه، وتَقَرَّ أعيُنُهم به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠، ٨٦١).

وجناتُ عَدْنٍ: قيل: هي جنَّاتٌ مَخصوصةٌ، وهي أشرَفُ الجِنانِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٧).

وقيل: هي اسمٌ لجُملةِ الجنَّاتِ عُمومًا. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ القَيِّم. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٨).

قال ابن القيِّم في أسماءِ الجنَّة: (ولها عِدَّةُ أسماءٍ باعتبارِ صِفاتِها، ومُسمَّاها واحدٌ باعتبارِ الذَّاتِ، فهي مُترادِفةٌ مِن هذا الوجهِ، وتختلِفُ باعتبارِ الصِّفاتِ، فهي مُتبايِنةٌ مِن هذا الوجهِ) ثمَّ ذكر منها (الاسم السَّادس: جنَّاتُ عَدْنٍ، فقيل: هو اسمُ جَنَّةٍ مِن جملةِ الجنَّاتِ، والصَّحيحُ أنَّه اسمٌ لجملةِ الجِنانِ، وكلُّها جنَّاتُ عَدْنٍ، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [مريم: ٦١]، وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، والاشتِقاقُ يدُلُّ على أنَّ جميعَها جنَّاتُ عَدْنٍ؛ فإنَّه مِن الإقامةِ والدَّوامِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٤، ٩٨).

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ذلك الأجرُ والثَّوابُ الجَزيلُ هو وَحْدَه الظَّفَرُ العَظيمُ بالخَيرِ، وحُصولُ النَّجاةِ العَظيمةِ مِن الشَّرِّ(١).

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يَمنَحُهم مِن الثَّوابِ في الآخِرةِ؛ ذكَرَ ما يَسُرُّهم في العاجِلةِ، وهي ما يفتَحُ عليهم مِنَ البِلادِ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

أي: ولكم في الجِهادِ خَصلةٌ أُخرى محبوبةٌ إليكم، تَظفَرونَ بها في الدُّنيا، وهي حُصولُ نَصرٍ مِن اللهِ لكم على أعدائِكم، وحُصولُ فَتحٍ عاجِلٍ تتَّسِعُ به بلادُ الإسلامِ، ويَحصُلُ به خيرٌ لكم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فَتحُ مَكَّةَ. وممَّن اختار هذا القَولَ: ابنُ أبي زَمَنِين، والسمعانيُّ، والزمخشري، والرازي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا محمَّدُ- المؤمِنينَ بالجَزاءِ والثَّوابِ في العاجِلِ والآجِلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى إذا صَدَّرَ الكلامَ بقَولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنَّه ينبغي لك أنْ تستَمِعَ إلى هذا النِّداءِ الموجَّهِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ إليك؛ لأنَّه إذا ناداك فإمَّا خيرٌ تُؤمَرُ به، وإمَّا شَرٌّ تُنهى عنه، وإمَّا خيرٌ تنتَفِعُ به[٢]. عن ابنِ مسعود رضيَ اللهُ عنه، قال: (إذا

= ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٩).

وقيل: هو فتحُ فارِسَ والرُّوم. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والحسَنُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٢). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٦).

سَمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك؛ فإنَّه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌّ ينهى عنه)[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أنَّه ليس لنا طريقٌ إلى هذه التِّجارةِ إلَّا الطَّريق الذي شَرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو الدَّالُّ على ذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ دليلٌ على أنَّ الطَّاعةَ تُثمِرُ للمَرءِ مَحابَّ الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ طَلَبَ الأرباحِ في الدُّنيا والآخِرةِ بالطَّاعةِ أسرَعُ إدراكًا لطالِبِه منه بغَيرِها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جُعِل ذلك بمنزلةِ التِّجارةِ؛ لأنَّهم يَربَحونَ فيها رِضا اللهِ، ونَيلَ جَنَّته، والنَّجاةَ من النَّارِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دليلٌ على أنَّ التِّجارةَ اسمٌ واقِعٌ على طَلَبِ الأرباحِ، ونَماءِ الأموالِ، ومَحابِّ النُّفوسِ معًا[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: الأمرُ بالإيمانِ كيف هو بَعْدَ قَولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟

الجوابُ: أنَّ الخِطابَ إذا كان للمؤمنينَ الخُلَّصِ فالمرادُ: تَثبُتون وتَدومون

---

(١) أخرجه ابنُ المبارك في ((الزهد والرقائق)) (١/ ١٢)، والقاسم بن سلام في ((فضائل القرآن)) (ص: ٧٤، ٧٥)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٩٦)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

على الإيمانِ، أو تَجمَعون بيْن الإيمانِ والجهادِ، أي: بيْن تكميلِ النَّفْسِ وتكميلِ الغيرِ، وإن كان للمؤمنينَ ظاهرًا فالمرادُ: تُخلِصون الإيمانَ(١).

ويُمكِنُ أن يكونَ الخِطابُ لأهلِ الكِتابِ، وهم اليَهودُ والنَّصارى؛ فإنَّهم آمَنوا بالكُتُبِ المتقَدِّمةِ، فكأنَّه قال: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بالكُتُبِ المتقَدِّمةِ آمِنوا باللهِ وبمُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ باللهِ والجِهادَ في سَبيلِه مُكَفِّرانِ للذُّنوبِ ولو كانت كبائِرَ(٣).

٥- قُطْبُ هذه السُّورةِ الكريمةِ يَدورُ على أمرِ الجِهادِ، ألَا ترَى كيفَ أُعيدَ قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وخُتِمَت بقَولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣١).

قال ابنُ جريرٍ في تفسيرِ الآيةِ (١٣٦) من سورةِ النِّساءِ: (فإنْ قال قائلٌ: وما وجْهُ دُعاءِ هؤلاء إلى الإيمانِ بالله ورسولِه وكُتبِه وقد سمَّاهم مؤمنينَ؟ قيل: إنَّه جلَّ ثناؤُه لم يُسَمِّهم مؤمنينَ، وإنَّما وصَفَهم بأنَّهم آمَنوا، وذلك وصْفٌ لهم بخُصوصٍ من التَّصديقِ؛ وذلك أنَّهم كانوا صِنفَينِ: أهلُ تَوراةٍ مُصَدِّقينَ بها وبمَن جاء بها، وهم مُكذِّبون بالإنجيلِ والقرآنِ وعيسى ومحمَّدٍ صلَواتُ الله عليهما؛ وصنفٌ أهلُ إنجيل، وهم مُصَدِّقون به وبالتَّوراةِ وسائرِ الكتبِ، مُكذِّبون بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم والفُرقانِ، فقال جلَّ ثناؤُه لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني: بما هم به مؤمِنون من الكُتُبِ والرُّسلِ، ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمَّدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٥) و(٢٢/ ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

ظَٰهِرِينَ ﴾، وفيه دليلٌ ظاهرٌ على عُلُوِّ شَأنِ الجِهادِ ورِفعةِ مَنزِلتِه عندَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه ذُرْوةُ سَنامِ الأمرِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ تقديمُ المالِ على النَّفْسِ في الجِهادِ، وكذا في غالبِ المواضِعِ، وهذا دليلٌ على وُجوبِ الجِهادِ بالمالِ كما يجِبُ بالنَّفْسِ، فإذا دَهَمَ العَدُوُّ وَجَبَ على القادِرِ الخروجُ بنَفْسِه؛ فإنْ كان عاجزًا وَجَبَ عليه أنْ يَكتريَ بمالِه، فتقديمُ المالِ في الذِّكْرِ مُشْعِرٌ بإنكارِ وَهْمِ مَن يَتَوَهَّمُ أنَّ العاجِزَ بنَفْسِه إذا كان قادِرًا على أنْ يَغْزُوَ بمالِه لا يَجِبُ عليه شيءٌ.

وفائدةٌ ثانيةٌ على تقديرِ عدمِ الوُجوبِ، وهي: أنَّ المالَ محبوبُ النَّفْسِ ومَعشوقُها الَّتي تَبذُلُ ذاتَها في تَحصيلِه، وتَرتَكِبُ الأخطارَ وتتعَرَّضُ للمَوتِ في طَلَبِه؛ فنَدَبَ اللهُ تعالى مُحِبِّيه المجاهِدينَ في سَبيلِه إلى بَذْلِ مَعشوقِهم ومَحبوبِهم في مَرْضاتِه، فإنَّ المقصودَ أنْ يكونَ اللهُ هو أَحَبَّ شَيءٍ إليهم، ولا يكونَ في الوُجودِ شيءٌ أحبَّ إليهم منه، فإذا بَذَلوا محبوبَهم في حُبِّه نَقَلَهم إلى مَرتبةٍ أُخرى أَكْمَلَ منها، وهي بَذْلُ نُفوسِهم له، فهذا غايةُ الحُبِّ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الخَيريَّةَ قد تكونُ في الواجِباتِ، بل قد تكونُ في أصلِ الإيمانِ؛ فالإشارةُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سبيلِه، وهذا أصلُ الإيمانِ، وقال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، ومعلومٌ أنَّ الذَّهابَ إلى صَلاةِ الجُمُعةِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٧).
ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ١٩٩).

بعدَ الأذانِ الثَّاني واجِبٌ، وقال اللهُ فيه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فالخيريَّةُ لا تَختَصُّ بما كان نافِلةً، بل تكونُ بما كان نافِلةً، وبما كان فَريضةً، وتكونُ حتَّى في أصلِ الإيمانِ[1].

٨- عَمَلُ الإنسانِ لا يُنجيه مِن النَّارِ، ولا يُدْخِلُه الجنَّةَ، وإنَّما يَحصُلُ ذلك كلُّه بمَغفِرةِ اللهِ ورَحمتِه، وقد دلَّ القرآنُ العزيزُ على هذا المعنَى في مواضعَ كثيرةٍ، منها قَولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[التوبة: ٢١]، فقَرَن بيْنَ دُخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ مِن النَّارِ وبينَ المَغفِرةِ والرَّحمةِ؛ فدلَّ على أنَّه لا يُنالُ شَيءٌ مِن ذلك بدُونِ مَغفِرةِ اللهِ ورَحمتِه، والعملُ وإنْ كان سببًا لدُخولِ الجنَّةِ، فإنَّما هو مِن فضلِ اللهِ ورحمتِه[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ هذه الآيةُ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ الرَّاجِعةِ إلى الإخبارِ بالغَيبِ[3]. وذلك على أنَّ المرادَ نصْرُ فتْحِ مكَّةَ؛ فإنَّه كان نصرًا على أشدِّ أعدائِهم.

١٠- الإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَه دَخَلَ فيه الإسلامُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعدَ أنْ ذَكَرَ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، وأمَّا إذا ذُكِرا جَميعًا فيَفترِقانِ، ويكونُ الإسلامُ بالأعمالِ الظَّاهرةِ مِن أقوالِ اللِّسانِ وعَمَلِ الجَوارحِ، والإيمانُ بالأعمالِ الباطنةِ مِن اعتِقاداتِ القُلوبِ وأعمالِها[4].

١١- تَظاهَرَت آياتُ الكِتابِ وتواتَرت نُصوصُ السُّنَّةِ على التَّرغيبِ في

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٦٠).

الجِهادِ والحَضِّ عليه، ومَدْحِ أهْلِه، والإخبارِ عَمَّا لهم عندَ رَبِّهم مِن أنواعِ الكَراماتِ والعَطايا الجَزيلاتِ، ويَكْفي في ذلك قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فتشَوَّفت النُّفوسُ إلى هذه التِّجارةِ الرَّابحةِ الدَّالِّ عليها رَبُّ العالَمينَ العَليمُ الحكيمُ، فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، فكأنَّ النُّفوسَ ضَنَّت بحَياتِها وبَقائِها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يعني: أنَّ الجِهادَ خَيرٌ لكم مِن قُعودِكم للحياةِ والسَّلامةِ، فكأنَّها قالت: فما لَنا في الجهادِ مِنَ الحَظِّ؟ فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾، مع المغفرةِ ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، فكأنَّها قالت: هذا في الآخرةِ، فما لَنا في الدُّنيا؟ فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فلِلَّه ما أحلى هذه الألفاظَ، وما ألصَقَها بالقُلوبِ! وما أعظَمَها جذبًا لها، وتَسييرًا إلى رَبِّها! وما ألطَفَ مَوقِعَها مِن قَلبِ كُلِّ مُحبٍّ! وما أعظَمَ غِنى القَلبِ وأطيَبَ عَيْشَه حينَ تُباشِرُه معانيها[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هذا تَخلُّصٌ إلى الغرَضِ الَّذي افتُتِحت به السُّورةُ من قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٢- ٤]؛ فبعْدَ أنْ ضُرِبَت لهمُ الأمثالُ، وانتقَلَ الكلامُ مِن مَجالٍ إلى مَجالٍ، أُعِيدَ خِطابُهم هنا بمِثلِ ما خُوطِبوا به بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، أي: هلْ أدُلُّكم على أحبِّ العملِ إلى اللهِ لتَعمَلوا به كما طلَبْتُم؛ إذ قُلْتُم:

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٥٥).

لو نَعلَمُ أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْنا به[(١)]؟ فجاءت السُّورةُ في أُسلوبِ الخَطابةِ[(٢)].

- وجاء قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ...﴾ الآيةَ، في أُسلوبِ النِّداءِ والاستِفهامِ؛ لأنَّه أفخَمُ وأشَدُّ تَشويقًا بالأداةِ الَّتي لا يَكونُ ما بعْدَها إلَّا بالِغًا في العِظَمِ إلى النِّهايةِ[(٣)].

- والاستِفهامُ هنا مُستعمَلٌ في العرْضِ؛ لأنَّ العارضَ قد يَسأَلُ المعروضَ عليه ليَعلَمَ رَغبتَه في الأمرِ المعروضِ، كما يُقالُ: هلْ لك في كذا؟ أو هلْ لك إلى كذا؟ والعرْضُ هنا كِنايةٌ عن التَّشويقِ إلى الأمرِ المعروضِ، وهو دَلالتُه إيَّاهم على تِجارةٍ نافعةٍ[(٤)]. وقيل: (هَلْ) حرْفُ استِفهامٍ معْناه الإخبارُ والإيجابُ، أي: سأدُلُّكم، وإنَّما أورَدَهُ في صِيغةِ الاستفهامِ؛ تَشويقًا وإلْهابًا للرَّغبةِ[(٥)].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾؛ لإفادةِ ما يُذكَرُ بعْدَه من الأشياءِ الَّتي لا يُهْتَدى إليها بسُهولةٍ[(٦)].

- وأُطلِقَ على العَملِ الصَّالحِ لفظُ التِّجارةِ؛ لِمُشابَهةِ العملِ الصَّالحِ التِّجارةَ في طلَبِ النَّفعِ من ذلك العملِ ومُزاوَلَتِه والكَدِّ فيه. ووصْفُ التِّجارةِ بأنَّها تُنجِي من عَذابٍ أليمٍ لقَصْدِ الصَّراحةِ بهذه الفائدةِ لأهمِّيَّتِها[(٧)].

(١) يُنظر ما تقدم في سبب النزول (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾ مُستأنفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ذِكرَ الدَّلالةِ مُجمَلٌ، والتَّشويقَ الَّذي سَبَقَها ممَّا يُثيرُ في أنفُسِ السَّامِعينَ التَّساؤُلَ عن هذا الَّذي تَدُلُّنا عليه، وعن هذه التِّجارةِ[١].

- وقولُه: ﴿ تُؤۡمِنُونَ ﴾، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ خبَرٌ في معْنى الأمرِ، جِيءَ به على لَفظِ الخبرِ؛ للإيذانِ بوُجوبِ الامتثالِ وكأنَّه امتُثِلَ، فهو يُخبِرُ عن إيمانٍ وجِهادٍ مَوجودَينِ، ونَظيرُه قولُ الدَّاعي: غفَرَ اللهُ لك، ويَغفِرُ اللهُ لك؛ جُعِلَت المغفرةُ -لقوَّةِ الرَّجاءِ- كأنَّها كانت ووُجِدَت[٢].

- وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿ تُؤۡمِنُونَ ﴾ إفادةُ الأمرِ بالدَّوامِ على الإيمانِ وتَجديدِه في كلِّ آنٍ، وذلك تَعريضٌ بالمنافِقينَ، وتَحذيرٌ مِن التَّغافُلِ عن مُلازَمةِ الإيمانِ وشُؤونِه، وأمَّا ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ فإنَّه لإرادةِ تَجدُّدِ الجهادِ إذا استُنْفِروا إليه، ومَجِيءُ ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مَجزومًا تَنبيهٌ على أنَّ ﴿ تُؤۡمِنُونَ ﴾، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ وإنْ جاءَا في صِيغةِ الخَبرِ فالمُرادُ الأمْرُ؛ لأنَّ الجزْمَ إنَّما يكونُ في جَوابِ الطَّلبِ، لا في جَوابِ الخبَرِ[٣].

- وإذ قدْ كان الخِطابُ لقَومٍ مُؤمنينَ، فإنَّ فِعلَ ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ مع قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ مُرادٌ به: تَجمَعونَ بيْنَ الإيمانِ باللهِ ورسولِه وبيْنَ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ بأمْوالِكم وأنفُسِكم؛ تَنويهًا بشأْنِ الجِهادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ فقدَّمَ في هذه الآيةِ الكريمةِ الجِهادَ بالمالِ على الجِهادِ بالنَّفْسِ، وفي قولِه تعالَى: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]؛ فقدَّمَ النَّفْسَ على المالِ، وفي ذلك سِرٌّ لَطيفٌ؛ أمَّا في آيةِ (الصَّفِّ) فإنَّ المقامَ مَقامُ تَفسيرٍ وبَيانٍ لمعْنى التِّجارةِ الرَّابحةِ بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وحَقيقةُ الجهادِ بذْلُ الجَهدِ والطاقةِ، والمالُ هو عصَبُ الحرْبِ، وهو مَدَدُ الجيشِ، وهو أهمُّ مِن الجِهادِ بالسِّلاحِ؛ فبالمالِ يُشْترى السِّلاحُ، وقدْ تُستأجَرُ الرِّجالُ، كما في الجُيوشِ الحديثةِ مِن الفِرَقِ الأجنبيَّةِ، وبالمالِ يُجهَّزُ الجيشُ، ولذا لَمَّا جاء الإذنُ بالجِهادِ أعذَرَ اللهُ المَرْضى والضُّعفاءَ، وأعذَرَ معهم الفُقراءَ الَّذين لا يَستطيعونَ تَجهيزَ أنفُسِهم، وأعذَرَ معهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ لم يُوجَدْ عندَه ما يُجهِّزُهم به، كما في قولِه تَعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩١-٩٢]، وكذلك مِن جانبٍ آخَرَ: قدْ يُجاهِدُ بالمالِ مَن لا يَستطيعُ بالسِّلاحِ، كالنِّساءِ والضُّعفاءِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن جهَّزَ غازيًا فقدْ غَزا))[1].

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ: فهي في مَعرِضِ الاستبدالِ والعرْضِ والطَّلَبِ، أو ما يُسمَّى بالمساوَمةِ، فقدَّمَ النَّفْسَ؛ لأنَّها أعزُّ ما يَملِكُ الحيُّ، وجعَلَ في مُقابِلِها الجنَّةَ، وهي أعزُّ ما يُوهَبُ، فالتِّجارةُ هنا مُعامَلةٌ مع اللهِ إيمانًا باللهِ وبرَسولِه، وجِهادًا

(١) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٢٨٤٣)، ومسلمٌ (١٨٩٥) واللَّفظُ له مِن حديثِ زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضيَ اللهُ عنه.

بالمالِ والنَّفْسِ، والعمَلِ الصَّالحِ[١].

وقيل: ذكَرَ الأموالَ أوَّلًا؛ لأنَّها الَّتي يُبدأُ بها في الإنفاقِ[٢]. وقيل: لَمَّا كان الجَمعُ بيْنَ الرُّوحِ وعديلِها المالِ على وَجهِ الرِّضا والرَّغبةِ أدَلَّ على صِحَّةِ الإيمانِ، قال: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ﴾، وقَدَّمَها؛ لعِزَّتِها في ذلك الزَّمانِ، ولأنَّها قِوامُ الأنفُسِ والأبدانِ، فمَن بذَلَ مالَه كلَّه لم يَبخَلْ بنفْسِه؛ لأنَّ المالَ قِوامُها. ولَمَّا قدَّمَ القِوامَ أتبَعَه القائمَ به، فقال: ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ وما فيه مِن معْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِه، وكَونِه في الغايةِ القاصيةِ مِن الفضْلِ والشَّرَفِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعريضٌ لهم بالعِتابِ على تَولِّيهم يومَ أُحُدٍ بعْدَ أنْ قالوا: لو نَعلَمُ أيَّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْناه، فنُدِبوا إلى الجِهادِ، فكان ما كان منهم يومَ أُحُدٍ، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يُشَكُّ في عَمَلِهم بأنَّه خيرٌ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلمِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قيل: جوابُ ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ ﴿يَغۡفِرۡ﴾؛ لذا جُزِمَ، أي: لأنَّ مُتعلَّقَ ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ هو

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

التِّجارةُ المُفسَّرةُ بالإيمانِ والجهادِ، فكأنَّه قِيل: هل تتَّجِرون بالإيمانِ والجهادِ يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم[(١)]؟

- قولُه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إنَّما خُصَّت المساكنُ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّ في الجِهادِ مُفارَقةَ مَساكِنِهم، فوُعِدوا على تلك المُفارَقةِ المُوقَّتةِ بمَساكنَ أبَدِيَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] الآيةَ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ [الصف: ١٢] عطْفَ الاسميَّةِ على الفِعليَّةِ، وجِيءَ بالاسميَّةِ لإفادةِ الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ[(٣)].

- وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تَعريضٌ وتَوبيخٌ على مَحبَّةِ العاجلِ؛ وذلك أنَّه تَعالى عطَفَ (أُخرى) مِن حيثُ المعْنى على النِّعمةِ المذكورةِ مِن المغفرةِ والثَّوابِ، وقيَّدَها بقولِه: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾، وفيه إشارةٌ إلى هذا المعْنى؛ لأنَّ الفتْحَ والنُّصرةَ وإنْ كانَا مِن الأُمورِ الدِّينيَّةِ، لكنَّ فيهما حظَّ النفْسِ؛ لأنَّهما بظاهِرِهما ممَّا تَشتهيه النَّفْسُ[(٤)].

أو وُصِفَ لَفظُ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ بجُملةِ ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ إشارةً إلى الامتِنانِ عليهم بإعطائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

ما يُحِبُّون في الحياةِ الدُّنيا قبْلَ إعطاءِ نَعيمِ الآخِرةِ[١]. وقيل: وصَفَها تعالى بأنَّ النُّفوسَ تُحِبُّها من حيثُ هي عاجلةٌ في الدُّنيا، وقد وُكلَتِ النَّفْسُ لحُبِّ العاجِلِ؛ ففي هذا تحريضٌ[٢].

- قولُه: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ذِكرُ اسمِ الجَلالةِ يَجوزُ أنْ يكونَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، على احتِمالِ أنْ يكونَ ضَميرُ التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ [الصف: ١٠] كَلامًا مِن اللهِ تعالى. ويَجوزُ أنْ يكونَ جاريًا على مُقْتضى الظَّاهرِ، إنْ كان الخِطابُ أُمِرَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَقديرِ (قُل)[٣].

- ووَصْفُ الفتْحِ بـ﴿قَرِيبٞ﴾ تَعجيلٌ بالمَسرَّةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على مَجموعِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، ابتداءً مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ [الصف: ١٠]، على احتِمالِ أنَّ ما قبْلَها كَلامٌ صادرٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى، عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ؛ فيَكونَ الأمرُ من اللهِ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبشِّرَ المؤمنينَ. وأمَّا على احتِمالِ أنْ يكونَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ إلى آخِرِه مَسوقًا لأمْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ: هلْ أدُلُّكم على تِجارةٍ؟ بتَقديرِ قولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلْ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، هلْ أدُلُّكم... إلى آخِرِه، فيَكونَ الأمرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ الْتِفاتًا مِن قَبيلِ التَّجريدِ[٥]، والمعْنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣).

وأُبَشِّرُ المؤمنينَ[(١)]. وقيل: قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّه في معْنى الأمْرِ، كأنَّه قيل: آمِنوا وجاهِدوا يُثِبْكم اللهُ ويَنصُرْكم، وبشِّرْ يا رسولَ اللهِ المؤمنينَ بذلك، وقولُه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مُتضمِّنٌ معْنى الأمرِ؛ لقولِه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ولأنَّ سِياقَ الكلامِ عليه؛ فإنَّه تعالَى لَمَّا نَبَّه عِبادَه على ما يُخلِّصُهم ممَّا يُؤذِيهم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، اتَّجَه لهم أنْ يَتضرَّعوا إليه: نعمْ يا مَولانا وربَّنا، أرْشِدْنا إلى هذه البُغيةِ، فقِيل لهم: آمِنوا باللهِ ورسولِه وجاهِدوا، ثمَّ أمَرَ حَبيبَه بأنْ يُبشِّرَهم بأنَّ اللهَ سيُنجِزُ ما وعَدَ مِن الثَّوابِ العظيمِ في الآخِرةِ، والنَّصرِ القريبِ في الدُّنيا، تَقريرًا أو تَشريفًا؛ ولذلك أُتِيَ بما يدُلُّ على التَّجدُّدِ، ووُضِعَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَوضعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّ صِفةَ الإيمانِ هي الَّتي تَقْتضي هذه البِشارةَ. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّه تعالَى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُخاطِبَ النَّاسَ بقولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أرشَدَه إلى ما يَقْتضيه مِن الجوابِ، أنَّه اتَّجَه لسائلٍ أنْ يقولَ: بَلى دُلَّنا؟ أي: قُلْ: آمِنوا باللهِ... الآيةَ، وبشِّرْهم بعْدَ ذلك بما لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه ممَّا يصِحُّ أنْ تُبشِّرَ به؛ لإطلاقِ (بشِّر)؛ فعلى هذه (بشِّر) مَعطوفٌ على (قُلْ) مُرادًا عندَ قولِه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٥، ٣٩٦).

الآية (١٤)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلْحَوَارِيِّينَ﴾: همْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلامُ وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وقيل: الحواريُّونَ: صَفوةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، الَّذين خلَصوا وأخلَصوا في التَّصديقِ بهم ونُصرتِهم، قيل: سُمِّيَ أصحابُ عيسى بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرونَ الثِّيابَ، أي: يُبيِّضونَها، من: حُرْتُ الثَّوبَ، أي: أخْلَصْتُ بَياضَه بالغَسْلِ، والحَوَرُ: شِدَّةُ البَياضِ[(١)]، ثُمَّ قيل لخاصَّةِ الرَّجُلِ مِن أصحابِه وأنصارِه: حَواريٌّ. وقيل: هم الَّذين أُخلِصُوا ونُقُّوا من كلِّ عيبٍ[(٢)]، وقيل: اشتِقاقُ الحَواريِّ مِن حارَ يَحورُ إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجِعونَ إلى اللهِ، أو الحَواريُّ مِن النَّاسِ هو الَّذي إذا رُجِعَ في اختيارِه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ وُجِدَ نقيًّا مِنَ العُيُوب. وأصلُ (حور) هنا: لَونٌ، والأصلُ الثَّاني: الرُّجوعُ[(٣)].

﴿فَأَيَّدْنَا﴾: أي: قوَّيْنا وأعَنَّا، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[(٤)].

(١) ولذلك سُمِّيَ «الحُوَّارَى» مِن الطَّعامِ بذلك؛ لشدَّةِ بَياضِه.

(٢) وسُمِّيَ الدَّقيقُ الحُوَّارَى بذلك لأنَّه يُنَقَّى مِن لُبابِ البُرِّ وخالِصه.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥، ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣)، ((مقاييس =

﴿ظَٰهِرِينَ﴾: أي: غالِبينَ عالِينَ عليهم، مِن قَولِك: ظَهَرْتُ على فُلانٍ: إذا عَلَوتَه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يَدعو الله تعالى المؤمنينَ إلى التَّشبُّهِ بمَنْ قَبْلَهم مِن الصَّالِحينَ الصَّادقينَ، والاقتِداءِ بهم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا كونوا أنصارَ اللهِ تعالى، كما قال عيسى ابنُ مَريمَ لِخُلَّصِ أصحابِه وخاصَّتِهم: مَن يُعينُني في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإقامةِ دِينِه ونُصرتِه؟ قال الحَوارِيُّونَ له: نحنُ أعوانُك على إقامةِ ما أرسَلَك اللهُ به؛ فآمَنَت جماعةٌ مِن بني إسرائيلَ بنُبُوَّةِ عيسى، وكفَرَت به طائِفةٌ أُخرى، فقَوَّيْنا المؤمنينَ مِن بني إسرائيلَ على عَدُوِّهم مِن الكافِرينَ، فأصبَحوا عالِينَ غالِبينَ.

تَفسيرُ الآيةِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا هزَّ الله سُبحانَه إلى الجهادِ، وشوَّق إليه بأنَّه متجرٌ رابحٌ، ولَوَّح إلى النِّذارةِ بالتَّنشيطِ بالبِشارةِ، فتهيَّأت النُّفوسُ إلى الإقبالِ عليه، وانبعَثَتْ أيَّ انبعاثٍ؛ حضَّ عليه بالإيجابِ المقتضي للثَّوابِ أو العِقابِ[(٢)].

= اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا كونوا أنصارَ اللهِ، بالأقوالِ والأفعالِ، ونصرِ دينِه والاستجابةِ للهِ ورسولِه(١).

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

أي: كما قال عيسى ابنُ مَريمَ لخُلَّصِ أصحابِه المؤمِنينَ به، وخاصَّتِهم: مَن يُعِينُني في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإقامةِ دِينِه ونُصرتِه(٢)؟

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢](٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨، ١٩٩).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ المأمورُ به هنا نَصرُ دينِ اللهِ الَّذي آمَنوا به بأن يَبُثُّوه ويَثبُتوا على الأخذِ به دونَ اكتراثٍ بما يلاقونَه مِن أذًى مِن المشركينَ وأهلِ الكِتابِ... وهذا هو الَّذي شُبِّه بنَصرِ الحواريِّينَ دينَ اللهِ الَّذي جاء به عيسى عليه السَّلامُ؛ فإنَّ عيسى لم يجاهِدْ مَن عانَدوه، ولا كان الحواريُّونَ ممَّن جاهَدوا، ولكِنَّه صَبَر وصَبَروا حتَّى أظهَرَ اللهُ دينَ النَّصرانيَّةِ، وانتَشَر في الأرضِ، ثمَّ دبَّ إليه التَّغييرُ، حتَّى جاء الإسلامُ فنسَخَه مِن أصْلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨، ١٩٩).

وقال السعدي: (قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾، أي: بالأقوالِ والأفعالِ، وذلك بالقيامِ بدِينِ اللهِ، والحِرصِ على إقامتِه على الغَيرِ، وجِهادِ مَن عانَدَه ونابَذَه؛ بالأبدانِ والأموالِ، ومَن نَصَر الباطِلَ بما يَزعُمُه مِن العِلمِ، ورَدِّ الحَقِّ، بدَحضِ حُجَّتِه، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه، والتَّحذيرِ منه. ومِن نَصْرِ دينِ اللهِ: تَعَلُّمُ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، والحَثُّ على ذلك، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

(٣) يُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢١٥).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن يأتيني بخبَرِ القَومِ، يومَ الأحزابِ؟ قال الزُّبَيرُ: أنا. ثمَّ قال: مَن يأتيني بخبَرِ القَومِ؟ قال الزُّبَيرُ: أنا. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ لكُلِّ نبيٍّ حَوارِيًّا[(١)]، وحَوارِيَّ الزُّبَيرُ))[(٢)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نَبيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أُمَّتِه حَوارِيُّونَ وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ[(٣)] يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويَفعَلونَ ما لا يُؤمَرونَ، فمَن جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ[(٤)]))[(٥)].

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال حَوارِيُّو عيسى له: نحنُ أعوانُك على إقامةِ ونَصرِ ما أرسَلَك اللهُ به مِنَ

(١) الحَوارِيُّ: ناصِرُ الأنبياءِ وصَفوةُ أَتْباعِهم. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ١٠٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٤١٥).

(٣) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» بإسكانِ اللَّامِ، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّامِ فهو الخالفُ بخَير، هذا هو الأشهرُ). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

(٤) الخَردَلُ: نباتٌ يُضرَبُ المثَلُ بحُبوبه في الشَّيءِ القليلِ البَليغِ في القِلَّةِ والصِّغَرِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١/ ١٧٠)، ((الكوثر الجاري)) للكوراني (١/ ٧٥).

(٥) رواه مسلم (٥٠).

الحَقِّ(١).

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

أي: فآمَنَت جماعةٌ مِن بني إسرائيلَ بنُبُوَّةِ عيسى وما جاءَهم به مِنَ الحَقِّ، وكفَرَت به طائِفةٌ أُخرى فافتَرَوا عليه كَذِبًا(٢).

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

أي: فقَوَّيْنا المؤمِنينَ مِن بني إسرائيلَ على عَدُوِّهم مِن الكافِرينَ، فأصبَحوا عالِينَ غالِبينَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (لهذا بعَثَهم دُعاةً إلى النَّاسِ في بلادِ الشَّامِ في الإسرائيليِّينَ واليُونانيِّينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قال ابنُ كثيرٍ: (قوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، أي: لَمَّا بلَّغَ عيسى ابنُ مَريمَ عليه السَّلامُ رِسالةَ رَبِّه إلى قَومِه، ووازَرَه مَن وازَرَه مِن الحَواريِّينَ، اهتَدَت طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ بما جاءَهم به، وضَلَّت طائفةٌ فخرَجَت عمَّا جاءَهم به، وجَحَدوا نبُوَّتَه، ورَمَوه وأمَّه بالعظائِمِ، وهم اليهودُ -عليهم لعائِنُ اللهِ المُتتابِعةُ إلى يومِ القيامةِ- وغَلَت فيه طائِفةٌ مِمَّن اتَّبَعه، حتَّى رَفَعوه فوقَ ما أعطاه اللهُ مِن النُّبُوَّةِ، وافترَقوا فِرَقًا وشِيَعًا؛ فمِن قائلٍ منهم: إنَّه ابنُ اللهِ، وقائِلٍ: إنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ: الأبُ، والابنُ، ورُوحُ القُدُسِ، ومِن قائلٍ: إنَّه اللهُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ قيل: ذلك قبْلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبعدَ فَترةٍ مِن رَفعِ عيسى عليه السَّلامُ، رَدَّ اللهُ تعالى الكَرَّةَ لِمَن آمَنَ به، فغَلَبوا الكافرينَ الَّذين قَتَلوا صاحِبَه الَّذي أُلقِيَ عليه الشَّبَهُ. وقيل: ذلك بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أصبح =

= المؤمِنُ بعيسى ظاهِرًا لإيمانِه بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وذلك أنَّه لا يُؤمِنُ أحدٌ حَقَّ الإيمانِ بعيسى إلَّا وفي ضِمنِ ذلك الإيمانُ بمحمَّدٍ؛ لأنَّه بَشَّرَ به، وحَرَّض عليه. وقيل: كان المؤمنونَ به قديمًا ظاهِرينَ بالحُجَّةِ، وإن كانوا مُفَرَّقينَ في البلادِ، مغلوبينَ في ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٥).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى أنَّ المرادَ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعيسى ﴿عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ وهم مُخالِفُو عيسى: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والبقاعي، وابنُ عاشور. ونسَبَه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٩).

قال الماتُريدي: (هذا يحتملُ أن يكونَ في حياةِ عيسى عليه السَّلامُ حينَ اتَّبَعه الحَواريُّونَ، ثمَّ دعا بعدَ ذلك قومَه إلى دينِه، فآمنتْ طائفةٌ، وكفرتْ طائفةٌ، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ بالبَراهينِ والحُجَجِ على الطَّائفةِ الَّذين كفروا؛ ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ على أعدائِهم بالحُجَجِ والبَراهينِ. ويجوزُ أن يكونَ بعدَ وفاةِ عيسى عليه السَّلامُ حينَ اختلَفوا في ماهيَّتِه: فمِنهم مَن قال: هو اللهُ، ومنهم مَن قال: هو ابنُ اللهِ؛ فكفرتْ به هذه الطَّائفةُ، وآمنتْ به طائفةٌ أخرى، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ حينَ وقَع لهم قِتالٌ؛ فنُصِروا عليهم وظَفِروا، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٦٣٧).

وقال ابن عرفة: (لعلَّ المرادَ الحَواريُّونَ بالنَّوعِ لا بالشَّخصِ، بأولادِهم أو مَن ينتمي لهم، نُصِروا فانتصَروا). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٢٨).

وقال البِقاعي: (الظَّاهرُ كما هو ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وغيرِها أنَّ تأييدَ المؤمنينَ به كان بَعْدَ رفْعِه بيَسيرٍ حينَ ظهَر الحَواريُّونَ وانبثُّوا في البلادِ يَدْعون إلى اللهِ بما آتاهم مِن الآياتِ، فاتَّبَعهم النَّاسُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٢، ٤٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: قوَّينا الَّذين آمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدُوِّهم فأصبَحوا ظاهِرينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أهلِ الأديانِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٨).

وقيل: المعنى: لَمَّا بَعَث اللهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَزَل تصديقُ مَن آمَنَ بعيسى؛ أصبَحَت حُجَّةُ مَن آمَنَ به ظاهِرةً بتَصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ عيسى كَلِمةُ اللهِ ورُوحُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣- ٦٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ أنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ الكامِلَ إنَّما هو لأهلِ الإيمانِ الكامِلِ، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، فمَن نَقَصَ إيمانُه نَقَصَ نصيبُه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ؛ ولهذا إذا أُصِيبَ العَبدُ بمُصيبةٍ في نفْسِه أو مالِه، أو بإدالةِ عَدُوِّه عليه، فإنَّما هي بذُنوبِه؛ إمَّا بتَركِ واجبٍ، أو فِعْلِ مُحرَّمٍ، وهو مِن نَقْصِ إيمانِه، وبهذا يزولُ الإشكالُ الَّذي يُورِدُه كثيرٌ مِن النَّاسِ على قَولِه تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١]، ويُجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الآخرةِ، ويُجيبُ آخَرونَ بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الحُجَّةِ. والتَّحقيقُ: أنَّها مِثلُ هذه الآياتِ، وأنَّ انتفاءَ السَّبيلِ هو عن أهلِ الإيمانِ الكامِلِ، فإذا ضَعُفَ الإيمانُ صار لِعَدُوِّهم عليهم من

= وقال ابن كثير: (قوله: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أي: نصَرْناهم على مَن عاداهم مِن فِرَقِ النَّصارى، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي: عليهم، وذلك ببَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

وقال الألوسي: (قيل: اقتتَل المؤمنونَ والكفَرةُ بعدَ رفْعِه عليه السَّلامُ، فظهَرَ المؤمنونَ على الكفَرةِ بالسَّيفِ، والمشهورُ أنَّ القتالَ ليس مِن شريعتِه عليه السَّلامُ. وقيل: المرادُ: فآمنَتْ طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكفرتْ أخرى به صلَّى الله تعالى عليه وسلَّمَ، فأيَّدْنا المؤمنينَ على الكفَرةِ، فصاروا غالبينَ. وهو خِلافُ الظَّاهرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٦).

السَّبيلِ بحَسَبِ ما نَقَص مِن إيمانِهم، فهم جَعَلوا لهم عليهِمُ السَّبيلَ بما تَرَكوا مِن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالمؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ مَنصورٌ، مُكْفًى مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمعَ عليه مَن بأقطارِها، إذا قام بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ واضِحةٌ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ إذْ لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّ نَصْرَ اللهِ إنَّما هو نَصْرُ دِينِه، ولا يكونُ نَصْرُه إلَّا بالمعونةِ على إقامةِ أمْرِه ونَهْيِه وعُلُوِّهما، والأخذ على يَدَيْ مَن يريدُ ذُلَّه وإهانتَه، ولا يكونُ ذُلُّه وإهانتُه إلَّا في تَضييعِ أمْرِه ونَهْيِه اللَّذَينِ قِوامُ الدِّينِ بهما[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فيه بِشارةٌ للمُؤمنينَ بالتَّأييدِ الرَّبَّانيِّ لهم ما داموا مُتناصِرينَ على الحَقِّ، مجتَمِعينَ عليه، غيرَ مُتفرِّقينَ عنه، ولا مُتخاذِلينَ، كما وقَعَ لسَلَفِهم؛ اتَّفَقوا فمَلَكوا، وإلَّا فإذا تفرَّقوا هَلَكوا[٣].

بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ خِطابٌ آخَرُ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٥).

للمؤمنين تَكملةً لِما تَضمَّنَه الخِطابُ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٠، ١١] الآيةَ، الَّذي هو المقصودُ مِن ذلك الخِطابِ، فجاء هذا الخِطابُ الثَّاني تَذكيرًا بأُسوةٍ عَظيمةٍ مِن أحوالِ المُخلِصينَ مِن المؤمنينَ السَّابقينَ -وهم أصحابُ عِيسى عليه السَّلامُ- مع قِلَّةِ عَدَدِهم وضَعْفِهم(١).

- والتَّشبيهُ بدَعوةِ عيسى ابنِ مَريمَ للحواريِّينَ وجَوابِ الحواريِّينَ تَشبيهُ تَمثيلٍ(٢)، أي: كُونوا عندَما يَدْعوكم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى نصْرِ اللهِ كحالةِ قَولِ عيسى ابنِ مَريمَ للحواريِّينَ واستِجابتِهم له. والتَّشبيهُ لقصْدِ التَّنظيرِ والتَّأسِّي؛ فقدْ صَدَقَ الحواريُّون وَعْدَهم وثَبَتوا على الدِّينِ، ولم تُزَعْزِعْهمُ الفِتَنُ والتَّعذيبُ(٣).

- و(ما) في قولِه: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَصدريَّةٌ، أي: كَقولِ عيسى وقولِ الحواريِّين. وفيه حذْفُ مُضافٍ تَقديرُه: لكَونِ قولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشَبَّهِ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به. وقد اتَّفق الأدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلَّةً وجَمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن متعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المركَّبِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٩، ٢٠٠).

عيسى وقولِ الحواريِّينَ؛ فالتَّشبيهُ بمَجموعِ الأمْرَينِ: قولِ عيسى وجوابِ الحواريِّينَ؛ لأنَّ جَوابَ الحواريِّينَ بمَنزلةِ الكلامِ المُفرَّعِ على دَعوةِ عيسى، وإنَّما تُحذَفُ الفاءُ في مِثلِه مِن المُقاوَلاتِ والمُحاوَراتِ للاختصارِ[(١)].

- وقولُ عيسى عليه السَّلامُ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ استِفهامٌ؛ لاختبارِ انتِدابِهم إلى نَصْرِ دِينِ اللهِ معه[(٢)]. وإضافةُ (أنصار) إلى ياءِ المُتكلِّمِ -وهو عيسى- مِن إضافةِ أحدِ المُتشارِكَينِ إلى الآخَرِ؛ لِما بيْنَهما مِن الاختصاصِ، أي: باعتبارِهم أنصارَ دَعوتِه[(٣)].

- وإضافةُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خِلافُ إضافةِ ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ فالإضافةُ الأُولى مَحْضةٌ، والثَّانيةُ غيْرُ مَحْضةٍ، وفائدةُ هذا الاختلافِ: الإيذانُ بأنَّ الَّذي يُطلَبُ منهمْ هو النُّصرةُ المُعتبَرةُ، وهو اختصاصُهم به وما أخْبَروا به عن أنفُسِهم ليس إنشاءً للنُّصرةِ، بل ادِّعاءً منهم أنَّهم الَّذين يَنصُرون اللهَ، ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾[(٤)].

- ووُصِلَ وصْفُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ بـ(إلى)؛ إمَّا على تَضمينِ صِفةِ (أنْصار) مَعنى الضَّمِّ، أي: مَن ضامُّون نصْرَهم إيَّايَ إلى نصْرِ اللهِ إيَّايَ الَّذي وَعَدني به؛ إذْ لا بُدَّ لحُصولِ النَّصرِ مِن تَحصيلِ سَببِه، كما هي سُنَّةُ اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، على نحْوِ قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢]، أي: ضامِّينَها، فهو ظَرْفُ لَغوٍ، فالمَعنى: مَن أنْصاري

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٧).

مع اللهِ، و(إلى) إنَّما قارَبَت مَعنى (مع)؛ لأنَّها إذا عُبِّرَ عنها بها أفادَت مَعناها، لا أنَّ (إلى) بمَعنى (مع)؛ لأنَّ (إلى) لانتهاءِ الغايةِ، و(مع) لضَمِّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، فالمعنى: مَن يُضِيفُ نُصْرتَه إيَّايَ إلى نُصرَتِه تعالى، ولِما أنَّ الحُروفَ قدْ تَتقارَبُ في الفائدةِ رُبَّما يُظَنُّ أنَّ مَعناها واحدٌ.

وإمَّا على جَعلِه حالًا مِن ياءِ المتكلِّمِ، والمعنى: في حالِ ذَهابي إلى اللهِ، أي: إلى تَبليغِ شَريعتِه، فيكونُ المجرورُ ظَرْفًا مُستقَرًّا[١]. وعلى كِلا الوجْهينِ فالكونُ الَّذي اقتَضاهُ المجرورُ هو كَونٌ مِن أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ، ولذلك لم يَأْتِ الحواريُّونَ بمِثلِه في قولِهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

أو يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ حالًا مِن الياءِ، أي: مَن أنْصاري ذاهبًا إلى اللهِ مُلتجِئًا إليه، ومعنى ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾: مَن الأنصارُ الَّذين يَختصُّون بي، ويكونونَ معي في نُصرةِ اللهِ[٢]؟ وقيل: (إلَى) هاهنا بمَعنى (في) أو اللَّامِ[٣].

---

(١) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عامِلُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغْوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٥) و(٤/ ٥٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٤/ ١١٧)، ((إعراب القرآن)) لمحيي الدين درويش (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٩).

- قيل: شُبِّهَ دُعاؤهم إلى الدِّينِ وتَعليمُهم النَّاسَ ما يَرْضاهُ اللهُ لهم؛ بسَعيِ ساعِينَ إلى اللهِ ليَنصُروه، كما يَسْعى المُستنْجَدُ بهِمْ إلى مَكانِ مُستنْجِدِهم ليَنصُروه على مَن غَلَبَه؛ ولذلك كان الجوابُ المحْكيُّ عن الحواريِّينَ مُطابقًا للاستفهام؛ إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أي: نحْنُ نَنصُرُ اللهَ على مَن حادَّه وشاقَّه، أي: نَنصُرُ دِينَه[1].

- ومَقالةُ عيسى عليه السَّلامُ المَحكيَّةُ في هذه الآيةِ ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ غيرُ مَقالتِه المَحكيَّةِ في آيةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ فإنَّ تلك مُوجَّهةٌ إلى جَماعةِ بَني إسرائيلَ الَّذين أحَسَّ منهم الكفْرَ لَمَّا دَعاهم إلى الإيمانِ به. أمَّا مَقالتُه المَحكيَّةُ هنا فهي مُوجَّهةٌ للَّذين آمَنوا به طالبًا منهم نُصرتَه؛ لقولِه تعالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ؛ فلذلك تَعيَّنَ اختلافُ مُقْتضى الكلامَينِ المُتماثلَينِ. وعلى حسَبِ اختِلافِ المَقامَينِ يَجْري اختِلافُ اعتبارِ الخُصوصيَّاتِ في الكلامينِ وإنْ كانَا مُتشابهَينِ؛ فإضافةُ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] هناك إضافةٌ لَفظيَّةٌ، وبذلك لم يكُنْ قولُهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] مُفيدًا للقَصْرِ؛ لانعدامِ تَعريفِ المُسنَدِ، فأمَّا هنا فالأظهَرُ أنَّ كلمةَ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ اعتُبِرَت لَقبًا للحواريِّينَ، عرَّفوا أنفُسَهم به، وخَلَعوه على أنفُسِهم؛ فلذلك أرادوا الاستِدلالَ به على أنَّهم أحقُّ النَّاسِ بتَحقيقِ مَعْناه؛ ولذلك تكونُ إضافةُ (أنصار) إلى اسمِ الجلالةِ هنا إضافةً مَعنويَّةً مُفيدةً تَعريفًا، فصارت جُملةُ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ هنا مُشتملةً على صِيغةِ قصْرٍ، على خِلافِ نَظيرتِها التي

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

في سُورةِ (آلِ عمرانِ)، ففي حِكايةِ جَوابِ الحوارِيِّينَ هنا خُصوصيَّةُ صِيغةِ القصْرِ بتَعريفِ المُسندِ إليه والمُسنَدِ، وخُصوصيَّةُ التَّعريفِ بالإضافةِ، فكان إيجازًا في حِكايةِ جَوابِهم بأنَّهم أجابوا بالانتدابِ إلى نصْرِ الرَّسولِ، وبجَعْلِ أنفُسِهم مَحقوقينَ بهذا النَّصرِ؛ لأنَّهم مَحَّضوا أنفُسَهم لنصْرِ الدِّينِ، وعُرِفوا بذلك، وبحصْرِ نَصْرِ الدِّينِ فيهم حصْرًا يُفيدُ المُبالَغةَ في تَمحُّضِهم له، حتَّى كأنَّه لا ناصَرَ للدِّينِ غيرُهم مع قِلَّتِهم، وإفادته التَّعريضَ بكُفْرِ بَقيَّةِ قَومِهم مِن بني إسرائيلَ[١].

- وفرَّعَ قولُه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ على قولِ الحواريِّينَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ بأنَّ بني إسرائيلَ افترَقوا طائفتَينِ: طائفةٌ آمَنَتْ بعيسى وما جاء به، وطائفةٌ كَفَرَتْ بذلك، وهذا التَّفريعُ يَقْتضي كلامًا مُقدَّرًا، وهو: فَنَصَروا اللهَ بالدَّعوةِ والمُصابَرةِ عليها، فاستجابَ بعضُ بني إسرائيلَ وكفَرَ بعْضٌ، والمَقصودُ مِن قولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ التَّوطئةُ لقولِه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[٢].

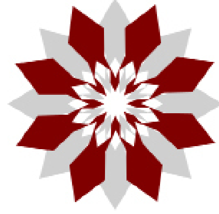
- وإنَّما قال: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يَقُلْ: (فأيَّدْناهم)؛ لأنَّ التَّأييدَ كان لمَجموعِ المؤمنينَ بعيسى، لا لكلِّ فرْدٍ منهم؛ إذ قد قُتِلَ مِن أتْباعِه خلْقٌ كثيرٌ، ومُثِّلَ بهم[٣].

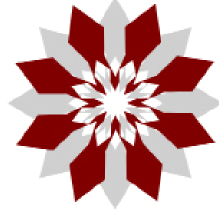
- والمَقصودُ مِن هذا الخبرِ: وَعْدُ المسلِمينَ الَّذين أُمِروا أنْ يَكونوا أنصارًا للهِ بأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم على عَدُوِّهم[٤].

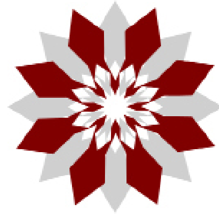
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٢، ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الجُمُعَةِ







سُورةُ الجُمُعةِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجُمُعةِ)(١)، ويدُلُّ لذلك ما يلي:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرَأُ في صَلاةِ الفَجرِ يومَ الجُمُعةِ: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ سُورةَ الجُمُعةِ، والمنافِقينَ))(٢).

٢- وعن الضَّحَّاكِ بنِ قَيسٍ أنَّه كَتَب إلى النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ يَسألُه: ((أيَّ شَيءٍ قَرَأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الجُمُعةِ سِوى سُورةِ الجُمُعةِ؟ فقال: كان يَقرَأُ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾))(٣).

٣- عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا جُلوسًا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأُنزِلَت عليه سورةُ الجُمُعةِ))(٤).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

تُسَنُّ قراءتُها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صلاةِ الجُمُعةِ:

عن ابنِ أبي رافعٍ، قال: ((استخلَفَ مَروانُ أبا هُرَيرةَ على المدينةِ، وخرج إلى

(١) وَجهُ التَّسْميةِ ذِكرُ لَفظِ الجُمُعةِ فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٩٧) مطوَّلًا ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

مكَّةَ، فصلَّى لنا أبو هُرَيرةَ الجُمُعةَ، فقرأ بعدَ سُورةِ الجُمُعةِ في الرَّكعةِ الآخِرةِ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، قال: فأدركتُ أبا هُريرةَ حينَ انصرَفَ، فقلتُ له: إنَّك قرأتَ بسُورتَينِ كان عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَقرأُ بهما بالكُوفةِ، فقال أبو هُرَيرةَ: إنِّي سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بهما يومَ الجُمُعةِ))(١).

وتقدَّم حَديثُ ابنِ عَبَّاسٍ وحَديثُ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهم: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ بها في صلاةِ الجُمُعةِ.

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الجُمُعةِ مَدَنيَّةٌ(٢)، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ(٣).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

ذِكرُ ما اصطفَى اللهُ به هذه الأُمَّةَ، ومِن ذلك صلاةُ الجُمُعةِ، مع بَيانِ بَعضِ أحكامِها(٤).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- الثَّناءُ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، وذِكرُ مَظاهِرِ نِعَمِه على عِبادِه؛ حيثُ أرسَلَ فيهم

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٩).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٥).

رَسُولًا؛ لِيُزَكِّيَهم ويُعَلِّمَهم الكِتابَ والحِكْمةَ.

٢- تَوبيخُ اليَهودِ وذَمُّهم؛ لعَدَمِ عَمَلِهم بالكتابِ الَّذي أنزَلَه سُبحانَه لهِدايتِهم، وإصلاحِ حالِهم، وإلزامُ الحُجَّةِ عليهم، وإبطالُ زَعْمِهم أنَّهم أولياءُ اللهِ.

٣- دَعوةُ المؤمِنينَ إلى المحافَظةِ على صلاةِ الجُمُعةِ، والتَّحذيرُ مِنَ التَّخَلُّفِ عنها، والأمرُ بتَرْكِ ما يَشغَلُ عنها في وَقتِ أدائِها، وتوبيخُ قَومٍ انصَرَفوا عنها.



الآيات (١-٤)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمَلِكِ﴾: أي: المالِكِ للأشياءِ كلِّها، المُصَرِّفِ لها على إرادتِه، لا يَمتنِعُ عليه منها شَيءٌ، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصحَّةٍ[(١)].

﴿الْقُدُّوسِ﴾: أي: الطَّاهِرِ مِن كلِّ عيبٍ، المُنَزَّهِ عن كُلِّ نَقصٍ، مِن «القُدْس» وهو: الطَّهارةُ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[(٢)].

﴿الْعَزِيزِ﴾: أي: الَّذي اتَّصف بالعِزَّةِ التَّامَّةِ: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهِرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٤٣-٤٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخَطَّابي (ص: ٤٧)، =

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: أي: الموصوفِ بكمالِ الحكمةِ، وهي كمالُ العِلمِ والإرادةِ المُتضَمِّنَينِ اتِّساقَ صُنعِه، وجَرَيانَه على أحسَنِ الوُجوهِ وأكمَلِها، ووَضْعَه الأشياءَ مَواضِعَها، فالحكيمُ فَعيلٌ بمعنَى مُفعِلٍ، مِن الإحكامِ، فهو المُحكِمُ الَّذي يُحكِمُ الأشياءَ كَونًا وشرعًا، ويحكِمُها عمَلًا وصُنعًا، ومنه قيل: بِناءٌ مُحكَمٌ، أي: قد أُتقِنَ وأُحكِمَ.

والحكيمُ الموصوفُ بكمالِ الحُكمِ -فَعيلٌ بمعنَى فاعِلٍ- مِن الحُكمِ، وهو الفصلُ والأمرُ، فهو الحاكمُ الَّذي له الحُكمُ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ، مِن حَكَمةِ اللِّجامِ، وهي الحديدةُ الَّتي تَمنَعُ الفَرَسَ وتَرُدُّه إلى مَقصدِ الرَّاكِبِ، والحِكمةُ هذا قِياسُها؛ لأنَّها تمنَعُ مِن الجهلِ، وكذلك الحاكمُ بيْن النَّاسِ إنَّما هو الفاصلُ بيْنَهم بعِلمِه، والمُلزِمُ لهم ما لا يُمكِنُهم مُخالَفَتُه، ويَمنعُ المحكومَ عليه الخُروجَ عن حُكمِه[1].

﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: أي: العربِ، الَّذين لم يكُنْ لهم كتابٌ، والأُمِّيُّ هو الَّذي لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ المكتوبَ، وكان أغلَبُ العرَبِ كذلك، قيل: سُمِّيَ الأُمِّيُّ بذلك نِسبةً إلى ما ولَدَتْه عليه أُمُّه، أو نِسبةً إلى أُمِّه؛ لأنَّ الكتابَ كان في الرِّجالِ دونَ النِّساءِ، وقيل: نِسبةً إلى الأُمَّةِ؛ لأنَّه الأصلُ في جِبلَّةِ الأمَّةِ، والكِتابةُ لا تكونُ إلَّا

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).
ويُنظر ما تقدَّم في سورة (الحشر) (٣٧/ ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٦٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٧)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٨٦)، ((شرح العقيدة الواسطية)) للعثيمين (١/ ١٨٨)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٢٣).

بتَعَلُّمٍ[١].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: يُنمِّيهم بالخَيرِ والتَّربيةِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وحثِّهم على الأخلاقِ الجميلةِ، ويُطهِّرُهم مِن الكُفرِ والمَعاصي والرَّذائلِ وسائرِ الخِصالِ الذَّميمةِ، والتَّزكيةُ: التَّطهيرُ، والزَّكاةُ: النَّماءُ والزِّيادةُ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على النَّماءِ والزِّيادةِ والطَّهارةِ[٢].

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: الحِكمةُ هنا: هي السُّنَّةُ، والحِكمةُ: معرفةُ الحقِّ والعملُ به، والإصابةُ في القولِ والعملِ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ، والحِكمةُ هذا قِياسُها؛ لأنَّها تمنَعُ مِن الجهلِ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه يُنزِّهُه تعالى عن النَّقائصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وهو سُبحانَه المَلِكُ الحَقُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)) للسعدي (١/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٤٨).

قال ابنُ القيِّم: (الحِكمةُ هي سُنَّةُ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، وهي تتضمَّنُ العِلمَ بالحقِّ، والعملَ به، والخبرَ عنه، والأمرَ به). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٩٣).

المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ.

ثمَّ يذكرُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ فضْلِه على خَلقِه، فيقولُ: هو الَّذي أرسَلَ في العَرَبِ رَسولًا أُمِّيًّا مِنهم، يَقرَأُ عليهم آياتِ القُرآنِ، ويُطَهِّرُهم من الأخلاقِ الرَّذيلةِ والعقائِدِ المُنحَرِفةِ، ويُعَلِّمُهم القُرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبَويَّةَ، وقد كانوا قبْلَ إرسالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم في انحرافٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ، وكذلك بَعَث اللهُ الرَّسولَ في آخَرينَ مِنهم يأتُونَ بَعْدَهم، واللهُ هو العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ. وذلك فَضلٌ مِنَ اللهِ يُعطيه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: يُنزِّهُ اللهَ تعالى وَحْدَه عن النَّقائصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجَميعُ ما في الأرضِ(١).

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾.

أي: المَلِكِ الحَقِّ، المالِكِ لجَميعِ الأشياءِ، الكاملِ التَّصرُّفِ في جميعِ خَلْقِه بما يَشاءُ، المتَّصِفِ بالطُّهرِ التَّامِّ والنَّزاهةِ البالِغةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥).

وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ.

يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (الإسراء) الآية (٤٤)، وأوَّل سورة (الحديد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) =

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قولَ الملائكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سلَّمَ مِنَ الوِتْرِ قال: سُبحانَ الملِكِ القُدُّوسِ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، وفي روايةٍ: يُطيلُ في آخِرِهنَّ))(١).

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

أي: العَزيزِ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فيَنتَقِمُ مِن أعدائِه ويُذِلُّهم، الحَكيمِ فيما خَلَق وشَرَع وقدَّر، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به(٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

= للبقاعي (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(١) أخرجه أبو داودَ (١٤٣٠)، والنسائيُّ (١٦٩٩)، وأحمدُ (٢١١٤٢)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٥٠).
صَحَّحه ابنُ القطَّانِ في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٦١٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٤٣٠).
وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٢٠)، وابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بعدَما فرَغ مِن التَّوحيدِ والتَّنزيهِ؛ شرَع في النُّبوَّةِ[١].

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أرسَلَ في العَرَبِ رَسولًا أُمِّيًّا مِن جملةِ العَرَبِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥، ٦٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٦٧-١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

قال الشنقيطي: (﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: العَرَبُ، بالإجماعِ، والرَّسولُ المذكورُ: نَبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إجماعًا). ((أضواء البيان)) (١/ ٤٤).

وقال الماوَرْدي: (وفي تسميتِهم أُمِّيِّينَ قَولانِ؛ أحدُهما: لأنَّه لم يَنزِلْ عليهم كتابٌ، قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّاني: لأنَّهم لم يَكونوا يَكتُبون، ولا كان فيهم كاتبٌ، قاله قَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ تيميَّةَ، والفيروزابادي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال ابن تيميَّةَ: (الصَّوابُ: أنَّه نِسبةٌ إلى الأُمَّةِ، كما يُقالُ: عامِّيٌّ، نِسبةً إلى العامَّةِ الَّتي لم تَتمَيَّزْ عن العامَّةِ بما تَمتازُ به الخاصَّةُ، وكذلك هذا لم يتميَّزْ عن الأمَّةِ بما يمتازُ به الخاصَّةُ من الكتابةِ والقِراءةِ، ويُقالُ الأُمِّيُّ لِمَن لا يَقرأُ ولا يَكتُبُ كِتابًا، ثمَّ يُقالُ لِمَن ليس لهم كتابٌ مُنَزَّلٌ مِن الله يَقرَؤُونه وإن كان قد يكتبُ ويقرأُ ما لم يُنزَّلْ، وبهذا المعنى كان العربُ كلُّهم أُمِّيِّينَ؛ فإنَّه لم يكُنْ عندَهم كتابٌ مُنزلٌ مِن الله، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾، وقد كان في العربِ كثيرٌ ممَّن يَكتُبُ ويَقرَأُ المكتوبَ، وكلُّهم أُمِّيُّون، فلمَّا نزَل القرآنُ عليهم لم يَبقوا أُمِّيِّينَ باعتبارِ أنَّهم لا يَقرَؤُون كتابًا من حِفظِهم، بل هم يَقرَؤُون القرآنَ مِن حِفظِهم، وأناجيلُهم في صُدورِهم، لكنْ بقُوا أُمِّيِّينَ باعتبارِ أنَّهم لا يَحتاجون إلى كتابةِ دينِهم، بل قرآنُهم محفوظٌ في قُلوبِهم... وبهذا الاعتبارِ فالمسلمونَ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ بعدَ نُزولِ القرآنِ وحِفظِه...). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٣٥).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: يَقرَأُ مُحمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على الأُمِّيِّينَ آياتِ القُرآنِ الَّتي أنزَلَها اللهُ عليه، مع كَونِه أُمِّيًّا مِثْلَهم، ويُطَهِّرُهم من الأخلاقِ الرَّذيلةِ والعقائِدِ المُنحَرِفةِ، ويُنَمِّيهم بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحةِ[1].

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: ويُعَلِّمُهم القُرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبَويَّةَ، فيَفقَهونَ معانيَ كِتابِ اللهِ، وأحكامَ شَرْعِه[2].

= وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أبو عُبَيدةَ، والبغويُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

قال السمعاني: (فإن قال قائلٌ: لم يكُنْ كلُّ قُرَيشٍ أُمِّيًّا، وقد قال: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؟ والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالَى سمَّاهم أُمِّيِّينَ باعتِبارِ غالِبِ أمْرِهم، وقد كانت الكِتابةُ نادِرةً فيهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٠).

وقال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: كانت العربُ أمَّةً لا كِتابَ لهم، ولا يَقرَؤُون كتابًا ولا يَكتُبون). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال ابن تيميَّة: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو الكلامُ المُنزَّلُ الَّذي يُكتَبُ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي السُّنَّةُ؛ وهي معرفةُ الدِّينِ والعملُ به). ((النبوات)) (٢/ ٦٧٢). =

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وقد كان العَرَبُ الأُمِّيُّونَ مِن قَبلِ إرسالِ مُحمَّدٍ إليهم، وإنزالِ القُرآنِ

= وقال ابنُ القيِّم: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو القُرآنُ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي السُّنَّةُ، باتِّفاقِ السَّلَفِ، وما أخبَرَ به الرَّسولُ عن اللهِ فهو في وُجوبِ تَصديقِه والإيمانِ به كما أخبَرَ به الرَّبُّ تعالى على لسانِ رَسولِه، هذا أصلٌ مُتَّفَقٌ عليه بيْن أهلِ الإسلامِ، لا يُنكِرُه إلَّا مَن ليس منهم، وقد قال النَّبيُّ: «إنِّي أُوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَه معه» [أبو داود «٤٦٠٤»، والترمذي «٢٦٦٤»، وابن ماجه «١٢»، وأحمد «١٧٢١٣» وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» «٤٦٠٤»]). ((الروح)) (ص: ٧٥).

وقال ابنُ رجب: (قَولُه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: يعني بالكِتابِ: القُرآنَ، والمرادُ: ويُعَلِّمُهم تلاوةَ ألفاظِه، ويعني بالحِكمةِ: فَهْمَ معاني القرآنِ، والعَمَلَ بما فيه، فالحِكمةُ هي: فَهمُ القُرآنِ، والعَمَلُ به، فلا يَكفي تلاوةُ ألفاظِ الكِتابِ حتَّى يُعلَمَ مَعناه، ويُعمَلَ بمُقتَضاه، فمَن جُمِع له ذلك كُلُّه فقد أُوتيَ الحِكمةَ؛ قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]... ومَن قال: «الْحِكْمَةَ»: السُّنَّةُ، فقَولُه الحَقُّ؛ لأنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُ مَعانيَه، وتَحُضُّ على اتِّباعِه والعَمَلِ به، فالحكيمُ هو العالمُ المُستنبِطُ لدقائقِ العِلمِ، المنتَفِعُ بعِلمِه بالعَمَلِ به). ((لطائف المعارف)) (ص: ٨٤، ٨٥).

وممَّن اختار أيضًا أنَّ المرادَ بالكتابِ: القرآنُ، وبالحِكمةِ: السُّنَّةُ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والزمخشري، وابن عطية، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال الماوَرْدي: (﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه ثلاثةُ تلأويلاتٍ؛ أحدُها: أنَّه القرآنُ، قاله الحسَنُ. الثَّاني: أنَّه الخطُّ بالقلَمِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ؛ لأنَّ الخطَّ إنَّما فشَا في العربِ بالشَّرعِ لما أُمِروا بتقييدِه بالخطِّ. الثَّالثُ: معرفةُ الخَيرِ والشَّرِّ كما يَعرِفونه بالكتابِ؛ لِيَفعَلوا الخَيرَ، ويَكُفُّوا عن الشَّرِّ، وهذا معنى قولِ محمدِ بنِ إسحاقَ.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: أنَّ الحِكمةَ السُّنَّةُ، قاله الحسَنُ. الثَّاني: أنَّه الفِقهُ في الدِّينِ، وهو قولُ مالكِ بنِ أنَسٍ. الثَّالثُ: أنَّه الفَهمُ والاتِّعاظُ، قاله الأعمشُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦).

واختار الرَّازيُّ أنَّ الحِكمةَ: هي الفرائضُ، واختار السَّمَرْقَنْديُّ أنَّها الحلالُ والحرامُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧).

عليهم: في انحرافٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ(١).

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾.

أي: وبَعَث اللهُ الرَّسولَ في آخَرينَ مِنهم يأتُونَ بَعْدَهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠).
قال البيضاوي: (هو بيانٌ لشِدَّةِ احتياجِهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهم، وإزاحةٌ لِما يُتوهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تَعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨، ٦٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨).
قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ فيه وجهان:
أحدُهما: أنَّه مجرورٌ عطفًا على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، أي: وبَعَثَ في آخَرينَ مِن الأمِّيِّينَ. و ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ صفةٌ لـ «آخَرينَ» قبْلُ.
والثَّاني: أنَّه منصوبٌ عَطْفًا على الضَّميرِ المنصوبِ في «يُعَلِّمُهم»، أي: ويُعَلِّمُ آخَرينَ لم يَلْحقوا بهم وسيَلْحقون، وكلُّ مَنْ يَعْلَمُ شريعةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى آخِرِ الزَّمانِ فرسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُعَلِّمُه بالقوَّةِ؛ لأنَّه أصْلُ ذلك الخَيرِ العظيمِ، والفَضلِ الجَسيمِ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٢٥).
واختلَف المفسِّرونَ في المرادِ بالآخَرينَ؛ على أقوالٍ:
الأوَّلُ: أنَّهم العَجَمُ.
الثَّاني: أنَّهم التَّابِعون مِن أبناءِ العَرَبِ.
الثَّالثُ: أنَّهم جميعُ مَن دخَل في الإسلامِ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨١).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: الأعاجِمُ، ومَن لم يَتكَلَّمْ بلُغةِ العَرَبِ-: الواحديُّ ونسَبَه إلى قولِ المفسِّرينَ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازيِّ، واختاره القُرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) =

= للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمرَ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨١).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّهم إذا أسلَموا صاروا منهم، والمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ واحِدةٌ، وأمَّةٌ واحدةٌ، وإن اختَلَفَت أجناسُهم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٤).

وقال الواحديُّ أيضًا: (وقولُ المفسِّرينَ: هم الأعاجمُ، يَعنون بالأعاجِمِ مَن ليس مِن العربِ، والعربُ تُسمِّي مَن لا يَتكلَّمُ بلُغَتِهم عجَميًّا، مِن أيِّ جنسٍ كان). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٦).

وخصَّهم ابنُ جُزَي بفارِسَ؛ لِوُرودِ ذلك في الحديثِ الصَّحيحِ: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سُئل: مَن هؤلاء الآخَرونَ؟ فأخَذ بيَدِ سَلْمانَ الفارِسيِّ، وقال: لو كان العِلمُ بالثُّرَيَّا، لَنالَه رِجالٌ مِن هؤلاء، يعني: فارِسَ)). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣).

وقال ابن رجب: (الأُمِّيُّون هم العربُ، والآخَرونَ الَّذين لم يَلحَقوا بهم هم أهلُ فارِسَ والرُّومُ، فكانت أهلُ فارِسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارى، فهدى الله تعالى جميعَ هؤلاء برسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى التَّوحيدِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٨٥).

واختار البِقاعي أنَّ المعنى: بَعَثَه في آخَرينَ ﴿مِنْهُمْ﴾ في الأُمِّيَّةِ لا في العَرَبيَّةِ، كعَوامِّ المَجوسِ واليهودِ والنَّصارى والبَرابِرِ، ونحوِهم مِن طوائِفِ العَجَمِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٣).

وذكر ابنُ عطيَّةَ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ بِناءً على القولِ بأنَّهم الأعاجمُ: إنَّما يريدُ في البَشَريَّةِ والإيمانِ، كأنَّه قال: وفي آخَرينَ مِنَ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّهم التَّابِعونَ مِن هذه الأمَّةِ مِن العربِ ممَّن بَقيَ منهم-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧).

قال ابن عطيَّة: (قال مجاهِدٌ وعِكْرِمةُ ومُقاتِلٌ: أراد التَّابِعينَ مِن أبناءِ العَرَبِ، فقَولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ يريدُ به النَّسَبَ والإيمانَ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وقال الشَّوكاني: (الضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾ راجعٌ إلى الأُمِّيِّينَ، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: هم مَن يأتي بعدَ الصَّحابةِ مِن العربِ خاصَّةً إلى يومِ القيامةِ، وهو صلَّى اللهُ عليه =

= وسلَّم وإن كان مُرسَلًا إلى جميعِ الثَّقَلَينِ، فتَخصيصُ العرَبِ هاهنا؛ لقَصدِ الامتنانِ عليهم، وذلك لا يُنافي عُمومَ الرِّسالةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ وقال بالعُمومِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وهو ظاهرُ اختيارِ الزمخشري، والبيضاوي، وأبي السعود، واختاره القاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٥٣).

قال ابنُ جرير: (عُنيَ بذلك كلُّ لاحِقٍ لَحِقَ بالَّذين كانوا صَحِبوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في إسلامِهم مِن أيِّ الأجناسِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عمَّ بقولِه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ كلَّ لاحِقٍ بهم مِن آخَرينَ، ولم يَخْصُصْ منهم نَوعًا دونَ نَوعٍ، فكلُّ لاحِقٍ بهم فهو مِن الآخَرينَ الَّذي لم يَكونوا في عِدادِ الأوَّلينَ الَّذين كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَتلو عليهم آياتِ الله). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١).

وقال الزَّجَّاجُ: (وبَعَثَ في الَّذين لم يَلحَقوا بهم، أي: في آخَرينَ منهم لَمَّا يَلْحَقوا بهم، فالنَّبيُّ عليه السَّلامُ مَبعوثٌ إلى مَن شاهَدَه، وإلى كلِّ مَن كان بَعْدَهم مِن العربِ والعجَمِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٦٩).

وقال البيضاوي: (وهم الَّذين جاؤُوا بعدَ الصَّحابةِ إلى يومِ الدِّينِ؛ فإنَّ دَعوتَه وتعليمَه يَعُمُّ الجميعَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١).

وقال ابن عطيَّةَ بِناءً على هذا القولِ: (ويكونُ ﴿مِنْهُمْ﴾ في البَشَريَّةِ والإيمانِ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وقال أبو حيَّانَ بعدَ أن ذكر عددًا مِن الأقوالِ في معنى الآيةِ: (ويَنبغي أن تُحملَ هذه الأقوالُ على التَّمثيلِ، كما حمَلوا قولَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في فارِسَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١).

قال الواحدي: (جميعُ الأقوالِ في هذا معناها أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: كُلُّ مَن دخل في الإسلامِ بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى يوم القيامةِ). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٦).

واختُلِف في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، قال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: لم =

= يَلحَقوا بهم بعدُ، أو لم يَلحَقوا بهم في الفضيلةِ والسَّبقِ؛ لأنَّ التَّابعينَ إلى يوم القيامةِ لم يُدرِكوا فضلَ الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم أجمعينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٢٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: لم يَكونوا في زمانِهم ولم يُدرِكوهم، وسيَجيئون بعدَهم وسيَلْحَقون بهم-: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وابن جُزَي، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ بالنَّفي، وسيَلحَقون؛ وذلك أنَّ «لَمَّا» لِذِكْرِ الماضي القريبِ من الحالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣)

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الواحديُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٩).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: في الفضلِ والسَّابقةِ؛ لأنَّ التَّابِعينَ لا يُدرِكون شأْوَ الصَّحابةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٤).

وقال ابن القيِّم: (الأوَّلونَ: هم الَّذين أدركوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَحِبوه، والآخَرون: هم الَّذين لَمْ يَلحَقوهم، وهم كلُّ مَن بَعْدَهم على مِنهاجِهم إلى يومِ القيامةِ؛ فيكونُ التَّأخُّرُ وعَدَمُ اللَّحاقِ في الزَّمانِ.

وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: أنَّ المعنى: لَمْ يَلحَقوا بهم في الفَضلِ والمرتَبةِ، بل هم دونَهم؛ فيكونُ عدمُ اللَّحاقِ في الرُّتبةِ، والقَولانِ كالمتلازمَينِ؛ فإنَّ مَن بَعْدَهم لا يَلحَقونَ بهم لا في الفَضلِ ولا في الزَّمانِ، فهؤلاء الصِّنفانِ هم السُّعَداءُ، وأمَّا مَن لم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، ولم يَرْفَعْ به رَأسًا؛ فهو مِن الصِّنفِ الثَّالِثِ، وهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾). ((الرسالة التبوكية)) (ص: ٥٤).

وقال السعدي: (﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: وامتَنَّ على آخَرينَ مِن غيرِهم، أي: مِن غيرِ الأُمِّيِّينَ، ممَّن يأتي بعدَهم، ومِن أهلِ الكتابِ، ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، أي: فيمَن باشَرَ دَعوةَ الرَّسولِ. ويحتملُ أنَّهم لَمَّا يَلحَقوا بهم في الفضلِ، ويحتملُ أن يَكونوا لَمَّا يَلحَقوا بهم في الزَّمانِ، وعلى =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ نزَلَت عليه سُورةُ الجُمُعةِ، فلمَّا قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ قال رجُلٌ: مَنْ هؤلاء يا رَسولَ اللهِ؟ فلم يُراجِعْه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى سأله مرَّةً أو مرَّتَينِ أو ثلاثًا، قال: وفينا سَلْمانُ الفارِسيُّ، فوَضَع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدَه على سَلْمانَ، ثمَّ قال: لو كان الإيمانُ عِندَ الثُّرَيَّا[1] لَنالَه رِجالٌ مِن هؤلاءِ!))[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العَزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وهو الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[3].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ذلك فَضلٌ مِنَ اللهِ تَفَضَّل به، واللهُ يُعطي فَضْلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بحَسَبِ

= كلٍّ، فكِلا المعنيَينِ صحيحٌ؛ فإنَّ الَّذين بعَثَ الله فيهم رسولَه وشاهَدوه وباشَروا دَعوتَه، حصَل لهم مِن الخصائصِ والفضائلِ ما لا يُمكِنُ أحدًا أن يَلحَقَهم فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(١) الثُّرَيَّا: نَجمٌ معروفٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (٤٨٩٧) واللفظُ له، ومسلم (٢٥٤٦).

قال ابنُ عاشور: (اعلَمْ أنَّ قولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لو كان الإيمانُ بالثُّرَيَّا لَنالَه رجالٌ من هؤلاء»: إيماءٌ إلى مِثالٍ مِمَّا يَشملُه قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّه لم يُصَرِّحْ في جواب سؤالِ السَّائِلِ بلَفظٍ يَقتضي انحصارَ المرادِ بـ«آخَرينَ» في قَومِ سَلْمانَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٦، ١١٧).

قيل: الإشارةُ إلى ما تقدَّم مِن إرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ إلى العربِ ومَن بَعْدَهم، والتَّزكيةِ وتَعليمِ الكِتابِ والحِكمةِ؛ فالإشارةُ إلى جميعِ المذكورِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣).

وقيل: فَضْلُ اللهِ هنا هو: الإسلامُ، يُعطيه اللهُ تعالى لِمَن يشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٥٣).

وقيل: المرادُ: النُّبُوَّةُ، أي: ذلك الفَضلُ الَّذي أعطاه محمَّدًا، وهو أن يكونَ نبيَّ أبناءِ عَصرِه وأبناءِ العُصورِ التَّاليةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السمعانيُّ، والزمخشري، والنسفي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٢).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني: ما أعطاه الله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن النُّبوَّةِ العظيمةِ، وما خصَّ به أُمَّتَه مِن بَعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٧).

وقال البِقاعي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الرُّتبةِ مِن تَفضيلِ الرَّسولِ وقَومِه، وجَعْلِهم مَتبوعينَ بعدَ أن كان العرَبُ أتْباعًا لا وَزْنَ لهم عندَ غيرِهم مِن الطَّوائفِ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٥٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣).

بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ الَّذي يَقِلُّ معه كُلُّ فَضلٍ مِن غَيرِه، فلا يُساويه ولا يُدانيه(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أنَّ مَن حَصَل له نصيبٌ مِن دِينِ الإسلامِ فقد حَصَل له الفَضلُ العَظيمُ، وقد عَظُمَتْ عليه نِعمةُ اللهِ، فما أحْوَجَه إلى القيامِ بشُكرِ هذه النِّعمةِ، وسؤالِه دوامَها، والثَّباتَ عليها إلى المماتِ، والموتَ عليها؛ فبذلك تَتِمُّ النِّعمةُ(٢)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه سؤالٌ: لم يَقُلْ: (يُسَبِّحُ اللهَ)، فما الفائِدةُ؟

الجوابُ: هذا مِن جملةِ ما يَجْري فيه اللَّفظانِ: كشَكَرَه وشكَرَ له، ونصَحَه ونصَحَ له(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٧).

٢- إنْ قيل: لِمَ جاز ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿مَا﴾ إنَّما يقَعُ على ما لا يعقِلُ، والتَّسبيحُ إنَّما هو لِمَن يعقِلُ؟

وعن هذا جوابانِ:

أحدُهما: أنَّ ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنى (مَن) فهما يتناوبانِ، بمعنَى أنَّ أحدَهما يقعُ مكانَ الآخَرِ، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى هنا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي آيةٍ أُخرَى ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور: ٤١]، وإن كان الأكثرُ استعمالًا أنَّ (ما) لغيرِ العاقِلِ، و (مَنْ) للعاقلِ.

والثاني: أنَّ (ما) أعمُّ مِن (مَن)، وذلك أنَّها تقعُ على ما لا يعقِلُ وعلى صفاتِ مَن يعقِلُ، فقد شاركت (من) فيمَن يعقِلُ، وزادت عليها بكونِها لما لا يعقِلُ، فصارت أعمَّ منها، فجاءَتْ لتدلَّ على أنَّ التَّسبيحَ عامٌّ مِن العاقلِ وغيرِ العاقلِ، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ٤٤].

وأيضًا فمجيئُها هنا لغيرِ العاقلِ تغليبًا له؛ لكثرتِه، فتكونُ شاملةً للعاقلِ مِن بابِ أولَى[2].

٣- حيث وقَع في القرآنِ ذِكرُ الأرضِ فإنَّها مُفرَدةٌ ولم تُجمَعْ؛ لِثِقَلِ جَمعِها، وهو أَرَضونَ، ولهذا لَمَّا أُريدَ ذِكرُ جميعِ الأَرَضينَ قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وأمَّا السَّماءُ فذُكِرتْ تارةً بصيغةِ الجَمعِ -الدَّالَّةِ على سَعةِ العظَمةِ والكثرةِ- وتارةً بصيغةِ الإفرادِ، وذلك إذا أُريدَ الجهةُ؛ لِنُكَتٍ تليقُ بذلك المحلِّ[3]،

(١) يُنظر: ((النكت في القرآن الكريم)) لأبي الحسن القيرواني (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥).

فانظُرْ كيف جاءت مجموعةً في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في جميعِ السُّوَرِ، لَمَّا كان المرادُ الإخبارَ عن تَسبيحِ سُكَّانِها -على كَثرتِهم، وتبايُنِ مَراتِبِهم- لم يَكُنْ بُدٌّ مِن جَمْعِ مَحَلِّهم، ونظيرُ هذا جَمْعُها في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٩].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وَجهُ الامتنانِ بأنْ بَعَث نَبيًّا أُمِّيًّا؟

الجوابُ عنه مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: لِمُوافَقتِه ما تقَدَّمَت بِشارةُ الأنبياءِ به.

الوجهُ الثَّاني: لمُشاكلةِ حالِه لأحوالِهم، فيكونُ أقرَبَ إلى موافقتِهم.

الوجهُ الثَّالثُ: لِيَنتفيَ عنه سوءُ الظَّنِّ في تعَلُّمِه ما دعا إليه مِنَ الكتُبِ الَّتي قرَأَها، والحِكَمِ الَّتي تلاها[2].

٥- الأُمِّيُّونَ هم العَرَبُ، وتخصيصُ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ بالذِّكْرِ لا يَنفي مَن عَداهم، ولكِنَّ المِنَّةَ عليهم أبلَغُ وآكَدُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو ذِكْرٌ لِغيرِهم يتَذَكَّرونَ به، وكذا قَولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا وأمثالُه لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقَولَه تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقولَه تعالى إخبارًا عن القُرآنِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦).

الدَّالَّةِ على عُمومِ بَعْثَتِه -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- إلى جميعِ الخَلْقِ؛ أحمَرِهم وأسْوَدِهم[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ذِكْرُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ -وهي: ما أنْزَلَه اللهُ تعالى على رُسُلِه مِن الشَّرائعِ-، ويقابِلُها الآياتُ الكَونيَّةُ -وهي: مخلوقاتُه، كالشَّمسِ، والقَمَرِ، والنُّجومِ، والإنسانِ، وغيرِ ذلك-، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[2] [فصلت: ٣٧].

٧- البَعثُ بَعثانِ: كَونيٌّ، ودينيٌّ؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ذِكْرُ البَعثِ الدِّينيِّ، وفي قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] ذِكرُ البعثِ الكَونيِّ[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هذه الآيةُ نَصٌّ في أنَّ اللهَ تعالى استجابَ دَعوةَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ فيهم[4]، وهي قولُه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٩- التَّزَكِّي يَحصُلُ بامتِثالِ أمرِ الرَّسولِ، وإن كان صاحِبُه لا يتذكَّرُ عُلومًا عنه، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ فالتِّلاوةُ عليهم والتَّزكيةُ عامٌّ لجميعِ المؤمِنينَ، وتعليمُ الكِتابِ والحِكمةِ خاصٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٥).

ببَعْضِهم، وكذلك التزكِّي عامٌّ لكلِّ مَنْ آمَنَ بالرَّسولِ، وأمَّا التَّذَكُّرُ فهو مختَصٌّ لِمَن له عُلومٌ يُذَكَّرُها، فعَرَفَ بتَذَكُّرِه ما لم يَعلَمْه غَيرُه مِن تِلْقاءِ نَفْسِه[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ في وَصْفِ الرَّسولِ الأُمِّيِّ بأنَّه يتْلو على الأُمِّيِّينَ آياتِ اللهِ، أي: وحْيَه، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يُلقِّنُهم إيَّاه كما كانَتِ الرُّسلُ تُلقِّنُ الأُمَمَ الكتابَ بالكِتابةِ، ويُعلِّمُهُم الحِكمةَ الَّتي علَّمَتْها الرُّسلُ السَّابقونَ أُمَمَهُم -في كلِّ هذِه الأوصافِ تَحَدٍّ بمُعجزةِ الأُمِّيَّةِ في هذا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: هو مع كَونِه أُمِّيًّا قد أتى أُمَّتَه بجميعِ الفوائدِ الَّتي أتى بها الرُّسُلُ غيرُ الأُمِّيِّينَ أُمَمَهم، ولم يَنقُصْ عنهم شيئًا، فتمَحَّضَتِ الأُمِّيَّةُ للكَونِ مُعجزةً حصَلَ مِن صاحبِها أفضلُ ممَّا حصَلَ مِنَ الرُّسلِ الكاتِبينَ مِثْلِ موسى عليه السَّلامُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الرَّدُّ على قَولِ القائلِ: «إنَّه لا يُتَعَرَّضُ لأحاديثِ الصِّفاتِ وآياتِها عندَ العَوامِّ؛ ولا يُكتَبُ بها إلى البلادِ ولا في الفَتاوى المتعَلِّقةِ بها»؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّنُ إبطالَ أعظمِ أصولِ الدِّينِ ودَعائمِ التَّوحيدِ، وإنَّ أسوأَ أحوالِ العامَّةِ أنْ يكونوا أُمِّيِّينَ، فهل يجوزُ أنْ يُنهَى أنْ يُتلى على الأُمِّيِّينَ آياتُ اللهِ، أو عن أنْ يُعَلَّمَ الكِتابُ والحِكمةُ؟! ومَعلومٌ أنَّ جميعَ مَن أُرسِلَ إليه الرَّسولُ من العَرَبِ كانوا قبْلَ مَعرفةِ الرِّسالةِ أجهَلَ مِن عامَّةِ المؤمِنينَ اليومَ، فهل كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممنوعًا مِن تلاوةِ ذلك عليهم وتعليمِهم إيَّاه، أو مأمورًا به؟! أَوَليس هذا مِن أعظَمِ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ؟! وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٩).

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [آل عمران: ٩٩] الآيةَ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ تَنبيهٌ للعَرَبِ على قَدْرِ هذه النِّعمةِ وعِظَمِها؛ حيثُ كانوا أُمِّيِّينَ لا كِتابَ لهم، وليس عِندَهم شَيءٌ من آثارِ النُّبُوَّاتِ كما كان عندَ أهلِ الكِتابِ، فمَنَّ اللهُ عليهم بهذا الرَّسولِ وبهذا الكِتابِ حتَّى صاروا أفضَلَ الأُمَمِ وأعْلَمَهم، وعَرَفوا ضَلالةَ مَن ضَلَّ مِن الأُمَمِ قَبْلَهم، وفي كَونِه منهم فائِدتانِ:

إحداهما: أنَّ هذا الرَّسولَ كان أيضًا أُمِّيًّا كأُمَّتِه المبعوثِ إليهم، لم يَقرأْ كتابًا قَطُّ، ولم يَخُطَّه بيَمينِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] الآياتِ، ولا خَرَج عن ديارِ قَومِه فأقام عندَ غيرِهم حتَّى تَعَلَّمَ منهم شَيئًا، بل لم يَزَلْ أُمِّيًّا بيْنَ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لا يَكتُبُ ولا يَقرأُ، ثُمَّ جاء بعدَ ذلك بهذا الكتابِ المبينِ، وهذه الشَّريعةِ الباهِرةِ، وهذا الدِّينِ القَيِّمِ الَّذي اعترفَ حُذَّاقُ أهلِ الأرضِ ونُظَّارُهم أنه لم يَقْرَعِ العالَمَ ناموسٌ أعظَمُ منه، وفي هذا برهانٌ ظاهِرٌ على صِدْقِه.

والفائدةُ الثَّانيةُ: التَّنبيهُ على أنَّ المبعوثَ منهم -وهم الأُمِّيُّون خُصوصًا أهلَ مكَّةَ- يَعرِفونَ نَسَبَه وشَرَفَه، وصِدْقَه وأمانتَه وعِفَّتَه، وأنَّه نَشَأَ بيْنَهم مَعروفًا بذلك كُلِّه؛ وأنَّه لم يَكذِبْ قَطُّ؛ فكيف كان يَدَعُ الكَذِبَ على النَّاسِ ثُمَّ يَفتَري الكَذِبَ على اللهِ عزَّ وجلَّ؟! فهذا هو الباطِلُ، ولذلك سأَلَ هِرَقْلُ عن هذه الأوصافِ، واستَدَلَّ بها على صِدْقِه فيما ادَّعاه مِن النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ[(٢)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنَّه إذا قُرِنَتِ الحِكمةُ بالكتابِ،

---

(١) يُنظر: ((التسعينية)) لابن تيمية (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٣). ويُنظر البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

فالمرادُ بها السُّنَّةُ، لأنَّ السُّنَّةَ أيضًا تتضمَّنُ الحِكمةَ، واللهُ عزَّ وجلَّ لَمْ يَصِفِ السُّنَّةَ بالحِكمةِ لأنَّ القرآنَ ليس فيه حكمةٌ! ولكنْ لَمَّا كان القرآنُ مِن عندِ اللهِ، وكلامَ اللهِ؛ فإنَّ احتمالَ ألَّا يَتضمَّنَ الحِكمةَ بعيدٌ جدًّا، إلَّا أنَّه لَمَّا كانتِ السُّنَّةُ مِن كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فإنَّ كلامَ البشرِ قد يَرِدُ عليه احتمالُ ألَّا يكونَ مُشتَمِلًا على الحِكمةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ وإنْ كانت مِن كلامِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو مِن فِعْلِه؛ فإنَّها حِكمةٌ لأنَّها مُوافِقةٌ للصَّوابِ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إشارةٌ إلى ما كان النَّاسُ عليه قبْلَ إنزالِ هذا الكِتابِ مِن الضَّلالِ؛ فإنَّ اللهَ نَظَرَ حينَئذٍ إلى أهلِ الأرضِ فمَقَتَهم، عَرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بقايا مِن أهلِ الكتابِ[2] تمسَّكوا بدينِهم الَّذي لم يُبَدَّلْ ولم يُغَيَّرْ، وكانوا قليلًا جدًّا، فأمَّا عامَّةُ أهلِ الكِتابِ فكانوا قد بَدَّلُوا كُتُبَهم وغَيَّروها وحَرَّفوها، وأدْخَلوا في دينِهم ما ليس منه، فضَلُّوا وأضَلُّوا، وأمَّا غيرُ أهلِ الكتابِ فكانوا على ضَلالٍ بَيِّنٍ؛ فالأُمِّيُّون أهلُ شِرْكٍ يَعبدونَ الأوثانَ، والمجوسُ يَعبُدونَ النِّيرانَ، ويقولونَ بإلهَينِ اثنَينِ! وكذلك غَيْرُهم مِن أهلِ الأرضِ؛ منهم مَن كان يَعبُدُ النُّجومَ، ومنهم مَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ أو القَمَرَ؛ فهدى اللهُ المؤمِنينَ بإرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى ما جاء به مِن الهُدى والدِّينِ الحَقِّ، وأظهَرَ اللهُ دينَه حتَّى بَلَغ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها؛ فظَهَرتْ فيها كَلِمةُ التَّوحيدِ والعَمَلُ بالعَدلِ بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ كلُّها ممتلئةً مِن الشِّركِ والظُّلمِ، فالأُمِّيُّون همُ العَرَبُ، والآخَرونَ الَّذين لم يَلْحَقوا بهم هم أهلُ فارِسَ والرُّومُ -وذلك على قولٍ-، فكانت أهلُ فارِسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارى؛ فهدى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر الحديثُ الَّذي رواه مسلم (٢٨٦٥) عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رضيَ الله عنه.

اللهُ جميعَ هؤلاء بِرِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى التَّوحيدِ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ فيه تفضيلُ الصَّحابةِ على مَن سِواهم[٢]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال بعضُ المحَقِّقينَ: (في الآيةِ مُعجِزةٌ مِن مُعجِزاتِ النُّبُوَّةِ، وذلك في الإخبارِ عن غَيبٍ وَقَع، والبِشارةِ بدُخولِ أُمَمٍ غيرِ العَرَبِ -على قولٍ- في الإسلامِ قد حصل، فقد صارت تلك الأُمَمُ الَّتي أسلَمَت: مِنَ العَرَبِ؛ لأنَّ بلادَهم صارت بلادَ العَرَبِ، ولُغتُهم لغةَ العَرَبِ، وكذلك دينُهم وعاداتُهم، حتَّى أصبَحوا مِن العَرَبِ جِنسًا ودِينًا ولُغةً، وحتَّى صار لفظُ العَرَبِ يُطلَقُ على كلِّ المسلِمينَ مِن جَميعِ الأجناسِ؛ لأنَّهم أمَّةٌ واحِدةٌ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فصَدَق اللهُ العظيمُ)[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ فيه دَلالةٌ على عُمومِ رِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لجَميعِ الأُمَمِ[٤]، وأنَّه مَبعوثٌ إلى جميعِ الخَلْقِ[٥]، وفي ذلك رَدٌّ على شُبهةِ عَوَامِّ بني إسرائيلَ، وهي أنَّ علماءَهم يقولونَ: «إنَّ محمَّدًا عَرَبيٌّ، واللهُ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾»، ثُمَّ لا يَذْكرونَ قولَه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فيُشَبِّهُونَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٧).

١٨- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لذلك فالفَضائِلُ لا يُسْأَلُ عنها؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَصِلُ فيها إلى نتيجةٍ، وقد لا يَصِلُ، فكما أنَّ اللهَ تعالى فَضَّل بني آدَمَ بَعْضَهم على بَعضٍ في الرِّزقِ، وفي كمالِ الأخلاقِ والآدابِ، وكذلك فَضَّل بَعْضَهم على بَعضٍ في العِلْمِ، وكذلك في البَدَنِ والفِكْرِ وغَيرِ ذلك؛ فاللهُ تعالى يُؤتي فَضْلَه مَن يَشاءُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالَى بَراعةُ استِهلالٍ[٢]؛ لأنَّ الغرضَ الأوَّلَ مِنَ السُّورةِ التَّحريضُ على شُهودِ الجُمُعةِ، والنَّهيُ عن الأشغالِ الَّتي تَشغَلُ عن شُهودِها، وزَجْرُ فَريقٍ مِنَ المُسلمينَ انصَرَفوا عن صَلاةِ الجُمُعةِ؛ حِرصًا على الابتياعِ مِن عِيرٍ ورَدَتِ المدينةَ في وقتِ حُضورِهِم لصلاةِ الجُمُعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠٧).

(٢) براعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتِحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ عَلِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٦).

- وأُوثِرَ المضارعُ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ يُجدِّدونَ تَسبيحَ اللهِ، ولا يَفْتُرونَ عنه[١].

- وقيل: جاءَ فِعلُ التَّسبيحِ في هذه السُّورةِ مضارعًا، وجِيءَ به في سِواها -سُورة الحديدِ والحَشرِ والصَّفِّ- ماضيًا؛ لمُناسَبةٍ فيها، وهي: أنَّ الغرَضَ منها التَّنويهُ بصلاةِ الجُمُعةِ، والتَّنديدُ على نَفَرٍ قُطِعوا عن صَلاتِهم وخرَجوا لتجارةٍ أو لَهْوٍ؛ فمُناسِبٌ أنْ يُحكَى تسبيحُ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ بما فيه دَلالةٌ على استِمرارِ تسبيحِهم وتجَدُّدِه؛ تَعريضًا بالَّذينَ لم يُتِمُّوا صلاةَ الجُمُعةِ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ وصْفُ مُبالَغةٍ. وعُقِّبَ بوَصْفِ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ وصْفُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ للاحتِراسِ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنزَّهٌ عن نَقائصِ المُلوكِ المعروفةِ، مِن الغُرورِ، والاسترسالِ في الشَّهواتِ، ونحْوِ ذلك مِن نَقائصِ النُّفوسِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن إجراءِ الصِّفاتِ المذكورةِ آنِفًا على اسمِ الجلالةِ؛ إذْ يَتساءَلُ السَّامِعُ عن وجهِ تخصيصِ تلك الصِّفاتِ بالذِّكْرِ مِن بَينِ صِفاتِ اللهِ تعالَى، فكان الحالُ مُقتضِيًا أنْ يُبيَّنَ شَيءٌ عظيمٌ مِن تعلُّقِ تلك الصِّفاتِ بأحوالِ خَلْقِه تعالَى؛ إذْ بعَثَ فيهم رسولًا يُطهِّرُ نُفوسَهم ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهم، فصِفةُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ تعلَّقَتْ بأنْ يُدبِّرَ أمْرَ عِبادِه ويُصلِحَ شؤونَهم، وصِفةُ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ تعلَّقَتْ بأنْ يُزكِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٠).

نُفوسَهم، وصفةُ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُلحِقَ الأُمِّيِّينَ مِن عبادِه بمراتبِ أهلِ العِلمِ، ويُخرِجَهُم مِن ذِلَّةِ الضَّلالِ؛ فيَنالوا عِزَّةَ العِلمِ وشرَفَه، وصِفةُ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُعلِّمَهمُ الحِكمةَ والشَّريعةَ(١).

- وابتداءُ الجُملةِ بضميرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لتكونَ جُملةً اسميَّةً، فتُفيدَ تقويةَ هذا الحُكمِ وتأكيدَه، أي: إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبعوثٌ مِنَ اللهِ لا مَحالةَ(٢).

- حرْفُ (فِي) مِن قولِه: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ للظَّرفيَّةِ، أي: ظرفيَّةِ الجماعةِ ولأحَدِ أفرادِها، ويُفهَمُ مِنَ الظَّرفيَّةِ معنى الملازمةِ، أي: رسولًا لا يُفارِقُهم، فليس مارًّا بهم كما يمُرُّ المُرسَلُ بمقالةٍ أو بِرسالةٍ يُبلِّغُها إلى القومِ ويُغادِرُهم(٣).

- والمرادُ بـ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العربُ؛ لأنَّ وصْفَ الأُمِّيَّةِ غالبٌ على الأُمَّةِ العربيَّةِ يومَئذٍ. و﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه صيغةُ جمْعِ العقلاءِ، أي: في النَّاسِ الأُمِّيِّينَ، وصِيغةُ جمْعِ الذُّكورِ في كلامِ الشَّارِعِ تَشملُ النِّساءَ بطريقةِ التَّغليبِ الاصطلاحيِّ، أي: في الأُمِّيِّينَ والأُمِّيَّاتِ؛ فإنَّ أدِلَّةَ الشَّريعةِ قائمةٌ على أنَّها تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلَّا في أحكامٍ معلومةٍ(٤).

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ هُنا توَرُّكًا على اليهودِ؛ لأنَّهم كانوا يَقصِدونَ به الغضَّ مِنَ العربِ، ومِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ جهلًا منهم، فيقولونَ: هو رسولُ الأُمِّيِّينَ، وليس رسولًا إلينا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ووصَفَ الرَّسولَ بأنَّه منهم، أي: لم يكُنْ غريبًا عنهم، وهذه مِنَّةٌ مُوجَّهةٌ للعربِ لِيَشكُروا نعمةَ اللهِ على لُطفِه بهم؛ فإنَّ كَوْنَ رسولِ القومِ منهم نِعمةٌ زائدةٌ على نِعمةِ الإرشادِ والهَدْيِ، وهذا استِجابةٌ لدَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ فتذكيرُهم بهذه النِّعمةِ استِنزالٌ لطائرِ نُفوسِهم وعنادِهم. وفيه تورُّكٌ عليهم إذْ أعرَضوا عن سَماعِ القُرآنِ؛ فإنَّ كَونَ الرَّسولِ منهم وكِتابَه بلُغَتِهم، هو أعوَنُ على تلَقِّي الإرشادِ منه؛ إذْ يَنطِقُ بلِسانِهم، ويَحمِلُهم على ما يُصلِحُ أخلاقَهُم؛ لِيَكونوا حمَلةَ هذا الدِّينِ إلى غيرِهم[١].

- ووَصْفُ الرَّسولِ بأنَّه منهم -أيْ: مِنَ الأُمِّيِّينَ- شامِلٌ لمُماثَلتِه لهم في الأُمِّيَّةِ وفي القَوميَّةِ، وهذا مِن إيجازِ القرآنِ البديعِ[٢].

- وابتُدِئَ بالتِّلاوةِ؛ لأنَّ أوَّلَ تبليغِ الدَّعوةِ بإبلاغِ الوحْيِ، وثُنِّيَ بالتَّزكيةِ؛ لأنَّ ابتداءَ الدَّعوةِ بالتَّطهيرِ مِنَ الرِّجْسِ المعنويِّ، وهو الشِّرْكُ وما يَعْلَقُ به مِن مَساوِي الأعمالِ والطِّباعِ، وعُقِّبَ بذِكْرِ تعليمِهِمُ الكتابَ؛ لأنَّ الكِتابَ بعْدَ إبلاغِه إليهم تُبيِّنُ لهم مَقاصِدُه ومعانيه، وتعليمُ الحِكمةِ هو غايةُ ذلك كلِّه؛ لأنَّ مَنْ تدبَّرَ القُرآنَ وعمِلَ به وفَهِمَ خفاياهُ نالَ الحِكمةَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وَسَّطَ بيْنَ التِّلاوةِ وتعليمِهم الكتابَ التَّزكيةَ الَّتي هي عبارةٌ عن تَكميلِ النَّفْسِ بحسَبِ قوَّتِها العمَليَّةِ وتَهذيبِها المُتفرِّعِ على تَكميلِها بحسَبِ القوَّةِ النَّظريَّةِ الحاصلِ بالتَّعليمِ المُترتِّبِ على التِّلاوةِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا مِنَ الأمورِ المُترتِّبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نِعمةٌ جليلةٌ على حِيالِها مُستوجِبةٌ للشُّكرِ، فلو رُوعيَ ترتيبُ الوجودِ لَتَبادَرَ إلى الفَهْمِ كَونُ الكلِّ نعمةً واحدةً، وهو السِّرُّ في التَّعبيرِ عن القرآنِ تارةً بالآياتِ، وأخرى بالكتابِ والحِكمةِ؛ رمْزًا إلى أنَّه باعتبارِ كلِّ عُنوانٍ نعمةٌ على حِدَةٍ، ولا يَقدَحُ فيه شُمولُ الحِكمةِ لِما في تضاعيفِ الأحاديثِ النَّبويَّةِ مِنَ الأحكامِ والشَّرائعِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيانٌ لشِدَّةِ احتياجِهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهم، وإزاحةٌ لِمَا يُتوَهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ[٢]. وهو في موضِعِ الحالِ مِنَ ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾، أي: ليسَتْ نِعمةُ إرسالِ هذا الرَّسولِ إليهم قاصِرةً على رفْعِ النَّقائِصِ عنهم، وعلى تحليَتِهم بكمالِ عِلمِ آياتِ اللهِ تعالَى، وزكاةِ أنفُسِهم، وتعليمِهمُ الكتابَ والحِكمةَ، بل هي أجَلُّ مِن ذلك؛ إذْ كانت مُنقِذةً لهم مِن ضلالٍ مُبينٍ كانوا فيه، وهو ضلالُ الإشراكِ باللهِ، وإنَّما كان ضلالًا مُبينًا؛ لأنَّه أفحَشُ ضلالٍ، وقد قامَتْ على شَناعتِه الدَّلائلُ القاطعةُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ قيل: مجرورٌ عطفًا على ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾، يعني: أنَّه بعَثَه في الأُمِّيِّينَ الَّذين على عهدِه، وفي آخَرينَ مِنَ الأُمِّيِّينَ لم يَلْحَقوا بهم بَعْدُ، وسيَلْحَقونَ بهم -على قولٍ-، وهُمُ الَّذين بَعْدَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم. ويجوزُ أنْ ينتصِبَ عطفًا على المنصوبِ في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، أي: يُعلِّمُهم ويُعلِّمُ آخَرينَ؛ فأُسنِدَ تعليمُ الآخَرينَ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ التَّعليمَ إذا تناسَقَ إلى آخِرِ الزَّمانِ كان كلُّه مُستنِدًا إلى أوَّلِه، فكأنَّه هو الَّذي تولَّى كلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠).

ما وُجِدَ منه؛ فصحَّ إسنادُ التَّعليمِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للأُمَمِ الفائتةِ للحَصْرِ إلى انقراضِ العالَمِ؛ لأنَّه إذا تَناسَقَت العَنْعنةُ مِن الثِّقاتِ المُتْقنينَ الَّذين حَمَوُا المُتونَ مِن تَحريفِ الزَّائغينَ، والإسنادَ مِن تولِّي الكاذبينَ؛ صحَّ أنْ يُقالَ: هو الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رسولًا منهم يُعلِّمُهم الكِتابَ والحِكمةَ، ويُعلِّمُ آخَرين منهم لَمَّا يَلحَقوا بهم، وهذا يدُلُّ على جَلالةِ قدْرِ المُحدِّثينَ، وعُلوِّ مَرتبتِهم(١).

وقيل: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إمَّا معطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مِن قولِه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الجمعة: ٢]، والتَّقديرُ: ويَتْلُو على آخَرينَ، وإذا كان يَتْلُو عليهم فقَدْ عُلِمَ أنَّه مُرسَلٌ إليهم؛ لأنَّ تِلاوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا تكونُ إلَّا تلاوةَ تبليغٍ لِمَا أُوحِيَ به إليه. وإمَّا أنْ يُجعَلَ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مفعولًا معه، والواوُ للمَعيَّةِ، ويَتنازَعه الأفعالُ الثَّلاثةُ، وهي: (يَتْلو، ويُزكِّي، ويُعلِّمُ)، والتَّقديرُ: يَتْلُو على الأُمِّيِّينَ آياتِنا ويُزكِّيهِمْ ويُعلِّمُهمُ الكتابَ والحِكمةَ مع آخَرينَ، وجُملةُ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢] مُعترِضةٌ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليها، أو بيْنَ الضَّمائرِ والمفعولِ معه(٢).

- قولُه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ يجوزُ جعْلُ (مِن) تَبعيضيَّةً، كما هو المُتبادَرُ مِن مَعانيها، فيكونُ الضَّميرُ المجرورُ بـ(مِن) عائدًا إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿كَانُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢]؛ فالمعنى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مِنَ الضَّالِّينَ يَتْلُو عليهم آياتِ اللَّهِ ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمةَ. ويجوزُ جعْلُ (مِن) اتِّصاليَّةً، والمعنى: وآخَرينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠، ٢١١).

يتَّصِلونَ بهِم، ويَصيرونَ في جملتِهِم، ويكونُ قولُه: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في مَوضعِ الحالِ، وهذا الوجهُ يُناسِبُ قولَه تعالَى: ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾؛ لأنَّ اللُّحوقَ هو معنى الاتِّصالِ، وموضِعُ جُملةِ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ مَوضِعُ الحالِ، ويَنشأُ عن هذا المعنى إيماءٌ إلى أنَّ الأممَ الَّتي تَدخُلُ في الإسلامِ بعْدَ المُسلمينَ الأوَّلينَ يَصيرونَ مِثلَهُم، ويَنشأُ منه أيضًا رمْزٌ إلى أنَّهم يَتعرَّبونَ لفَهْمِ الدِّينِ، والنُّطقِ بالقرآنِ[١].

- والنَّفيُ بـ﴿لَمَّا﴾ يقتضي أنَّ المنفيَّ بها مُستمرُّ الانتفاءِ إلى زمَنِ التَّكلُّمِ، فيُشعِرُ بأنَّه مُترقَّبُ الثُّبوتِ، أي: وسَيَلْحَقون، والمعْنى: أنَّ آخَرينَ هُمْ في وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ لم يَدخُلوا في الإسلامِ، ولم يَلتحِقوا بمَنْ أسلَمَ مِنَ العَربِ، وسيَدخُلونَ في أزمانٍ أُخرَى[٢]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي: المبالِغُ في العِزَّةِ والحِكمةِ، وهو تَذييلٌ للتَّعجيبِ مِن هذا التَّقديرِ الإلهيِّ لانتشارِ هذا الدِّينِ في جَميعِ الأممِ؛ فإنَّ العزيزَ لا يَغلِبُ قدرتَهُ شيءٌ، والحكيمَ تأتي أفعالُه عن قدَرٍ مُحكَمٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

- الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى جَميعِ المذكورِ -على قولٍ-؛ مِن إرسالِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ والتَّزكيةِ، وتعليمِ الكِتابِ والحِكمةِ، والإنقاذِ مِنَ الضَّلالِ، ومِن إفاضةِ هذه الكمالاتِ على الأُمِّيِّينَ الَّذين لم تكُنْ لهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

سابقةُ عِلمٍ ولا كِتابٍ، ومِن لَحاقِ أُمَمٍ آخَرِينَ في هذا الخبرِ، فزال اختِصاصُ اليهودِ بالكِتابِ والشَّريعةِ، وهذا أجدَعُ لأَنْفِهم؛ إذْ حالوا أنْ يجيءَ رسولٌ أُمِّيٌّ بشريعةٍ إلى أمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، فضلًا عن أنْ يَلتحِقَ بها أُمَمٌ عظيمةٌ كانوا أمكَنَ في المعارفِ والسُّلطانِ، وهذا تَمهيدٌ ومُقدِّمةٌ لقولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥] الآياتِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٥).

الآيات (٥-٨)

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۞٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞٨ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ مَثَلُ ﴾: أي: صِفةٌ، وشبَهٌ، والمَثَلُ عبارةٌ عن تَشبيهِ شَيءٍ بشَيءٍ في حُكمِه، وتقريبِ المعقولِ مِن المحسوسِ، أو أحدِ المحسوسَينِ مِن الآخَرِ، واعتبارِ أحَدِهما بالآخَرِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿أَسْفَارًا ﴾: أي: كُتُبًا، واحِدُها: سِفْرٌ، وهو: الكِتابُ الكَبيرُ؛ لأنَّه يُسفِرُ عن المعنى إذا قُرِئَ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على الانكِشافِ والجَلاءِ[2].

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ ﴾: أي: اليهودُ، والهَودُ: الرُّجوعُ برِفقٍ، قيل: سُمِّيَ اليهودُ مِن: هادَ يَهودُ، إذا تابَ؛ لأنَّهم تابوا عن عِبادةِ العِجلِ، وقالوا: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: تُبْنَا، وكان اسمَ مَدحٍ، ثمَّ صارَ بعدَ نَسْخِ شَريعتِهم لازمًا لهم، وإنْ لم يكُنْ فيه معنَى المدحِ، وقيل: كانَتِ اليَهُود تُنسَبُ إلى يَهوذا بن

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٤).

يَعقوبَ، فسُمُّوا اليَهوذَ، وعُربتْ بالدَّالِ، ويُقالُ: هادَوا: تهَوَّدوا، أي: صاروا يهودًا، وهادَ فُلانٌ: إذا تحرَّى طَريقةَ اليَهودِ في الدِّينِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبينًا بعضَ رذائلِ اليهودِ: مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين كلَّفَهم اللهُ العَمَلَ بالتَّوراةِ، ثمَّ لم يَعمَلوا بها كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ على ظَهْرِه كُتُبًا لا يَعقِلُ ما فيها، بِئسَ مَثَلًا هذا المَثَلُ المَضروبُ للقَومِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ، واللهُ لا يَهْدي القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ على مَزاعِمِ اليهودِ الباطِلةِ، وأنْ يتحدَّاهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: يا أيُّها اليَهودُ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم أنَّكم أحبابُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ فتَمَنَّوُا الموتَ؛ لِتَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا، وتَنتَقِلوا إلى الجنَّةِ ونَعيمِها!

ولا يَتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبَدًا؛ بما قدَّمَتْه أيديهم في الدُّنيا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، واللهُ عَليمٌ بالظَّالِمينَ.

ثمَّ يأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُخبِرَهم بأنَّهم لا مفَرَّ لهم مِن الموتِ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: إنَّ الموتَ الَّذي تَهرُبونَ منه فإنَّه مُدرِكُكم لا مَحالةَ، ثمَّ تُرجَعونَ بعْدَ مَوتِكم إلى اللهِ عالِمِ ما غاب عن خَلْقِه، وما هو مُشاهَدٌ لهم، فيُخبِرُكم بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِنَّتَه على هذه الأُمَّةِ الَّذين ابتُعِث فيهم النَّبيُّ الأُمِّيُّ، وما خَصَّهم اللهُ به مِن المزايا والمَناقِبِ الَّتي لا يَلحَقُهم فيها أحَدٌ، وهم الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ الَّذين فاقُوا الأوَّلِينَ والآخِرِينَ. حتَّى أهلُ الكِتابِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم العُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ والأحبارُ المتقدِّمونَ: ذكَرَ أنَّ الَّذين حَمَّلَهم اللهُ التَّوراةَ مِنَ اليَهودِ وكذا النَّصارى، وأمَرَهم أن يَتعَلَّموها ويَعمَلوا بما فيها، وأنَّهم لم يَحْمِلوها ولم يَقوموا بما حُمِّلوا به: أنَّهم لا فضيلَة لهم، وأنَّ مَثَلَهم كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ فَوقَ ظَهْرِه أسفارًا مِن كُتُبِ العِلمِ، فهل يَستفيدُ ذلك الحِمارُ مِن تلك الكُتُبِ الَّتي فوقَ ظَهْرِه؟! وهل يَلحَقُ به فضيلةٌ بسَبَبِ ذلك؟! أو حَظُّه منها حَمْلُها فقط؟ فهذا مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين لم يَعمَلوا بما في التَّوراةِ؛ الَّذي مِن أجَلِّه وأعظَمِه الأمرُ باتِّباعِ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والبِشارةُ به، والإيمانُ بما جاء به مِنَ القُرآنِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أثبَتَ التَّوحيدَ والنُّبُوَّةَ، وبيَّنَ في النُّبوَّةِ أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بُعِث إلى الأُمِّيِّينَ، واليَهودُ لَمَّا أوردوا تلك الشُّبهةَ -وهي أنَّه عليه الصَّلاةُ السَّلامُ بُعِثَ إلى العَرَبِ خاصَّةً، ولم يُبعَثْ إليهم، بمفهومِ الآيةِ- أتْبَعَه اللهُ تعالى بضَربِ المثَلِ للَّذين أعرَضُوا عن العَمَلِ بالتَّوراةِ، والإيمانِ بالنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمقصودُ منه أنَّهم لَمَّا لم يَعمَلوا بما في التَّوراةِ شُبِّهوا بالحِمارِ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا بمُقْتَضاها لَانتَفَعوا بها، ولم يُوردوا تلك الشُّبهةَ؛ وذلك لأنَّ فيها نَعْتَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والبِشارةَ بمَقْدَمِه، والدُّخولَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

في دِينِه[١].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾.

أي: مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين كلَّفَهم اللهُ تعالى العَمَلَ بالتَّوراةِ، ثمَّ لم يَعمَلوا بها، وكَذَّبوا بمُحَمَّدٍ الَّذي أُمِروا في التَّوراةِ بالإيمانِ به واتِّباعِه: كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ على ظَهْرِه كُتُبًا لا يَعقِلُ ما فيها، ولا ينتَفِعُ بما تَحْويه[٢]!

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: بِئسَ هذا المَثَلُ المَضروبُ للقَومِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه، وما جاؤُوا به مِنَ الحَقِّ؛ فأولئك الأحبارُ مِن اليَهودِ قد ضَمُّوا إلى جَهْلِهم بمعاني التَّوراةِ تَكذيبَهم بالقُرآنِ[٣]!

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بآياتِه، وتكذيبِ رُسُلِه، وأصَرُّوا على إنكارِ الحَقِّ مع وُضوحِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أعقَبَ تمثيلَ حالِ جَهْلِهم بالتَّوراةِ بذِكرِ زَعمٍ مِن آثارِ جَهْلِهم بها؛ إبطالًا لِمَفخرةٍ مَزعومةٍ عِندَهم؛ أنَّهم أولياءُ اللهِ، وبَقيَّةُ النَّاسِ لَيسُوا مِثْلَهم! وذلك أصلٌ كانوا يَجعَلونَه حُجَّةً على أنَّ شُؤونَهم أفضَلُ مِن شُؤونِ غَيرِهم[1].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: يا مَن تَدَيَّنوا باليَهوديَّةِ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم أنَّكم أحبابُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ، فإنَّ اللهَ يُكرِمُ أحبابَه ولا يُعَذِّبُهم، فتَمَنَّوُا الموتَ لِتَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا وهمومِها، وتَنتَقِلوا إلى الجِنانِ ونَعيمِها[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٧، ٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والألوسي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الشنقيطي كما في ((تتمة أضواء البيان)) (٨/ ١٢٠): (لا يَتَمنَّونَه لشِدَّة حرصِهم على الحياة، كما بيَّنه تعالى بقولِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، فشِدَّةُ حرصِهم على الحياةِ؛ لِعِلْمِهم أنَّهم إذا ماتوا دخلوا النَّارَ، ولو تَمَنَّوْا لَماتوا مِن حِينِهم).

وقال السعدي: (﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ وهذا أمرٌ خفيفٌ؛ فإنَّهم لو عَلِموا أنَّهم على حقٍّ لَما توَقَّفوا عن هذا التَّحدِّي الَّذي جعله اللهُ دليلًا على صِدقِهم إن تَمَنَّوْه، وكَذِبِهم إن لم يتمَنَّوْه، ولَمَّا لم =

= يقَعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذلك، عُلِم أنَّهم عالِمون ببُطلانِ ما هم عليه وفَسادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

وقيل: المرادُ: إنْ كُنتُم تَزعُمونَ أنَّكم على هُدًى، وأنَّ مُحمَّدًا وأصحابَه على ضَلالةٍ؛ فادْعُوا بالموتِ على الضَّالِّ مِن الفِئتَينِ إن كنتم صادِقِينَ فيما تَزعُمونَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٨).

وقال ابن كثير عندَ تفسيرِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]: (ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى في سورةِ الجُمُعةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهم -عليهم لعائنُ الله- لَمَّا زعَموا أنَّهم أبناءُ الله وأحِبَّاؤُه، وقالوا: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان هُودًا أو نَصارى، دُعُوا إلى المُباهَلةِ والدُّعاءِ على أكذَبِ الطَّائفتَينِ منهم، أو مِن المسلمينَ. فلمَّا نَكَلوا عن ذلك عَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّهم ظالِمون؛ لأنَّهم لو كانوا جازمينَ بما هم فيه لَكانوا أقْدَموا على ذلك، فلمَّا تأخَّروا عُلِم كَذِبُهم. وهذا كما دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وَفْدَ نَجْرانَ مِن النَّصارى بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم في المُناظَرةِ، وعُتُوِّهم وعنادِهم إلى المباهلة). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٢).

وذكَر أنَّ المرادَ الدُّعاءُ على أيِّ الفريقَينِ أكذَبُ منهم أو مِن المسلمينَ على وجْهِ المُباهَلةِ، وأنَّ هذا هو الَّذي فسَّر به ابنُ عبَّاسٍ الآيةَ، وأنَّه ثبَت عنه بأسانيدَ صحيحةٍ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣١، ٣٣٢).

وقال ابن عثيمين في آيةِ البقرة: (ذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤] أي: فباهِلونا، وتمَنَّوُا الموتَ لِمَن هو كاذبٌ منَّا؛ فتكونُ هذه مِثلَ قولِه تعالى في سورةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فيكونُ المعنى: تمَنَّوُا الموتَ عن طريقِ المُباهَلةِ؛ ورجَّح هذا ابنُ كثير؛ وضعَّف الأوَّلَ بأنَّه لو كان المرادُ: تمَنَّوْا حُصولَ الموتِ لَكانوا يَحتَجُّون أيضًا علينا نحن، ويَقولونَ: أنتم أيضًا إن كنتم تَقولون: إنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكم فتمَنَّوُا الموتَ؛ لأنَّ تَحَدِّيَكم إيَّانا بذلك ليس بأَولى مِن تحَدِّينا إيَّاكم به؛ لأنَّكم أنتم أيضًا تقولون: إنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكم، وأنَّ اليهودَ بعدَ بَعثةِ الرَّسولِ صلَّى الله =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧﴾.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: ولا يَتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبدًا؛ بسَبَبِ ما قدَّمَتْه أيديهم في الدُّنيا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، وتحريفِ الحَقِّ، واقترافِ المعاصي(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بمَن يَظلِمُ نَفْسَه بالكُفرِ والمعاصي مِنَ اليَهودِ وغَيرِهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أَمْرِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم(٢).

= عليه وسلَّمَ في النَّارِ؛ فتمَنَّوُا الموتَ أنتم أيضًا، والجوابُ عن ذلك: أنَّا لم نَدَّعِ أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خالِصةٌ لنا من دونِ النَّاسِ؛ بل نؤمِنُ بأنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكلِّ مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا، سواءٌ كان من هذه الأمَّةِ أم من غيرِها؛ وهذا المعنى الَّذي نحا إليه ابنُ كثير رحمه الله مخالِفٌ لظاهِرِ السِّياقِ؛ فلا يُعوَّلُ عليه؛ وقد عرَفْتَ الانفكاكَ منه). ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال الزَّجَّاج: (أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّهم لا يتمَنَّونَه؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ حَقٌّ، وأنَّهم إن تمَنَّوه ماتوا؛ فلم يتمَنَّوه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان عَدَمُ تَمَنِّيهم عَلَمًا مِن أعلامِ نبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمُوافَقتِه ما أخبَرَ به، وكان ذلك فِعلَ مَن يَعتَقِدُ أنَّ التَّمنِّيَ يُقَدِّمُه عن أجَلِه، وعَدَمَه يُؤَخِّرُه؛ فصاروا بيْنَ التَّكذيبِ بما عِندَهم ونهايةِ البَلادةِ- أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَنبيهِهم على بَلادتِهم؛ تَبكيتًا لهم، فقال[1]:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: إنَّ الموتَ الَّذي تَهرُبونَ منه فتَكرَهونَه وتَأبَونَ تَمنِّيَه: لا بدَّ أن يُدرِكَكم ويَنزِلَ بكم[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾.

= (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال الواحدي: (اليهودُ عَلِموا أنَّهم أفسَدوا على أنفُسِهم أمرَ الآخرةِ بتَكذيبِهم مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكانوا يَكرَهونَ الموتَ أشَدَّ الكراهةِ، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُلْ لهم: إنَّكم وإن فرَرْتُم من الموتِ وكَرِهتُموه، فإنَّه لا بُدَّ يَنزِلُ بكم ويَلْقاكم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٦).

أي: ثمَّ تُرجَعونَ -أيُّها اليَهودُ- بعدَ مَوتِكم إلى اللهِ الَّذي يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، سَواءٌ ما غاب عن خَلْقِه، أو ما هو مُشاهَدٌ لهم، لا يخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أعمالِكم[1].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه[2].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ قاسَ مَن حَمَّله سُبحانَه كِتابَه؛ لِيُؤمِنَ به ويتدَبَّرَه ويَعمَلَ به ويَدعوَ إليه، ثمَّ خالف ذلك ولم يَحمِلْه إلَّا على ظَهرِ قَلبٍ؛ فقِراءتُه بغيرِ تدَبُّرٍ ولا تفَهُّمٍ ولا اتِّباعٍ ولا تحكيمٍ له وعَمَلٍ بمُوجَبِه: كحِمارٍ على ظَهرِه زامِلةُ أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحَظُّه منها حَمْلُها على ظَهرِه ليس إلَّا! فحَظُّه مِن كتابِ اللهِ كحَظِّ هذا الحِمارِ مِن الكُتُبِ الَّتي على ظَهْرِه؛ فهذا المَثَلُ وإن كان قد ضُرِبَ لليَهودِ فهو مُتناوِلٌ مِن حيث المعنى لِمَن حُمِّلَ القُرآنَ فترَك العَمَلَ به، ولم يؤَدِّ حَقَّه، ولم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

يَرْعَه حقَّ رعايتِه[١]! ففي هذا تنبيهٌ مِنَ الله تعالى لِمَن حُمِّلَ الكِتابَ أن يَتعلَّمَ مَعانيَه، ويَعلَمَ ما فيه، ويَعمَلَ به؛ لئلَّا يَلحَقَه مِنَ الذَّمِّ ما لَحِقَ هؤلاء[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أنَّ الإنسانَ لا ينبغي أنْ يَتَشَبَّهَ بالحيوانِ؛ فإنَّ اللهَ لم يَذْكُرْ تشبيهَ الإنسانِ بالحيوانِ إلَّا في مقامِ الذَّمِّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، وأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أظْلَمَ كان عن الهدايةِ أبْعَدَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلَّقَ نفْيَ الهدايةِ بالظُّلمِ، وتعليقُ الحُكْمِ بالظُّلمِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه، وكُلَّما قَوِيتِ العلَّةُ قَوِيَ الحُكْمُ المُعَلَّقُ عليها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أخَذ بالعَدلِ كان حَرِيًّا بالهدايةِ؛ لمفهومِ المخالفةِ في الآيةِ، فإذا كان الظَّالمُ لا يَهديه اللهُ، فصاحِبُ العدلِ حَرِيٌّ بأنْ يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الإنسانَ الَّذي يريدُ الحقَّ ويَتَّبِعُ الحقَّ -والحقُّ هو العدلُ- غالبًا يُهْدَى ويُوَفَّقُ للهدايةِ؛ ولهذا قال ابنُ تيميةَ: (مَن تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهدى منه تَبيَّنَ له طريقُ الحقِّ)[٥]، وهذه كَلِمةٌ مأخوذةٌ مِن القُرآنِ مَنطوقًا ومَفهومًا[٦].

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٢٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((العقيدة الواسطية)) لابن تيمية (ص: ١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في تعيينِ الحِمارِ مِن بَينِ سائِرِ الحيواناتِ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ للرُّكوبِ والزِّينةِ، والزِّينةُ في الخَيلِ أكثَرُ وأظهَرُ بالنِّسبةِ إلى الرُّكوبِ، وحَملِ الشَّيءِ عليه، وفي البِغالِ دونَ الخَيلِ، وفي الحِمارِ دونَ البِغالِ؛ فالبِغالُ كالمتوسِّطِ في المعاني الثَّلاثةِ، وحينَئذٍ يلزَمُ أن يكونَ الحِمارُ في معنى الحَملِ أظهَرُ وأغلَبُ بالنِّسبةِ إلى الخَيلِ والبِغالِ وغَيرِهما من الحيواناتِ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّ هذا التَّمثيلَ لإظهارِ الجَهلِ والبَلادةِ، وذلك في الحِمارِ أظهَرُ.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ في الحِمارِ مِن الذُّلِّ والحَقارةِ ما ليس في غيرِه من الحيواناتِ، والغَرَضُ مِن الكلامِ في هذا المقامِ تعييرُ القَومِ بذلك وتحقيرُهم، فيكونُ تعيينُ الحِمارِ أليقَ وأَولى.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ حَملَ الأسفارِ على الحِمارِ أتَمُّ وأعَمُّ وأسهَلُ وأسلَمُ؛ لِكَونِه ذَلُولًا سَلِسَ القِيادِ، لَيِّنَ الانقيادِ، يتصَرَّفُ فيه الصَّبيُّ الغَبيُّ مِن غَيرِ كُلْفةٍ ومَشَقَّةٍ، وهذا مِن جُملةِ ما يُوجِبُ حُسنَ الذِّكرِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ رعايةَ الألفاظِ والمناسَبةَ بيْنَها مِنَ اللَّوازمِ في الكَلامِ، وبيْنَ لَفظَيِ الأسفارِ والحِمارِ مُناسَبةٌ لَفظيَّةٌ لا تُوجَدُ في الغيرِ مِن الحيواناتِ؛ فيَكونُ ذِكرُه أَولى[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ أنَّ مِن جَهْلِ اليهودِ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى شَبَّهَهم في حَمْلِهم التَّوراةَ، وعدَمِ الفِقهِ فيها والعَمَلِ بها: بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا، وفي هذا التَّشبيهِ مِنَ النِّداءِ على جَهالتِهم وُجوهٌ متعدِّدةٌ:

منها: أنَّ الحِمارَ مِن أَبْلَدِ الحيواناتِ الَّتي يُضرَبُ بها المَثَلُ في البَلادةِ.

ومنها: أنَّه لو حُمِّلَ غيرَ الأسفارِ مِن طعامٍ أو عَلَفٍ أو ماءٍ لَكان له به شُعورٌ، بخِلافِ الأسفارِ.

ومنها: أنَّهم حُمِّلُوها لا أنَّهم حَمَلُوها طَوعًا واختيارًا، بل كانوا كالمكلَّفِينَ لَمَّا حُمِّلُوه، فلَمْ يَرفعوا به رأسًا!

ومنها: أنَّهم حيثُ حُمِّلُوها تكليفًا وقَهرًا لم يَرضَوا بها، ولم يَحمِلوها رِضاءً واختيارًا، وقد عَلِموا أنَّهم لا بُدَّ لهم منها، وأنَّهم إنْ حَمَلُوها اختيارًا كانت لهم العاقِبةُ في الدُّنيا والآخِرةِ.

ومنها: أنَّها مُشتَمِلةٌ على مصالحِ معاشِهم ومَعادِهم، وسَعادتِهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإعراضُهم عن التزامِ ما فيه سَعادتُهم وفلاحُهم إلى ضِدِّه هو مِن غايةِ الجَهلِ والغَباوةِ وعَدمِ الفَطانةِ(١)!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أَضَلَّه اللهُ فإنَّما ذلك لظُلمٍ منه، وأمَّا مَن طَلَبوا الحقَّ وتَحرَّوه وتشَوَّفوا له فإنَّهم جَديرونَ بالهدايةِ(٢). فاللهُ سبحانَه لا يَمْنَعُ فَضْلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوعُ هو السَّبَبَ؛ فلِظُلْمِهم

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

لم يَهْدِهم اللهُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[1] [الصف: ٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ -المُنْكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ إذْ لو كان كلُّ مَبعوثٍ إليه رَسولًا وكلَّ مَدلولٍ على طريقِ الهدايةِ: يَقدِرُ بنَفْسِه أنْ يَهتديَ مِن غيرِ أنْ يَهديَه اللهُ- ما كان في ذلك فائدةٌ، ولا كان ذلك عليهم عُقوبةً، وهذا لا محالةَ إخبارٌ عن قومٍ حُمِّلُوا التَّوراةَ وبُعِثَ إليهم[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ الإخبارُ عن المُستَقبَلاتِ -وهو شَيءٌ كثيرٌ في القرآنِ-، فأَخبرَ سُبحانَه عنِ اليهودِ أنَّهم لن يتمَنَّوُا الموتَ أبدًا، وكان كما أخبَرَ، فلا يتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبدًا، وهذا دليلٌ مِن وجهينِ: مِن جِهةِ إخبارِه بأنَّه لا يكونُ أبدًا، ومِن جِهةِ صَرْفِ اللهِ لدواعي اليَهودِ عن تمنِّي الموتِ، مع أنَّ ذلك مَقدورٌ لهم، وهذا مِن أَعْجَبِ الأمورِ الخارِقةِ للعادةِ، وهم مع حِرْصِهم على تكذيبِه لم تَنْبَعِثْ دواعيهم لإظهارِ تَكذيبِه بإظهارِ تمنِّي الموتِ[3]! وهذا عَلَمٌ مِن أعلامِ نُبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذْ لا يمكنُ الاطِّلاعُ على بواطِنِهم إلَّا بأخبارِ الغَيبِ، ولم يُنْطِقِ اللهُ ألسنتَهم بتمَنِّيه أبدًا[4].

٦- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ اسْتدلَّ به مَن جوَّزَ الدُّعاءَ بالموتِ وتمنِّيَه، فمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٤).

كانَ له عملٌ صَالحٌ فإنَّه يتَمَنَّى القدومَ عليه، وكذلك مَن غلَب عليه الشَّوقُ الى لقاءِ الله، وأمَّا مَن تمنَّى الموتَ خوفَ فتنتِه في الدِّينِ فإنَّه يجوزُ بغيرِ خلافٍ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «فإنَّه يُدرِكُكم»، وما ظَنُّك بشَيءٍ تَفِرُّ منه وهو يُلاقيك؟! إنَّ فِرارَك منه يعني دُنُوَّك منه في الواقِعِ، فلو كنتَ فارًّا مِن شيءٍ وهو يُقابِلُك، فكلمَّا أسرعتَ في الجريِ أسرَعتَ في مُلاقاتِه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ ﴾[2]!

٨- قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ ﴾ استَشْعَرَ غَيرُ واحِدٍ مِنَ الآيةِ ذَمَّ الفِرارِ مِنَ الطَّاعونِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لضربِ المثَلِ لليهودِ عِندَما ترَكوا العملَ بالتَّوراةِ ولم

---

(١) ينظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١١٢).

قال ابن رجب: (تمنِّي الموتِ يقعُ على وجوهٍ:

منها: تمنِّيه لضُرٍّ دنيويٍّ ينزلُ بالعبدِ، فيُنهَى حينئذٍ عن تمنِّي الموتِ.

ومنها: تمنِّيه خوفَ الفتنةِ في الدِّينِ فيجوزُ حينئذٍ.

ومنها: تمنِّي الموتِ عندَ حضورِ أسبابِ الشَّهادةِ اغتنامًا لحضورِها، فيجوزُ ذلك أيضًا.

ومنها: تمنِّي الموتِ لمَن وثِق بعملِه؛ شوقًا إلى لقاءِ الله عزَّ وجلَّ فهذا يجوزُ أيضًا.

ومنها: تمنِّي الموتِ على غيرِ الوجوهِ المتقدِّمةِ، فقد اختَلف العلماءُ في كراهيتِه واستحبابِه، وقد رخَّص فيه جماعةٌ مِن السَّلفِ، وكرِهه آخرونَ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٩٥) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٢).

يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبي؛ فإنَّ عدَمَ وفائِهم بما عُهِدَ إليهم أعجَبُ مِن تحمُّلِهم إيَّاه[٢].

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فقَدْ شبَّهَ اليهودَ بالحِمارِ الَّذي يَحمِلُ الكُتُبَ ولا يَدْري ما فيها، ووجْهُ الشَّبَهِ عدَمُ الانتفاعِ بما هو حاصلٌ وكائنٌ، فالحِمارُ يمشي في طريقِه وهو لا يُحِسُّ بشيءٍ ممَّا يَحمِلُه على ظَهرِه إلَّا بالكَدِّ والتَّعبِ، وكذلك اليهودُ قَرَؤوا التَّوراةَ وحَفِظوها، ولم يَنتفِعوا بها، ومِن ذلك أنَّهم أشاحوا عمَّا انطَوَتْ عليه مِن دلائلَ وإرهاصاتٍ على نبوَّةِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

- وهذا التَّمثيلُ مَقصودٌ منه تشنيعُ حالِهم؛ ولذلك ذُيِّلَ بذَمِّ حالِهم: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٤].

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ فاعِلُ ﴿بِئۡسَ﴾، وأغنى هذا الفاعلُ عن ذِكْرِ المخصوصِ بالذَّمِّ؛ لحُصولِ العِلمِ بأنَّ المذمومَ هو حالُ القومِ المُكذِّبينَ، فلَمْ يُسْلَكْ في هذا التَّركيبِ طريقُ الإبهامِ على شرطِ التَّفسيرِ؛ لأنَّه قد سبَقَه ما بَيَّنَه بالمَثَلِ المذكورِ قَبْلَه في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾، فصارَ إعادةُ لَفظِ المثَلِ ثَقيلًا في الكلامِ أكثَرَ مِن ثلاثِ مرَّاتٍ، وهذا مِن تفنُّناتِ القُرآنِ[٥].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣، ٢١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير أبي =

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ؛ إخبارًا عنهم بأنَّ سوءَ حالِهم لا يُرْجى لهم منه انفكاكٌ؛ لأنَّ اللهَ حرَمَهم اللُّطفَ والعِنايةَ بإنقاذِهم لِظُلمِهم بالاعتداءِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّكذيبِ دونَ نظَرٍ، وعلى آياتِ اللهِ بالجَحْدِ دونَ تدبُّرٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- افتُتِحَ الكلامُ بفِعلِ ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتِمامِ[٢].

- ولم يُضِفْ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ إلى الله، كما أضافَ في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ لِيُؤْذِنَ بالفَرقِ بيْنَ مَن يَدَّعي أنَّه مِن أولياءِ اللهِ، وبيْنَ مَن يخُصُّه اللهُ بالولايةِ[٣].

- والأمرُ في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ؛ كِنايةً عن التَّكذيبِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جوابُه محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: إنْ كنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم واثِقينَ بأنَّه حقٌّ؛ فتمَنَّوُا الموتَ؛ فإنَّ مَنْ أيقَنَ بأنَّه من أهلِ الجنَّةِ أحبَّ أنْ يتخلَّصَ إليها مِن هذه الدَّارِ الَّتي هي قَرارةُ الأكدارِ[٥].

- قولُه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جِيءَ بـ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي الأصلُ

= السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٢).

فيها عدَمُ الجزم بوُقوعِ الشَّرطِ مع أنَّ الشَّرطَ هُنا مُحقَّقُ الوُقوعِ -إذْ قدِ اشْتُهِروا بهذا الزَّعمِ-؛ للإشارةِ إلى أنَّ زعْمَهم هذا لَمَّا كان باطلًا بالدَّلائلِ كان بمَنزِلةِ الشَّيءِ الَّذي يُفرَضُ وُقوعُه كما يُفرَضُ المُستبعَدُ وكأنَّه ليس واقعًا، ويُفيدُ ذلك تَوبيخًا بطريقِ الكِنايةِ، وهذا إلجاءٌ لهم حتَّى يَلْزَمَهم ثُبوتُ شكِّهم فيما زعَموه[١].

- ووَجْهُ الملازمةِ بيْنَ الشَّرطِ وجوابِه أنَّ الموتَ رُجوعُ الإنسانِ برُوحِه إلى حياةٍ أبَديَّةٍ تَظهَرُ فيها آثارُ رِضا اللهِ عن العبدِ أو غضَبِه ليَجزيَه على حسَبِ فِعلِه، والنَّتيجةُ الحاصلةُ مِن هذا الشَّرطِ تُحصِّلُ أنَّهم مِثلُ جميعِ النَّاسِ في الحياتَينِ الدُّنيا والآخِرةِ وآثارِهما، واختلافِ أحوالِ أهلِهما، فيُعلَمُ مِن ذلك أنَّهم ليسوا أفضَلَ مِنَ النَّاسِ، وبهذا يَندفِعُ ما قد يَعرِضُ للنَّاظِرِ في هذه الآيةِ مِنَ المعارضةِ بيْنَها وبيْنَ ما جاء في الأخبارِ الصَّحيحةِ مِنَ النَّهيِ عن تَمنِّي الموتِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جملتَيِ القولَينِ قُصِدَ به تحدِّيهم لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّهم ليسوا أولياءَ للهِ، وليس المقصودُ مِن هذا مَعذرةً لهم مِن عدَمِ تمنِّيهم الموتَ، وإنَّما المقصودُ زيادةُ الكَشفِ عن بُطلانِ قولِهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وإثباتُ أنَّهم في شكٍّ مِن ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ جاء التَّعبيرُ هنا بحرفِ النَّفيِ (لا)، بيْنَما في سورةِ (البقرةِ) جاء التَّعبيرُ بحرفِ النَّفيِ (لن) في قولِه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥، ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٧).

٩٥]، وهذا مِن المُناسَباتِ اللَّطيفةِ، ومِن مَحاسِنِ المعاني؛ لأنَّهم في سورةِ (البقرةِ) ادَّعَوْا أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خالِصةٌ لهم مِن دونَ النَّاسِ، وهنا في سورةِ (الجمعةِ) ادَّعَوْا أنَّهم أولياءُ لله تعالى مِن دونِ النَّاسِ، والدَّعوى الأُولى أعظَمُ مِن الثَّانيةِ، لأنَّ السَّعادةَ القصوى فوقَ مرتبةِ الولايةِ؛ لأنَّ الثَّانيةَ تُرادُ لحصولِ الأُولى، فبيَّن سبحانَه فسادَ قولِهم بلفظِ: (لن)؛ لأنَّه أقوى الألفاظِ النَّافيةِ، واكتفَى في إبطالِ الثَّانيةِ بلفظِ (لا)؛ لأنَّه ليس في نهايةِ القوَّةِ في إفادةِ معنَى النَّفيِ[(١)].

وأيضًا لأنَّ آيةَ (البقرةِ) ورَدتْ بعدَ ما تقدَّم منهم مِن الكفرِ والعصيانِ وقتْلِ الأنبياءِ، فناسَب حرفُ المبالَغةِ فى النَّفيِ لتَمنِّيهم الموتَ؛ لِمَا يَعلمونَ ما لَهم بعْدَه مِن العذابِ[(٢)].

وأيضًا في (البقرةِ) لَمَّا كان الشَّرطُ في المغفرةِ مُستقبَلًا، وهو قولُه: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ﴾ جاء جوابُه بـ(لن) الَّتي تخصُّ الاستِقبالَ، ولَمَّا كان الشَّرطُ في (الجمعةِ) حالًا، وهو قولُه: ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ جاء جوابُه بـ(لا) الَّتي تدخلُ على الحالِ، أو تدخلُ على المُستقبَلِ[(٣)].

- والباءُ في قولِه تعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ سَببيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بفعلِ ﴿يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ﴾ المَنفيِّ، فما قدَّمَتْ أيديهم هو سببُ انتفاءِ تَمنِّيهِمُ الموتَ، ألْقى في نُفوسِهمُ الخَوفَ ممَّا قدَّمَتْ أيديهِم؛ فكان سبَبَ صَرْفِهم عن تَمنِّي الموتِ لتقدُّمِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((كشف المعانى)) لابن جَماعة (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ٤٧).

الحُجَّةِ عليهم[١].

- وفيه نِسبةُ ما قدَّموه مِن المعاصي القَوليَّةِ والفِعليَّةِ والاعتقاديَّةِ إلى الأيدي، على سبيلِ التَّغليب؛ لأنَّ الأيديَ تُزاوِلُ أكثرَ الأعمالِ؛ فكأنَّ كلَّ عمَلٍ واقعٌ بها[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ التَّقديمُ: أصلُه جعْلُ الشَّيءِ مُقدَّمًا، أي: سابقًا غيرَه في مكانٍ يَقْفُوهُ فيه غيرُه، وهو مُعبَّرٌ به هُنا عمَّا سلَفَ مِنَ العملِ؛ تَشبيهًا له بشَيءٍ يُسَبِّقُه المرءُ إلى مكانٍ قبْلَ وُصولِه إليه[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: بِهِم، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ لذمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم ظالِمونَ في كلِّ ما يأتونَ وما يَذَرونَ مِنَ الأمورِ الَّتي مِن جُملتِها ادِّعاءُ ما هُم عنه بمَعْزِلٍ[٤].

وقيل: قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: عليمٌ بأحوالِهم وبأحوالِ أمثالِهم مِنَ الظَّالمينَ، فشَمِلَ لفظُ الظَّالِمينَ اليهودَ؛ فإنَّهم مِنَ الظَّالِمينَ، والمقصودُ أنَّ إحجامَهم عن تمنِّي الموتِ لِما في نفوسِهم مِن خَوفِ العِقابِ على ما فعَلوه في الدُّنيا، فكُنِّيَ بعِلمِ اللهِ بأحوالِهم عن عدمِ انفلاتِهم مِنَ الجزاءِ عليها؛ ففي هذا وعيدٌ لهم[٥].

- والجُملةُ تذييلٌ لِمَا قبْلَها مُقرِّرةٌ لمضمونِه، أي: عليمٌ بهم وبما صدَرَ عنهم مِن فُنونِ الظُّلمِ والمعاصي المُفْضِيَةِ إلى أفانينِ العذابِ، وبما سيَكونُ منهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

مِنَ الاحترازِ عمَّا يؤدِّي إلى ذلك[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- هو تَصريحٌ بما اقتضاهُ التَّذييلُ مِنَ الوعيدِ وعدمِ الانفلاتِ مِنَ الجزاءِ عن أعمالِهم ولو بعْدَ زمانِ وُقوعِها؛ لأنَّ طولَ الزَّمانِ لا يُؤثِّرُ في عِلمِ اللهِ نسيانًا؛ إذْ هو عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ[٢].

- ووصَفَ الموتَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هلَعَهم مِنَ الموتِ خطأٌ[٣].

- قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: لاحِقٌ بكم لا تَفوتونَه البتَّةَ من غَيرِ صارِفٍ يَلويه، ولا عاطفٍ يَثنيه، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشَّرطِ باعتبارِ الوصفِ، وكأنَّ فِرارَهم يُسرِّعُ لُحوقَه بهم[٤].

- وقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ لأنَّ النَّبأَ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، ويُطلَقُ على الخبرِ الخطيرِ والأمرِ العظيمِ، فالنَّبأُ أخصُّ مِن الخبرِ، فكلُّ نبأٍ خبرٌ، وليس كلُّ خبرٍ نبأً؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلَّا على الخبرِ الَّذي له خَطبٌ وشأنٌ[٥]. والإنباءُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كِنايةٌ عن الحسابِ عليه، وهو تَعريضٌ بالوعيدِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٨٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٩).

الآيات (٩-١١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذَرُوا﴾: أي: اترُكوا، ودَعُوا، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لِقِلَّةِ اعتِدادِه به[١].

﴿فَانْتَشِرُوا﴾: أي: فتفرَّقوا لإقامةِ مَصالِحِكم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[٢].

﴿وَابْتَغُوا﴾: أي: اطْلُبوا، مِن بغَى الشَّيءَ، أي: طَلَبَه[٣].

﴿تُفْلِحُونَ﴾: أي: تَفوزون بالمطلوبِ، وتَنجون مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥، ٨٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((الغريبين =

﴿لَهْوًا﴾: اللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿انفَضُّوا﴾: أي: تَفرَّقوا، والفضُّ: كَسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بيْنَ بَعضِه وبَعضِه، وأصلُ (فضض): يدُلُّ على التَّفريقِ والتَّجزئةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى المؤمنينَ بالمسارعةِ إلى أداءِ فرائضِه، وألَّا تَشغلَهم الدُّنيا عن ذِكْرِه وطاعتِه، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِن يَومِ الجُمُعةِ فامضوا إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ، واتْرُكوا البَيعَ؛ ذلكم خَيرٌ لكم إنْ كنتُم تَعلَمونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ التَّيسيرِ في شَرعِه، ومُراعاةِ أحوالِ عبادِه، فيقولُ: فإذا فَرَغْتُم مِن صَلاةِ الجُمُعةِ فتفرَّقوا في الأرضِ، واطْلُبوا مِن رِزقِ اللهِ إنْ شِئتُم؛ فلا حَرَجَ عليكم، واذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا؛ لعَلَّكم تُفلِحونَ.

ثمَّ يعاتِبُ اللهُ تعالى بعضَ أصحابِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيَقولُ: وإذا رَأَوا تجارةً أو لَهْوًا وَقْتَ خُطبةِ الجُمُعةِ، انصَرَفوا إليها، وتَرَكوك -يا محمَّدُ- قائِمًا على المِنبَرِ تَخطُبُ. قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: ما عِندَ اللهِ خَيرٌ مِن لَذَّةِ اللَّهوِ ومِن رِبحِ التِّجارةِ، واللهُ خيرُ الرَّازِقينَ.

= في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَبَّح اللهُ سُبحانَه المُخالَفةَ بيْن القَولِ والفِعلِ، وصوَّرَ صاحِبَها بصُورةِ الحِمارِ على الهيئةِ السَّابقةِ، وحذَّرَ من ذلك بما هيَّأَ به العاقِلَ للإجابةِ إلى دوامِ الطَّاعةِ بعْدَ أن بيَّنَ أنَّ جَميعَ الكائناتِ تُسبِّحُه، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِنَ الإخبارِ يومَ الجَمْعِ الأعظَمِ بجَميعِ الأعمالِ؛ قال على طريقِ الاستنتاجِ مِمَّا مضى مِن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، نادبًا لهم -لِيَكونوا أولياءَ اللهِ- إلى التَّزكيةِ المذكورةِ الَّتي هي ثَمَرةُ الرِّسالةِ بما حاصِلُه الإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على اللهِ، والإعراضُ بالكُلِّيَّةِ عن الدُّنيا؛ لِيَجمَعَ المكَلَّفُ بيْن التَّحَلِّي بالمزايا، والتَّخَلِّي عن الدَّنايا، فخَصَّ مِن المزايا أعظَمَ تَسبيحٍ يَفعَلُه العاقِلُ في أيَّامِ الأُسبوعِ، وهو الإسراعُ بالاجتِماعِ العَظيمِ في يومِ الجُمُعةِ الَّذي يُناظِرُ الاجتماعَ لإجابةِ المُنادي في يومِ الجَمعِ الأكبَرِ، ثمَّ الإقبالُ الأعظَمُ بفِعْلِ صَلاةِ الجُمُعةِ الَّتي هي سِرُّ اليومِ الَّذي ضَيَّعَه اليَهودُ، واستَبدَلوا به ما كان سَبَبَ تَعذيبِهم بعذابٍ لم يُعَذَّبْ به أحدٌ مِنَ العالَمينَ[١].

وأيضًا بعدَ أنْ نعَى على اليهودِ فِرارَهم مِن الموتِ حبًّا في الدُّنيا والتَّمتُّعِ بطَيِّباتِها- ذكَرَ هنا أنَّ المؤمنَ لا يُمنَعُ مِن اجتناءِ ثمارِ الدُّنيا وخَيراتِها مع السَّعيِ لِما يَنفَعُه في الآخرةِ، كالصَّلاةِ يومَ الجُمُعةِ في المسجدِ مع الجماعةِ[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٢، ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا[١] إذا أذَّن المؤذِّنُ داعِيًا إلى الصَّلاةِ في يَومِ الجُمُعةِ[٢] -وذلك عندَ قُعودِ الإمامِ على المِنبَرِ للخُطبةِ-؛ فامضوا إلى خُطبة الجمعةِ وصَلاتِها مُبادِرينَ مُهْتمِّينَ، واترُكوا البَيعَ[٣].

---

(١) قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خِطابٌ للمُكَلَّفينَ بإجماعٍ، ويَخرُجُ منه المَرْضى والزَّمْنى والمسافِرونَ والعَبيدُ والنِّساءُ؛ بالدَّليلِ، والعُمْيانُ والشَّيخُ الَّذي لا يَمشي إلَّا بقائدٍ عند أبي حنيفةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) قال الجَصَّاصُ: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ... اتَّفَق المسلمونَ على أنَّ المرادَ الصَّلاةُ الَّتي إذا فعَلَها مع الإمامِ جُمُعةً لم يَلزَمْه فِعلُ الظُّهرِ معها، وهي ركعتانِ بعدَ الزَّوالِ على شرائطِ الجُمُعةِ، واتَّفَق الجميعُ أيضًا على أنَّ المرادَ بهذا النِّداءِ هو الأذانُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٩٤).

وقال الواحدي: (يعني: النِّداءَ إذا جلس الإمامُ على المِنبَرِ يومَ الجُمُعةِ؛ لأنَّه لم يكُنْ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نداءٌ سِواه). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٧، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٧، ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٢-٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابن عطية: (السَّعيُ في الآيةِ ليس الإسراعَ في المشي كالسَّعي بيْنَ الصَّفا والمروةِ، وإنَّما هو بمعنى قَولِه: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فالقيامُ والوُضوءُ ولُبسُ الثَّوبِ والمَشيُ: سَعيٌ كُلُّه إلى ذِكرِ اللهِ تعالى، قال الحسَنُ وقَتادةُ ومالِكٌ وغيرُهم: إنَّما تُؤتَى الصَّلاةُ بالسَّكينةِ. فالسَّعيُ هو بالنِّيَّةِ والإرادةِ والعمَلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٩).

وقال ابن رجب: (المرادُ بالسَّعيِ: شِدَّةُ الاهتمامِ بإتيانِها، والمُبادَرةُ إليها؛ فهو من سَعيِ القُلوبِ، لا مِن سعيِ الأبدانِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (ليس المرادُ بالسَّعيِ المأمورِ به العَدْوَ؛ فإنَّه قد ثبَتَ في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فلا تَأتوها وأنتم تَسعَونَ، وأْتُوها وأنتم =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((نحن الآخِرونَ السَّابِقونَ يومَ القيامةِ، بَيْدَ(١) أنَّهم أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، وأُوتيناهُ مِن بَعْدِهم، وهذا يَومُهم الَّذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفوا فيه، فهَدانا اللهُ له، فهُمْ لنا فيه تَبَعٌ، فاليَهودُ غدًا، والنَّصارى بعدَ غدٍ))(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنِ اغتَسَل يومَ الجُمُعةِ غُسْلَ الجَنابةِ ثمَّ راح فكأنَّما قَرَّب بَدَنةً(٣)، ومَن راح في

= تَمشُونَ وعليكم السَّكِينةُ؛ فما أدركْتُم فصَلُّوا، وما فاتكم فأَتِمُّوا»[البخاري «٩٠٨»، ومسلم «٦٠٢»]، ورُوِيَ: «فاقْضُوا»[أحمد «٧٢٥٠»، النسائي«٨٦١»]، ولكنْ قال الأئمَّةُ: السَّعْيُ في كتابِ اللهِ هو العمَلُ والفِعلُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]. ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٢٥٩).

وأمَّا سببُ تسميةِ هذا اليَوم بالجُمُعةِ فقد قال فيه البَغَويُّ: (واختلَفوا في تسميةِ هذا اليَوم جُمُعةً؛ منهم مَن قال: لأنَّ اللهَ تعالى جمَع فيه خَلْقَ آدَمَ عليه السَّلامُ. وقيل: لأنَّ اللهَ تعالى فرَغ فيه مِن خَلقِ الأشياءِ، فاجتمعتْ فيه المخلوقاتُ. وقيل: لاجتماعِ الجماعاتِ فيها. وقيل: لاجتماعِ النَّاسِ فيها للصَّلاة.

وقيل: أوَّلُ مَن سَمَّاها جُمُعةً كعبُ بنُ لُؤَيٍّ...، وكان يُقالُ له: يومُ العَرُوبةِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣٥٣).

وقال ابن رجب: (أوَّلُ جُمُعةٍ جُمِّعتْ بالمدينةِ في نَقِيعِ الخَضِماتِ، قبْلَ أن يَقْدَمَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ المدينةَ، وقبْلَ أن يَبنيَ مَسجِدَه. يدُلُّ على ذلك: حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ، أنَّه كان كلَّما سمِع أذانَ الجُمعةِ استغفَرَ لِأَسْعَدَ بنِ زُرارةَ، فسأله ابنُه عن ذلك، فقال: كان أوَّلَ مَن صلَّى بنا صلاةَ الجُمعةِ قبْلَ مَقدَمِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن مكَّةَ في نَقيعِ الخَضِماتِ، في هَزْمِ النَّبيتِ، مِن حَرَّةِ بَني بَياضةَ. قيل له: كم كنتُم يومَئذٍ؟ قال: أربعين رجُلًا. خرَّجه... أبو داودَ [١٠٦٩] وابنُ ماجَة مُطوَّلًا [١٠٨٢]). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٣).

(١) بَيْدَ: أي: غَيْرَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١٠٠٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٧٦)، ومسلمٌ (٨٥٥) واللَّفظُ له.

(٣) البَدَنةُ هنا: مِن الإبلِ، ذكرًا أمْ أنثى، والتَّاءُ للوحدةِ لا للتَّأنيثِ، والمرادُ: تصَدَّقَ بها مُتقَرِّبًا إلى الله =

السَّاعةِ الثَّانيةِ فكأنَّما قَرَّب بَقَرةً، ومَن راح في السَّاعةِ الثَّالثةِ فكأنَّما قَرَّب كَبشًا أقرَنَ[(١)]، ومَن راح في السَّاعةِ الرَّابعةِ فكأنَّما قَرَّب دجاجةً، ومَن راح في السَّاعةِ الخامسةِ فكأنَّما قَرَّب بَيضةً، فإذا خرجَ الإمامُ حَضَرت الملائِكةُ يَستَمِعونَ الذِّكْرَ))[(٢)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهم، أنَّهما سَمِعا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ على أعوادِ مِنبَرِه: ((لَيَنتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ[(٣)] الجُمُعاتِ، أو لَيَختِمَنَّ اللهُ على قُلوبِهم، ثمَّ لَيَكُونُنَّ مِن الغافِلينَ))[(٤)].

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: السَّعيُ إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ يومَ الجُمُعةِ، وتَركُ البَيعِ: خَيرٌ لكم مِنَ البَيعِ والشِّراءِ في ذلك الوَقتِ إنْ كُنتُم تَعلَمونَ[(٥)].

= تعالى. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٢/ ١٥٩).

(١) الأقرَن مِن الكِباش: الَّذي له قَرْنٌ، ووصَفَه بالأقرَنِ؛ لأنَّه أكمَلُ وأحسَنُ صورةً، ولأنَّ قَرنَه يُنتفَعُ به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٣٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٧٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٨١)، ومسلمٌ (٨٥٠).

(٣) وَدْعِهم: أي: تَرْكِهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٥٢).

(٤) رواه مسلم (٨٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابنُ جرير: (﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ مَصالِحَ أنفُسِكم ومَضارَّها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣).

وقال البِقاعي: (أي: يتجَدَّدُ لكم عِلْمٌ في يومٍ مِنَ الأيامِ، فأنتم تَرَونَ ذلك خيرًا، فإذا عَلِمتُموه خيرًا أقبَلْتُم عليه، فكان ذلك لكم خيرًا... وإنَّما عَبَّرَ عنها بهذا؛ إشارةً إلى أنَّ عاقِلًا لا يَسَعُه أن يَترُكَ ما يَعلَمُ أنَّه أعلى وُجوهِ الخَيرِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٦٦).

وقال السعدي: (﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ ما عِندَ اللهِ خَيرٌ وأبقى، وأنَّ مَن آثَرَ الدُّنيا على الدِّينِ فقدْ خَسِرَ الخَسارةَ الحقيقيَّةَ؛ مِن حيثُ ظَنَّ أنَّه يَربَحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على الصَّلاةِ، وأرشَدَ إلى أنَّ وَقتَها لا يَصلُحُ لطَلَبِ شَيءٍ غَيرِها، وأنَّه متى طُلِبَ فيه شَيءٌ مِن الدُّنيا، مُحِقَت بَرَكتُه، مع ما اكتُسِب مِن الإثمِ- بيَّن وَقْتَ المَعاشِ، فقال مُبيحًا لهم ما كان حُظِرَ عليهم[1]:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فإذا فَرَغْتُم مِن صَلاةِ الجُمُعةِ فتفرَّقوا في الأرضِ، واطْلُبوا مِن رِزقِ اللهِ إنْ شِئتُم؛ فلا حَرَجَ عليكم في ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أجمعَ النَّاسُ على أنَّ مُقتضى هذا الأمرِ الإباحةُ، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه الإباحةُ في طَلَبِ المَعاشِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٩).

وقال ابن الفَرَسِ: (أمْرُ إباحةٍ باتِّفاقٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٥).

وقال ابن حجر -بعدَ أن ذكَرَ الإجماعَ على أنَّ الأمرَ المذكورَ للإباحة-: (وقد جنَح الدَّاوديُّ إلى أنَّه على الوُجوبِ في حقِّ مَن يَقدِرُ على الكسبِ، وهو قولٌ شاذٌّ نُقِل عن بعضِ الظَّاهريَّة). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٢٧).

وذكَرَ ابنُ رجب أنَّ بعضَهم قد ذهب إلى أنَّ الأمرَ بالانتشارِ بعدَ الصَّلاةِ للاستِحباب، وذكر منهم عِرَاكَ بنَ مالكٍ، وعِمْرانَ بنَ قَيسٍ. ونسَبَ إلى الأكثَرينَ أنَّه ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنَّما هو إذْنٌ وإباحةٌ، وذكَرَ منهم عَطاءً، ومُجاهِدًا، والضَّحَّاكَ، ومُقاتِلَ بنَ حَيَّانَ، وابنَ زيدٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ٣٣٧).
=

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاشتِغالُ في التِّجارةِ مَظِنَّةَ الغَفْلةِ عن ذِكرِ اللهِ؛ أمرَ اللهُ بالإكثارِ مِن ذِكْرِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان السَّعيُ في طَلَبِ الرِّزقِ مُلْهيًا عن الذِّكْرِ؛ بَيَّن أنَّه أعظَمُ السَّعيِ في المعاشِ، وأنَّ مَن غَفَل عنه لم يَنجَحْ له مَقصَدٌ، وإن تحايَلَ له بكُلِّ الحِيَلِ وغَيرِ ذلك[2].

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أي: واذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا في جميعِ أحوالِكم، فلا تُلْهِيَنَّكم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ؛ لعَلَّكم تَظفَرونَ بما تَطلُبونَه مِن الخَيرِ، وتَنجون ممَّا تَرهبون[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣].

= وقيل: قولُه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليس لطلَبِ الدُّنيا، ولكنْ لعيادةِ مريضٍ، وحُضورِ جنازةٍ، وزيارةِ أخٍ في الله. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٦٥).

وقال الحسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومكحولٌ: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾: هو طلَبُ العِلمِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)) للسعدي (١/ ٨٧).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَخطُبُ قائِمًا يومَ الجُمُعةِ، فجاءت عِيرٌ[١] من الشَّامِ، فانفتَلَ[٢] النَّاسُ إليها، حتَّى لم يَبْقَ إلَّا اثنا عَشَرَ رَجُلًا؛ فأُنزِلَت هذه الآيةُ الَّتي في الجُمُعةِ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾))[٣].

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

---

(١) العِيرُ: الإبلُ بأحْمالِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٩).

(٢) انفَتَل: أي: انصَرَف. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٧٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٩٣٦)، ومسلمٌ (٨٦٣) واللَّفظُ له.

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: كان الَّذي قَدِم بالتِّجارةِ دِحْيةَ بنَ خَليفةَ الكَلْبيَّ، قال مقاتلٌ: وذلك قبْلَ أن يُسْلِمَ. قالوا: قَدِمَ بها مِن الشَّامِ، وضُرِب لها طبلٌ يُؤْذِنُ النَّاسَ بقُدومِها. وهذه كانت عادتُهم إذا قَدِمَتْ عِيرٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٨).

وقال العُلَيمي: (كان قد أصاب المدينةَ قَحطٌ شديدٌ، وكان دِحْيةُ بنُ خليفةَ الكَلبيُّ يأتيهم بكلِّ ما يَحتاجون إليه مِن بُرٍّ وشَعيرٍ وغيرِهما من الشَّامِ، وكان إذا قَدِمَ ضُرِب الطَّبلُ؛ ليُعلَمَ به، فقَدِمَ يومَ الجُمعةِ -وذلك قبْلَ إسلامِه- والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَخطُبُ، فضُرِب الطَّبلُ، فخرَج النَّاسُ إليه ومَن في المسجدِ؛ خوفًا أن يُسبَقوا، ولم يَبْقَ عِندَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ غيرُ اثنَيْ عَشَرَ رجُلًا وامرأةً). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٤).

أي: يقولُ اللهُ تعالى مُعاتِبًا بعضَ أصحابِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: وإذا رَأَوا تجارةً أو لَهْوًا وَقْتَ خُطبةِ الجُمُعةِ الَّتي هي جَديرةٌ بشِدَّةِ الإصغاءِ إليها، والاتِّعاظِ بها في صَرْفِ النَّفْسِ عن الدُّنيا، والإقبالِ على الآخِرةِ؛ انصَرَفوا إلى تلك التِّجارةِ مُسرِعينَ، وتَرَكوك -يا محمَّدُ- قائمًا على المِنبَرِ تَخطُبُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قيل: المرادُ باللَّهوِ: الطَّبلُ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٤).

قال ابن عثيمين: (اللَّهوُ: هو الَّذي كان يَصحَبُ التِّجارةَ، وهو أنَّه جرَتِ العادةُ أنَّ الرَّكْبَ إذا جاؤوا وأَقْبَلوا إلى المدينةِ جعَلوا يَضرِبون بالدُّفِّ؛ لأجْلِ أن يُفزِعوا النَّاسَ ويُنَبِّهوهم على أنَّه قد جاءت عِيرٌ، فلمَّا سمِعوا هذا خرَجوا؛ لأنَّهم في حاجةٍ شديدةٍ، خرَجوا يُريدونَ التِّجارةَ). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٢/ ٨٦) بتصرُّف.

وممَّن قال: هو الطَّبلُ، وزاد معه التَّصفيقَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، والنيسابوري، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠).

قال الزمخشري: (وكانوا إذا أقبلَتِ العِيرُ استَقبَلوها بالطَّبلِ والتَّصفيقِ، فهو المرادُ باللَّهوِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (واللَّهوُ هاهنا قيل: الطَّبلُ، وهو -واللهُ أعلَمُ- كلُّ ما يُلْهَى به). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٧٣).

وقال القاسمي: (﴿أَوْ لَهْوًا﴾ أي: ما تَلهو به النَّفْسُ عن الحقِّ والجِدِّ والنَّافعِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١).

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ فقد قال فيه الواحديُّ: (أجمَعوا على أنَّ هذا القيامَ كان في الخُطبةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٠١).

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنصَرِفينَ إلى التِّجارةِ أو اللَّهوِ: ما عِندَ اللهِ مِن الأجرِ والثَّوابِ خيرٌ لِمَن يَسمَعُ خُطبةَ الجُمُعةِ، ويَحضُرُ صَلاتَها، مِن لَذَّةِ اللَّهوِ، ومِن رِبحِ التِّجارةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ مَن رزَق وأعطَى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فليس الصَّبرُ على طاعةِ اللهِ مُفَوِّتًا للرِّزقِ، ومَن اتَّقى اللهَ رَزَقَه من حيثُ لا يَحتَسِبُ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤).
وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى أنَّ المراد به الثَّوابُ: ابنُ جرير، وابن كثير، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).
قال القاسمي: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن الثَّوابِ المَرجُوِّ بسَماعِ الخُطبةِ، والعِظَةِ بها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١).
وقال الرَّسْعَني: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثَوابِ الصَّلاةِ، والثَّباتِ مع نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٣٦). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٥).
وقال السعدي: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأجرِ والثَّوابِ، لِمَن لازَمَ الخيرَ، وصبر نفْسَه على عبادةِ الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).
وقال السمعاني: (أي: ذِكرُ اللهِ تعالى والاشتِغالُ في الصَّلاةِ خيرٌ مِن اللَّهوِ والتِّجارةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للعَبدِ المُقبِلِ على عِبادةِ اللهِ، وَقتَ دَواعي النَّفْسِ لحُضورِ اللَّهوِ والتِّجاراتِ والشَّهَواتِ: أن يُذَكِّرَها بما عندَ اللهِ مِن الخَيراتِ، وما لِمُؤْثِرِ رِضاه على هَواه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له إذا قَضى مِن العبادةِ ألَّا يَغْفُلَ بَعْدَها عن ذِكرِ اللهِ[2]؛ فلا تظُنُّوا أنَّكم إذا فَرَغْتُم من ذِكْرِ اللهِ في الخُطبةِ والصَّلاةِ أنَّكم انتَهَيتُم مِن ذِكْرِ اللهِ. لا؛ ذِكْرُ اللهِ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ مَكانٍ[3]، فسائرُ العِباداتِ تَنقضي ويُفرَغُ منها، وذِكرُ اللهِ باقٍ لا يَنقضي ولا يُفرَغُ منه، بل هو مُستمِرٌّ للمؤمنينَ في الدُّنيا والآخرةِ[4].

٣- تحقيقُ التَّوكُّلِ لا يُنافي السَّعْيَ في الأسبابِ الَّتي قَدَّر اللهُ سُبحانَه المَقْدوراتِ بها، وجَرَتْ سُنَّتُه في خَلْقِه بذلك؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أمَر بتعاطي الأسبابِ معَ أمْرِه بالتَّوكُّلِ، فالسَّعيُ في الأسبابِ بالجَوارحِ طاعةٌ له، والتَّوكُّلُ بالقلبِ عليه إيمانٌ به، كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّساءِ: ٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

= (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٩٠).

﴿ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[١] [الأنفال: ٦٠].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه أنَّ الإكثارَ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ أسبابِ الفَلاحِ[٢]؛ فقد علَّق الفَلاحَ بالإكثارِ مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ...﴾ إنَّما سُمِّيَت الجُمُعةُ جُمعةً؛ لأنَّها مُشتقَّةٌ مِنَ الجَمعِ؛ فإنَّ أهلَ الإسلامِ يجتَمِعونَ فيه في كلِّ أُسبوعٍ مَرَّةً بالمعابدِ الكِبارِ، وفيه كَمَل جميعُ الخلائِقِ؛ فإنَّه اليَومُ السَّادِسُ مِن السِّتَّةِ الَّتي خَلَق اللهُ فيها السَّمَواتِ والأرضَ، وفيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، وفيه تقومُ السَّاعةُ[٤]، وفيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مُؤمِنٌ يَسألُ اللهَ فيها خيرًا إلَّا أعطاه إيَّاه[٥]، كما ثَبَتَ بذلك الأحاديثُ الصِّحَاحُ... وثَبَت أنَّ الأُمَمَ قَبْلَنا أُمِروا به فضَلُّوا عنه، واختار اليهودُ يومَ السَّبتِ الَّذي لم يقَعْ فيه خَلقٌ، واختار النَّصارى يومَ الأحَدِ الَّذي ابتُدِئَ فيه الخَلْقُ، واختار اللهُ لهذه الأمَّةِ يومَ الجُمُعةِ الَّذي أكمَلَ اللهُ فيه الخليقةَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٧).

(٤) عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خَيْرُ يومٍ طَلَعَتْ عليه الشَّمسُ يَومُ الجُمُعةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدخِلَ الجَنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، ولا تَقومُ السَّاعةُ إلَّا في يومِ الجُمُعةِ)). رواه مسلم (٨٥٤).

(٥) عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَرَ يومَ الجُمُعةِ، فقال: فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يُصلِّي يَسألُ اللهَ شيئًا إلَّا أعطاه إيَّاه، وأشار بيدِه يُقلِّلها)). رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٩).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ خِطابُ الآيةِ لجَميعِ المؤمنينَ؛ فدَلَّ على أنَّ الجُمُعةَ واجِبةٌ على الأعيانِ[١] ممَّن تتحقَّقُ فيهم شُروطُها.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الجُمُعةَ لا تَجِبُ إلَّا بالنِّداءِ، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا بدُخولِ الوَقتِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه مَشروعيَّةُ الأذانِ لصَلاةِ الجُمُعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).

وممَّن حكى الإجماعَ على فرضيَّةِ الجُمُعةِ: الكاساني، وابن قدامة، وابن تيميَّة. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (١/ ٢٥٦)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٣٩).

قال ابنُ القيِّم: (أجمَعَ المسلمونَ على أنَّ الجمعةَ فرضُ عَينٍ، إلَّا قولًا يُحكَى عن الشَّافعيِّ أنَّها فرضُ كفايةٍ، وهذا غلَطٌ عليه). ((زاد المعاد)) (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٨٨).

مذهبُ الجمهورِ مِن الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ: أنَّ وقتَ صلاةِ الجُمعةِ هو وقتُ صلاةِ الظُّهرِ، ولا تصحُّ قبْلَ الزَّوالِ، واختارَه ابنُ حزمٍ، وبه قال أكثرُ العلماءِ. يُنظر: ((مختصر القدوري)) (ص: ٣٩)، ((الكافي)) لابن عبد البر (١/ ٢٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١١)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٢٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٧٠).

وذهب الحنابلةُ إلى جوازِ صلاةِ الجُمُعةِ قبْلَ الزَّوالِ، واختاره الشَّوكانيُّ، وابنُ باز. يُنظر: ((الإنصاف)) للمرداوي (٢/ ٢٦٣)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٣/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٢/ ٣٩١، ٣٩٢).

قال الزَّرْكَشيُّ: (قال أحمدُ: رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ، وجابرٍ، وسعدٍ، ومُعاويةَ: أنَّهم صلَّوْا قبْلَ الزَّوالِ، وإذا صلَّى هؤلاء مع مَن يَحضُرُهم مِن الصَّحابةِ ولم يُنكَرْ، فهو إجماعٌ). ((شرح الزركشي على مختصر الخرقي)) (٢/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣). =

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه مَشروعيَّةُ صَلاةِ الجُمُعة[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّه يَجِبُ إتيانُ مَن هو في مكانٍ يَسمَعُ فيه النِّداءَ[٢].

= وممَّن نقَل الإجماعَ على مشروعيَّةِ الأذانِ عَقِيبَ صعودِ الإمامِ على المِنبَرِ: ابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

قال ابن جُزَي: (حضورُ الجُمعةِ واجبٌ؛ لِحَملِ الأمرِ الَّذي في الآيةِ على الوُجوب باتِّفاقٍ، إلَّا أنَّها لا تجبُ على المرأةِ ولا على الصَّبيِّ ولا على المريضِ باتِّفاقٍ، ولا على العبدِ والمسافرِ عندَ مالكٍ والجمهورِ، خِلافًا للظَّاهريَّة). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٤).

وممَّن نقَل الإجماعَ على عدَمِ وُجوبِ الجُمعةِ على المرأةِ: ابنُ المُنذِرِ، والخَطَّابي، وابن قُدامة. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ٤٠)، ((معالم السنن)) للخطابي (١/ ٢٤٣)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٥٠).

وممَّن نقَل الإجماعَ على عدمِ وُجوبِ الجُمعةِ على الصَّبيِّ: ابنُ المنذِر، وابنُ بَطَّال. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ٤٠)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/ ٤٧٨).

لكن قال ابنُ قُدامةَ: (أمَّا البُلوغُ فهو شرطٌ أيضًا لوُجوبِ الجُمعةِ وانعِقادِها، في الصَّحيحِ مِن المذهَبِ، وقولِ أكثَرِ أهلِ العِلمِ؛ لأنَّه مِن شرائطِ التَّكليفِ...، وذكَرَ بعضُ أصحابِنا في الصَّبيِّ المُميِّزِ روايةً أخرى: أنَّها واجبةٌ عليه؛ بِناءً على تكليفِه، ولا مُعوَّلَ عليه). ((المغني)) (٢/ ٢٤٣).

وأمَّا المريضُ فقال ابنُ قُدامةَ: (ويُعذَرُ في ترَكِهما [أي: الجُمعةِ والجَماعةِ] المريضُ في قولِ عامَّةِ أهلِ العِلمِ). ((المغني)) (١/ ٤٥١).

وقال ابنُ المنذر: (لا أعلَمُ اختلافًا بيْن أهلِ العِلمِ على أنَّ للمريضِ أن يَتخلَّفَ عن الجَماعاتِ مِن أجْلِ المرَضِ). ((الإشراف على مذاهب العلماء)) (٢/ ١٢٦).

ولا تجبُ الجُمعةُ على المسافرِ باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٢٢١)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ١٦٦)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٤٨٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣). =

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا يُحتاجُ إلى إذْنِ السُّلطانِ؛ لأنَّه تعالى أوجَبَ السَّعيَ، ولم يَشتَرِطْ إذْنَ أحَدٍ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على اشتِراطِ تَقَدُّمِ الخُطبتَينِ على الصَّلاةِ؛ فقد أَمَرَ سُبحانَه بالسَّعيِ إلى ذِكْرِ اللهِ مِن حينِ النِّداءِ، وبالتَّواتُرِ القَطْعيِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا أَذَّنَ المؤذِّنُ يومَ الجُمُعةِ خَطَبَ؛ إذَنْ فالسَّعيُ إلى الخُطبةِ واجِبٌ، وما كان السَّعيُ إليه واجِبًا فهو واجِبٌ؛ لأنَّ السَّعيَ وسيلةٌ إلى إدراكِه وتحصيلِه، فإذا وجبتِ الوَسيلةُ وَجَبتِ الغايةُ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ

= ووُجوبُ الجُمُعةِ على مَن يَسمَعُ النِّداءَ ولو كان خارجَ البَلدِ هو مذهبُ الجمهورِ؛ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ، لكنْ حدَّه المالكيَّةُ والحنابلةُ بمسافةِ فَرسَخٍ [ثلاثةِ أميالٍ، قرابة خمسة كيلو متر]. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البَرِّ (١/ ٢٤٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٤٨٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).
وصِحَّةُ الجُمعةِ بغيرِ إذْنِ السُّلطانِ وحُضورِه، سواءٌ أكان السُّلطانُ في البَلدِ أم لا، هو مذهبُ الجمهورِ؛ مِن المالِكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحَنابِلَةِ. يُنظر: ((الكافي)) لابن عبد البر (١/ ٢٤٩)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٩)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٥/ ٥١).
واشتراطُ تَقَدُّمِ الخُطبتَينِ على الصَّلاةِ متَّفَقٌ عليه بيْن المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي مع ((حاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢١٩)، ((الشرح الكبير)) للدَّرْدِير، مع ((حاشية الدسوقي)) (١/ ٣٧٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٢٧٣).
قال الشربينيُّ: (كَوْنُهما قبْلَ الصَّلاةِ بالإجماعِ، إلَّا مَن شَذَّ). ((مغني المحتاج)) (١/ ٢٨٥).

﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه أنَّ الخُطبَتَينِ يومَ الجُمُعةِ فَريضتانِ يَجِبُ حُضورُهما؛ لأنَّه فُسِّرَ (الذِّكرُ) هنا بالخُطبتَينِ -مع الصَّلاةِ-، فأمَرَ اللهُ بالمُضِيِّ إليه، والسَّعْيِ له[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ خُطْبَةَ الجُمُعةِ هي مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى[(٢)].

١١- أنَّه يَكفي في عَدَدِ الجُمُعةِ ثلاثةٌ؛ فلو فُرِضَ أنَّ قريةً ليس فيها سِوى ثلاثةِ نَفَرٍ فإنَّها تُقامُ الجُمُعةُ؛ لأنَّه يَحصُلُ بهم الجَمعُ: إمامٌ يَخطبُ، ومؤذِّنٌ يَدعو، ومأمومٌ يُجيبُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، المنادي: المؤذِّنُ، ولا بُدَّ مِن خَطيبٍ، ولا بُدَّ مَن مَدْعُوٍّ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).
وكون الخُطبة شرطًا في الجُمُعةِ لا تصحُّ بدونِها فذلك باتِّفاق المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنَفيَّةِ، والمالِكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٢١٩)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ١٥٧)، ((المجموع)) للنَّووي (٤/ ٥١٤)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٣١).
وأمَّا اشتراطُ كَونِهما خُطبتَينِ فهو مذهبُ الجمهورِ من المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٣٧٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٣)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٦/ ١٣).
وهذا القولُ هو روايةٌ عن أحمدَ، وبه قال أبو يُوسُفَ وطائفةٌ مِن السَّلَفِ، واختارَه ابنُ تيميَّةَ وابنُ باز. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٤٣)، ((المبسوط)) للسرخسي (٢/ ٤٣)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٤)، ((الاختيارات الفقهية)) لابن تيمية (ص: ٤٣٩)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣٠/ ٣٣٢).
ومذهبُ أبي حنيفةَ ومحمَّدٍ أنَّ أقلَّ الجماعةِ فيها ثلاثةٌ سِوى الإمامِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢٢٠). =

١٢- إنْ قيل: كيف يُفسَّرُ ذِكرُ اللهِ بالخُطْبةِ -مع الصَّلاةِ-، وفي الخُطبةِ ذِكرُ غيرِ اللهِ؟

فالجوابُ: أنَّ ما كان مِن ذِكرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّناءِ عليه وعلى خُلَفائِه الرَّاشِدينَ وأتْقياءِ المؤمنينَ، والموعِظةِ والتَّذكيرِ: فهو في حُكْمِ ذِكرِ اللهِ[1].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ فيه النَّهيُ عن البيعِ والشِّراءِ بعدَ نداءِ الجُمُعةِ، وتحريمُ ذلك؛ وما ذاك إلَّا لأنَّه يفوِّتُ الواجِبَ، ويَشغَلُ عنه، فدَلَّ ذلك على أنَّ كُلَّ أمرٍ ولو كان مُباحًا في الأصلِ، إذا كان يَنشَأُ عنه تفويتُ واجِبٍ؛ فإنَّه لا يجوزُ في تلك الحالِ[2]، وكذلك جميعُ العُقودِ، لا يُستَثنَى مِن ذلك النِّكاحُ ولا القَرْضُ ولا الرَّهنُ، ولا غيرُها، نعم، رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّ عقودَ التَّبرُّعاتِ -كالهِبَةِ- لا تَضُرُّ؛ لأنَّها لا تُلْهي ولا تُشْغِلُ، فمَثَلًا لو أنَّ رجُلَينِ أقبَلَا على المسجِدِ، وفي حال إقبالِهما أُذِّنَ لصَلاةِ الجُمُعةِ، فوَهَبَ أحدُهما الآخَرَ شيئًا، فهنا قد يُقالُ: إنَّه يَصِحُّ؛ لأنَّه لَمْ يَحصُلْ بذلك إشغالٌ ولا إلْهاءٌ، لكنَّ شيئًا يحتاجُ إلى معالجةٍ، ونقولُ: إنَّه يصحُّ مع أنَّ اللهَ نهى عن البَيعِ! هذا فيه نظرٌ[3].

= ومذهبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ أنَّه يُشترَطُ أن يكونَ العددُ أربعينَ. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (١/ ٢٨٢)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ٣١٣).

ومذهَبُ المالكيَّةِ أنَّه يشترطُ حُضورُ اثنَيْ عشَرَ رجُلًا. يُنظر: ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (١/ ٤٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٨/ ١٩٢).

قال ابنُ كثير: (اتَّفَق العُلَماءُ رَضِيَ اللهُ عنهم على تحريمِ البَيعِ بعدَ النِّداءِ الثَّاني. واختلَفوا: هل =

١٤- إنَّ المعاملاتِ الَّتي يُكتسَبُ بها المالُ لا يُنهى عنها مُطلقًا لِكَونِها تَصُدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ، بل يُنهى منها عمَّا يَصُدُّ عن الواجِبِ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، فما كانَ مُلْهيًا وشاغِلًا عمَّا أمَرَ اللَّهُ تعالَى به مِن ذِكْرِه والصَّلاةِ له فهو مَنْهِيٌّ عنه، وإنْ لم يَكُنْ جِنسُه مُحَرَّمًا كالبيعِ والعملِ في التِّجارةِ وغيرِ ذلك[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنَّ التَّفضيلَ لا يدُلُّ على أنَّ المفضولَ جائزٌ؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه السَّعيَ إلى الجُمُعةِ خيرًا مِن البَيعِ. والسَّعيُ واجِبٌ، والبَيعُ حَرامٌ[2].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفَرقُ بيْنَ ذِكرِ اللهِ أوَّلًا، وذِكرِ اللهِ ثانيًا؟

= يَصِحُّ إذا تعاطاه مُتعاطٍ أم لا؟ على قولَينِ، وظاهِرُ الآيةِ عدَمُ الصِّحَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢).

ممَّن نقَل الإجماعَ على تحريمِ البَيعِ بعدَ النِّداءِ: إسحاقُ بنُ راهَوَيْه، وابنُ حزم، وابنُ العربي، وابنُ رُشْد. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٩٤)، ((المحلى)) لابن حزم (٧/ ٥١٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٤٩)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٣/ ١٨٦).

وأمَّا انعقادُ البيعِ فذهَبَ الحَنفيَّةُ، والشَّافعيَّةُ، -وهو قولٌ للمالكيَّةِ- إلى أنَّ البيعَ يَنعقِدُ مع كَونِه يَحرُمُ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٥/ ٤٩)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠١)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٦٩).

وذهَبَ المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه يَحرُمُ، ولا يَنعقِدُ البيعُ. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٥٣)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٤).

الجوابُ: الأوَّلُ مِن جُملةِ ما لا يَجتَمِعُ مع التِّجارةِ أصلًا؛ إذ المرادُ منه الخُطبةُ والصَّلاةُ. والثَّاني: ما يجتَمِعُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] [النور: ٣٧].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الخَيريَّةَ تكونُ في الواجبِ وتكونُ في المستحَبِّ[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا خُطبةَ بعدَ صلاةِ الجُمُعةَ، فليس هناك خُطبةٌ ولا كلامٌ ولا مَوعِظةٌ، فإنَّه تَكفي المواعِظُ الَّتي في الخُطبةِ الَّتي قبْلَ الصَّلاةِ، والَّتي كانت مَشروعةً في هَدْيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أباح الانتِشارَ عَقِبَ الصَّلاةِ، فيُستفادُ منه تقديمُ الخُطبةِ عليها[4].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الفرقَ بينَ لَفْظِي «القَضاءِ» أوِ «الأداءِ» فَرقٌ اصطلاحيٌّ[5] لا أصلَ له في كلامِ اللهِ ورَسولِه؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٥) قال ابن تيميَّةَ: (لفظُ «القضاءِ» فإنَّه في كلام الله وكلام الرَّسولِ المرادُ به إتمامُ العبادةِ وإن كان ذلك في وقتِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ثمَّ اصطَلَح طائفةٌ مِن الفُقهاءِ فجعَلوا لفظَ القضاءِ مُختَصًّا بفِعلِها في غيرِ وقتِها، ولَفْظَ الأداءِ مُختصًّا بما يُفعلُ في الوقتِ، وهذا التَّفريقُ لا يُعرَفُ قَطُّ في كلامِ الرَّسولِ، ثمَّ يَقولون: قد يُستعمَلُ لفظُ القضاءِ في الأداءِ، فيَجعلون اللُّغةَ الَّتي نزَل القرآنُ بها مِن النَّادِرِ!). ((مجموعة الرسائل والمسائل)) (٣/ ٨٢). =

اللهَ تعالى سمَّى فِعْلَ العبادةِ في وَقتِها قَضاءً، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، مع أنَّ هذَينِ يُفعَلانِ في الوَقتِ، فـ «القَضاءُ» في لغةِ العربِ: هو إكمالُ الشَّيءِ وإتمامُه، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: أكمَلَهنَّ وأتَمَّهنَّ، فمَن فَعَلَ العبادةَ كاملةً فقد قضاها وإنْ فعَلَها في وَقْتِها[1].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أنَّه إذا قُضيتِ الصَّلاةُ فلا جلوسَ بعدَها مُلْزِمٌ؛ فاخرُجْ، وابتَغِ الرِّزقَ، وابتَغِ مِن فَضْلِ اللهِ[2].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ سؤالٌ: أنَّه في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣] أَمَر بذِكْرِ اللهِ بعدَ انتِهاءِ الصَّلاةِ مُباشَرةً، وهنا جعَلَها بعدَ الانتِشارِ وابتِغاءِ الفَضلِ.

الجوابُ: هو أنَّ لكلِّ مَقامٍ مقالًا؛ ففي سورةِ «الجُمُعةِ» مَنَعَهم اللهُ من البَيعِ بعدَ نداءِ الجُمُعةِ حتَّى يُصَلُّوا، فكأنَّ النَّاسَ محبوسون عن البَيعِ والشِّراءِ مُدَّةَ الصَّلاةِ، فكان مِن أهمِّ ما يكونُ عندَهم أنْ يُطْلَقَ حَبْسُهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾، والأمرُ في قَولِه: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ليس للوُجوبِ ولا للاستِحبابِ، ولكنَّه للإباحةِ، وأمَّا الَّذي في سورةِ «النِّساءِ» فليس

= يُنظر: ((قواعد الأصول ومعاقد الفصول)) للقَطِيعي (ص: ٦١)، ((تحفة المسؤول)) للرُّهُوني (٢/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

هناك أمرٌ بالحُضورِ إلى الصَّلاةِ، وتَرْكِ البَيعِ والشِّراءِ؛ فلهذا بَدَأ بالذِّكْرِ(١).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أنَّه لا يُشتَرَطُ في الذِّكْرِ خَلْفَ الصَّلَواتِ أنْ يكونَ في المكانِ، لكِنْ أهمُّ شيءٍ أنْ يكونَ القَلبُ حاضِرًا عندَ الذِّكْرِ(٢).

٢٤- قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وهذا وإن كان في الجُمُعةِ فمَعناه قائِمٌ في جميعِ الصَّلَواتِ؛ ولهذا -واللهُ أعلَمُ- أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي يَدخُلُ المسجِدَ أن يقولَ: ((اللهُمَّ افتَحْ لي أبوابَ رَحمتِك))، وإذا خرَجَ أن يقولَ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك مِن فَضْلِك))(٣).

٢٥- قَولُه تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنَّما هو إذْنٌ وإباحةٌ؛ حيثُ كان بعدَ النَّهيِ عن البَيعِ، فهو إطلاقٌ مِن محظورٍ؛ فيفيدُ الإباحةَ خاصَّةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٢).

والحديث أخرجه مسلم (٧١٣).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ٣٣٧).

قال الشنقيطي: (الَّذي يَظهَرُ لي في هذه المسألةِ هو ما يَشهَدُ له القرآنُ العظيمُ، وهو أنَّ الأمرَ بعدَ الحَظرِ يدُلُّ على رُجوعِ الفِعلِ إلى ما كان عليه قبْلَ الحَظرِ؛ فإن كان قبْلَه جائزًا رجَع إلى الجَوازِ، وإن كان قبْلَه واجبًا رجَع إلى الوُجوبِ). ((مذكرة في أصول الفقه)) (ص: ٢٣١).

وقال ابن كثير: (والَّذي يَنهضُ عليه الدَّليلُ أنَّه يُرَدُّ الحُكمُ إلى ما كان عليه الأمرُ قبْلَ النَّهيِ؛ فإن كان واجبًا فواجبٌ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، أو مُباحًا فمُباحٌ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وعلى هذا القولِ تجتمِعُ الأدِلَّةُ، وقد حكاه الغزاليُّ وغيرُه، واختاره بعضُ أئمَّةِ =

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إجازةُ الحرَكاتِ في التِّجارةِ ولو كانت بعيدةً، خِلافًا لِمَن يَتَنَطَّعُ ولا يَحضُرُ السُّوقَ(١)!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا قَدَّمَ الصَّلاةَ على البَيعِ والشِّراءِ، ثُمَّ اشترى وباع بعدَ ذلك؛ فإنَّه يُرْزَقُ(٢)، ويُبارِكُ الله له في بَيعِه، ويُوَسِّعُ له، والعَكسُ بالعَكسِ(٣).

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ حُضورِ الخُطبةِ في صلاةِ الجُمُعةِ؛ إذْ لم يقلْ: وتَركوا الصَّلاةَ(٤). ففيه الأمرُ بحُضورِ الخُطبتَينِ يومَ الجُمُعةِ، وذَمُّ مَن لم يحضُرْهما، ومِن لازِمِ ذلك: الإنصاتُ لهما(٥)؛ لأنَّ الحضورَ إنَّما هو للاستِماعِ(٦).

٢٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ يدُلُّ على مَشروعيَّةِ القيامِ في الخُطبتَينِ(٧)، وأنَّ الإمامَ يَخطُبُ يومَ الجُمُعةِ قائِمًا(٨).

= المتأخِّرينَ، وهو الصَّحيحُ. ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٦) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٢٨).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٩١).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٠١).

اختُلِف في حُكمِ خُطبةِ الإمامِ قائمًا؛ على أقوالٍ:

منها: أنَّ قِيامَ الخطيبِ حالَ الخُطبةِ شَرطٌ مع القُدرةِ عليه، وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ، وقولُ الأكثَرِ مِن المالكيَّةِ، وهو روايةٌ عن الإمامِ أحمدَ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٤، ٥١٥)، =

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ فيه مَشروعيَّةُ الخُطبةِ[١].

٣١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ فيه اشتِراطُ الجَماعةِ في صلاةِ الجُمعةِ[٢].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ أنَّ التِّجارةَ وإنْ كانت ممدوحةً باعتبارِ كَونِها مِن المكاسِبِ الحلالِ، فإنها قد تُذَمُّ إذا قُدِّمَتْ على ما يَجِبُ تقديمُه عليها[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ توبيخٌ لِمَن تَرَكَ الجُمُعةَ أو اشتغَلَ عنها بالتِّجارةِ أو باللَّهْوِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ

= ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٣١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ١٤٨).

ومنها: أنَّه يُسنُّ أن يَخطُبَ قائمًا، وهو مذهبُ الحَنَفيَّةِ، والحَنابِلَةِ، وقولٌ للمالِكيَّةِ. يُنظر: ((البناية)) للعَيْني (٣/ ٥٦)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ١٤٨)، ((شرح مختصر خليل)) للخرَشي (٢/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحد؛ منهم: ابنُ رُشْدٍ، والكاسانيُّ، والنوويُّ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ١٥٨)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (١/ ٢٦٦)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٨). ويُنظر الخلافُ في العددِ المجزئ (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٤٥٣).

إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

- قيل: هذه الآياتُ هي المقصودُ مِنَ السُّورةِ، وما قبْلَها مُقدِّماتٌ وتَوطِئاتٌ لها، ووَجْهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بالآياتِ الأربعِ الَّتي قبْلَها، فكُنَّ لهذه الآيةِ تمهيدًا وتوطِئةً: أنَّ اليهودَ افتخَروا على المُسلِمينَ بالسَّبتِ، فشرَعَ اللهُ للمُسلِمينَ الجُمُعةَ(١).

- والتَّعريفُ في الصَّلاةِ تَعريفُ العهدِ، وهي الصَّلاةُ المعروفةُ الخاصَّةُ بيومِ الجُمُعةِ(٢).

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ تبعيضيَّةٌ؛ فإنَّ يومَ الجُمُعةِ زمانٌ تقَعُ فيه أعمالٌ؛ مِنْها الصَّلاةُ المعهودةُ فيه، فنُزِّلَ ما يقَعُ في الزَّمانِ بمنزلةِ أجزاءِ الشَّيءِ، ويجوزُ كَونُ (مِنْ) للظَّرفيَّةِ(٣).

- وإيثارُ ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هُنا دونَ أنْ يقولَ: (إلى الصَّلاةِ)، كما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾؛ لِتَتأتَّى إرادةُ الأمْرَينِ: الخُطبةِ، والصَّلاةِ(٤).

- والمرادُ الأمرُ بتَرْكِ ما يُذهِلُ عن ذِكرِ اللهِ مِن شَواغلِ الدُّنيا، وكلِّ ما يَشْغَلُ عن السَّعيِ إلى الجُمُعةِ، وإنَّما خصَّ البيعَ مِن بَيْنِها؛ لأنَّ يومَ الجُمُعةِ يومٌ يَهبِطُ النَّاسُ فيه مِن قُراهُم وبَواديهِم، ويَنصبُّونَ إلى المِصْرِ مِن كلِّ أَوْبٍ، ووقتُ هبوطِهم واجتماعِهم واغتِصاصِ الأسواقِ بهم إذا انتفَخَ النَّهارُ، وتعالى الضُّحى، ودَنا وقتُ الظَّهيرةِ، وحينَئذٍ تَشتَدُّ التِّجارةُ، ويتكاثَرُ البيعُ والشِّراءُ، فلمَّا كان ذلك الوقتُ مَظِنَّةَ الذُّهولِ بالبَيعِ عن ذِكْرِ اللهِ، والمُضيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٥، ٢٢٦).

إلى المسجِدِ، قيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخِرةِ، واترُكوا تجارةَ الدُّنيا، واسعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ الَّذي لا شيءَ أنفَعُ منه وأربَحُ، ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ الَّذي نفعُه يَسيرٌ، ورِبحُه مُقارِبٌ[1].

وقيل: خُصَّ البَيعُ مِن جَميعِ الأفعالِ؛ لأنَّه مِن أهَمِّ ما يَشتَغِلُ به المرءُ في النَّهارِ مِن أسبابِ المَعاشِ[2]، ولأنَّه أكثَرُ ما يَقَعُ حينَئذٍ ممَّا يُلهي عن السَّعيِ، فيُشارِكُه في المعنى كلُّ شاغِلٍ[3]، ولأنَّ سَبَبَ نُزولِ الآيةِ كان لتَرْكِ فريقٍ منهم الجُمعةَ إقبالًا على عِيرِ تِجارةٍ[4]، ولأنَّ البيعَ والشِّراءَ في الأسواقِ غالبًا، والغفلةُ على أهلِ السُّوقِ أغلَبُ[5].

- ولم يَذكُرِ الشِّراءَ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ البيعَ فقد دلَّ على الشِّراءِ[6].

- والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى المذكورِ، أي: ما ذُكِرَ مِن أمرٍ بالسَّعيِ إليها، وأمرٍ بتَرْكِ البيعِ حينَئذٍ، أي: ذلك خَيرٌ لكم ممَّا يَحصُلُ لكم مِنَ البُيوعاتِ؛ فلَفظُ ﴿خَيۡرٌ﴾ اسمُ تفضيلٍ أصلُه: أخيَرُ، حُذِفَتْ همزتُه لكثرةِ الاستِعمالِ، والمُفضَّلُ عليه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، والمُفضَّلُ: الصَّلاةُ، أي: ثوابُها، والمُفضَّلُ عليه: منافِعُ البَيعِ للبائعِ والمُشتري[7].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ جوابُ ﴿إِن﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧).

إنْ كُنتُم تَعلَمونَ الخَيرَ والشَّرَّ الحقيقيَّيْنِ، أو إنْ كنتُم مِن أهلِ العِلمِ(١).

- وفي هذه السُّورةِ مَعانٍ لَطيفةٌ؛ حيثُ أبطَلَ اللهُ قولَ اليهودِ في ثلاثِ آياتٍ مِن هذه السُّورةِ: افتخَروا بأنَّهم أولياءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه، فكذَّبَهم في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، وبأنَّهم أهلُ الكتابِ والعربُ لا كتابَ لهم، فشبَّهَهُمْ بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا، وبالسَّبْتِ وأنَّه ليس للمُسلمينَ مِثلُه، فشرَعَ اللهُ لهم الجُمُعةَ؛ فعلى هذا يكونُ في قولِه: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ تَعريضٌ باليهودِ، وأنَّهم ما وُفِّقوا لِمَا سُعِدَ به المؤمنونَ، ومِنْ ثَمَّ جُعِلَتِ الصِّلةُ -الَّتي هي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾- عِلَّةً للسَّعيِ إلى ذِكْرِ اللهِ، كما جُعِلَتِ الصِّلةُ في قولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ لأهلِ الكتابِ مُقرِّرًا للتَّمثيلِ في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، وكذا الصِّلةُ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عُدِلَ فيها مِن لفظِ (اليهودِ) إلى المَوصولِ والصِّلةِ؛ لِيَكونَ ذَريعةً إلى التَّعرُّضِ بدعواهم الكاذبةِ؛ حيثُ سَمَّوْا أنفُسَهم يَهودًا، وهُوَ مِن هادَ، أي: رجَعَ إلى اللهِ تعالَى وتابَ، وإلى تَقريرِ معنى قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾، كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذينَ ادَّعَوْا أنَّهم رجَعوا إلى اللهِ وتابوا إليه، إنْ زعَمْتُم أنَّكم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ التَّائبَ إلى اللهِ وليُّ اللهِ، فتمَنَّوْا لقاءَ اللهِ؛ فإنَّ الحبيبَ لا يَكرَهُ لقاءَ حبيبِه، ففي كلٍّ مِنَ الأحاديثِ الثَّلاثةِ تعريضٌ في غايةِ اللُّطفِ والدِّقَّة(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥).

وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

- أُعْقِبَ قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ بقولِه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ لهم سَعةً مِنَ النَّهارِ يَجعَلونَها للبَيعِ ونَحْوِه مِنِ ابْتِغاءِ أسبابِ المَعاشِ، فلا يأخُذوا ذلك مِن وقتِ الصَّلاةِ، وذِكْرِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ احتِراسٌ مِنَ الانصبابِ في أشغالِ الدُّنيا انصبابًا يُنسي ذِكْرَ اللهِ، أو يَشغَلُ عن الصَّلَواتِ؛ فإنَّ الفَلاحَ في الإقبالِ على مَرضاةِ اللهِ تعالَى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- عطفٌ على جُملةِ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] الآيةَ، عُطِف التَّوبيخُ على تَرْكِ المأمورِ به بعْدَ ذِكْرِ الأمرِ، وسُلِكَتْ في المعطوفةِ طَريقةُ الالتِفاتِ لخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيذانًا بأنَّهم أحرياءُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ عنهم، فحُرِموا مِن عِزِّ الحُضورِ، وأُخْبِرَ عنهم بحالِ الغائبينَ، وفيه تَعريضٌ بالتَّوبيخِ[٣].

- قيل: لعلَّ التَّقسيمَ الَّذي أفادَتْه (أو) في قولِه: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾ تقسيمٌ لأحوالِ المُنفضِّينَ، أي: مِنهم مَن انفَضَّ مِن أجْلِ التِّجارةِ، ومنهم مَن انفضَّ مِن أجْلِ اللَّهوِ[٤]. وقيل: التَّرديدُ بـ (أو)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الانفضاضَ إلى التِّجارةِ مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٩).

الحاجةِ إليها والانتِفاعِ بها إذا كان مذمومًا، كان الانفضاضُ إلى اللَّهوِ أَوْلَى بذلك(١).

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ قال: ﴿إِلَيۡهَا﴾ وقد ذكَرَ شيئَيْنِ: ﴿تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾؛ لأنَّ فيه حَذفًا تقديرُه: وإذا رَأَوْا تجارةً انفضُّوا إليها، أو لَهوًا انفضُّوا إليه؛ فحذَفَ الثَّانيَ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه(٢). أو قال: ﴿إِلَيۡهَا﴾ ولم يقُلْ: (إلَيهما) تَهمُّمًا بالأهَمِّ؛ إذ كانت سَببَ اللَّهوِ، ولم يكُنِ اللَّهوُ سَببَها؛ فالضَّميرُ لِلتِّجارةِ، وخُصَّتْ بردِّ الضَّميرِ إليها لأنَّها كانت أهَمَّ إليهم؛ فتأنيثُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿إِلَيۡهَا﴾ تغليبٌ لِلَفْظِ ﴿تِجَٰرَةً﴾؛ لأنَّ التِّجارةَ كانت الدَّاعيَ الأقوى لانفِضاضِهم، أو لأنَّ التِّجارةَ أجذَبُ لقُلوبِ العِبادِ عن طاعةِ الله تعالى مِن اللَّهوِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) لزين الدين الرازي (ص: ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٨، ٢٢٩).

قال الشنقيطي: (اللُّغة العَربيَّة يجوزُ فيها رُجوعُ الضَّميرِ لأحدِ المذكورَين قَبْلَه. أمَّا في العَطفِ بـ «أو» فواضِحٌ؛ لأنَّ الضَّميرَ في الحقيقةِ راجِعٌ إلى الحَدِّ الدَّائرِ الَّذي هو واحِدٌ لا بعَينِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ١١٢]، وأمَّا الواوُ فهو فيها كثيرٌ، ومِن أمثلتِه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا﴾ الآيةَ [البقرة: ٤٥]، وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤]، وقَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]. ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٣٨).

- وكان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (وإذا رأَيْتُم تِجارةً أو لَهْوًا فلا تَنفَضُّوا إليها)، ومِن مُقتَضياتِ تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ هُنا: أنْ يكونَ هذا التَّوبيخُ غَيرَ شاملٍ لجميعِ المؤمنينَ؛ فإنَّ نفَرًا منهم بَقُوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ خُطبتِه، ولم يَخرُجوا للتِّجارةِ ولا لِلَّهوِ(١).

- جُملةُ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ تفظيعٌ لِفعلِهم؛ إذْ فرَّطوا في سماعِ وعْظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

- قولُه: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ أرشَدَهم بعْدَ التَّوبيخِ والتَّعييرِ إلى تحرِّي الأصوبِ، وتوخِّي المنهجِ الأقْوَمِ على سبيلِ العُمومِ، قائلًا: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾، وقدَّمَ ما كان مؤخَّرًا وكرَّرَ الجارَّةَ لإرادةِ الإطلاقِ في كلِّ واحدٍ واستقلالِه فيما قُصِدَ منه التَّخالُفُ السَّابقُ في اتِّحادِ المعنى؛ لأنَّ ذلك في قِصَّةٍ مَخصوصةٍ(٣).

- إن قيل: لِمَ قدَّم اللَّهوَ هنا على التِّجارةِ، وقدَّم التِّجارةَ قبْلَ هذا على اللَّهوِ؟

فالجوابُ: أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الموضعَينِ جاء على ما يَنبغي فيه؛ وذلك أنَّ العربَ تارةً يَبتَدِئون بالأكثَرِ ثمَّ يَنزِلون إلى الأقَلِّ، كقَولِك: فُلانٌ يَخونُ في الكثيرِ والقليلِ، فبدَأْتَ بالكثيرِ ثمَّ أردَفْتَ عليه الخيانةَ فيما دُونَه، وتارةً يَبتَدِئون بالأقَلِّ ثمَّ يرتَقونَ إلى الأكثَرِ، كقَولِك: فُلانٌ أمينٌ على القليلِ والكثيرِ، فبدأْتَ بالقليلِ ثمَّ أردَفْتَ عليه الأمانةَ فيما هو أكثَرُ منه، ولو عكَسْتَ في كلِّ واحدٍ مِن المِثالَينِ لم يكُنْ حسَنًا؛ فإنَّك لو قدَّمْتَ في الخيانةِ القليلَ لَعُلِمَ أنَّه يَخونُ في الكثيرِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢١).

بابِ أَوْلى وأَحْرَى، ولو قدَّمْتَ في الأمانةِ ذِكرَ الكثيرِ لَعُلِم أنَّه أمينٌ في القليلِ مِن بابِ أَولى وأحرى، فلم يكُنْ لِذِكْرِه بعدَ ذلك فائدةٌ، وكذلك قولُه: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾؛ قدَّم التِّجارةَ هنا لِيُبيِّنَ أنَّهم يَنفَضُّون إليها، وأنَّهم مع ذلك يَنفَضُّون إلى اللَّهوِ الَّذي هو دُونَها، وقولُه: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ قدَّمَ اللَّهْوَ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ ما عندَ الله خيرٌ مِن اللَّهوِ، وأنَّه أيضًا خيرٌ مِن التِّجارةِ الَّتي هي أعظَمُ منه، ولو عُكِس كلُّ واحدٍ مِن المَوضِعَينِ لم يَحسُنْ[١].

وقيل: إنَّ سببَ تقديمِ التِّجارةِ على اللَّهوِ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ أنَّها كانت سببَ ذلك الانفِضاضِ، وليس اللَّهوَ، وإنَّما كان اللَّهوُ والضَّربُ بالدُّفوفِ بسَبَبِها؛ فقدَّمها لذلك.

وأمَّا تقديمُ اللَّهْوِ عليها فيما بَعْدُ في قولِه: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فذلك لأنَّ اللَّهوَ أعَمُّ مِن التِّجارةِ، فليس كلُّ النَّاسِ يَشتَغِلونَ في التِّجارةِ، ولكنَّ أكثَرَهم يَلْهُون، فالفقراءُ والأغنياءُ يَلْهون، فكان اللَّهوُ أعَمَّ؛ فقدَّمه لذلك إذ كان حُكمًا عامًّا، فقدَّم التِّجارةَ في الحُكمِ الخاصِّ لأنَّها في حادثةٍ مُعَيَّنةٍ، وقدَّم اللَّهوَ في الحُكمِ العامِّ لأنَّه أعَمُّ، ولأنَّها مُناسِبةٌ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فالتِّجارةُ مِن أسبابِ الرِّزقِ، وليس اللَّهو؛ فوضَعَها بجَنبِه[٢].

وقيل: قُدِّمَت التِّجارةُ على اللَّهوِ في الرُّؤيةِ؛ لأنَّها أهمُّ، وأُخِّرَت مع التَّفضيلِ؛ لتَقَعَ النَّفْسُ أوَّلًا على الأبيَنِ[٣].

- وذُيِّلَ الكلامُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ لأنَّ اللهَ يَرزُقُ الرِّزقَ لِمَن يَرضى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٦).

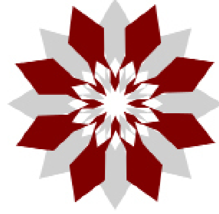
(٢) يُنظر: ((لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)) للسامرائي (ص: ١٧٥).

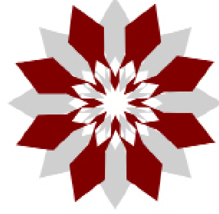
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٦).

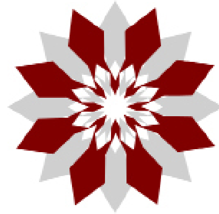
عنه سليمًا مِنَ الأكدارِ والآثامِ، ولأنَّه يَرزُقُ خَيرَ الدُّنيا وخَيرَ الآخِرةِ، وليس غَيرُ اللهِ قادرًا على ذلك، والنَّاسُ في هذا المَقامِ درَجاتٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، وهو العالِمُ بالسَّرائِرِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٠).

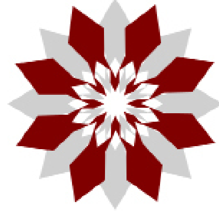


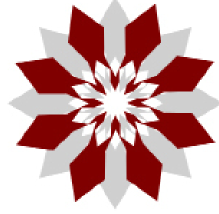


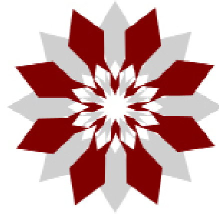


تَفْسِيرُ

سُورَةِ المُنافِقونَ







سُورةُ المُنافِقونَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُنافِقونَ)[١].

فعن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((... فلمَّا أصبَحْنا قرأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ المُنافِقينَ))[٢].

فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

تسنُّ قراءتُها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاةِ الجُمُعةِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ سورةَ الجُمُعةِ، والمُنافِقينَ))[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (المُنافِقونَ) مَدَنيَّةٌ[٤]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٥].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ اعتبارًا بذِكرِ أحوالِ المنافِقينَ وصِفاتِهم فيها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣١).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٣١٣)، والطَّبَرانيُّ (٥/ ١٨٧) (٥٠٤١)، والحاكمُ (٣٨١٢) مطوَّلًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣١٣).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨).

(٥) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٦).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

فَضحُ أحوالِ المُنافِقينَ، والكَشْفُ عن دخائِلِهم، وعن خِسَّةِ نُفوسِهم(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- وَصفُ المنافِقينَ وبَيانُ سَيِّئِ خِصالِهم؛ مِنَ الكَذِبِ، والأيْمانِ الفاجِرةِ، والجُبْنِ.

٢- النَّهيُ عن نِسيانِ ذِكرِ اللهِ تعالى، والغَفلةِ عنه.

٣- حَثُّ المؤمِنينَ على الطَّاعةِ وإنفاقِ المالِ قبْلَ انقِضاءِ الأجَلِ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٩٨).

الآيات (١-٣)

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: المنافِقُ هو مَن يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ الكفرَ، قيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ كُفْرَه، فأشْبَهَ الدَّاخِلَ للنَّفَقِ يَستَتِرُ فيه. وقيل: شُبِّهَ باليَرْبُوعِ الَّذي له جُحْرٌ يُقالُ له: النَّافِقاءُ، وآخَرُ يُقالُ له: القاصِعاءُ، فإذا طُلِب مِن القاصِعاءِ خرَج مِن النَّافِقاءِ، وكذلك المنافِقُ يَخرُجُ مِن الإيمانِ مِن غيرِ الوجهِ الَّذي يَدخُلُ فيه. وقيل: شُبِّه باليَربُوعِ من جِهةِ أنَّ اليَربُوعَ يَخرِقُ الأرضَ حتَّى إذا كاد يَبلُغُ ظاهِرَها أَرَقَّ التُّرابَ، فإذا رابه رَيبٌ دفَع ذلك التُّرابَ برأسِه فخرَج، وأصلُ (نفق) هنا: يدُلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغْماضِه، ويُمكِنُ أن يكونَ الأصلُ هو الخُروجَ[(١)].

﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: أي: حَلِفَهم، واليَمينُ: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أوْ تحالَفوا، ثَمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨١٩)، ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (١/ ٢٩٥)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢).

﴿جُنَّةً﴾: أي: تَقِيَّةً وسُترةً، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[١].

﴿فَطُبِعَ﴾: أي: خُتِمَ ورُبِطَ، أي: فلا يَعي وَعظًا، ولا يُوَفَّقُ لخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[٢].

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يَفهمونَ، والفِقهُ هو مُطلَقُ الفَهمِ، أو: فَهْمُ الأشياءِ الدَّقيقةِ، يُقالُ: فَقِهتُ الكلامَ: إذا فَهِمْتَه حقَّ الفَهمِ، والفِقهُ: التَّوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ، فهو أخصُّ مِن العِلمِ، وأصلُ (فقه): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[٣].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بإخبارِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشأنِ المنافِقينَ قائِلًا: إذا جاءك -يا محمَّدُ- المنافِقونَ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، قالوا كَذِبًا بألسِنَتِهم: نَشهَدُ إنَّك لَرَسولُ اللهِ. واللهُ يَعلَمُ أنَّك رَسولُه حَقًّا، واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهمُ الإيمانَ بك رَسولًا.

اتَّخَذوا حَلِفَهم الكاذِبَ سَترًا ووِقايةً لهم مِن القَتْلِ على كُفْرِهم؛ إنَّهم بِئسَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢) و (٧/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٣١).

ما كانوا يَعمَلونَ. ذلك أنَّهم آمَنوا ثمَّ كَفَروا؛ فختَم اللهُ على قُلوبِهم، فصارت لا تَعِي ولا تَهتَدي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنتُ مع عَمِّي فسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ يقولُ: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفَضُّوا، ولَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ! فذكرتُ ذلك لعَمِّي، فذكَرَ عَمِّي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاني فحدَّثْتُه، فأرسَلَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحَلَفوا ما قالوا، وكذَّبَني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصدَّقَهم، فأصابني غَمٌّ لم يُصِبْني مِثْلُه قَطُّ، فجَلَسْتُ في بيتي، وقال عَمِّي: ما أردْتَ إلى أن كذَّبَك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقَتَك! فأنزل اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وأرسل إليَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقرَأَها، وقال: إنَّ اللهَ قد صدَّقَك!))[1].

وفي روايةٍ: ((فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾))[2].

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٧٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠١).

إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾.

أي: إذا حَضَر عِندَك -يا محمَّدُ- المنافِقونَ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، قالوا على وَجهِ التَّأكيدِ والجَزمِ كَذِبًا بألسِنَتِهم: نَشهَدُ إنَّك لَرَسولُ اللهِ[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الشَّهادةُ الإخبارَ عن عِلمِ اليَقينِ؛ لأنَّها مِنَ الشُّهودِ، وهو كمالُ الحُضورِ، وتَمامُ الاطِّلاعِ، ومُواطَأةُ القُلوبِ للألسِنةِ؛ صَدَّقَ سبحانَه المشهودَ به، وكَذَّبَهم في الإقسامِ بالشَّهادةِ، ومُواطأةِ ألسِنَتِهم لقُلوبِهم؛ فقال تعالى[2]:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: واللهُ الَّذي أرسَلَك -يا محمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك رَسولُه حَقًّا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ قَولُهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ مَحكيًّا بالمعنى؛ لأنَّهم يقولونَ عِباراتٍ كثيرةً تُفيدُ معنى أنَّهم يَشهَدونَ بأنَّه رَسولُ اللهِ، مِثلُ نُطقِهم بكَلِمةِ الشَّهادةِ، ويجوزُ أن يكونوا تواطَؤُوا على هذه الكَلِمةِ كُلَّما أعلَنَ أحَدُهم الإسلامَ، وهذا ألْيَقُ بحكايةِ كَلامِهم بكَلِمةِ ﴿قَالُواْ﴾ دونَ نَحوِ: زَعَموا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

قال ابنُ جُزَي: (قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليس مِن كلامِ المنافِقينَ، وإنَّما هو مِن كلامِ اللهِ تعالى، ولو لم يَذكُرْه لَكان يُوهِمُ أنَّ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرِّسالةِ، فوَسَّطه بيْنَ حكايةِ المنافِقينَ وبيْن تكذيبِهم؛ ليُزيلَ هذا الوَهْمَ، وليُحَقِّقَ الرِّسالةَ). ((تفسير ابن =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما ظُنَّ أنَّ هذا تأكيدٌ لكَلامِ المُنافِقينَ، دَلَّ على أنَّه تَحقيقٌ لِمَضمونِ كَلامِهم دونَ شَهادتِهم، فقال[(١)]:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهمُ الإيمانَ برَسولِ اللهِ؛ فهم يقولونَ ما لا يَعتَقِدونَ صِحَّتَه في قُلوبِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان المعنى أنَّهم لم يَعتَقِدوا ما شَهِدوا به، وكان كأنَّه قيل: فما الحامِلُ لهم على هذا الكلامِ المؤكَّدِ، والكَذِبُ في غايةِ القباحةِ لا سيَّما عندَ العَرَبِ؟ عَلَّلَه بقَولِه مُسَمِّيًا شَهادتَهم أيْمانًا؛ لأنَّ الشَّهادةَ تَجري مَجرى القَسَمِ في إرادةِ

= جزي)) (٢/ ٣٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥).

قال السمعاني: (هو تطييبٌ لقَلبِ النَّبيِّ وتَسليةٌ له، ومعناه: أنَّ عِلْمي أنَّك رَسولُ اللهِ وشَهادتي لك بذلك: خَيرٌ من شَهادتِهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

التَّوكيدِ؛ ولذلك تُتلقَّى بما يُتلَقَّى به القَسَمُ[(١)]، وذلك على قولٍ:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: جَعَل المُنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ سَترًا ووِقايةً لهم؛ فيَستُرونَ به نِفاقَهم، ويتَّقونَ القَتْلَ أو العُقوبةَ على كُفْرِهم، ويَصونونَ أنفُسَهم وذَراريَّهم وأموالَهم، فصَدُّوا بذلك عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠، ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضوا، وهو مِن الصُّدودِ، أو صَرَفوا المؤمِنينَ عن إقامةِ حُكمِ اللهِ عليهم مِن القَتلِ والسَّبْيِ وأخْذِ الأموالِ، فهو مِن الصَّدِّ، أو مَنَعوا النَّاسَ عن الجِهادِ بأن يتخَلَّفوا ويَقتَدِيَ بهم غيرُهم. وقيل: فصَدُّوا اليهودَ والمُشرِكينَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ بأن يَقولوا: ها نحن كافِرون بهم، ولو كان محمَّدٌ حَقًّا لَعَرَف هذا مِنَّا، ولَجعَلَنا نَكالًا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤).

وقال الشنقيطي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ المُجادلةِ الآية (١٦): (قولُه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الظَّاهرُ أنَّه مِن «صَدَّ» المُتعدِّيةِ، وأنَّ المفعولَ محذوفٌ، أي: فصَدُّوا غيرَهم ممَّن أطاعهم؛ لأنَّ صُدودَهم في أنفُسِهم دل عليه قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، والحملُ على التَّأسيسِ أَولى مِن الحملِ على التَّأكيدِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

وقال ابن عثيمين: (مَن صَدَّ غيرَه فهو عن الحقِّ أصَدُّ، لكنْ مَن صَدَّ بنفْسِه فقد لا يَصُدُّ غيرَه. فالأَولى أن نَحملَ ما جاء في القرآنِ مِن ذكرِ الصَّدِّ على الشَّيءِ المُتعدِّي، لا على اللَّازمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اتَّقَوُا النَّاسَ بالأَيْمانِ الكاذِبةِ، والحَلَفاتِ الآثِمةِ؛ لِيُصَدَّقوا فيما يَقولونَ، فاغتَرَّ بهم مَن لا يَعرِفُ جَلِيَّةَ أمرِهم، فاعتَقَد أنَّهم مُسلِمونَ، فرُبَّما اقتدى بهم فيما يَفعَلونَ، وصَدَّقَهم فيما يقولونَ، وهم مِن شأنِهم أنَّهم كانوا في الباطِنِ لا يَأْلُونَ الإسلامَ وأهلَه خَبالًا، فحَصَل بهذا القَدْرِ ضَرَرٌ كَبيرٌ على كثيرٍ مِن النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما كان يَعمَلُه المنافِقونَ مِن اتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً، فصار ذلك دَيدنًا لهم وطَبْعًا وجِبِلَّةً(١)!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٣﴾.

أي: الَّذي سبَّب جُرْأتَهم على اللهِ ورَسولِه باتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً: أنَّهم عَرَفوا الحَقَّ ثمَّ تَرَكوه، واستَبدلوا الضَّلالةَ بالهُدَى فلم يتَّبِعوه؛ فختَم اللهُ على قُلوبِهم، فصارت لا تَعِي ولا تَهتَدي(٢)!

كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّ الكَذِبَ ليس مِن خُلُقِ المؤمِنِ، بل هو مِن آياتِ المُنافِقينَ وعلاماتِهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٧).

قال الشوكاني: (﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بسببِ أنَّهم آمَنوا في الظَّاهِرِ نِفاقًا، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ في الباطِنِ، أو أظهَروا الإيمانَ للمؤمنينَ، وأظهَروا الكفرَ للكافرين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٦٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الَّذي شَهِدوا عليه حَقٌّ؛ لأنَّ رسالةَ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حقٌّ لا شَكَّ فيها، وقد كذَّبهم اللهُ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، مع أنَّ قَولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كأنَّه تَصديقٌ لهم؟

الجوابُ: أنَّ تَكذيبَه تعالى لهم مُنصَبٌّ على إسنادِهم الشَّهادةَ إلى أنفُسِهم في قَولِهم: ﴿نَشْهَدُ﴾، وهم في باطِنِ الأمرِ لا يَشهَدونَ برسالتِه، بل يَعتَقِدونَ عَدَمَها، أو يَشُكُّونَ فيه، كما يدُلُّ للأوَّلِ قَولُه تعالى عنهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، ويدُلُّ للثَّاني قَولُه تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1] [التوبة: ٤٥].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ قولَ: «أَشْهَدُ» يَمينٌ؛ لأنَّ القومَ قالوا: «نَشْهَدُ»، فجَعَله اللهُ يَمينًا بقولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٣/ ٦٠٣).

قال ابن حجر: (ليس صريحًا؛ لاحتمالِ أن يكونَ حلَفوا مع ذلك). ((فتح الباري)) (١١/ ٥٤٤).

والقولُ المذكورُ هو مذهبُ الحنَفيَّة. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للمَرْغيناني (٢/ ٧٣)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٥/ ٧٢).

ومذهبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ أنَّه ليس بيمينٍ، إلَّا إنْ نوى يمينًا فيكونُ يمينًا. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (١/ ٤٤٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٣٢).

وقال الشَّافعيَّةُ: إن لم يقُلْ: (بالله)، فليس يمينًا، ولو نوى اليمينَ. يُنظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (١١/ ١٥). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه ليس كلُّ مَن أظْهَرَ الإسلامَ يكونُ مؤمنًا في الباطنِ؛ فقد عُرِفَ في المُظْهِرينَ للإسلامِ المؤمنُ والمُنافِقُ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه يَشهَدُ على كَذِبِهم، ووجهُه: أنَّ ما يُسِرُّونَه هو في قُلوبِهم، ولا يَعلَمُ ما في القلوبِ إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ؛ فكأنَّ هذا المُضمَرَ في قُلوبِهم بالنِّسبةِ إلى اللهِ أمرٌ مَشهودٌ يُرى بالعَينِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ تجري على الظَّاهِرِ؛ فلَمْ يَجعلِ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقضيَ عليهم في الدُّنيا بخِلافِ ما أظهَروا، وقد جَعَلَ اللهُ حُكْمَه عليهم على سرائِرِهم؛ فأعْلَمَ نبيَّه أنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وجَعَل حُكْمَ نبيِّه عليهم في الدُّنيا على علانيَتِهم بإظهارِ التَّوبةِ وما قامتْ عليه بيِّنةٌ مِن المُسلِمينَ، وبما أَقَرُّوا بقَولِه، وبما جَحَدوا به[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُنافِقينَ كانوا يُرضُونَ المؤمنينَ بالأيْمانِ الكاذِبةِ، ويُنكِرونَ أنَّهم كَفَروا، ويَحلِفونَ أنَّهم لم يَتكلَّموا بكَلِمةِ الكُفْرِ، وذلك دَليلٌ على أنَّ الحاكمَ يَقتُلُهم إذا ثَبَت ذلك

= أمَّا إذا قال: (أشهَدُ باللهِ) فهو يمينٌ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣).

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّه ليس بيَمينٍ إلَّا بنِيَّةٍ. يُنظر: ((نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج)) للرملي (٨/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٣١٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٨٣).

عليهم بالبيِّنَةِ؛ لوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّهم لو كانوا إذا أَظهَروا التَّوبةَ قُبِلَ ذلك منهم، لَمْ يَحتاجوا إلى الحَلِفِ والإنكارِ، ولَكانوا يقولونَ: قُلْنا وقد تُبْنا؛ فعُلِمَ أنَّهم كانوا يَخافُونَ إذا ظَهَرَ ذلك عليهم أنَّهم يُعاقَبونَ مِن غيرِ استِتابةٍ.

الثَّاني: أنَّه قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ واليَمينُ إنَّما تكونُ جُنَّةً إذا لَمْ نأتِ ببَيِّنَةٍ عادلةٍ تُكَذِّبُها، فإذا كَذَّبَتْها بَيِّنةٌ عادِلةٌ انخرقتِ الجُنَّةُ، فجاز قَتْلُهم، ولا يُمكِنُه أنْ يَجتَنَّ بعدَ ذلك إلَّا بجُنَّةٍ مِن جِنسِ الأُولى، وتلك جُنَّةٌ مَخروقةٌ.

الثَّالثُ: أنَّ الآياتِ دليلٌ على أنَّ المُنافِقينَ إنَّما عَصَمَ دماءَهم الكَذِبُ والإنكارُ، ومَعلومٌ أنَّ ذلك إنَّما يَعصِمُ إذا لَمْ تَقُمِ البيِّنَةُ بخِلافِه؛ ولذلك لَمْ يَقتُلْهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ فيه سؤالٌ: المُنافِقونَ لم يَكونوا إلَّا على الكُفرِ الثَّابتِ الدَّائِمِ، فما معنى قَولِه: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؟

الجوابُ في ذلك مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ قولَه: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نَطَقوا بكَلِمةِ الشَّهادةِ، وفَعَلوا كما يَفعَلُ مَن يدخُلُ في الإسلامِ، وقَولَه: ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: ثمَّ ظَهَر كُفرُهم بعدَ ذلك وتبيَّنَ بما اطُّلِع عليه مِن قَولِهم: (إن كان ما يقولُه محمَّدٌ حَقًّا فنحن حميرٌ!)، وقولِهم في غزوةِ تَبُوكَ: (أيَطمَعُ هذا الرَّجُلُ أن تُفتَحَ له قُصورُ كِسرى وقَيصَرَ؟ هَيْهاتَ!)، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٦).

﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٤]، أي: وظَهَر كُفرُهم بعدَ أن أسلَموا، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٦].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ قولَه ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نَطَقوا بالإيمانِ عندَ المؤمِنينَ، ثمَّ نَطَقوا بالكُفرِ عِندَ شياطينِهم؛ استِهزاءً بالإسلامِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

الوَجهُ الثَّالثُ: أن يُرادَ أهلُ الرِّدَّةِ منهم[١]، فالمُنافِقُ قبْلَ أنْ يُنافِقَ يُمكِنُ أنْ يكونَ قد آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكُنْ له إقبالٌ على الحَقِّ، وكان قلْبُه مَريضًا؛ فإنَّه يُعاقَبُ بزيادةِ المَرَضِ[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ فيه سؤالٌ: الطَّبعُ على القُلوبِ لا يكونُ إلَّا مِن اللهِ تعالى، ولَمَّا طَبَع اللهُ على قُلوبِهم فلا يُمكِنُهم أن يَتدبَّروا ويَستَدِلُّوا بالدَّلائِلِ، ولو كان كذلك لَكان هذا حُجَّةً لهم على اللهِ تعالى، فيَقولونَ: إعراضُنا عن الحَقِّ لغَفْلَتِنا، وغَفْلَتُنا بسَبَبِ أنَّه تعالى طَبَع على قُلوبِنا؟

الجوابُ: هذا الطَّبعُ مِن اللهِ تعالى لسُوءِ أفعالِهم، وقَصْدِهم الإعراضَ عن الحَقِّ، فكأنَّه تعالى ترَكَهم في أنفُسِهم الجاهِلةِ، وأهوائِهم الباطِلةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

- الغرَضُ مِن هذه الآيةِ التَّعريضُ بكذِبِ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وبنِفاقِه؛ فصِيغَ الكلامُ بصيغةٍ تعُمُّ المُنافِقينَ لتجنُّبِ التَّصريحِ بالمقصودِ، على طريقةِ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((ما بالُ أقوامٍ يَشترِطونَ شروطًا ليستْ في كتابِ اللهِ؟!))[١] ومُرادُه مَولى بَريرةَ لَمَّا أراد أنْ يَبيعَها لعائشةَ أمِّ المؤمنينَ، واشتَرَطَ أنْ يكونَ الولاءُ له. وابتُدِئَ بتكذيبِ مَن أُرِيدَ تكذيبُه في ادِّعائِه الإيمانَ بصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنْ لم يكُنْ ذلك هو المقصودَ؛ إشعارًا بأنَّ اللهَ أطْلَعَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دخائِلِهم، وهو تَمهيدٌ لِمَا بَعْدَه مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أكَّدَ المُنافِقونَ كلامَهم بحرفَيْ (إنَّ) واللَّامِ؛ للإيذانِ بأنَّ شهادتَهم هذه صادرةٌ عن صميمِ قلوبِهم، وخُلوصِ اعتقادِهم، ووُفورِ رغبتِهم ونشاطِهم[٣].

- و﴿نَشْهَدُ﴾ خبرٌ مؤكَّدٌ؛ لأنَّ الشَّهادةَ الإخبارُ عن أمرٍ مقطوعٍ به؛ إذْ هي مُشتقَّةٌ مِنَ المُشاهَدةِ، أي: المُعايَنةِ، والمُعايَنةُ أقوى طُرقِ العِلمِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بَينَ الجملتَيْنِ المُتعاطِفتَيْنِ،

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٥)، ومسلمٌ (١٥٠٤) مطوَّلًا من حديث عائشةَ رضيَ اللهُ عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

مُقرِّرةٌ لمنطوقِ كلامِهم، وهذا الاعتراضُ لدَفْعِ إيهامِ مَن يسمَعُ جُملةَ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه تكذيبٌ لجُملةِ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فلَوْ قال: (قالوا: نَشهَدُ إنَّكَ لَرسولُ اللهِ، واللهُ يَشهَدُ إنَّهم لكاذِبونَ) لَكان يُوهِمُ أنَّ قولَهم هذا كذِبٌ، فوسَّطَ بَيْنَهما قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ ليُمِيطَ هذا الإيهامَ، فإنَّ المُسلِمينَ كانوا يَومَئذٍ محفوفِينَ بفِئامٍ مِنَ المُنافِقينَ مبثوثِينَ بَيْنَهم، هِجِّيراهم فِتنةُ المُسلِمينَ؛ فكان المَقامُ مُقتضِيًا دفْعَ الإيهامِ، وهذا مِنَ الاحتراسِ[1].

- وفيه تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَشۡهَدُ﴾؛ لتَقَوِّي الحُكمِ[2].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَشۡهَدُ﴾ في الإخبارِ عن تكذيبِ اللهِ تعالَى إيَّاهُم ليُطابِقَ الصِّيغةَ الَّتي عبَّروا بها؛ حتَّى يكونَ إبطالُ خبرِهم مُساوِيًا لإخبارِهم[3].

- وإظهارُ لفظِ (المُنافِقينَ) في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ولم يقُلْ: (... إنَّهم لَكاذِبونَ)-؛ لذَمِّهم، والإشعارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).
والاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعِلَّةِ الحُكمِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تكذيبَ اللهِ تعالَى إيَّاهُم في قولِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يُثيرُ في أنفُسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن أيمانِهم لدَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم مُؤمِنونَ به، وأنَّهم لا يُضمِرونَ بُغْضَه؛ فأخبَرَ اللهُ عنهم بأنَّهُم اتَّخذوا أيمانَهم تَقِيَّةً يَتَّقونَ بها(٢).

- قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ يجوزُ أنْ يُرادَ أنَّ قولَهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يَمينٌ مِن أيمانِهِمُ الكاذِبةِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ تَجْري مَجْرَى الحَلِفِ فيما يُرادُ به مِنَ التَّوكيدِ، يقولُ الرَّجُلُ: أشهَدُ وأشهَدُ باللهِ، وأعزِمُ وأعزِمُ باللهِ في موضِعٍ: أُقسِمُ وأُولِي، فيكونَ قوله: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ مَوضوعًا مَوضِعَ المُضمَرِ، أي: اتَّخَذوا شَهادتَهم تلك سُترةً. ويجوزُ أنْ يكونَ وصفًا للمُنافِقينَ في استِجنانِهم بالأيْمانِ؛ فعلى هذا تكونُ هذه الآيةُ مُستطرِدةً تَعدادًا لقبائِحِهِمْ(٣).

- والجُنَّةُ: ما يُستَترُ به ويُتَّقى، ومنهُ سُمِّيَتِ الدِّرعُ جُنَّةً، والمعنى: جعَلوا أيْمانَهُم كالجُنَّةِ يُتَّقى بها ما يَلْحَقُ مِن أذًى، فلمَّا شُبِّهَتِ الأيمانُ بالجُنَّةِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أُتْبِعَ ذلك بتَشبيهِ الحَلِفِ باتِّخاذِ الجُنَّةِ، أي: اسْتِعمالِها(٤).

- قولُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تفريعٌ لصدِّهِمْ عن سبيلِ اللهِ على الحَلِفِ الكاذِبِ؛ لأنَّ اليمينَ الفاجِرةَ مِن كبائِرِ الإثمِ؛ لِمَا فيها مِنَ الاسْتِخفافِ بجانِبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

اللهِ تعالَى، ولأنَّهم لَمَّا حَلَفوا على الكذبِ ظنُّوا أنَّهم قد أَمِنوا اتِّهامَ المُسلِمينَ إيَّاهُم بالنِّفاقِ، فاستمَرُّوا على الكُفرِ والمكرِ بالمُسلِمينَ، وذلك صدٌّ عن سبيلِ اللهِ، أي: إعراضٌ عن الأعمالِ الَّتي أمَرَ اللهُ بسُلوكِها[١]. وهذا باعتبارِ أنَّ (صد) لازِمةٌ.

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تذييلٌ[٢]؛ لتفظيعِ حالِهم عِندَ السَّامِعِ[٣].

- وفي ﴿سَاءَ﴾ معنى التَّعجُّبِ الَّذي هو تعظيمُ أمْرِهم عِندَ السَّامِعينَ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ جُملةٌ في مَوضعِ العِلَّةِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾[٥].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ مِن معنى البُعْدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإشعارِ ببُعْدِ منزلتِه في الشَّرِّ[٦].

- وحرفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ للتَّرتيبِ الإخباريِّ لا الإيجاديِّ، أي: إنَّ المُنافِقينَ آمَنوا، ثُمَّ كفَروا، أي: آمَنوا بألسنتِهم، وكفَروا بقلوبِهم[٧]، وذلك على قولٍ. أو هي للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ إبطانَ الكفرِ مع إظهارِ الإيمانِ أعظَمُ مِن الكفرِ الصَّريحِ، وأنَّ كُفْرَهم أرسَخُ فيهم مِن إظهارِ إيمانِهم. ويجوزُ أن يُرادَ مع ذلك التَّراخي في الزَّمنِ، وهو المُهلةُ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢).

(٧) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٥).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٧).

- وتفريعُ ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ على قولِه: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، فصار كفرُهم بعْدَ الإيمانِ سببًا في سُوءِ أعمالِهم بمُقْتضى باءِ السَّببيَّةِ، وسببًا في انتفاءِ إدراكِهِمُ الحقائقَ النَّظريَّةَ بمُقْتضى فاءِ التَّفريعِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨).

الآيات (٤-٦)

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: أي: مَنصوبةٌ، مُمالةٌ إلى الجِدارِ، يُقالُ: أسنَدْتُ الشَّيءَ، أي: أمَلْتُه، وأصلُ (سند): يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ(١).

﴿صَيْحَةٍ﴾: الصَّيحةُ: المَرَّةُ مِن الصِّياحِ، وهو: رَفعُ الصَّوتِ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي(٢).

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه(٣).

﴿لَوَّوْا﴾: أي: أمالوا؛ إعراضًا واستِكبارًا، وأصلُ (لوي): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٥)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

﴿عَلَيْهِمْ﴾: شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو المفعولُ الثَّاني لـ﴿يَحْسَبُونَ﴾، أي: واقِعةً وكائِنةً عليهم، والوَقفُ على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَقفٌ تامٌّ. وقَولُه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾: جُملةٌ مُستأنَفةٌ. وقَولُه: ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: ﴿أَنَّى﴾: بمعنى «كيف» فهي اسمُ استِفهامٍ في مَحَلِّ نَصبِ حالٌ، أو بمعنى «مِن أينَ»: فهي اسمُ استفهامٍ في مَحَلِّ نَصبِ ظَرفُ مكانٍ، وعلى كلِّ تقديرٍ فهي مُتعَلِّقةٌ بـ﴿يُؤْفَكُونَ﴾، فلا يَعمَلُ فيها ما قبْلَها[1].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى مِن أوصافِ المنافقينَ ما به يُعرَفونَ، فيقولُ تعالى: وإذا رأيتَ هؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- تُعجِبُك أبدانُهم، وحُسْنُ هَيئَتِهم، وإن يَتكَلَّموا تُصْغِ لكلامِهم؛ لفَصاحَتِهم وبلاغتِهم، كأنَّهم أخشابٌ أُسنِدَت إلى الجُدُرِ لا مَنفعةَ فيها، يَظُنُّ المُنافِقونَ -مِن جُبنِهم وخَورِهم- أنَّ كُلَّ صَيحةٍ واقِعةٌ عليهم.

والمُنافِقونَ هم أعداءُ المُسلِمينَ على الحقيقةِ؛ فاحذَرْهم -يا محمَّدُ- فهم أشَدُّ ضَرَرًا عليكم مِن الكُفَّارِ المجاهِرينَ بالعَداوةِ. لَعَنَهم اللهُ وأخزاهم، كيف يُصرَفونَ عن الحَقِّ مع وُضوحِ دَلائِلِه؟!

وإذا قيل للمُنافِقينَ: تَعالَوا إلى رَسولِ اللهِ؛ لِيَستغفِرَ لكم، أمالوا رُؤوسَهم امتِناعًا مِن ذلك، ورأيتَهم يُعرِضونَ؛ أنَفةً واستِكبارًا عمَّا دُعُوا إليه.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٠٦).

سواءٌ أَسْتَغفَرْتَ لهؤلاء المُنافقينَ -يا محمَّدُ- أم لم تَستَغفِرْ لهم؛ فإنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم، إنَّ اللهَ لا يَهدي القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف اللهُ سُبحانَه بواطِنَ المُنافِقينَ بما زهَّدَ فيهم، وكانت لهم أشكالٌ تَغُرُّ ناظِرَها؛ لأنَّ العَرَبَ كانت تقولُ: (جمالُ المنظَرِ يدُلُّ غالبًا على حُسْنِ المَخْبَرِ)، قال تعالى[(١)]:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

أي: وإذا رأيتَ هؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- تُعجِبُك أبدانُهم؛ لاستواءِ خَلْقِهم، وحُسْنِ هَيئَتِهم، وجمالِ صُوَرِهم[(٢)]!

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

أي: وإن يَتكَلَّموا تُصْغِ لكلامِهم، وتَستَمِعْ إليه؛ لفصاحَتِهم وبلاغتِهم، وحُسنِ مَنطِقِهم، وحلاوةِ مَعانيه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٩).
قال القرطبي: (﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ للتَّكثيرِ، أي: استَنَدوا إلى الأيمانِ بحَقنِ دِمائِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٥).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾.

أي: مَثَلُهم كأخشابٍ قد قُطِعَت من مَغارِسِها، وقُشِرَت وأُسنِدَت إلى الجُدُر، فهي تَنالُ إعجابَ ناظِرِها، ولكِنَّها جامِدةٌ لا ثباتَ لها ولا ثَمرةَ، ولا تُسقَى بماءٍ، ولا منفعةَ فيها، وهكذا المُنافِقونَ مجرَّدُ صُوَرٍ لا رُوحَ فيها، وأجسادٍ لا عَقْلَ لها، ولا فِقْهَ، ولا عِلْمَ[1]!

﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

أي: يَظُنُّ المُنافِقونَ كلَّ صَيحةٍ يَسمَعونَها -كنِداءِ مُنادٍ أو إنشادِ ضالَّةٍ، ونحوِ ذلك- أنَّها نازِلةٌ بهم، وواقِعةٌ عليهم، وأنَّهم يُرادونَ بذلك؛ لِجُبنِهم، وخَوَرِهم، وسوءِ ظَنِّهم، وخوفِهم أنْ يَكْشِفَ اللهُ أسرارَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٩٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠).

قال ابنُ القَيِّم: (الصَّوابُ: أنَّ اللَّفظَ عامٌّ فيمَنِ اتَّصَف بهذه الصِّفاتِ، وهي صِحَّةُ الجِسمِ وتمامُه، وحُسنُ الكلامِ، وخُلُوُّه من رُوحِ الإيمانِ، ومحَبَّةِ الهُدى وإيثارِه، كخُلُوِّ الخُشُبِ المقطوعةِ -الَّتي قد تَساندَ بَعضُها إلى بَعضٍ- مِن رُوحِ الحياةِ الَّتي يُعطيها النُّمُوَّ أو الزِّيادةَ والثَّمرةَ؛ واتصافُهم بالجُبنِ والخَوَرِ الَّذي يَحسَبُ صاحِبُه أنَّ كُلَّ صَيحةٍ عليه؛ فمِنَ التَّقصيرِ الزَّائدِ أن يُقالَ: إنَّ المرادَ بهذا اللَّفظِ هو عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٧٠٢، ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٩)، ((منهاج السنة =

كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾.

أي: المُنافِقونَ هم أعداءُ المُسلِمينَ على الحقيقةِ؛ فاحذَرْهم -يا محمَّدُ-، فلا تَثِقْ بأقوالِهم، ولا تَغترَّ بصُوَرِهم، ولا تَركَنْ إليهم، ولا تَستَودِعْهم أسرارَكم؛ فهم يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنونَ، ويُعينُونَ الكُفَّارَ عليكم سِرًّا، ويَترَبَّصونَ بكم الدَّوائِرَ، وهم أشَدُّ ضَرَرًا عليكم مِن الكُفَّارِ المجاهِرينَ بالعَداوةِ[(١)].

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: لَعَنَ اللهُ المُنافِقينَ وأخزاهم، كيف يُصرَفونَ عن الحَقِّ مع وُضوحِ دَلائِلِه[(٢)]؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

= النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

قال ابن عاشور: (والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِيُبلِّغَه المسلمينَ فيَحذَروهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢، ٢٤٣).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصلُها من القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٩٠).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾.

أي: وإذا قال المُسلِمونَ للمُنافِقينَ: تَعالَوا إلى رَسولِ اللهِ؛ لِيَطلُبَ مِنَ اللهِ مَغفِرةَ ذُنوبِكم، أمالوا رُؤوسَهم وصَرَفوها إلى جهةٍ أُخرى؛ امتِناعًا مِن ذلك[(١)].

عن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ أصاب النَّاسَ فيه شِدَّةٌ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ لأصحابه: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفَضُّوا مِن حَولِه، وقال: لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ! فأتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَرْتُه، فأرسَلَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ فسأَلَه، فاجتَهَد يَمينَه ما فَعَل! قالوا: كَذَبَ زَيدٌ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فوقَعَ في نَفْسي ممَّا قالوا شِدَّةٌ، حتَّى أنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المُنافِقونَ: ١]، فدعاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيَستَغفِرَ لهم، فلَوَّوا رُؤُوسَهم))[(٢)].

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: ورأيتَهم يُعرِضونَ؛ أَنَفةً واستِكبارًا عمَّا دُعُوا إليه مِنَ المجيءِ لِرَسولِ اللهِ؛ كي يَستَغفِرَ لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣، ٢٤٤).

قال ابن عاشور: (وَلَيُّ الرُّؤوسِ: إمالَتُها إلى جانبٍ غَيرِ وُجاهِ المُتكلِّمِ؛ إعراضًا عن كلامِه، على سَبيلِ الاستِهزاءِ، أي: أَبَوْا أنْ يَستغفِروا؛ لأنَّهم ثابتونَ على النِّفاقِ، أو لأنَّهم غَيرُ راجِعينَ فيما قالوهُ مِن كلامٍ بذيءٍ في جانبِ المُسلِمينَ، أو لِئَلَّا يُلْزَموا بالاعترافِ بما نُسِبَ إليهم مِنَ النِّفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤، ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير =

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾.

أي: سواءٌ أَسْتغفَرْتَ لهؤلاء المُنافِقينَ ذُنوبَهم -يا محمَّدُ- أم لم تَستغفِرْ لهم؛ فإنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم ذُنوبَهم، ولن يَترُكَ مُعاقَبتَهم عليها[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُصِرِّينَ على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الإنسانُ مَدارُ صَلاحِه وفَسادِه على القَلْبِ؛ ولهذا ينبغي للمُسلِمِ أنْ يَعتنيَ بصَلاحِ قَلْبِه؛ فاللهُ تعالى يقولُ عن المُنافِقينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾ مِن الهيئةِ الحَسَنةِ، وحُسْنِ عمَلِ الجوارحِ، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ وإذا قالوا قولًا تَسْمَعُ له مِن حُسْنِه وزَخرفتِه، لكِنَّ قُلوبَهم خَرِبةٌ -والعياذُ باللهِ- ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾ ليس فيها خيرٌ، فعلى المسلمِ أن يَعتنيَ بصَلاحِ قلبِه، وأن يَنظُرَ

= ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

هل فيه شيءٌ مِن الأمراضِ كالشِّركِ، وكراهةِ ما أنْزَلَ اللهُ، والمَيلِ إلى الكُفَّارِ ومُوالاتِهم إلى غيرِ ذلك؟ هل فيه شَيءٌ مِن الحَسَدِ أو الغِلِّ أو الحِقدِ؟ فيُطَهِّرَ قلْبَه منه ويُصلِحَه؛ فإنَّ المدارَ عليه(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الجَمالُ في الصُّورةِ واللِّباسِ والهيئةِ ثلاثةُ أنواعٍ: منه ما يُحمَدُ، ومنه ما يُذَمُّ، ومنه ما لا يتعَلَّقُ به مَدحٌ ولا ذَمٌّ:

فالمحمودُ منه: ما كان للهِ، وأعان على طاعةِ اللهِ، وتنفيذِ أوامِرِه، والاستِجابةِ له، كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يتجَمَّلُ للوُفودِ، وهو نظيرُ لِباسِ آلةِ الحَربِ للقِتالِ، ولِباسِ الحَريرِ في الحَربِ والخُيَلاءِ فيه؛ فإنَّ ذلك محمودٌ إذا تضَمَّن إعلاءَ كَلِمةِ اللهِ، ونَصْرَ دينِه، وغَيْظَ عَدُوِّه.

والمذمومُ منه: ما كان للدُّنيا والرِّياسةِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ، والتَّوَسُّلِ إلى الشَّهَواتِ، وأن يكونَ هو غايةَ العَبدِ وأقصى مَطلَبِه؛ فإنَّ كثيرًا مِن النُّفوسِ ليس لها هِمَّةٌ في سِوى ذلك.

وأمَّا ما لا يُحمَدُ ولا يُذَمُّ: فهو ما خلا عن هذَينِ القَصدَينِ، وتجَرَّدَ عن الوصفَينِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لَمَّا أضْمَروا خِلافَ ما أظهَروا خافوا الاطِّلاعَ عليهم؛ فكُلَّما سَمِعوا صَيحةً ظَنُّوا أنَّها عليهم، وهكذا كلُّ مُريبٍ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُضْمِرُ؛ فإنَّه يَخافُ مِن أدنى شَيءٍ ويَحسَبُه عليه(٣).

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٩٦).
(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٥، ١٨٦).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢١٧).

ومنه أخَذ جريرٌ قولَه يُخاطِبُ الأخطَلَ:

ما زِلْتَ تَحسَبُ كلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُم خَيْلًا تَكُرُّ عَلَيْكُمُ ورِجالَا[(١)]

وكذا المتنبي قولَه:

وضاقَتِ الأرضُ حتَّى كان هارِبُهُم إذا رأى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا[(٢)]

ومنه قولُ الشَّاعِرِ[(٣)]:

يُرَوِّعُهُ السِّرارُ بكُلِّ أرضٍ مَخافةَ أن يَكونَ به السِّرارُ[(٤)]

٢- قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾، فالكافِرُ المُصرِّحُ بالكُفرِ أهوَنُ مِن الكافِرِ المُخْفِي للكُفرِ -وهو المُنافِقُ-؛ فقولُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ جملةٌ تفيدُ الحصرَ؛ لتعريفِ طرَفَيها، كأنَّه لا عَدُوَّ للمُسلِمينَ إلَّا المُنافِقُ؛ لأنَّ عداوتَه -والعياذُ باللهِ- لا يمكِنُ أنْ يُطَّلَعَ عليها، ولا يُمكِنُ التَّحَرُّزُ منها[(٥)]، فهم أهلُ مَكرٍ وخديعةٍ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: ٩][(٦)]، فكانوا أَولى بالتَّحذيرِ؛ لشِدَّةِ عَداوتِهم، ولِقُوَّةِ مُداخَلتِهم مع المُسلِمينَ؛ مِمَّا يُمكِّنُهم مِن الاطِّلاعِ على جميعِ شُؤونِهم[(٧)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ

(١) يُنظر: ((ديوان جرير)) (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((العَرْف الطَّيِّب)) لليازجي (ص: ١٤).

(٣) هو بشَّارُ بنُ بُرْدٍ. يُنظر: ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (٢/ ٧٦٠)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (٣/ ٣٧)، ((الأغاني)) للأصفهاني (٣/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤١).

(٧) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩٢).

﴿يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أنَّ مِن عَلاماتِ النِّفاقِ الاستِكبارَ عن دُعاءِ المؤمِنينَ؛ احتِقارًا وشَكًّا[١]!

٤- قولُ الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه لا يُغفَرُ للمُنافِقينَ مُطلَقًا، وقد جاءت آيةٌ تُوهِمُ الطَّمَعَ في غُفرانِه لهم إذا استغفَرَ لهم رَسولُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

الجوابُ: أنَّ هذه الآيةَ هي الأخيرةُ، بيَّنَت أنَّه لا يُغفَرُ لهم على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّهم كُفَّارٌ في الباطِنِ[٢].

وأيضًا ذكرَ عدَدِ السبعينَ قَطْعًا لأطماعِهم عن المغفرةِ على عادةِ العربِ؛ لأنها عندَهم مَثَلٌ لغايةِ الاستِقصاءِ في العددِ[٣]. والتَّقديرُ إذا قُصِد به المُبالَغةُ فلا مَفهومَ له، سَواءٌ كان في الكَثْرةِ أو في القِلَّةِ، ومِثالُ الكَثْرةِ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ولو أكثَرَ مِن سَبعينَ ما يَغفِرُ اللهُ تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المُنافِقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فإذا جاء القَيْدُ للمُبالَغةِ قِلَّةً أو كَثرةً فليس له مَفهومٌ.

ومِثالُ القِلَّةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني:

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٣/ ٢٢١).

ولا ما دُونَها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أنَّ دعاءَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، واستغفارَهم وشفاعتَهم: سببٌ يَنفعُ إذا جَعَلَ اللهُ تعالى المَحَلَّ قابلًا له، وإلَّا فلوِ استغفرَ النَّبيُّ للكُفَّارِ والمُنافِقينَ لم يُغفَرْ لهم[٢].

٦- مَن عُلِمَ منه النِّفاقُ والزَّنْدقةُ فإنَّه لا يجوزُ لِمَن عَلِمَ ذلك منه الصَّلاةُ عليه، وإنْ كان مُظْهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ نهى نبيَّه عن الصَّلاةِ على المُنافِقينَ فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لم يَقُلِ: (القَومَ الكافِرينَ) أو (المُنافِقينَ) أو (المُستَكبِرينَ)، مع أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهم مِن جملةِ ما سَبَق ذِكرُه؟

الجوابُ: كُلُّ أحدٍ مِن تلك الأقوامِ داخِلٌ تحتَ قَولِه: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، أي: الَّذين سَبَق ذِكرُهم، وهم الكافِرونَ والمُنافِقونَ والمُستَكبِرونَ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٠٨).
(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٨).

انتقالٌ إلى توضيحِ بَعضِ أحوالِ المنافِقينَ الَّتي لا يُبرِزونها إذا جاؤوا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكنَّها تَبرُزُ مِن مُشاهَدتِهم؛ وجُملةُ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، واقِعةٌ موقِعَ الاحتراسِ والتَّتميمِ[١]؛ لدَفْعِ إيهامِ مَن يَغُرُّه ظاهِرُ صُوَرِهم، وأُتْبِعَ انتفاءُ فِقهِ عقولِهم بالتَّنبيهِ على عدمِ الاغترارِ بحُسنِ صوَرِهم؛ فإنَّها أجسامٌ خاليةٌ عن كمالِ الأنفُسِ، وتُفيدُ مع الاحتراسِ تنبيهًا على دخائِلِهم، بحيث لو حُذِفَ حرْفُ العطفِ مِن الجُملتَينِ، لَصَحَّ وُقوعُهما مَوقِعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ولكن أُوثِرَ العطفُ للتَّنبيهِ على أنَّ هاتَيْنِ صِفتانِ تُحسَبانِ كمالًا وهُما نَقيصتانِ؛ لعدمِ تناسُقِهما مع ما شأنُه أنْ يكونَ كمالًا؛ فإنَّ جمالَ النَّفْسِ كجمالِ الخِلقةِ إنَّما يحصُلُ بالتَّناسُبِ بيْنَ المَحاسِنِ، وإلَّا فرُبَّما انقلَبَ الحَسنُ مُوجِبَ نَقْصٍ[٢].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ لتَضمينِ ﴿تَسْمَعْ﴾ معْنى: تُصغِ أيُّها السَّامعُ؛ إذ ليس في الإخبارِ بالسَّماعِ للقولِ فائدةٌ لولا أنَّه ضُمِّن معْنى الإصغاءِ لوعْيِ كَلامِهم[٣].

- وجُملةُ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سُؤالٍ يَنشَأُ عن وصْفِ حُسنِ أجسامِهم وذَلاقةِ كَلامِهم؛ فإنَّه في صُورةِ مدْحٍ، فلا يُناسِبُ ما قبْلَه مِن ذمِّهم، فيَترقَّبُ السَّامعُ ما يَرِدُ بعْدَ هذا الوصفِ. ويجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) تقدَّم تعريفُ الاحتراسِ (ص: ٣٢١)، وتعريفُ التَّتميمِ (ص: ٣٥).
والفَرقُ بيْنَ الاحتراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّة الحَمَوي (٢/ ٤٨٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٣٩).

الجُملةُ حالًا مِن ضَميرَيِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[1].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، والمُشبَّهُ به هو الخُشُبُ المنصوبةُ المُسنَدةُ إلى الحائطِ، ووجْهُ الشَّبهِ كَونُ الجانبَيْنِ أشباحًا خاليةً عن العِلمِ والنَّظرِ، ولم يَكتفِ بالتَّشبيهِ بالخُشبِ، بلْ جعَلَها مُسنَدةً إلى الحائطِ، لا انتِفاعَ بها؛ لأنَّها إذا كانت في سقفٍ أو مكانٍ يُنتفَعُ بها، وأمَّا إذا كانت غيرَ مُنتفَعٍ بها فإنَّها تكونُ مُهمَلةً مُسنَدةً إلى الحيطانِ أو مُلقاةً على الأرضِ قد صُفِفَتْ. أو شُبِّهوا بالخُشُبِ الَّتي هي الأصنامُ وقد أُسنِدَتْ إلى الحيطانِ، أو شُبِّهوا بالخُشبِ المُسنَّدةِ في حُسنِ المرْأى وعدَمِ الجَدْوى، أُفِيدَ بها أنَّ أجسامَهم المُعجَبَ بها ومَقالَهم المُصغَى إليه خاليانِ عن النَّفعِ كخُلوِّ الخُشبِ المُسنَّدةِ عن الفائدةِ. وقيل: الجملةُ التَّشبيهيَّةُ وصْفٌ لهُمْ بالجُبنِ والخَوَرِ، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّ وجْهَ الشَّبهِ هو عُزوبُ أحلامِهم، وفراغُ قلوبِهم مِنَ الإيمانِ[2]. وقيل غيرُ ذلك[3].

- وفي قولِه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ أيضًا، أي: أنَّهم -لجُبنِهم وهَلَعِ نُفوسِهم واضطرابِ قلوبِهم- إذا نادى مُنادٍ في المُعسكَرِ أو انْفلَتَتْ دابَّةٌ أو أُنْشِدَتْ ضالَّةٌ وَجَفَتْ قلوبُهم، وزايَلَهم رُشدُهم، وحَسِبوا أنَّ هناك شرًّا يتربَّصُ بهم، وكيدًا ينتظرُ الإيقاعَ بأرواحِهم[4]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٩، ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٠).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ لَمَّا أخبرَه تعالَى بعداوتِهم، أمَرَه بحَذَرِهم، فلا يَثِقُ بإظهارِ موَدَّتِهم، ولا بلِينِ كلامِهم(١).

- يجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ استِئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ تلك الجملةَ لغرابةِ معناها تُثيرُ سؤالًا عن سبَبِ هلَعِهم، وتخوُّفِهم مِن كلِّ ما يُتخيَّلُ منه بأسُ المُسلِمينَ، فيُجابُ بأنَّ ذلك لأنَّهم أعداءٌ أَلِدَّاءُ للمُسلِمينَ، يَنظُرونَ للمُسلِمينَ بمِرآةِ نُفوسِهم، فكما هُمْ يَترَبَّصون بالمُسلِمينَ الدَّوائرَ، ويَتمنَّوْنَ الوقيعةَ بهم، في حِينِ يُظهِرونَ لهمُ الموَدَّةَ، كذلك يَظنُّونَ بالمُسلِمينَ التَّربُّصَ بهم، وإضمارَ البَطْشِ بهم، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ بمَنزلةِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ على هذا المعنى أيضًا. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا لِذكرِ حالةٍ مِن أحوالِهم تَهُمُّ المسلمينَ مَعرفتُها؛ لِيَترتَّبَ عليها تَفريعُ ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾، وعلى كلِّ التَّقاديرِ فنَظْمُ الكلامِ وافٍ بالغَرَضِ مِن فَضْحِ دخائلِهم(٢).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلۡعَدُوُّ﴾ تعريفُ الجِنسِ الدَّالُّ على معْنى كَمالِ حقيقةِ العدُوِّ فيهم؛ فهمُ الكامِلونَ المُبالِغونَ في العَداوةِ، والرَّاسِخونَ فيها؛ لأنَّ أَعْدَى الأعادي العدُوُّ المُتظاهِرُ بالموالاةِ، وهو مدَّاحٌ وتحتَ ضُلوعِه الدَّاءُ الدَّوِيُّ، وعلى هذا المعنى رُتِّبَ عليه الأمْرُ بالحَذَرِ منهم(٣).

- قولُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ تَذييلٌ؛ فإنَّه جمَعَ على الإجمالِ ما يُغْني عن تَعدادِ مَذامِّهم، مَسوقٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ تَوغُّلِهم في الضَّلالةِ والجهالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

بعُدولِهم عن الحقِّ، فافتُتِحَ التَّعجيبُ منهم بجُملةٍ أصْلُها دُعاءٌ بالإهلاكِ والاستئصالِ، ولكنَّها غَلَبَ استعمالُها في التَّعجُّبِ أو التَّعجيبِ مِن سُوءِ الحالِ الَّذي جرَّه صاحبُه لنفْسِه؛ فإنَّ كثيرًا مِن الكَلِمِ الَّتي هي دُعاءٌ بسُوءٍ تُستعمَلُ في التَّعجيبِ مِن فِعلٍ أو قولٍ مَكروهٍ، مِثلُ قولِهم: ثَكِلَتْه أُمُّه، ووَيْلُ أُمِّه، وتربَتْ يَمينُه. واستعمالُ ذلك في التَّعجُّبِ للمُلازَمةِ بيْن بُلوغِ الحالِ في السُّوءِ وبيْن الدُّعاءِ على صاحبِه بالهلاكِ؛ إذ لا نفْعَ له ولا للنَّاسِ في بَقائِه، ثمَّ الملازمةِ بيْن الدُّعاءِ بالهلاكِ وبيْن التَّعجُّبِ مِن سُوءِ الحالِ، فهي مُلازَمةٌ بمَرتبتَينِ كِنايةٌ رَمزيَّةٌ. و(أنَّى) هنا اسمُ استفهامٍ، والاستفهامُ هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ؛ لأنَّ الأمرَ العجيبَ مِن شأنِه أنْ يُستفهَمَ عن حالِ حُصولِه، فالاستفهامُ عنه مِن لَوازمِ أُعجوبتِه؛ فجُملةُ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ بيانٌ للتَّعجيبِ الإجماليِّ المُفادِ بجُملةِ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فهو تعجيبٌ مِن حالِهم، أي: كيف يُصرَفونَ عن الحقِّ إلى ما هُمْ عليه مِنَ الكفرِ والضَّلالِ[(١)]؟!

- و﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كَلمةُ ذمٍّ وتوبيخٍ، وهو دعاءٌ عليهم وطَلَبٌ مِن ذاتِه تعالَى أنْ يَلعنَهُم ويُخزيَهُم، أو تَعليمٌ للمُؤمنينَ أنْ يَدعُوا عليهم بذلك، ومَن قاتَلَه اللهُ فهو مغلوبٌ؛ لأنَّه تعالَى هو القاهِرُ لكلِّ مُعانِدٍ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ هذا حالُ المنافقينَ في العِنادِ، ومُجافاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإعراضِ عن التَّفكُّرِ في الآخِرةِ، بَلْهَ الاستِعدادَ للفوزِ فيها،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤١).

و﴿تَعَالَوۡاْ﴾ طلَبٌ مِنَ المُخاطَبِ بالحضورِ عِندَ الطَّالِبِ، وأصلُه فِعلُ أمْرٍ مِنَ التَّعالي، وهو تكلُّفُ العُلُوِّ، أيِ: الصُّعودِ، وتُنُوسِيَ ذلك، وصار لِمُجرَّدِ طلَبِ الحضورِ. وهذا الطَّلَبُ يجعَلُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ هذه حالةٌ مِن أحوالِ انفرادِهم في جماعتِهم، فهي ثالثُ الأغراضِ مِن بيانِ مُختلِفِ أنواعِ تلك الأحوالِ، وقدِ ابتُدِئَتْ بـ﴿إِذَا﴾ كما ابتُدِئَ الغرَضانِ السَّابِقانِ بـ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾[1] [المنافقون: ٤].

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: اذهَبوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسَلُوهُ الاستِغفارَ لكم، وهذا يدُلُّ دَلالةَ اقتِضاءٍ[2] على أنَّ المرادَ: تُوبوا مِنَ النِّفاقِ، وأَخْلِصوا الإيمانَ، وسَلُوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيَستغفِرَ لكم ما فَرَطَ منكم، فكانَ الَّذي قال لهم ذلك مُطَّلِعًا على نِفاقِهم[3].

- قولُه: ﴿لَوَّوۡاْ﴾ قُرِئَ بتَشديدِ الواوِ الأولى مُضاعَف (لَوَى)؛ للدَّلالةِ على الكثرةِ؛ فيَقْتَضي كثرةَ اللَّيِّ منهم، أي: لَوَّى جمعٌ كثيرٌ منهم رُؤوسَهم، وقُرِئَ بتَخفيفِ الواوِ الأولى اكتِفاءً بإسنادِ الفِعلِ إلى ضميرِ الجماعةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣).

(٢) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ من تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).
قرأ نافعٌ، ورَوْحٌ عن يعقوبَ بتخفيفِ الواوِ الأُولى، وقرأ الباقونَ بتشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

- وجُملةُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وأُتِيَ بالمضارعِ ليَدُلَّ على استِمرارِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ حِكايةِ أحوالِهم، نشأَتْ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٥] إلخ[٢].

- وتركيبُ: (سواءٌ عليه أكذا أمْ كذا)، ونَحْوِه ممَّا جَرَى مَجْرَى المَثَلِ، فيَلزَمُ هذه الكلماتِ مع ما يُناسِبُها مِن ضمائِرِ المُخبَرِ عنه. ومدلولُه استِواءُ الأمْرَينِ لدَى المجرورِ بحرفِ (على)؛ ولذلك يُعقَبُ بجُملةٍ تُبيِّنُ جِهةَ الاستواءِ؛ كجُملةِ ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾[٣].

- و(على) مِن قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ بمعنى تمكُّنِ الوصفِ؛ فالمعنى: سواءٌ فيهم[٤].

- وهمزةُ ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ﴾ أصلُها همزةُ استفهامٍ، وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن قِلَّةِ الاعتناءِ بكِلا الحالَيْنِ بقرينةِ لفظِ ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: سواءٌ عِندَهم استغفارُكَ لهم وعدَمُه، فـ(على) للاستِعلاءِ الَّذي هو التَّمكُّنُ والتَّلبُّسُ؛ فتَؤُولُ إلى معنى (عِندَ)[٥].

- وجُملةُ ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

استِئنافًا ابتدائيًّا عن حالٍ مِن أحوالِهم[(١)].

- وجُملةُ ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وجُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟﴾ [المنافقون: ٧]، وهي وعيدٌ لهم، وجزاءٌ على استخفافِهم بالاستغفارِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ لانتفاءِ مغفرةِ اللهِ لهم بأنَّ اللهَ غضِبَ عليهم، فحرَمَهمُ اللُّطْفَ والعِنايةَ[(٣)].

- قولُه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الكامِلينَ في الفِسقِ، الخارجينَ عن دائرةِ الاستصلاحِ، المُنهمِكينَ في الكفرِ والنِّفاقِ، والمرادُ: إمَّا هُم بأعيانِهم، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لبيانِ غُلُوِّهم في الفِسقِ. أوِ الجِنسُ، وهم داخِلونَ في زُمْرَتِهم دُخولًا أوَّليًّا[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣).

الآيتان (٧-٨)

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنفَضُّواْ﴾: أي: يَتفَرَّقوا، وأصلُ (فضض): يدُلُّ على تفريقٍ وتَجزِئةٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ سبحانَه عن جانبٍ مِن أقوالِ المنافِقينَ القبيحةِ، فيقولُ: همُ الَّذين يَقولونَ: لا تُنفِقوا على أصحابِ رَسولِ اللهِ حتَّى يَتفَرَّقوا عنه. وللهِ خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ، ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك. يقولُ المُنافِقونَ: لَئِنْ رَجَعْنا مِن غَزوةِ بَني المُصْطَلِقِ إلى المدينةِ، لَيُخرِجَنَّ الأقوى منها الضَّعيفَ الأذَلَّ. وقد أخطَؤوا مصداقَ الوصفِ، فلِلَّهِ القُوَّةُ والغَلَبةُ ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، وليست لهم، ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك، فيَظُنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم!

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٣٣).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أرْقَمَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: لا تُنفِقُوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ، وقال أيضًا: لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ؛ أخبَرتُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلامني الأنصارُ، وحَلَفَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ما قال ذلك، فرجَعْتُ إلى المنزلِ فنِمْتُ، فدعاني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأتَيْتُه، فقال: إنَّ اللهَ قد صَدَّقَك، ونَزَل: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ ...﴾ الآيةَ))[١].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن وَصفِ إعراضِهم عن التَّقَرُّبِ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إلى وَصفِ لَونٍ آخَرَ مِن كُفرِهم، وهو الكَيدُ للدِّينِ في صورةِ النَّصيحةِ[٢].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾.

أي: المُنافِقونَ هم الَّذين يَقولونَ[٣]: لا تُنفِقوا على أصحابِ رَسولِ اللهِ حتَّى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) قيل: يقولونَ لأصحابِهم وقَومِهم مِن المُنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩، ٦٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

قال ابن عاشور: (هذا أيضًا مِن مقالاتِهم في مَجامِعِهم وجماعتِهم، يَقولونَها لإخوانِهم الَّذين كانوا يُنفِقون على فُقراءِ المسلِمينَ تَظاهُرًا بالإسلامِ، كأنَّهم يقولُ بعضُهم لبعضٍ: تظاهَرْ بالإسلامِ بغيرِ الإنفاقِ، مثل قولِهم لِمَن يقولُ لهم: ﴿تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٥]؛ ولذلك عُقِّبَتْ بها. وقد جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ قائلَ هذه المقالةِ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ =

يَتفَرَّقوا عنه[١].

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وللهِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن الأرزاقِ وغَيرِها، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في أسبابِ حُصولِ الأرزاقِ بمَشيئتِه؛ فيُعطي مَن يَشاءُ بفَضْلِه، ويَمنَعُ مَن يَشاءُ بحِكْمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الشورى: ١٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

= سَلولَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦٠).

وقيل: يقولونَ للأنصارِ مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: البيضاويُّ، والمراغي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١١٣). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فُقَراءُ المهاجِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣٦).

قال ابنُ عاشور: (هذا كلامُ مَكرٍ؛ لأنَّ ظاهِرَه قَصدُ الرِّفقِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُلْفةِ إنفاقِ الأعرابِ الَّذين ألَمُّوا به في غَزوةِ بني المُصْطَلِق، وباطِنَه إرادةُ إبعادِ الأعرابِ عن تلَقِّي الهَدْيِ النَّبَويِّ، وعن أن يَتقَوَّى بهم المُسلِمونَ، أو تفَرُّقُ فُقَراءِ المهاجِرينَ لتَضعُفَ بتَفَرُّقِهم بعضُ قُوَّةِ المسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

أي: ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يُدرِكونَ ذلك، فلا يَعلَمونَ كَمالَ قُدرةِ اللهِ، وأنَّ ما شاء حُصولَه يَسَّرَه، وأنَّه المتصَرِّفُ في الكَونِ بمَشيئتِه، وبيَدِه الأرزاقُ يُقَسِّمُها بيْنَ عِبادِه بحِكْمَتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهم لا يَفقَهونَ؛ دَلَّ على عَدَمِ فِقْهِهم بقَولِه تعالى[٢]:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

أي: يقولُ المُنافِقونَ: لَئِنْ رَجَعْنا من غَزوةِ بَني المُصطَلِقِ إلى المدينةِ الَّتي هي بَلَدُنا، لَيُخرِجَنَّ الأقوى والأشَدُّ فيها الضَّعيفَ الأذَلَّ الَّذي جاء إلى مدينتِنا وسَكَن فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

قال ابنُ القيِّم: (غزوةُ بني المُصطَلِقِ هي غَزوةُ المُرَيْسِيعِ، والجُمهورُ أنَّها كانت بعدَ الخَندَقِ سنةَ سِتٍّ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٣٧).

قيل: يعني بالأعزِّ نَفْسَه، أي: عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ، وبالأذَلِّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا في غَزاةٍ، فكَسَعَ[١] رَجُلٌ من المهاجِرينَ رَجُلًا من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ! وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فسَمَّعها اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ما هذا؟! فقالوا: كَسَع رَجُلٌ مِن المهاجِرينَ رَجُلًا مِن الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوها؛ فإنَّها مُنْتِنةٌ. قال جابِرٌ: وكانت الأنصارُ حينَ قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثَرَ، ثمَّ كَثُرَ المهاجِرونَ بَعْدُ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: أوَقَد فَعَلوا؟! واللهِ لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ. فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: دَعْني يا رَسولَ اللهِ أضرِبْ عُنُقَ هذا المُنافِقِ. قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه، لا يَتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمَّدًا يقتُلُ أصحابَه))[٢].

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

= للزجاج (٥/ ١٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٠).

وقيل: أراد أنَّه هو وإخوانَه مِن المُنافِقينَ الأعَزُّونَ، وأراد أنَّ رَسولَ اللهِ ومَن معه هم الأذَلُّونَ! وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملة: أبو حيَّان، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

قال الشوكاني: (إنَّما أُسنِدَ القَولُ إلى المُنافِقينَ مع كَونِ القائِلِ هو فَردٌ مِن أفرادِهم، وهو عبدُ اللهِ ابنُ أُبَيٍّ؛ لكَونِه كان رئيسَهم، وصاحِبَ أمْرِهم، وهم راضُونَ بما يقولُه، سامِعونَ له مُطيعونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (أراد بالأعَزِّ فريقَ الأنصارِ؛ فإنَّهم أهلُ المدينةِ وأهلُ الأموالِ، وهم أكثَرُ عَدَدًا مِن المهاجِرينَ، فأراد: لَيُخرِجَنَّ الأنصارُ مِن مَدينتِهم مَن جاءَها مِنَ المُهاجِرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

(١) كَسَعَ: أي: ضَرَب دُبُرَه وعَجيزتَه بيَدٍ أو رِجلٍ أو سَيفٍ وغَيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٣٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٤).

أي: وللهِ القُوَّةُ والغَلَبةُ والـمَنَعةُ ولِرَسولِه وللمُؤمنينَ، أمَّا المُنافِقونَ فهم الأذِلَّاءُ المهانُونَ حقًّا[١].

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٢] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفْرَ))[٣].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعةِ، والنَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخِرةِ للدُّنيا، لم يَكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦-١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧).

(٢) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ من الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبِلِ، والمرادُ به هنا البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمدُ (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٨٣٢٦)، والبيهقيُّ (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَينِ، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وقال الألبانيُّ في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ: شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٤٠٥)، والحاكمُ (٧٨٦٢).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك، فيَظُنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم؛ اغترارًا بباطِلِهم[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يُوجَدُ في المتَّبِعِ هواه مِن ذُلِّ النَّفسِ وضَعْفِها ومَهانتِها ما جعَلَه اللهُ لِمَن عَصاه؛ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَل العِزَّةَ لِمَن أطاعَه، والذِّلَّةَ لِمَن عَصاه؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فجَعَل اللهُ سُبحانَه العِزَّ قَرينَ طاعتِه، والذُّلَّ قَرينَ مَعصيتِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا ريبَ أنَّ المُنافِقينَ كانوا مَغمورينَ أذِلَّاءَ مَقهورينَ، لا سيَّما في آخِرِ أيَّامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي غَزوةِ تَبُوكَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فأخبرَ أنَّ العِزَّةَ للمُؤمِنينَ لا للمُنافِقينَ، فعُلِمَ أنَّ العِزَّةَ والقُوَّةَ كانت في المؤمِنينَ، وأنَّ المُنافِقينَ كانوا أذِلَّاءَ بيْنَهم، فيَمْتَنِعُ أنْ يكونَ الصَّحابةُ -الَّذين كانوا أَعَزَّ المُسلِمينَ- مِن المُنافِقينَ، بل ذلك يَقتَضي أنَّ مَن كان أَعَزَّ كان أعظَمَ إيمانًا، ومِن المعلوم أنَّ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ؛ الخُلفاءَ الرَّاشِدينَ وغَيرَهم، كانوا أعَزَّ النَّاسِ، وهذا كلُّه ممَّا يُبَيِّنُ أنَّ المُنافِقينَ كانوا ذَليلينَ في المؤمِنينَ؛ فلا يجوزُ أنْ يكونَ الأعِزَّاءُ مِن الصَّحابةِ منهم، ولكنَّ هذا الوَصفَ مطابِقٌ للمُتَّصِفينَ به مِن الرَّافضةِ وغيرِهم، والنِّفاقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

والزَّنْدقةُ في الرَّافضةِ أكثرُ منه في سائرِ الطَّوائفِ، بل لا بُدَّ لكلٍّ منهم مِن شُعْبةِ نِفاقٍ؛ فإنَّ أساسَ النِّفاقِ الَّذي بُنيَ عليه: الكذبُ، وأنْ يقولَ الرَّجُلُ بلِسانِه ما ليس في قَلْبِه، كما أَخبرَ اللهُ تعالى عن المُنافِقينَ أنَّهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾(١) [الفتح: ١١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كان المتوقَّعُ أنْ يكونَ الجوابُ: «واللهُ هو الأَعَزُّ ورسولُه والمؤمِنونَ»، لكنْ لو كانتِ العبارةُ هكذا لَصار للمُنافِقينَ عِزَّةٌ لكنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه أَعَزُّ، لكنْ نفى عنهم العِزَّةَ مُطلقًا، ولِلهِ العِزَّةُ وَحْدَه ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، وهذا نظيرُ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر: ٢٠] لا حقَّ ولا باطِلَ(٢).

٣- لا مُنافاةَ بيْن قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وبيْن قَولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]؛ فإنَّ العِزَّةَ للهِ أصلًا، ولِرَسولِه من اللهِ، وللمُؤمِنينَ مِن اللهِ؛ فحينَئذٍ فالعِزَّةُ كلُّها للهِ، كما قال اللهُ تعالى في سورةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فكُلُّ مَن عِندَه عِزَّةٌ فإنَّها ليست عِزَّةً ذاتيَّةً له من ذاتِ نفْسِه، ولكِنَّها مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وبماذا تكونُ العِزَّةُ الَّتي يَكتسِبُها الإنسانُ، وهي مِن اللهِ؟ تكونُ بما عَلَّقَ اللهُ العِزَّةَ عليه، وهو الإيمانُ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فمتى أراد الإنسانُ العِزَّةَ فلْيَكُنْ مُؤمِنًا، وكلَّما كان أكثرَ إيمانًا باللهِ وأقوى إيمانًا باللهِ كان أكثرَ عِزَّةً

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٢/ ١٣٩).

وأقوى عِزَّةً[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنَّما نُفِيَ عنهُم هنا العِلمُ تجهيلًا بسُوءِ التَّأمُّلِ في أماراتِ الظُّهورِ والانحطاطِ، فلَمْ يَفْطَنُوا للإقبالِ الَّذي في أحوالِ المُسلِمينَ، وازديادِ سُلطانِهم يومًا فيومًا، وتناقُصٍ مِن أعدائِهم؛ فإنَّ ذلك أمْرٌ مُشاهَدٌ، فكيف يظُنُّ المُنافِقونَ أنَّ عِزَّتَهُم أقوَى مِن عِزَّةِ قبائلِ العربِ الَّذينَ يَسقُطونَ بأيدي المُسلِمينَ كلَّما غَزَوْهم مِن يومِ بدرٍ فما بَعْدَه[٢]؟!

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ لفِسقِهِم، أو لعدَمِ مَغفرتِه تعالَى لَهُم[٣].

- وقد ثبَت أنَّ قائِلَ هذه المقالةِ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ؛ فإسنادُ هذا القَولِ إلى ضَميرِ المُنافِقينَ لأنَّهم تَقبَّلوهَ مِنه؛ إذْ هو رأسُ المُنافِقينَ، أو فَشَا هذا القولُ بيْنَ المُنافِقينَ فأخَذوا يَبُثُّونَه في المُسلِمينَ[٤].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بضميرِهمُ الظَّاهِرِ دونَ الاكتِفاءِ بالمُسْتَتِرِ في ﴿يَقُولُونَ﴾؛ مُعامَلةً لهم بنقيضِ مَقصودِهم؛ فإنَّهم ستَروا كيدَهم بإظهارِ قَصْدِ النَّصيحةِ، ففضَحَ اللهُ أمْرَهم بمَزيدِ التَّصريحِ، أي: قد علِمْتُ أنَّكُم تقولونَ هذا. وفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

إظهارِ الضَّميرِ أيضًا تعريضٌ بالتَّوبيخِ، ولِيَكونَ للجملةِ الاسميَّةِ إفادةُ ثباتِ الخبرِ، وليكونَ الإتيانُ بالموصولِ مُشعِرًا بأنَّهم عُرِفوا بهذه الصِّلةِ(١).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ في ﴿يَقُولُونَ﴾ تُشعِرُ بأنَّ هذه المَقالةَ تتكرَّرُ مِنْهم لقَصْدِ إفشائِها(٢).

- قولُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إنْ كان اللهُ تعالَى حكَى نصَّ كَلامِهم، فقولُهم: ﴿عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هو على سَبيلِ الهُزءِ، أو لِكَونِه جَرَى عِندَهم مَجْرَى اللَّعِبِ، أي: هو معروفٌ بإطلاقِ هذا اللَّفظِ عليه؛ إذْ لو كانوا مُقِرِّينَ برسالتِه ما صدَرَ منهم ما صدَرَ، فالظَّاهرُ أنَّهم لم يَنطِقوا بنَفْسِ ذلك اللَّفظِ، ولكنَّه تعالَى عبَّرَ بذلك عن رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إكرامًا له وإجلالًا(٣). وقيل: إنَّه صَدَر من عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ومَن معه مِن المُنافِقين بهذا اللَّفظِ؛ إذا كانوا قالوا ذلك جَهرًا في ملأِ المسلِمينَ؛ إذ هم يَتظاهَرونَ ساعتَئِذٍ بالإسلامِ(٤).

- وحرفُ (حَتَّى) مُستعمَلٌ في التَّعليلِ؛ لأنَّ معنى (حَتَّى) انتهاءُ الفِعلِ المذكورِ قبْلَها، وغايةُ الفِعلِ يَنتهي الفاعِلُ عن الفِعلِ إذا بلَغَها؛ فهي سبَبٌ للانتهاءِ وعِلَّةٌ له، وليس المرادُ: فإذا انفَضُّوا فأنفِقوا عليهِم(٥).

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وفيه إبطالٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠١).

لِمَكْرِ المُنافِقينَ، وردٌّ وإبطالٌ لِمَا زعَمُوا من أنَّ عدمَ إنفاقِهم يُؤدِّي إلى انفضاضِ الفقراءِ مِن حَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ببيانِ أنَّ خزائنَ الأرزاقِ بيَدِ اللهِ تعالَى خاصَّةً، يُعطِي مَن يشاءُ، ويمنعُ مَن يشاءُ، وهذا جوابٌ مِن بابِ طريقةِ النَّقْضِ لكلامِهم[1].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللَّامُ في (لِلَّهِ) للمِلْكِ، أي: التَّصرُّفُ في ذلك مِلْكٌ للَّهِ تعالى[2].

- ولَمَّا كان الإنفاقُ على فُقراءِ المُسلِمينَ ممَّا يُعِينُ على ظُهورِ الدِّينِ الَّذي أرسَلَ اللهُ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، كان الإخبارُ بأنَّ الخزائنَ للَّهِ كِنايةً عن تيسيرِ اللهِ تعالَى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم حصولَ ما يُنفِقُ منه، وذلك بما يسَّره اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن زَكَواتِ المُسلِمينَ وغنائمِ الغَزَواتِ، وما فتَحَ اللهُ عليه مِنَ البلادِ بخَيْراتِها، وما أفاءَ اللهُ عليه بغَيرِ قتالٍ[3].

- وتَقديمُ المجرورِ من قولِه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ قَصْرِ القَلْبِ[4]، وهو قلبٌ للازمِ قولِهم لا لصريحِه؛ لأنَّ المُنافِقينَ لَمَّا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، حسِبوا أنَّهم إذا قطَعوا الإنفاقَ على مَن عِندَ رسولِ اللهِ لا يَجِدُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُنفِقُ مِنه عليهم، فأعلَمَ اللهُ رسولَه مُباشَرةً، وأعلَمَهم تَبَعًا بأنَّ ما عِندَ اللهِ مِنَ الرِّزقِ أعظَمُ وأوسَعُ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

- واستِدراكُ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لرفْعِ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّهم حِينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ كانوا قالوهُ عن بصيرةٍ ويقينٍ بأنَّ انقطاعَ إنفاقِهم على الَّذينَ يَلُوذونَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقطَعُ رِزقَهُم، فيَنفضُّونَ عنه بِناءً على أنَّ القُدرةَ على الإنفاقِ مُنحصِرةٌ فيهم؛ لأنَّهم أهلُ الأحوالِ -وهذا بِناءً على أنَّ الخِطابَ لأصحابِهم مِن المنافِقينَ-، وقد غفَلوا عن تعدُّدِ أسبابِ الغِنى وأسبابِ الفقرِ، والمعنى: أنَّهم لا يُدرِكونَ دقائقَ المُدرَكاتِ وخَفاياها[1].

- ومَفعولُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مَحذوفٌ، أي: لا يَفقَهونَ ذلك، وهو مضمونُ (لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)، أو نُزِّلَ الفِعلُ مَنزِلةَ اللَّازِمِ؛ مُبالَغةً في انتفاءِ فِقهِ الأشياءِ عنهم في كلِّ حالٍ[2].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ختَمَه هنا بـ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، وبَعْدَه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي مَعرفتِها غُموضٌ يَحتاجُ إلى فِطْنةٍ وفِقهٍ؛ فناسَبَ نَفْيُ الفِقهِ عنهم، والثَّانيَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي مَعرفتِها غُموضٌ زائدٌ يَحتاجُ إلى عِلمٍ؛ فناسَبَ نَفْيُ العِلمِ عنهم، فالمعْنى: لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُعِزٌّ أولياءَهُ ومُذِلٌّ أعداءَهُ[3]. وقيل: خُصَّ الأوَّلُ بـ﴿لَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٧٥-١٢٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦، ٢٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٦).
ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٤).

﴿يَفۡقَهُونَ﴾، والثَّاني بـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ إثباتَ الفِقهِ للإنسانِ أبلَغُ مِن إثباتِ العِلمِ له، فيَكونُ نَفْيُ العِلمِ أبلَغَ مِن نَفْيِ الفِقهِ، فأُوثِرَ ما هو أبلَغُ لِمَا هو أَدْعى له[1]. أو نفيُ العِلمِ فيما ظهرتْ أعلامُه، والفِقهِ فيما خَفيَ أمرُه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ استِئنافٌ على أُسلوبِ التَّعدادِ والتَّكريرِ؛ ولذلك لم يُعطَفْ، ومِثلُه يَكثُرُ في مَقامِ التَّوبيخِ، وهذا وصْفٌ لخُبثِ نيَّاتِهم؛ إذْ أرادوا التَّهديدَ وإفسادَ إخلاصِ الأنصارِ وأُخُوَّتِهم مع المُهاجِرينَ بإلْقاءِ هذا الخاطِرِ في نفوسِ الأنصارِ؛ بَذْرًا للفتنةِ والتَّفرقةِ، وانتهازًا لخصومةٍ طفيفةٍ حدَثَتْ بيْنَ شخصَيْنِ مِن موالي الفريقَيْنِ[3].

- وصِيغةُ المضارِعِ في حِكايةِ هذه المقالةِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العجيبةِ[4].

- وقد أبطَلَ اللهُ كلامَهم بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهو جوابٌ بالطَّريقةِ الَّتي تُسمَّى القولَ بالموجَبِ في عِلمِ الجدَلِ، وهي ممَّا يُسمَّى بالتَّسليمِ الجدَليِّ في عِلمِ آدابِ البحثِ[5]، والمعنى: إنْ كان الأعزُّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدِلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النِّزاعِ، ومعنى ذلك: أن يُسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذى استدَلَّ به المُستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النِّزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ =

يُخرِجُ الأذلَّ، فإنَّ المُؤمِنينَ هُمُ الفريقُ الأعزُّ، وعزَّتُهم بكَونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم، وبتأييدِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأولياءَه؛ لأنَّ عزَّةَ اللهِ هي العزَّةُ الحقُّ المُطلَقةُ، وعزَّةَ غَيرِه ناقِصةٌ، فلا جَرَمَ أنَّ أولياءَ اللهِ هُمُ الَّذينَ لا يُقهَرونَ إذا أراد اللهُ نصرَهُم ووعَدَهُم به؛ فإنْ كان إخراجٌ مِنَ المدينةِ فإنَّما يخرُجُ منها أنتُم يا أهلَ النِّفاقِ(١).

- وتقديمُ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ لقَصْدِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلبٍ(٢)، أي: العزَّةُ للَّهِ ولرسولِه وللمُؤمنينَ، لا لكُمْ كما تَحسَبونَ(٣).

- وإعادةُ اللَّامِ في قولِه: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾ مع أنَّ حرفَ العطفِ مُغْنٍ عنها؛ لتأكيدِ عزَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّها بسببِ عزَّةِ اللهِ، ووَعْدِه إيَّاه(٤).

- وإعادةُ اللَّامِ أيضًا في قولِه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتَّأكيدِ أيضًا؛ إذْ قد تَخْفى عزَّتُهم، وأكثرُهم في حالِ قِلَّةٍ وحاجةٍ(٥).

- وعُدِلَ عن الإضمارِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقد سبَقَ اسمُهم في نظيرِها قبْلَها؛ لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بذاتِها، فتسيرَ سَيْرَ المثَلِ(٦).

= بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق))).

الآيات (٩-١١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ
نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُلۡهِكُمۡ﴾: أي: تَشْغَلْكم، واللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

﴿لَوۡلَآ﴾ هي في الأصلِ حَرفُ تَحضيضٍ بمعنى «هَلَّا»، وهي هنا بمعنى التَّمنِّي. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: الفاءُ: سببيَّةٌ. (أَصَّدَّقَ): فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصوبٌ بـ«أن» مُضمَرةً بعدَ فاءِ السَّبَبيَّةِ في جوابِ التَّمنِّي. ﴿وَأَكُن﴾ مجزومٌ بالعَطفِ على مَوضِعِ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ حملًا على المعنى، كأنَّه قال: إنْ أخَّرْتَني أصَدَّقْ وأكنْ مِن الصَّالحينَ؛ لأنَّه لو لم تَدخُلِ الفاءُ لَكان مجزومًا في جوابِ التَّمنِّي، فعَطَف حملًا على هذا المعنى، واعتقادِ سُقوطِ الفاءِ، ويُقالُ له في غيرِ القُرآنِ: العَطفُ على التَّوهُّمِ[2].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٧٨)، ((شرح المفصل)) =

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالمواظَبةِ على طاعتِه، ويَنهاهم عن أنْ يَشغلَهم عن ذلك شيءٌ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ اللهِ تعالى، ومَن يُشْغَلْ بأموالِه وأولادِه عن ذِكرِ اللهِ تعالى فأولئك هم الخاسِرونَ حَقًّا.

ثمَّ يَحُضُّهم اللهُ سبحانَه على الإنفاقِ قبْلَ فَواتِ الأوانِ، فيقولُ: وتَصَدَّقوا -أيُّها المؤمِنونَ- مِمَّا رَزَقْناكم مِن الأموالِ مِن قَبلِ أن يأتيَ أحَدَكم الموتُ، فيَقولَ عِندَ احتِضارِه: يا رَبِّ هلَّا أمهَلْتَني إلى وَقتٍ قَصيرٍ؛ فأتصدَّقَ وأكونَ مِنَ الصَّالِحينَ! ولن يُؤَخِّرَ اللهُ أحدًا إذا جاء أجَلُه، واللهُ ذو خِبرةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما حكاه اللهُ سُبحانَه وتعالى عن المُنافِقينَ بحيثُ يُعجِبُ غايةَ العَجَبِ مِن تصَوُّرِ قائِلِه له، فضلًا عن أن يَتفَوَّه به، فكيفَ بأنْ يَعتَقِدَه- نبَّهَ على أنَّ العِلَّةَ المُوجِبةَ له طَمْسُ البصيرةِ، وأنَّ العِلَّةَ في طَمْسِ البصيرةِ الإقبالُ بجَميعِ القَلْبِ على الدُّنيا(١).

وأيضًا فهذا انتِقالٌ مِن كشْفِ أحوالِ المُنافِقينَ المَسوقِ للحذَرِ منهم، والتَّحذيرِ

= لابن يعيش (٢/ ١٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٤٤)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩١).

مِن صِفاتِهم، إلى الإقبالِ على خِطابِ المُؤمِنينَ بنَهيِهم عمَّا شأنُه أنْ يَشْغَلَ عن التَّذكُّرِ لِمَا أمَرَ اللهُ ونَهى، ثُمَّ الأمْرِ بالإنفاقِ في سُبُلِ الخَيرِ في سبيلِ اللهِ، ومَصالِحِ المُسلِمينَ وجماعتِهم، وإسعافِ آحادِهم؛ لِئَلَّا يَستهويَهُم قولُ المُنافِقينَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المُنافِقينَ: ٧]، والمُبادَرةِ إلى ذلك قبْلَ إتيانِ الموتِ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ اللهِ تعالى، كما يَفعَلُ المُنافِقونَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٩، ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

قال القرطبي: (﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الحَجِّ والزَّكاةِ. وقيل: عن قِراءةِ القُرآنِ. وقيل: عن إدامةِ الذِّكرِ. وقيل: عن الصَّلَواتِ الخَمسِ. قاله الضَّحَّاكُ. وقال الحَسَنُ: جميعُ الفرائِضِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالذِّكرِ: الصَّلَواتُ المكتوباتُ: مَكِّيُّ بنُ أبي طالب، والواحديُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٨٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الذِّكرَ عامٌّ في جميعِ الطَّاعاتِ: ابنُ عطيَّة، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٢).

وقال أبو حيَّان: (هو عامٌّ في الصَّلاةِ، والثَّناءِ على اللهِ تعالى بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ وغيرِ ذلك، والدُّعاءِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٤).

وقال ابنُ عاشور: (ذِكرُ اللهِ ... يَشملُ الذِّكرَ باللِّسانِ؛ كالصَّلاةِ وتِلاوةِ القُرآنِ، والتَّذَكُّرَ بالعَقلِ؛ كالتَّدَبُّرِ في صِفاتِه، واستِحضارِ امتِثالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي يَتلَهَّى بذلك عن ذِكرِ اللهِ يَظُنُّ أنَّه يَربَحُ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، يعني: ولو رَبِحوا في دُنياهم(١).

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: ومَن يُشْغَلْ بأموالِه وأولادِه عن ذِكرِ اللهِ تعالى فأولئك هم الخاسِرونَ حَقًّا(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حَذَّرَ مِنَ الإقبالِ على الدُّنيا؛ رغَّبَ في بَذْلِها؛ مُخالَفةً للمُنافِقينَ(٣).

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾.

أي: وتَصَدَّقوا -أيُّها المؤمِنونَ- مِمَّا رَزَقْناكم مِن الأموالِ، سواءٌ بالزَّكاةِ المفروضةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، أو بالصَّدَقاتِ المُستَحَبَّةِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩)، ((الصلاة)) لابن القيم (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن =

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: أَنفِقوا من قَبلِ أن يَنزِلَ بأحَدِكم أسبابُ الموتِ، ويُشاهِدَ حُضورَ عَلاماتِه، فيَقولَ عِندَ احتِضارِه: يا رَبِّ هلَّا أمهَلْتَني فتُؤخِّرَ موتي إلى وَقتٍ قَصيرٍ، فأتصدَّقَ وأكونَ مِنَ العامِلينَ بطاعتِك(١)!

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى زاد في الحَثِّ على المُبادَرةِ بالطَّاعاتِ قبْلَ الفَواتِ، فقال(٢):

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾.

= عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧).

أي: ولن يُؤَخِّرَ اللهُ أجَلَ أيِّ أحَدٍ، فيَزِيدَ في عُمُرِه إذا حَضَرَ وَقتُ مَوتِه[١].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ تامَّةٍ بالِغةٍ بجَميعِ أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ونيَّاتِكم بها، ومَقاصِدِكم منها، لا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيكم عليه[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ مُقتضى الإيمانِ ألَّا يُبالِيَ المؤمِنُ بعِزَّةِ المالِ والوَلَدِ مع عِزَّةِ اللهِ[٣].

٢- ذَمَّ اللهُ تعالى مَن ألهاه مالُه وولدُه عن ذِكْرِه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على المحافظةِ على الذِّكرِ قبْلَ الموتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

قال الرازي: (المفسِّرون على أنَّ هذا خِطابٌ جامِعٌ لكُلِّ عَمَلٍ خَيرًا أو شَرًّا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٠).

٤- قال أبو حازمٍ: (كلُّ ما شغلَكَ عن اللهِ من مالٍ أو وَلَدٍ، فهو عليك شُؤمٌ)[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمِنينَ بالإكثارِ مِن ذِكْرِه؛ فإنَّ في ذلك الرِّبحَ والفَلاحَ، والخَيراتِ الكَثيرةَ، ويَنهاهم أن تَشغَلَهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكْرِه؛ فإنَّ محبَّةَ المالِ والأولادِ مَجبولٌ عليها أكثَرُ النُّفوسِ، فتُقَدِّمُها على محبَّةِ اللهِ، وفي ذلك الخَسارةُ العظيمةُ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه أنَّ الاشتِغالَ بالأموالِ والأولادِ الَّذي لا يُلْهي عن ذِكرِ اللهِ: ليس بمذمومٍ، وله مَراتِبُ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: العَريقونَ في الخَسارةِ، حتَّى كأنَّهم كانوا مختَصِّينَ بها دونَ النَّاسِ، وذلك ضِدُّ ما أرادوا بتوفيرِ النَّظَرِ إليهم، والإقبالِ عليهم مِن السَّعيِ للتَّكثيرِ والزِّيادةِ والتَّوفيرِ، وفي إفهامِه أنَّ مَن شغَلَه ما يُهِمُّه مِن أمرِ دِينِه الَّذي أمَرَه سبحانه به، ونهاه عن إضاعتِه، وتوَعَّدَه عليها: كفاه سبحانَه أمْرَ دُنياه الَّذي ضَمِنَه له، ونهاه أن يجعَلَه أكبَرَ هَمِّه، وتوعَّدَه على ذلك[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣).

تعالى للمُؤمِنينَ لِيكونوا على استِعدادٍ للمَوتِ في كُلِّ وَقتٍ، فلا يُؤَخِّروا ما يُهِمُّهم عمَلُه ونَيلُ ثَوابِه؛ فما مِن أحَدٍ يُؤَخِّرُ العَمَلَ الَّذي يَسُرُّه أن يَعمَلَه ويَنالَ ثَوابَه إلَّا وهو مُعَرَّضٌ لأن يأتيَه الموتُ عن قَريبٍ أو يفاجِئَه؛ فعليه بالتَّحَرُّزِ الشَّديدِ مِن هذا التَّفريطِ في كُلِّ وَقتٍ وحالٍ، فرُبَّما تعَذَّرَ عليه التَّدارُكُ بفجأةِ الفَواتِ، أو وَهْنِ المقدِرةِ؛ فإنَّه إن كان لم تُطاوِعْه نفْسُه على العَمَلِ الصَّالحِ قبْلَ الفَواتِ، فكيف يتمَنَّى تأخيرَ الأجَلِ المحتومِ(١)؟!

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ذكَّرَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ بما في الإنفاقِ مِنَ الخَيرِ بأنَّ عليهِم أنْ يُكثِروا منه ما داموا مُقتدِرينَ قبْلَ الفَوْتِ، أي: قبْلَ تعذُّرِ الإنفاقِ والإتيانِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وذلك حِينَ يُحِسُّ المرءُ بحالةٍ تُؤذِنُ بقُرْبِ الموتِ، ويُغلَبُ على قُواهُ، فيَسألُ اللهَ أنْ يؤخِّرَ موتَه ويَشفيَه؛ ليأتيَ بكثيرٍ ممَّا فرَّطَ فيه مِنَ الحسناتِ؛ طمَعًا أنْ يُستجابَ له، فإنْ كان في أجَلِه تأخيرٌ فلعلَّ اللهَ أنْ يستجيبَ له، فإنْ لم يكُنْ في الأجَلِ تأخيرٌ أو لم يُقدِّرِ اللهُ له الاستجابةَ، فاته خَيرٌ كثيرٌ(٢).

١٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنفاقَ المأمورَ به شُكرٌ للهِ على ما رَزَق المُنفِقَ؛ فإنَّ الشُّكرَ صَرفُ العَبدِ ما أنعَمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ مِن أجْلِه، ويُعرَفُ ذلك مِن تِلقاءِ الشَّريعةِ(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ حَضٌّ على المبادَرةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٢).

ومسابَقةِ الأجَلِ بالعَمَلِ الصَّالحِ[١]؛ حِذارًا أن يجيءَ الأجلُ وقد فرَّط ولم يَستعِدَّ للقاءِ اللهِ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كُلُّ مُفرِّطٍ يَندَمُ عندَ الاحتِضارِ، ويَسألُ طُولَ المُدَّةِ ولو شيئًا يسيرًا؛ يَستَعتِبُ ويَستَدرِكُ ما فاته، وهيهاتَ! كان ما كان، وأتى ما هو آتٍ، وكُلٌّ بحَسَبِ تفريطِه[٣]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إنْ قِيلَ: لِماذا لم يَقُلْ: (لا تَشغَلْكم)؟

فالجوابُ: أنَّ مِن الشُّغلِ ما هو محمودٌ؛ فقد يكونُ شُغلًا في حَقٍّ، كما جاء في الحديثِ: ((إنَّ في الصَّلاةِ لَشُغْلًا))[٤]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، أمَّا الإلهاءُ فمِمَّا لا خيرَ فيه، وهو مَذمومٌ على وَجهِ العُمومِ، فاختار ما هو أحَقُّ بالنَّهيِ[٥].

٢- المحبَّةُ الطَّبيعيَّةُ وهي: مَيلُ الإنسانِ إلى ما يُلائِمُ طَبْعَه؛ كمَحَبَّةِ العَطشانِ للماءِ، والجائعِ للطَّعامِ، ومحبَّةِ النَّومِ والزَّوجةِ والوَلَدِ؛ فتلك لا تُذَمُّ إلَّا إذا أَلْهَتْ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى، وشَغَلَتْ عن مَحبَّتِه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ (١٢١٦)، ومسلمٌ (٥٣٨) من حديث عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((لمسات بيانية)) فاضل السامرائي (ص: ١٧٩).

ﱡﭐ ﭛﭜﭝ ﱠ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، قولُه: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه دليلٌ على قَولِ عُلَماءِ أُصولِ الفِقهِ: (النَّهيُ: اقتِضاءُ كَفٍّ عن فِعلٍ)[٢].

٤- إنَّ كثرةَ ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أمانٌ مِن النِّفاقِ؛ فإنَّ المُنافِقينَ قليلو الذِّكْرِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ في المُنافِقينَ: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعبٌ: (مَن أكثَرَ ذِكرَ اللهِ عزَّ وجَلَّ بَرِئَ مِنَ النِّفاقِ)؛ ولهذا -واللهُ أعلمُ- خَتَمَ اللهُ تعالى سورةَ (المُنافِقونَ) بقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ فإنَّ في ذلك تحذيرًا مِن فِتنةِ المُنافِقينَ الَّذين غَفَلوا عن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فوَقَعوا في النِّفاقِ. وسُئِلَ بعضُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم عن الخَوارجِ: (مُنافِقونَ هم؟ قال: لا، المُنافِقونَ لا يَذكُرونَ اللهَ إلَّا قليلًا!)، فهذا مِن علامةِ النِّفاقِ؛ قِلَّةُ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وكثرةُ ذِكْرِه أمانٌ مِن النِّفاقِ، واللهُ عزَّ وجلَّ أكرَمُ مِن أنْ يَبتليَ قلبًا ذاكرًا بالنِّفاقِ، وإنَّما ذلك لقُلوبٍ غَفَلَتْ عن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٥- أنَّ دَوامَ الذِّكْرِ لَمَّا كان سببًا لدَوامِ المحبَّةِ، وكان اللهُ سُبحانَه أحقَّ بكمالِ الحُبِّ والعُبوديَّةِ والتَّعظيمِ والإجلالِ؛ كان كثرةُ ذِكْرِه مِن أنْفَعِ ما للعَبدِ، وكان عَدُوُّه حقًّا هو الصَّادَّ له عن ذِكرِ ربِّه وعبوديَّتِه؛ ولهذا أمَرَ اللهُ سُبحانَه بكَثرةِ ذِكْرِه في القُرآنِ، وجَعَله سببًا للفَلاحِ، فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٨٠).

تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾، وقال تعالى ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾[1] [البقرة: ١٥٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: الصَّلاةُ- فيه دَلالةٌ على كُفرِ تاركِ الصَّلاةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى حَكَمَ بالخُسرانِ المُطْلَقِ لِمَن ألهاه مالُه وولدُه عن الصَّلاةِ، والخُسرانُ المُطْلَقُ لا يَحصُلُ إلَّا للكُفَّارِ؛ فإنَّ المُسلِمَ ولو خَسِرَ بذُنوبِه ومَعاصيه فآخِرُ أمْرِه إلى الرِّبحِ، يُوضِّحُه أنَّه سُبحانَه وتعالى أكَّدَ خُسرانَ تاركِ الصَّلاةِ في هذه الآيةِ بأنواعٍ مِن التأكيدِ:

أحدُها: إتيانُه بلَفظِ الاسمِ الدَّالِّ على ثُبوتِ الخُسرانِ ولُزومِه، دونَ الفِعلِ الدَّالِّ على التَّجَدُّدِ والحُدوثِ.

الثَّاني: تصديرُ الاسمِ بالألِفِ واللَّامِ المؤدِّيةِ لحصولِ كَمالِ المُسمَّى لهم؛ فإنَّك إذا قُلْتَ: «زيدٌ العالِمُ الصَّالحُ» أفاد ذلك إثباتَ كمالِ ذلك له، بخلافِ قولِك: «عالِمٌ صالحٌ».

الثالثُ: إتيانُه سُبحانَه بالمُبتدَأِ والخبرِ مَعْرِفتَينِ، وذلك مِن علاماتِ انحصارِ الخبَرِ في المُبتدَأِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾ [الأنفال: ٤] ونظائرِه.

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٠).

الرَّابعُ: إدخالُ ضَميرِ الفَصلِ بيْنَ المُبتدَأِ والخبَرِ، وهو يفيدُ مع الفَصلِ فائدتَينِ أُخْرَيَينِ: قُوَّةَ الإسنادِ، واختِصاصَ المسنَدِ إليه بالمُسنَدِ، كقَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، ونظائرِ ذلك الدَّليلِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ بيانُ أنَّ مَن ألهَتْه هذه الأشياءُ عن ذِكْرِ اللهِ فهو خاسِرٌ مهما رَبِحَ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لم يُكَلِّفِ العبادَ مِنَ النَّفَقةِ ما يُعنِتُهم ويَشُقُّ عليهم، بل أمَرَهم بإخراجِ جُزءٍ مِمَّا رزَقَهم اللهُ الَّذي يَسَّرَه لهم، ويَسَّرَ لهم أسبابَه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ سُؤالٌ: أنَّه يُشْكِلُ على هذا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحبَّ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِه، ويُنْسَأَ له في أثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه))[٤]؛ فإنَّ هذا يُفيدُ بأنَّ الإنسانَ إذا وَصَلَ رَحِمَه زِيدَ في عُمُرِه!

والجواب: أنَّ الَّذي سبَقَ في عِلمِ الله لا يَتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ، ومِن ذلك العُمُرُ، فالَّذي في علمِ الله لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، ويُقالُ له: القضاءُ المبرَمُ، والَّذي في علمِ المَلَكِ هو الَّذي يُمكنُ فيه الزِّيادةُ والنَّقصُ، ويُقالُ له القضاءُ المُعلَّقُ، كأن يُقالَ للمَلَكِ مثلًا: إنَّ عُمرَ فُلانٍ مِئةٌ مثلًا إن وصَل رحِمَه، وستُّون إن قطَعها، وقد سبَق في عِلمِ الله أنَّه يصِلُ أو يَقْطعُ. فالزِّيادةُ في العُمُرِ والنَّقصِ تتعلَّقُ بما في

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلمٌ (٢٥٥٧) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

عِلمِ الحَفَظةِ والمُوكَّلينَ بالآدَميِّ، كأعمالِ اليَومِ واللَّيلةِ الَّتي تَكتُبُها الملائِكةُ، ويجعَلُ اللهُ لثُبوتِها أسبابًا ولِمَحوِها أسبابًا، لا تتعَدَّى تلك الأسبابُ ما رُسِمَ في اللَّوحِ المحفوظِ، كما جعَلَ اللهُ البِرَّ والصِّلةَ والإحسانَ مِن أسبابِ طُولِ العُمُرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وكما جعَلَ المعاصيَ سَببًا لِمَحقِ بَركةِ الرِّزقِ والعُمُرِ، وكما جعَلَ أسبابَ النَّجاةِ مِن المهالِكِ والمعاطِبِ سَببًا للسَّلامةِ، وجعَلَ التَّعَرُّضَ لذلك سببًا للعَطَبِ؛ فهو الَّذي يدَبِّرُ الأمورَ بحَسَبِ قُدرتِه وإرادتِه، وما يُدَبِّرُه منها لا يخالِفُ ما قد عَلِمَه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ[1].

وقيل: الحديثُ لا يَعدُو أنْ يكونَ بيانًا لسَبَبِ طولِ العُمُرِ، وليس معناه أنَّ الإنسانَ له عُمرانِ: عُمُرٌ عندَ قطيعةِ الرَّحِمِ، وعُمُرٌ عندَ صِلَةِ الرَّحِمِ؛ لأنَّ المعلومَ عندَ اللهِ والمكتوبَ عندَه عُمُرٌ واحدٌ مَقْرونٌ بسَبَبٍ، وهو صِلَةُ الرَّحِمِ، فإذا وَصَلَ الإنسانُ رَحِمَه عَلِمْنا أنَّ له عُمُرًا واحدًا زائدًا مقرونًا بالسَّبَبِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- لَمَّا نَهى المُنافِقونَ عن الإنفاقِ على مَن عِندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُريدَ الحثُّ على الإنفاقِ بقولِه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [المنافقون: ١٠] رغمًا لأنوفِهم، وتحرِّيًا لِمَا هو الأصوَبُ والأصلَحُ؛ جُعِلَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ ...﴾ تَمهيدًا وتوطئةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٦) و(١١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٠).

للأمْرِ بالإنفاقِ، وعَمَّ العِلَّةَ والحُكمَ[١].

- ونُودِيَ المُخاطَبونَ بطريقِ الموصولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِنَ التَّهَمُّمِ لامتثالِ النَّهيِ[٢].

- وصِيغَ الكلامُ في قالَبِ توجيهِ النَّهيِ عن الإلهاءِ عن الذِّكْرِ، إلى الأموالِ والأولادِ، والمرادُ نهْيُ أصحابِها، وهو استِعمالٌ معروفٌ، وقرينتُه هُنا قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهو مُبالَغةٌ في نهْيِ أصحابِها عن الاشتِغالِ بسببِها عن ذِكْرِ اللهِ؛ فنُزِّلَ سَببُ الإلهاءِ مَنزِلةَ اللَّاهي للمُلابَسةِ بيْنَهما[٣].

- وخُصَّ الأموالُ والأولادُ بتوجُّهِ النَّهيِ عن الاشتِغالِ بها اشتغالًا يُلْهي عن ذِكْرِ اللهِ؛ لأنَّ الأموالَ ممَّا يكثُرُ إقبالُ النَّاسِ على إنمائِها، والتَّفكيرِ في اكتِسابِها؛ بحيثُ تكونُ أوقاتُ الشُّغلِ بها أكثَرَ مِن أوقاتِ الشُّغلِ بالأولادِ، ولأنَّها كما تَشْغَلُ عن ذِكْرِ اللهِ بصَرْفِ الوقتِ في كَسْبِها ونمائِها، تَشْغَلُ عن ذِكْرِه أيضًا بكَنْزِها؛ بحيثُ يُنسَى ذِكْرُ ما دعا اللهُ إليه مِن إنفاقِها. وأمَّا ذِكْرُ الأولادِ فهو إدماجٌ[٤]؛ لأنَّ الاشتغالَ بالأولادِ، والشَّفقةَ عليهم، وتدبيرَ شُؤونِهم، وقَضاءَ الأوقاتِ في التَّأنُّسِ بهِم؛ مِن شأنِه أنْ يُنسِيَ عن تذكُّرِ أمْرِ اللهِ ونهيِه في أوقاتٍ كثيرةٍ؛ فالشُّغلُ بهذَيْنِ أكثَرُ مِنَ الشُّغلِ بغَيرِهما. ومتى كان اللَّهوُ عن ذِكْرِ اللَّهِ بالاشتِغالِ بغَيرِ الأموالِ وغَيرِ الأولادِ، كان أَوْلَى بحُكمِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

النَّهيِ، والوعيدِ عليه(١).

- و(لا) في قولِه: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ نافيةٌ عاطفةٌ ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ على ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، والمعطوفُ عليه مدخولُ (لا) النَّاهيةِ؛ لأنَّ النَّهيَ يتضمَّنُ النَّفيَ؛ إذْ هو طلَبُ عدمِ الفِعلِ، فـ(لا) النَّاهيةُ أصلُها (لا) النَّافيةُ أُشْرِبَتْ معنى النَّهيِ عِندَ قصدِ النَّهيِ، فجزَمَتِ الفِعلَ حملًا على مُضادَّةِ معنى لامِ الأمْرِ، فأُكِّدَ النَّهيُ عن الاشتغالِ بالأولادِ بحرفِ النَّفيِ؛ ليكونَ للاشتغالِ بالأولادِ حظٌّ مِثلُ حظِّ الأموالِ(٢).

- قَولُه تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وكذلك في قَولِه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ﴾ [سبأ: ٣٧] وقولِه: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨] تقديمُ المالِ على الولدِ؛ وجاء ذِكرُ البَنينَ مقدَّمًا في غيرِها كما في قَولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]، وقولِه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ تقديمَ الأموالِ في تلك المواضِعِ الثَّلاثةِ لِأنَّه يَنْتَظِمُها معنًى واحدٌ وهو التَّحذيرُ مِن الاشتغالِ بها، والحرصِ على تحصيلِها حتَّى يَفُوتَه حَظُّه مِن اللهِ والدَّارِ الآخرةِ! فنَهَى في موضعٍ عن الالتهاءِ بها، وأخبرَ في موضعٍ أنَّها فِتنةٌ، وأخبرَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ الَّذي يُقَرِّبُ عبادَه إليه إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ، لا أموالُهم ولا أولادُهم، ففي ضِمْنِ هذا النَّهيُ عن الاشتغالِ بها عمَّا يُقَرِّبُ إليه، ومعلومٌ أنَّ اشتغالَ النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥١).

بأموالِهم والتَّلاهيَ بها أعظمُ مِنِ اشتغالِهم بأولادِهم، وهذا هو الواقعُ، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيستغرقُه اشتغالُه بمالِه عن مصلحةِ وَلَدِه وعن معاشرتِه وقُرْبه، وأمَّا تقديمُهم على الأموالِ في تَيْنك الآيتَينِ فلِحكمةٍ باهرةٍ؛ وهي أنَّ آيةَ «براءة» متضمِّنةٌ لوعيدِ مَن كانت تلك الأشياءُ المذكورةُ فيها أحَبَّ إليه مِن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ومعلومٌ أنَّ تَصَوُّرَ المجاهدِ فِرَاقَ أهلِه وأولادِه وآبائه وإخوانِه وعشيرتِه تمنعُه مِن الخروجِ عنهم أكثرَ ممَّا يمنعُه مفارقتُه مالَه؛ فإنْ تَصَوَّرَ معَ هذا أنْ يُقتَلَ فيُفَارِقَهم فِراقَ الدَّهرِ؛ نَفَرَتْ نفْسُه عن هذه أكثرَ وأكثرَ، ولا يكادُ عندَ هذا التَّصوُّرِ يَخْطُرُ له مُفارَقةُ مالِه! بل يغيبُ بمُفارَقةِ الأحبابِ عن مفارقةِ المالِ؛ فكان تقديمُ هذا الجنسِ أَولى مِن تقديمِ المالِ.

وأمَّا آيةُ (آل عمران)؛ فإنَّها لما كانت في سياقِ الإخبارِ بما زُيِّن للنَّاسِ مِن الشَّهواتِ التي آثَروها على ما عندَ الله واستَغْنَوا بها، قدَّم ما تَعَلُّقُ الشَّهوةِ به أقوَى، وهو النِّساءُ، التي فتنتُهنَّ أعظمُ فِتنِ الدُّنيا، ثمَّ ذكَر البنينَ المتولِّدينَ منهنَّ، فالإنسانُ يشتهي المرأةَ للَّذةِ والولدِ، وكلاهما مقصودٌ له لذاتِه، ثمَّ ذكَر شهوةَ الأموالِ؛ لأنَّها تُقْصَدُ لغيرِها، فشهوتُها شهوةُ الوسائلِ[(١)].

وقيل: قدَّمَ ذِكْرَ الأموالِ على ذِكْرِ الأولادِ هنا؛ لأنَّها أهمُّ بحسَبِ السِّياقِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تَخصيصِ ذِكرِ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك الإيثارَ في معْنى الاستبدالِ، الَّذي هو بمَنزلةِ البيعِ والشِّراءِ. وفي التَّعريفِ الجنسيِّ في ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وتَوسيطِ ضَميرِ الفصلِ بيْنَه وبيْنَ المبتدأِ؛ إشعارٌ بأنَّ الكاملينَ في الخسارةِ هؤلاء، وأنَّ خَسارَهم

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

فوقَ كلِّ خُسرانٍ؛ حيثُ باعوا العظيمَ الباقيَ بالحقيرِ الفاني، وإنْ رَبِحوا في تجارتِهمُ الظَّاهرةِ، ودخَلَ في هذا العمومِ وعيدُ كلِّ مَن ذَهَلَ عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وشُغِلَ عن الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وعن طلَبِ العِلمِ، وعن النَّصيحةِ للمُسلمينَ؛ بسببِ مُراعاةِ شأنِ الأموالِ والأولادِ(١).

- وأفاد ضميرُ الفَصلِ (هم) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرَ صفةِ الخاسرِ على الَّذينَ يَفعلونَ الَّذي نُهُوا عنه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ(٢) للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ، كأنَّ خُسرانَ غَيرِهم لا يُعَدُّ خُسرانًا بالنِّسبةِ إلى خُسرانِهم(٣).

- والإشارةُ إليهم بقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّهُمُ اسْتحَقُّوا ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ بسببِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، أَعْني: اللَّهوَ عن ذِكْرِ اللهِ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إبطالٌ ونقضٌ لكَيدِ المُنافِقينَ حِينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، وهو يَعُمُّ الإنفاقَ على المُلتفِّينَ حولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإنفاقَ على غَيرِهم؛ فكانت الجملةُ كالتَّذييلِ(٥).

- و(مِن) للتَّبعيضِ، أي: وأنفِقوا بعضَ ما رزَقْناكم، وهذه تَوسعةٌ مِنَ اللهِ على عبادِه(٦).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤١).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق))
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٣).

- قولُه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لِلاهتمامِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ(١).

- قولُه: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (لولا) حرفُ تَحضيضٍ، والتَّحضيضُ الطَّلَبُ الحَثيثُ المُضْطَرُّ إليه(٢).

- وحقُّ الفِعلِ بعدَ (لولا) أنْ يكونَ مُضارِعًا، وإنَّما جاء ماضيًا هنا ﴿أَخَّرۡتَنِيٓ﴾؛ لتأكيدِ إيقاعِه في دُعاءِ الدَّاعي حتَّى كأنَّه قد تحقَّقَ، وقرينةُ ذلك ترتيبُ فِعْلَيْ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عليه(٣).

- ووصْفُ الأجَلِ بـ﴿قَرِيبٖ﴾ تَمهيدٌ لتحصيلِ الاستجابةِ، بِناءً على مُتعارَفِ النَّاسِ أنَّ الأمرَ اليسيرَ أرْجَى لِأنْ يَستجيبَه المسؤولُ، فيغلِبَ ذلك على شعورِهم حِينَ يَسألونَ اللهَ فتَنساقُ بذلك نفوسُهم إلى ما عرَفوا(٤).

- قولُه: ﴿وَأَكُن﴾ مَجزومٌ بسكونِ آخِره، على اعتبارِه جوابًا للطَّلَبِ مُباشَرةً؛ لعدمِ وجودِ فاءِ السَّببيَّةِ فيه، واعتبارِ الواوِ عاطفةً جملةً على جملةٍ، وليستْ عاطفةً مفردًا على مفردٍ؛ وذلك لقَصْدِ تَضمينِ الكلامِ معنى الشَّرطِ زِيادةً على معنى التَّسبُّبِ، فيُغْنِي الجزمُ عن فِعلِ شرطٍ، فتقديرُهُ: إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ؛ جمعًا بيْنَ التَّسبُّبِ المُفادِ بالفاءِ، والتَّعليقِ الشَّرطيِّ المُفادِ بجزمِ الفِعلِ. وإذْ قد كان الفِعلُ الأوَّلُ هو المُؤثِّرَ في الفِعلَيْنِ الواقِعِ أحَدُهُما بعْدَ فاءِ السَّببيَّةِ، والآخَرُ بعدَ الواوِ العاطفةِ عليهِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقَدْ أفاد الكلامُ التَّسبُّبَ والتَّعليقَ في كِلا الفِعلَين، وذلك يرجِعُ إلى مُحسِّنِ الاحتباكِ[١]، فكأنَّه قيل: لولا أخَّرْتني إلى أجَلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكونَ مِن الصَّالحينَ، إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أصَّدَّقْ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ. ومِن لطائفِ هذا الاستعمالِ أنَّ هذا السَّائلَ بعْدَ أنْ بثَّ سؤالَه أعقَبَه بأنَّ الأمْرَ مُمكِنٌ، فقال: إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أصَّدَّقْ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ، وهو مِن بَدائعِ الاستعمالِ القرآنيِّ لقَصْدِ الإيجازِ وتوفيرِ المعاني[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ؛ فالواوُ اعتراضيَّةٌ تذكيرًا للمُؤمنينَ بالأجَلِ لكلِّ رُوحٍ عندَ حُلولِها في جسدِها حينَ يُؤمَرُ المَلَكُ الَّذي يَنفُخُ الرُّوحَ بكَتْبِ أجَلِه وعمَلِه ورِزقِه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ؛ فالأجَلُ هو المُدَّةُ المُعيَّنةُ لحياتِه، لا يُؤَخَّرُ عن أمَدِه، فإذا حضَرَ الموتُ كان دعاءُ المُؤمِنِ اللهَ بتأخيرِ أجَلِه مِنَ الدُّعاءِ الَّذي لا يُستجابُ؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ الآجالَ[٣].

- ﴿وَلَن﴾ لتأكيدِ نفيِ التَّأخيرِ. وعمومُ ﴿نَفۡسًا﴾ في سِياقِ النَّفيِ يَعُمُّ نفوسَ المُؤمنينَ وغَيرِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ [المنافقون: ٩]، أو تذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ويُفيدُ بِناءُ الخبرِ على

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٥).

الجملةِ الاسميَّةِ تحقيقَ عِلمِ اللهِ بما يعمَلُه المُؤمِنونَ. ولَمَّا كان المُؤمِنونَ لا يُخامِرُهم شكٌّ في ذلك، كان التَّحقيقُ والتَّقَوِّي راجعًا إلى لازمِ الخبرِ، وهو الوعدُ والوعيدُ، والمقامُ هُنا مقامُهما؛ لأنَّ الإنفاقَ المأمورَ به مِنه الواجبُ والمندوبُ، وفِعلُهما يَستحِقُّ الوعْدَ، وترْكُ أوَّلِهما يَستحِقُّ الوعيدَ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرُۢ﴾ دونَ (عليمٍ)؛ لِمَا تُؤْذِنُ به مادَّةُ خَبيرٍ مِنَ العِلمِ بالأمورِ الخفيَّةِ؛ لِيُفيدَ أنَّه تعالَى عليمٌ بما ظهَرَ مِنَ الأعمالِ وما بَطَنَ؛ مِثلَ أعمالِ القلبِ الَّتي هي العزائمُ والنِّيَّاتُ، وإيقاعُ هذه الجملةِ بعْدَ ذِكْرِ ما يقطَعُه الموتُ مِن ازْديادِ الأعمالِ الصَّالحةِ إيماءٌ إلى أنَّ ما عسى أنْ يقطَعَه الموتُ مِنَ العزمِ على العملِ إذا كان وقتُه المُعيَّنُ له شرعًا مُمْتَدًّا، كالعُمرِ للحجِّ على المُستطيعِ لِمَن لم يتوقَّعْ طُرُوَّ مانعٍ، وكالوقتِ المختارِ للصَّلواتِ؛ أنَّ حَيلولةَ الموتِ دونَ إتْمامِه لا يُرزِئُ المؤمنَ ثَوابَه؛ لأنَّ المؤمنَ إذا اعتادَ حِزبًا، أو عزَمَ على عملٍ صالحٍ، ثمَّ عرَضَ له ما مَنَعَه منه؛ أنَّ اللهَ يُعطِيه أجْرَه[٢].

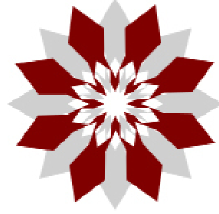


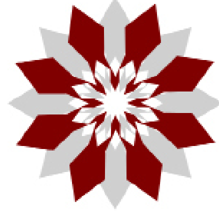
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

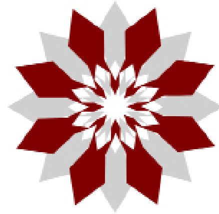
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ

سُورَةِ التَّغابُنِ







سورةُ التَّغابُنِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّغابُنِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّغابُنِ مُختَلَفٌ في كَونِها مَدَنيَّةً، أو مَكِّيَّةً، أو مكِّيَّةً مدَنيَّةً[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ حَقيقةِ التَّغابُنِ وأسبابِه وعَواقِبِه، كما تُرشِدُ إلى طريقِ الفَوزِ والفَلاحِ[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ التَّغابُنِ؛ لوُقوعِ لَفظِ التَّغابُنِ فيها -ولم يَقَعْ في غيرِها مِنَ القُرآنِ- في قَولِه فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، ولا تُعرَفُ بغيرِ هذا الاسمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٨).

قال ابن كثير: (هذه السُّورةُ هي آخرُ المُسبِّحاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

(٢) قال السمعاني: (هي مَدَنيَّةٌ في قولِ الأكْثَرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٨).

وكذا قال القرطبيُّ، ونسبَ ابنُ الجَوزيِّ وابنُ عاشورٍ هذا القولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٨).

وممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: الرَّازيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٢).

وقيل: مِن قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخِرِ السُّورةِ مَدَنيٌّ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والثعلبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (مدَنيَّةٌ، وفيها مكِّيٌّ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)) (٧/ ١٨٦، ١٨٩).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تسبيحُ المخلوقاتِ للهِ تعالى، وأنَّ المُلْكَ للهِ وَحْدَه، وأنَّه الحقيقُ بإفرادِه بالحَمْدِ، وبيانُ ألوانٍ مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، ومِنَنِه على خَلْقِه.

٢- إنذارُ المُشرِكينَ بذِكرِ ما حَلَّ بمَن قَبْلَهم مِن الأُمَمِ، مع بيانِ السَّبَبِ فيما نالهم مِن ذلك.

٣- الرَّدُّ على المشركينَ الَّذين زَعَموا أنَّهم لن يُبعَثوا.

٤- المقابَلةُ بيْنَ حُسنِ عاقبةِ المؤمنينَ، وسُوءِ عاقبةِ الكافِرينَ.

٥- بيانُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يَقَعُ في هذا الكَونِ هو بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

٦- تحريضُ المؤمنينَ على طاعةِ اللهِ تعالى ورَسولِه.

٧- الإخبارُ بأنَّ مِن الأزواجِ والأولادِ أعداءً للمَرءِ، وأنَّ الأموالَ والأولادَ فِتنةٌ.

٨- الحَثُّ على التَّقْوى والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى.



الآيات (١-٤)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةٌ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه يُنزِّهُه تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وله وَحْدَه المُلْكُ التَّامُّ، وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أقسامَ خَلْقِه في هذه الحياةِ، فيقولُ: هو الَّذي أوجَدَكم مِنَ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و(٢٣/ ٣٤٢).
قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

العَدَمِ -أيُّها النَّاسُ- فمِنكم كافِرٌ، ومنكم مؤمِنٌ، واللهُ بَصيرٌ بجميع أعمالِكم.

ثمَّ يقولُ تعالى: خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، وصوَّركم فأحسَنَ صُوَرَكم وأشكالَكم، وإليه مَرجِعُ جَميعِ العِبادِ.

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى شُمولَ عِلمِه لكلِّ شيءٍ، فيقولُ: يَعلَمُ سُبحانَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، ويَعلَمُ ما تُسِرُّونَه مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وما تُظهِرونَه، واللهُ عليمٌ بما في قُلوبِ عِبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: يُنزِّهُ اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ، وجَميعُ ما في الأرضِ مِن مخلوقاتِه[1].

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾.

أي: للهِ وَحْدَه المُلْكُ التَّامُّ المُطلَقُ في الدُّنيا والآخِرةِ، فهو مُتصَرِّفٌ في جميعِ خَلْقِه، ماضٍ فيهم حُكْمُه، نافِذٌ فيهم أمْرُه[2].

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾.

أي: هو وَحْدَه المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ، وهو المُستَحِقُّ دونَ غَيرِه للثَّناءِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٩).

وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ.

يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (الإسراء) الآية (٤٤)، وأوَّل سورة (الحديد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

كَمالِ صِفاتِه وأفعالِه، وما يَخلُقُه ويُقَدِّرُه ويَحكُمُ به سُبحانَه[١].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ شامِلةٍ على فِعلِ ما يشاءُ، بلا مُمانَعةٍ ولا مُدافَعةٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه[٢].

ثُمَّ ذكَر الله تعالى بعضَ مقدوراتِه، فقال[٣]:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ -أيُّها النَّاسُ- فمِنكم الكافِرُ الجاحِدُ، ومنكم المؤمِنُ المصَدِّقُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٩٦).

قال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قال عليُّ بنُ أبي طَلْحة الوالِبيُّ: خلَقَكم كفَّارًا وخلَقَكم مُؤمنينَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ...

والقولُ الثَّاني في الآيةِ أنَّ مَعناها: فمِنكم كافرٌ بأنَّ اللهَ خلَقَه، ومنكم مؤمنٌ ومنكم فاسقٌ. والمعروفُ هو القولُ الأوَّلُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٨، ٤٤٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المعنى: خَلَقكم كُفَّارًا ومُؤمِنينَ-: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، =

= ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩٥). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٣-١٠٥).

قال ابن جُزَي: (فالإيمانُ والكفرُ على هذا هو ما قضى اللهُ على كلِّ واحدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو الخالِقُ لكم على هذه الصِّفةِ، وأراد منكم ذلك، فلا بُدَّ مِن وُجودِ مُؤمِنٍ وكافِرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قيل: الفاء في ﴿فَمِنكُمْ﴾ تفصيليَّةٌ؛ فما بعدَ الفاءِ تفصيلٌ لقولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، حيث قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، ثمَّ شرَع في البيانِ وقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ أي: مُقدَّرٌ كُفرُه، ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مُقدَّرٌ إيمانُه. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٥٤٩) و(١٥/ ٤٤٧).

قال الألوسي: (لأنَّ كَوْنَ بعضِهم أو بعضٍ منهم كافرًا، وكونَ بعضِهم أو بعضٍ منهم مؤمنًا مرادٌ منه، فالفاءُ مِثلُها في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] إلخ، فيكونُ الكفرُ والإيمانُ في ضِمنِ الخَلقِ، وهو الَّذي تؤيِّدُه الأخبارُ الصَّحيحةُ، كخبَرِ البُخاريِّ «٣٢٠٨» ومسلمٍ «٢٦٤٣» والتِّرمذيِّ «٢١٣٧» وأبي داودَ «٤٧٠٨» عن ابنِ مسعودٍ قال: حدَّثَنا رسولُ الله صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم -وهو الصَّادقُ المصدوقُ-: «إنَّ خَلْقَ أحَدِكم يُجمَعُ في بَطنِ أُمِّه أربعينَ يومًا...» الحديثَ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، وجوَّزه الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩).

قال ابن جرير: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يقولُ: فمنكم كافرٌ بخالِقِه وأنَّه خلَقَه. ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يقولُ: ومنكم مُصَدِّقٌ به، موقنٌ أنَّه خالقُه وبارئُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥).

وقال ابن جزي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فكان يجبُ على كلِّ واحدٍ منكم الإيمانُ به، لكنْ مِنكم مَن كفَر ومِنكم مَن آمَنَ، فالكفرُ والإيمانُ على هذا هو مِن اكتسابِ العبدِ...؛ لأنَّ عطْفَه على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالفاءِ يَقتضي أنَّ الكفرَ والإيمانَ واقِعانِ بعدَ الخِلْقةِ، لا في أصلِ الخِلقةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

قيل: الفاءُ على هذا للتَّرتيبِ، كاللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهي كالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وهو الصَّادِقُ المصدوقُ-: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ، ثمَّ يَنفُخُ فيه الرُّوحَ؛ فإنَّ الرَّجُلَ منكم لَيَعمَلُ حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَ الجنَّةِ إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه كِتابُه، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، ويَعمَلُ حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَ النَّارِ إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ))(١).

وعن عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا في جِنازةٍ في بَقيعِ الغَرْقَدِ، فأتانا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَعَد وقعَدْنا حَوْلَه، ومعه مِخْصَرةٌ(٢)، فنَكَّسَ(٣) فجَعَلَ يَنكُتُ(٤) بمِخْصَرتِه، ثمَّ قال: ما مِنْكم من أحدٍ، ما مِن نَفْسٍ مَنفُوسةٍ إلَّا وقد كَتَبَ اللهُ مَكانَها مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ، وإلَّا وقد كُتِبَت شَقيَّةً أو سعيدةً! فقال رجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَمكُثُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العَمَلَ؟! فقال: مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فسيَصيرُ إلى عَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، ومَن كان من أهلِ الشَّقاوةِ فسيَصيرُ إلى

= ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وليست للتَّفصيلِ. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤٦)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٥).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

(٢) المِخْصَرةُ: ما يَختَصِرُه الإنسانُ بيَدِه فيُمسِكُه مِن عَصًا، أو عُكَّازةٍ، أو مِقْرَعةٍ، أو قَضيبٍ، وقد يَتَّكِئُ عليه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٦).

(٣) نَكَّسَ: أي: خَفَض رأسَه وطأطأ إلى الأرضِ على هيئةِ المهمومِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٥).

(٤) يَنكُتُ: أي: يَخُطُّ بها خَطًّا يَسيرًا مرَّةً بعدَ مرَّةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٥).

عَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، اعمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ أمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لعمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قرَأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]))[١].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: واللهُ الَّذي خلَقَكم بَصيرٌ بجميعِ أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها، يَراها ويَعلَمُها، لا يَخْفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ الإنسانِ المكَلَّفِ المأمورِ المنْهيِّ؛ ذكَرَ خَلْقَ باقي المخلوقاتِ[٣].

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، ولم يَخلُقْهما باطِلًا ولا عَبَثًا[٤].

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١).

قال ابنُ كثير: (هو البَصيرُ بمَن يَستَحِقُّ الهِدايةَ مِمَّن يَستَحِقُّ الضَّلالَ، وهو شَهيدٌ على أعمالِ عِبادِه، وسيَجزيهم بها أتمَّ الجَزاءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

قيل: المعنى: خلَقَهما بالعَدلِ والإنصافِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني. =

كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

أي: وصوَّركم اللهُ فأحسَنَ أشكالَكم، وتخطيطَ خِلقَتِكم، فصِرْتُم ذَوِي شَكلٍ

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٩).

وقيل: المعنى: خلَقَهما بالحِكمةِ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والبيضاوي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

وقيل: المعنى: خلَقَهما حقًّا يَقينًا لا رَيبَ فيه. وممَّن ذهب إليه: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وقيل: معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمرِ الَّذي يُطابِقُه الواقِعُ لا زائِدًا عنه ولا ناقِصًا، بل جاء الواقِعُ منها مُطابِقًا لِما أراد سواءً، لا كما يريدُ أحَدُنا الشَّيءَ فإذا أوجَدَه لم يكُنْ على وَفْقِ مُرادِه. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٠٦، ١٠٧).

والباءُ قيل: هي بمعنى اللَّامِ، أي: خلَق ذلك لإظهارِ الحقِّ، وهو أن يَجزيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه. وقيل: الباءُ للمُلابَسةِ، أي: خلَق ذلك خلْقًا مُلابِسًا للحقِّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤).

جَميلٍ، ومَنظَرٍ بَهِيٍّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ عِبادِه بعْدَ مَوتِهم[(٢)].

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَرَّر بما مضى إحاطةُ قُدرةِ اللهِ تعالى بما دَلَّ على ذلك مِن إبداعِه للخَلْقِ على هذا الوَجهِ المُحكَمِ، وشَهِدَ البُرهانُ القاطِعُ بأنَّ ذلك صُنعُه وَحْدَه، لا فِعْلَ فيه لطبيعةٍ ولا غَيرِها- دَلَّ على أنَّ ذلك بسَبَبِ شُمولِ عِلْمِه؛ إشارةً إلى أنَّ مَن لم يكُنْ تامَّ العِلمِ فهو ناقِصُ القُدرةِ، فقال[(٣)]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥).

قيل: المرادُ: عُمومُ النَّاسِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جريرٍ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كَثيرٍ، واستَظهَرَه الشَّوكانيُّ، وذهب إليه السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقيل المرادُ: آدَمُ عليه السَّلامُ؛ حيث خلقَه اللهُ تعالى بيَدِه كرامةً له. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٩).

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلْقِه[١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تُسِرُّونَه فيما بَيْنَكم مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وما تُظهِرونَه منها[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: واللهُ بالِغُ العِلم بما في قُلوبِ عِبادِه مِن نيَّاتٍ ومَقاصِدَ، وخَبايا وأسرارٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ مِن ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال الألوسي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ هودٍ [آية: ٥]: (والمرادُ بذاتِ الصُّدورِ: الأسرارُ المُستَكِنَّةُ فيها، أو القلوبُ الَّتي في الصُّدورِ، ... أي إنَّه تعالى مُبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضمَراتِ جميعِ النَّاسِ وأسرارِهم، أو بالقلوبِ وأحوالِها، فلا يَخفى عليه سِرٌّ مِن أسرارِها، فكيف يَخفى عليه ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنونَ؟!). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٩٨).

وقال الرازي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ [آية: ١٥٤]: (ذاتُ الصُّدورِ هي الأشياءُ الموجودةُ في الصُّدورِ، وهي الأسرارُ والضَّمائرُ، وهي ذاتُ الصُّدورِ؛ لأنَّها حالَّةٌ فيها، مُصاحِبةٌ لها، وصاحِبُ الشَّيءِ ذُوه، وصاحِبَتُه ذاتُه). ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٧).

وقال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: واللهُ ذو عِلمٍ بضمائرِ صُدورِ عِبادِه، وما تَنطوي عليه نُفوسُهم الَّذي هو أخفى مِن السِّرِّ، لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ مِن ذلك. يقولُ تعالى ذِكْرُه لِعِبادِه: احذَروا أن تُسِرُّوا غيرَ الَّذي تُعلِنون، أو تُضمِروا في أنفُسِكم غيرَ ما تُبْدُونه؛ فإنَّ ربَّكم لا يَخفى عليه مِن ذلك شيءٌ، وهو مُحْصٍ جميعَه، وحافِظٌ عليكم كلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ نَبَّه بعِلْمِه ما في السَّمَواتِ والأرضِ، ثمَّ بعِلْمِه ما يُسِرُّه العِبادُ ويُعلِنونَه، ثمَّ بعِلْمِه ذواتِ الصُّدورِ: أنَّ شَيئًا مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجُزئيَّاتِ غَيرُ خافٍ عليه، ولا عازِبٍ عنه؛ فحَقُّه أن يُتَّقى ويُحذَرَ، ولا يُجترَأَ على شَيءٍ مِمَّا يُخالِفُ رِضاه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها مِنَ الأسرارِ الطَّيِّبةِ، والخبايا الخَبيثةِ، والنِّيَّاتِ الصَّالِحةِ، والمقاصِدِ الفاسِدةِ، فإذا كان عليمًا بذاتِ الصُّدورِ تَعَيَّنَ على العاقِلِ البَصيرِ أن يَحرِصَ على حِفظِ باطِنِه مِنَ الأخلاقِ الرَّذيلةِ، ويَجتَهِدَ في اتِّصافِه بالأخلاقِ الجَميلةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ بما في القُلوبِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: التَّحذيرُ مِن إضمارِ ما لا يَرضى به اللهُ؛ لأنَّك إذا أَضْمَرْتَ ما لم يَرْضَ به اللهُ فسوف يُحاسِبُك عليه، وإنْ كان لا يبدو للنَّاسِ. فعلى المرءِ أنْ يُحاسِبَ نفْسَه دائمًا، ويَنظُرَ ما في قلْبِه: هل في قلْبِه الخيرُ، وإرادةُ ما يُرضي اللهَ، أو غيرُ ذلك، فعليه أنْ يُطهِّرَ قلبَه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، وإنَّ كثيرًا ممَّن يكونُ له المُلكُ والغِنَى لا يكونُ محمودًا، بل يكونُ مذمومًا؛ إذِ الحمدُ يتضمَّنُ الإخبارَ عن المحمودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٠).

بمَحاسنِه المحبوبةِ، فيتضَمَّنُ إخبارًا بمَحاسِنِ المحبوبِ محبَّةً له، وكثيرٌ ممَّن له نصيبٌ مِن الحَمدِ والمحبَّةِ يكونُ فيه عَجزٌ وضَعْفٌ وذُلٌّ يُنافي العظَمةَ والغِنى والمُلْكَ؛ فالأوَّلُ يُهابُ ويُخافُ ولا يُحَبُّ، وهذا يُحَبُّ ويُحْمَدُ، ولا يُهابُ ولا يُخافُ! والكمالُ اجتِماعُ الوَصفَينِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يدُلُّ على أنَّه خَلَق الكافِرَ كافِرًا، والمؤمنَ مُؤمِنًا، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بيْنَ الصَّحابةِ، وجميعِ أهلِ السُّنَّةِ(٢)، فاللهُ تعالى ذَكَر أنَّه خَلَق العِبادَ، وجَعَل منهم المؤمِنَ والكافِرَ، فإيمانُهم وكُفرُهم كُلُّه بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وهو الَّذي شاء ذلك منهم، بأنْ جَعَل لهم قُدرةً وإرادةً، بها يتمَكَّنونَ مِن كُلِّ ما يُريدونَ مِن الأمرِ والنَّهيِ(٣).

٣- أنَّه لا بُدَّ لبني آدَمَ مِن الاختِلافِ، وهذا هو الواقِعُ، وقد دَلَّت عليه آياتٌ كَثيرةٌ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾(٤)، وفيه حِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في جَعْلِ الخلْقِ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ؛ فلولا هذا الانقِسامُ ما ظَهَر فَضْلُ الإيمانِ، ولا شُرِعَ الجهادُ ولا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ، ولا أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، لكنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَتْ أنْ يكونَ النَّاسُ قِسمَينِ(٥).

٤- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وقال: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فقسمَ اللهُ سبحانَه النَّاسَ قِسمَينِ،

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٦٤).

ولم يَذكُرْ قِسمًا ثالثًا، وليس فيه دليلٌ على مَذهَبِ الخوارجِ الَّذين يقولونَ: إنَّ النَّاسَ إمَّا مُؤمِنٌ أو كافِرٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يَجمَعَ بيْن الإيمانِ والكفرِ؛ لأنَّ المؤمنَ إذا لم يَفعَلْ ما يَخرُجُ به مِن الإيمانِ فإنَّه لا يَصدُقُ عليه وَصفُ الخبيثِ على سَبيلِ الإطلاقِ، بل هو مِن قِسْمِ الطَّيِّبِ، لكِنَّ فيه خُبثًا، وهذا الطِّيبُ غَلَبَ على خُبْثِه، كما أنَّ الكافرَ وإنْ فَعَلَ ما يُحمَدُ عليه كالبِرِّ والجُودِ، والشَّجاعةِ وطَلاقةِ الوَجهِ، وما أَشْبهَ ذلك، هذه خِصالُ إيمانٍ، لكِنَّ خُبْثَه أعظمُ مِن هذه الخِصالِ، فهو مِن قِسْمِ الخُبَثاءِ وليس مِن قِسْمِ الطَّيِّبِينَ. إذَن نقولُ: هؤلاء المؤمِنونَ الَّذين عِندَهم صفاتُ كُفْرٍ: مِن قِسْمِ الطَّيِّبِ الَّذي فيه خُبْثٌ، لكِنَّ طِيبَه يَغلِبُ على خُبْثِه، والكُفَّارُ الَّذين فيهم خِصالٌ مِن الطِّيبِ: مِن قِسْمِ الخَبيثِ، لكنَّ الطِّيبَ الَّذي فيهم قدِ انْغَمَرَ في جانبِ الخُبثِ، وعلى هذا فليس هناك قِسْمٌ ثالثٌ، بل هما قِسمانِ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قد كان مِن أفرادِ هذا النَّوعِ مَن كان مُشَوَّهَ الصُّورةِ، سَمِجَ الخِلْقةِ، فكيف أحسَنَ صُوَرَهم؟

الجوابُ: أنَّ الحُسنَ كغَيرِه مِن المعاني؛ على طَبَقاتٍ ومراتِبَ؛ فلانحطاطِ بَعضِ الصُّوَرِ عن مراتِبِ ما فَوقَها انحِطاطًا بَيِّنًا، وإضافتِها إلى المُوفي عليها لا تُستملَحُ، وإلَّا فهي داخِلٌ في حَيِّزِ الحُسنِ غَيرُ خارجٍ عن حَدِّه[2]. وقد جعَلَهم أحسَنَ الحيوانِ كُلِّه وأبهاه، بدليلِ أنَّ الإنسانَ لا يتمَنَّى أن تكونَ صُورتُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧).

مِن أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّه قد يَجتمِعُ في العبدِ بعضُ شُعَبِ الإيمانِ، وبعضُ شُعَبِ الكفرِ أو النِّفاقِ الَّتي لا تُنافي أَصْلَ الإيمانِ وحقيقتَه، خِلافًا لِطَوائفِ أهلِ الأهواءِ مِن الخَوارجِ والمُعتزِلةِ والجَهميَّةِ والمُرجِئةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٥٣)، ((الإيمان الأوسط)) لابن تيمية (ص: ٣٩٨)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣).

خِلافِ ما يرَى من سائِرِ الصُّوَرِ، ومِن حُسْنِ صُورتِه أنَّه خُلِقَ مُنتَصِبًا غيرَ مُنكَبٍّ، كما قال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤][١]، فصُورةُ الإنسانِ مُستوفيةً الحُسنَ مُتماثِلةً فيه، لا يَعتورُها مِن فَظاعةِ بَعضِ أجزائِها ونُقصانِ الانتفاعِ بها ما يُناكِدُ مَحاسِنَ سائرِها، بخِلافِ مَحاسِنِ أحاسِنِ الحيوانِ مِن الدَّوابِّ والطَّيرِ والحِيتانِ؛ مِن مشْيٍ على أربعٍ، مع انتكاسِ الرَّأسِ غالبًا، أو زحْفٍ، أو وَثْبٍ في المشْيِ في البعضِ، ولا تَعْتَورُ الإنسانَ نقائصُ في صُورتِه إلَّا مِن عوارِضَ تَعرِضُ في مُدَّةِ تكوينِه، أو مِن عوارِضَ تَعرِضُ له في مُدَّةِ حياتِه، فتُشوِّهُ بعضَ محاسِنِ الصُّوَرِ، فلا يُعَدُّ ذلك مِن أصلِ تصويرِ الإنسانِ، على أنَّ ذلكَ مع نُدرتِه لا يُعَدُّ فظاعةً، ولكنَّه نَقْصٌ نِسبيٌّ في المحاسنِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ تحريمُ التَّصويرِ؛ فإنَّ مَن صَوَّرَ فقد نازَعَ اللهَ تعالى فيما هو مِن اختِصاصِه -وهو الخَلْقُ-؛ ولهذا جاء في الحَديثِ أنه يُقالُ للمُصَوِّرِينَ يومَ القيامةِ: ((أَحيُوا ما خَلَقْتُم))[٣]، وهذا هو الصَّحيحُ: أنَّ التَّصويرَ حرامٌ، بل هو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَعَنَ فاعِلَه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧، ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢١٠٥)، ومسلمٌ (٢١٠٧) من حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٠).

وحديثُ لعنِ النبيِّ لفاعِلِ التَّصويرِ أخرجه البخاريُّ (٥٣٤٧) مِن حديثِ أبي جُحَيْفةَ وَهْبِ بنِ عبدِ الله السُّوَائيِّ رضيَ الله عنه.

أمَّا صُوَرُ غَيرِ ذاتِ الأرْواحِ -كالشَّجَرِ ونَحوِه- فهي مباحةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، والحنابلة. يُنظر: ((البناية)) للعيني (٢/ ٤٥٨)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٣٣٧)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٣٣٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٨٠).
=

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذَكَر تعالى عِلْمَه بما في السَّمَواتِ والأرضِ، فعَمَّ عِظامَ المخلوقاتِ، ثمَّ تدرَّجَ القَولُ إلى أخفَى مِن ذلك، وهو جميعُ ما يَقولُه النَّاسُ في سِرٍّ وفي عَلَنٍ، ثمَّ تدرَّج إلى ما هو أخفَى، وهو ما يَهجِسُ بالخواطِرِ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه تعالى يَعلَمُ الأشياءَ قبْلَ وُجودِها الخارجيِّ، وهذا ممَّا لا يُنكِرُه أحدٌ سِوى شِرْذِمةٍ مِن المُعتزِلةِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- لَمَّا كان جُلُّ ما اشتمَلَتْ عليه هذِه السُّورةُ الكريمةُ إبطالَ إشراكِ المُشركينَ وزجْرَهُم عن دِينِ الإشراكِ بأَسْرِه، وعن تَفاريعِه، الَّتي أعظَمُها إنكارُهُم البعثَ، وتكذيبُهُم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتكذيبُ القرآنِ، وتلك

= وأمَّا الصُّوَرُ المُجَسِّمةُ لذواتِ الأرواحِ (التماثيل) فهي محرَّمةٌ بالإجماعِ، وممن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ العربيِّ. يُنظر: ((المسالك في شرح موطأ مالك)) لابن العربي (٧/ ٥٢٢)، ويُنظر: ((عارضة الأحوذي)) (٧/ ٢٥٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٣٨٨)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٢٦٤).

أمَّا الصُّوَرُ التي ليس لها ظِلٌّ -إذا كانت ذاتَ رُوحٍ، كصورِ الحَيوانِ- فهي محرَّمةٌ، وهذا مذهَبُ الجُمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابلةِ. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجيم (٢/ ٢٩)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ٢٤٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٨٠).

أمَّا التَّصويرُ بالآلَةِ (الكاميرا)، فهذا موضعُ خلافٍ بينَ المتأخرينَ؛ فمِنهم مَن منَعه، ومنهم مَن أجازه. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٩٨).

أصولُ ضَلالِهم؛ ابتُدِئَتِ السُّورةُ بالإعلانِ بضلالِهِمْ وكُفرانهِمُ المُنعِمَ عليهم؛ فإنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ يُسبِّحُ للهِ تعالَى عن النَّقائصِ، فالمعنى: يُسبِّحُ للهِ ما في السَّمواتِ والأرضِ وأنتم بخِلافِ ذلك، وهذا يُفيدُ ابتِداءً تقريرَ تَنزيهِ اللهِ تعالَى وقوَّةِ سُلطانِه؛ لِيَزدادَ الَّذينَ آمَنوا إيمانًا، ويكونَ لهم تعليمًا وامتِنانًا، ويُفيدُ ثانيًا بطريقِ الكِنايةِ تعريضًا بالمُشركينَ الَّذينَ لم يُنزِّهوهُ ولا وقَّروهُ، فنسَبوا إليه شُركاءَ[(١)].

- وجِيءَ بفِعلِ التَّسبيحِ مُضارِعًا ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك التَّسبيحِ ودوامِه، وجِيءَ بفِعلِ التَّسبيحِ في فواتِحِ سُوَرِ (الحديدِ) و(الحشرِ) و(الصَّفِّ) بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّسبيحَ قد استقَرَّ في قديمِ الأزمانِ، فحصَلَ مِن هذا التَّفنُّنِ في فَواتحِ هذه السُّوَرِ كِلا المَعنيَينِ. وما في هاتِهِ السُّورةِ مِنَ المُناسَبةِ بيْنَ تجدُّدِ التَّسبيحِ، والأمْرِ بالعفوِ عن ذَوِي القُرْبى، والأمْرِ بالتَّقْوى بقَدْرِ الاستِطاعةِ، والسَّمعِ والطاعةِ؛ لكَيْ لا يَكتفيَ المُؤمِنونَ بحُصولِ إيمانِهم، لِيَجتَهِدوا في تعزيزِه بالأعمالِ الصَّالحةِ[(٢)].

- وإعادةُ (ما) الموصولةِ في قولِه: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لقَصْدِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ كرَّرَ (ما) في افتتاحِ السُّورةِ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وترَكَ ذلك في قولِه: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ثمَّ كرَّر (ما) في قولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّه لَمَّا كان تَسبيحُ ما في السَّمواتِ على خِلافِ تَسبيحِ ما في الأرضِ كَثرةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر وجْهُ جمْعِ السَّمواتِ وإفرادِ الأرضِ في تفسيرِ سورةِ الجمعةِ (ص: ٢٣٩).

وقِلَّةً، وبُعدًا وقُربًا مِن المعصيةِ والطَّاعةِ؛ أُعِيدَت لَفظةُ (ما) لهذا الاختِلافِ. وكذلك لَفظُ ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ فإنَّه مُخالِفٌ لـ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ غايةَ المخالَفةِ، فلَمْ يَصلُحْ إلَّا بإعادةِ (ما). ولم تكرَّرْ (ما) معَ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الكلَّ بالإضافةِ إلى عِلمِ اللهِ سبحانَه جِنسٌ واحدٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ[1].

- وجُملةُ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ استِئنافٌ واقعٌ موقِعَ التَّعليلِ والتَّسبُّبِ لمضمونِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ فإنَّ مُلابَسةَ جميعِ الموجوداتِ لدَلائلِ تَنزيهِ اللهِ تعالَى عن الشُّركاءِ وعن النَّقائصِ لا مُقْتضى لها إلَّا انفِرادُه بتَملُّكِها وإيجادِها وما فيها مِنَ الاحتياجِ إليه، وتصَرُّفِه فيها تصرُّفَ المالِكِ المُتفرِّدِ في مُلكِه[2].

- وفي قولِه: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قُدِّمَ الخبرُ في الجُملتَينِ -الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ (له)- لإفادةِ تَخصيصِه بالمُسنَدِ إليه؛ لِيَدُلَّ بتَقدُّمِهما على معنَى اختِصاصِ المُلكِ والحَمدِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك لأنَّ المُلكَ على الحَقيقةِ له؛ لأنَّه مُبدئُ كلِّ شيءٍ ومُبدِعُه، والقائمُ به المُهيمِنُ عليه، وكذلك الحمدُ؛ لأنَّ أصولَ النِّعمِ وفُروعَها منه، وأمَّا مُلكُ غيرِه فتسليطٌ منه، وحمدُه اعتدادٌ بأنَّ نِعمةَ اللهِ تعالَى جرَتْ على يدِه، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[3] مبنيٌّ على عدمِ الاعتِدادِ بما

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٧٨-١٢٨٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٧).

ويُنظر وجْهُ التَّعبيرِ بـ(ما) دونَ (مَن) في تفسيرِ سورةِ الجمعةِ (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

لغَيرِ اللهِ مِن مُلْكٍ؛ لنَقصِه، بخِلافِ مُلْكِه تعالَى؛ فهو المَلِكُ المُطلَقُ الدَّاخِلُ في سُلطانِه كلُّ ذي مُلْكٍ(١).

- ومضمونُ جُملةِ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ سَببٌ لتسبيحِ اللهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ؛ إذِ التَّسبيحُ مِنَ الحمدِ، فلا جَرَمَ أنْ كانَ حَمْدُ ذَوي الإدراكِ مُختصًّا به تعالَى؛ إذْ هو الموصوفُ بالجَميلِ الاختياريِّ المُطلَقِ، فهو الحقيقُ بالحَمدِ والتَّسبيحِ، فهذا القَصْرُ ادِّعائيٌّ؛ لعدمِ الاعتدادِ بحَمْدِ غَيرِه؛ لنُقصانِ كمالاتِهم، وإذا أُرِيدَ بالحمدِ ما يَشملُ الشُّكرَ أو يُفْضِي إليه -وهو مُقْتضى المقامِ مِن تَسفيهِ أحلامِ المُشرِكينَ في عبادتِهم غَيرَه- فالشُّكرُ أيضًا مقصورٌ عليه تعالَى؛ لأنَّه المُنعِمُ الحقُّ بنِعَمٍ لا قِبَلَ لغَيرِه بإسدائِها، وهو المُفيضُ على المُنعِمينَ ما يُنعِمونَ به في الظَّاهِرِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفةٌ على اللَّتَيْنِ قَبْلَها، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ لهُما، والتَّبيينِ لوجْهِ القَصرَيْنِ فيهما؛ فإنَّ القَديرَ على كلِّ شيءٍ هو صاحِبُ المُلْكِ الحقِّ، وهو المُختَصُّ بالحمدِ الحقِّ(٣).

- وهو تَذييلٌ فيه وعدٌ للشَّاكرينَ، ووعيدٌ وترهيبٌ للمُشرِكينَ(٤).

- والاقتِصارُ على ذِكْرِ وصْفِ ﴿قَدِيرٌ﴾ هنا؛ لأنَّ المخلوقاتِ الَّتي تُسبِّحُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهَ دالَّةٌ على صِفةِ القُدرةِ أوَّلًا؛ لأنَّ مَن يُشاهِدُ المخلوقاتِ يَعلَمُ أنَّ خالقَها قادرٌ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا تقريرٌ لِمَا أفادَهُ قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ١]، وتخلُّصٌ للمَقصودِ منه على وجهِ التَّصريحِ بأنَّ الَّذينَ أشرَكوا باللهِ قد كفَروا بنعمتِه وبخَلْقِهم، زيادةً على جَحْدِهم دَلائلَ تنزُّهِه تعالَى عن النَّقصِ الَّذي اعتقَدوهُ له؛ ولذلك قدَّمَ ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ على ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ لأنَّ الشِّقَّ الأوَّلَ هو المقصودُ بهذا الكلامِ تعريضًا وتصريحًا، وهو الأهمُّ في هذا المقامِ، كما يُشيرُ إليه قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن: ٥]. وقيل: قُدِّمَ ذِكْرُ الكافرِ؛ لأنَّه الأغلَبُ عليهم، والأكثرُ فيهم، ومعَ كثرتِه هو الأضعَفُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ليس معه بمعونتِه، وإلَّا لأعدَمَ الصِّنفَ الآخَرَ. وقيل: قُدِّم العدوُّ إشارةً إلى أنَّه عالمٌ به، وقادرٌ عليه، وما كان منه شيءٌ إلَّا بإرادتِه(٢).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أفادَ تَعريفُ الجزأَيْنِ مِن جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ قَصْرَ صِفةِ الخالقيَّةِ على اللهِ تعالَى، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ(٣) قُصِدَ به الإشارةُ بالكِنايةِ بالرَّدِّ على المُشرِكينَ؛ إذْ عَمَدوا إلى عبادةِ أصنامٍ يَعلمونَ أنَّها لم تَخلُقْهم، فما كانتْ مُستحِقَّةً لأنْ تُعبَدَ؛ لأنَّ العبادةَ شُكرٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

- والفاءُ في ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ عاطفةٌ على جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾، وليستْ عاطفةً على فعلِ ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، وهي للتَّفريعُ في الوُقوعِ دونَ تسبُّبٍ، ومِثلُ هذا التفريعُ يَستَتبعُ التَّعجيبَ مِن جَرْيِ أحوالِ بعضِ النَّاسِ على غَيرِ ما يَقتضيهِ الطَّبعُ، فجُملةُ ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ هي المقصودُ مِنَ التَّفريعِ، وهو تَفريعٌ في الحصولِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ تَتميمٌ[2] وتَنويهٌ بشأنِ أهلِ الإيمانِ، ومُضادَّةِ حالِهم لحالِ أهلِ الكُفرِ، ومُقابَلةِ الحالِ بالحالِ[3].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَتميمٌ، واحتِراسٌ[4]، واستطرادٌ[5]؛ فهو تَتميمٌ لِمَا يُكمِلُ المقصودَ مِن تَقسيمِهم إلى فريقَينِ لإبداءِ الفرْقِ بيْنَ الفريقَينِ في الخَيرِ والشَّرِّ، وهو عليمٌ بذلك، وعليمٌ بأنَّه يقَعُ- وليس اللهُ مغلوبًا على وُقوعِه، ولكنَّ حِكمتَه وعِلمَه اقتضَيا ذلك، وهو احتراسٌ مِن أنْ يُتوَهَّمَ مِن تقسيمِهم إلى فريقَينِ أنَّ ذلك رِضًا بالحالَينِ، كما حُكِيَ عن المُشرِكينَ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهو استِطرادٌ بطريقِ الكِنايةِ به عن الوعدِ والوَعيدِ[6].

- والآياتُ واردةٌ لبَيانِ عَظَمةِ اللهِ في مُلكِه ومَلكوتِه؛ فلمَّا أثبَتَ تعالَى لِذاتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).
ويُنظر ما تقدَّم مِن الكلامِ عن الفاءِ (ص: ٣٨٤).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢١). وتقدَّم بيانُ الفرقِ بيْنَ التَّتميمِ والاحتراسِ (ص: ٣٣٦).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢، ٢٦٣).

الأقدسِ التَّنزيهَ، وأنَّ كلَّ شَيءٍ يُنزِّهُه ويُقدِّسُه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، ثمَّ خصَّ لها صِفةَ المالكيَّةِ على الإطلاقِ، وخصَّ أنَّ لها كلَّ كمالٍ وجَمالٍ، ومنه كلُّ نِعمةٍ وإفضالٍ، وهو خالقُ كلِّ مُهتدٍ وضالٍّ، ونظَمَ دليلَ الآفاقِ مع دَليلِ الأنفُسِ، وبيَّن أنَّ إليه المصيرَ والمآلَ؛ خَتَمَها بإثباتِ عِلمِ اللهِ الشَّاملِ للكلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ، وكرَّرَه تكريرًا، وأكَّدَه توكيدًا، وكان ذِكْرُ العِلمِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ استطرادًا لذِكْرِ الخَلْقِ وتفصيلِه، ولإثباتِ القضاءِ والقدَرِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن: ٢]، يُبيِّنُ أنَّ انقِسامَهم إلى قِسمَي الكافِرينَ والمُؤمنينَ نشَأَ عن حيادِ فريقٍ مِنَ النَّاسِ عن الحقِّ الَّذي أُقِيمَ عليه خَلْقُ السَّموات والأرضِ؛ لأنَّ الحقَّ أنْ يُؤمِنَ النَّاسُ بوُجودِ خالِقِهم، وبأنَّه واحدٌ، وأنْ يُفردوهُ بالعبادةِ، فذلك الَّذي أرادَهُ اللهُ مِن خَلْقِهم؛ فمَن حادَ عن الإيمانِ، ومالَ إلى الكفرِ فقدْ حادَ عن الحقِّ والفِطرةِ[2].

- وقولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وجُملةِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾، وفيه إيماءٌ إلى إثباتِ البعثِ والجزاءِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ تعلُّقَ المُلابَسةِ المُفادَ بالباءِ، أي: خَلقًا مُلابِسًا للحقِّ، والحقُّ ضدُّ الباطلِ، ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى قولِه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١]؟

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥١، ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤).

والباطلُ ما صَدَقه هُنالِكَ هو العبَثُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، فتعيَّنَ أنَّ ما صَدَق الحقِّ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه ضِدُّ العبَثِ والإهمالِ. ومُلابَسةُ الحقِّ لخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ يَلزَمُ أنْ تكونَ مُلابَسةً عامَّةً مُطَّرِدةً؛ لأنَّه لو اختَلَّتْ مُلابَسةُ حالٍ مِن أحوالِ مخلوقاتِ السَّمواتِ للحقِّ، لَكانَ ناقصًا لمعنى مُلابَسةِ خَلْقِها للحقِّ، فكان نفْيُ البعثِ للجزاءِ على أعمالِ المخلوقاتِ مُوجِبًا اختلالَ تلك المُلابَسةِ في بعضِ الأحوالِ. وتخلُّفُ الجزاءِ عن الأعمالِ في الدُّنيا مُشاهَدٌ؛ إذْ كثيرًا ما نَرى الصَّالِحينَ في كَرْبٍ، ونَرى أهلَ الفسادِ في نِعمةٍ، فلَوْ كانت هذه الحياةُ الدُّنيا قُصارى حياةِ المُكلَّفينَ، لَكانَ كثيرٌ مِن أهلِ الصَّلاحِ غيرَ لاقٍ جزاءً على صلاحِه، وانقلَبَ أكثرُ أهلِ الفسادِ مُتمتِّعًا بإرضاءِ خَباثةِ نفْسِه ونَوالِ مُشتهَياتِه، فكان خَلْقُ كِلا هذَينِ الفريقَينِ غيرَ مُلابِسٍ للحقِّ بالمعنى المُرادِ! ولزِيادةِ الإيقاظِ لهذا الإيمانِ عُطِفَ عليه قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وكلُّ ذلك توطِئةٌ لما سيرِدُ بعدَه مِن قولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧] الآيةَ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ رمْزٌ إلى الجزاءِ، وهو وعيدٌ ووعدٌ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِه إظهارٌ أيضًا لعَظَمةِ اللهِ في مَلَكوتِه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ إدماجٌ[1] امتِنانٍ على النَّاسِ، وتَعديدٌ للنِّعمةِ في حُسْنِ الخِلقةِ، وبأنَّهم معَ ما خُلِقوا عليه مِن مُلابَسةِ الحقِّ على وجْهِ الإجمالِ، وذلك مِنَ الكمالِ، وهو ما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ، فقَدْ خُلِقوا في أحسَنِ تقويمٍ[2].

- قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾؛ لأنَّ التَّصويرَ يَقْتَضي الإيجادَ؛ فأُعْقِبَ بالتَّذكيرِ بأنَّ بَعْدَ هذا الإيجادِ فَناءً، ثمَّ بَعْثًا للجزاءِ[3].

- وقولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لا إلى غيرِه استِقْلالًا أو اشتِراكًا، وقيل: تَقديمُ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع إفادةِ الاهتمامِ بتَعلُّقِ ذلك المصيرِ بتَصرُّفِ اللهِ المحضِ، وليس مُرادًا بالتَّقديمِ قَصْرٌ؛ لأنَّ المُشرِكينَ لا يُصدِّقونَ بهذا المصيرِ مِن أصلِه، بَلْهَ أنْ يَدَّعُوا أنَّه مَصيرٌ إلى غَيرِه حتَّى يُرَدَّ عليهم بالقَصْرِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- كانوا يَنفُونَ الحشرَ بعِلَّةِ أنَّه إذا تفرَّقَتْ أجزاءُ الجسدِ لا يُمكِنُ جمْعُها، ولا يُحاطُ بها؛ فكان قولُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ دحْضًا لشُبهتِهم، أي: إنَّ الَّذي يَعلَمُ ما في السَّمواتِ والأرضِ لا يُعجِزُه تفرُّقُ أجزاءِ البدنِ إذا أراد جمْعَها، والَّذي يَعلَمُ السِّرَّ في نفْسِ الإنسانِ -والسِّرُّ أدقُّ وأخْفَى مِن ذرَّاتِ الأجسادِ المُتفرِّقةِ- لا تَخْفى عليه مَواقِعُ تلك الأجزاءِ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

الدَّقيقةِ، فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ كما يَقتضيهِ الاقتصارُ عليه في تَذييله بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ولم يَذكُرْ أنَّه عليمٌ بأعمالِ الجوارحِ؛ لأنَّ الخِطابَ للمُشرِكينَ في مكَّةَ على الرَّاجِحِ، وذلك قبْلَ ظهورِ المُنافِقينَ؛ فلَمْ يكُنْ قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تهديدًا على ما يُبطِنُه النَّاسُ مِنَ الكفرِ. وأمَّا عطْفُ ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فتتميمٌ للتَّذكيرِ بعُمومِ تعلُّقِ عِلمِه تعالَى بالأعمالِ. وتضمَّنَ قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وَعيدًا ووعدًا ناظِرَيْنِ إلى قولِه: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فكانت الجُملةُ لذلك شَديدةَ الاتِّصالِ بجُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[1] [التغابن: ٢].

- وإعادةُ فِعلِ (يَعْلَمُ)؛ للتَّنبيهِ على العنايةِ بهذا التَّعلُّقِ الخاصِّ للعِلمِ الإلهيِّ بعْدَ ذِكْرِ تَعلُّقِه العامِّ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ تَنبيهًا على الوعيدِ والوعدِ بوَجْهٍ خاصٍّ[2].

- قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: ما تُسِرُّونَه في أنفُسِكم وفيما بَيْنَكم، وما تُظهِرونَه مِنَ الأمورِ، والتَّصريحُ به مع اندراجِه فيما قَبْلَه؛ لأنَّه الَّذي يَدورُ عليه الجزاءُ؛ ففيهِ تأكيدٌ للوعدِ والوعيدِ، وتَشديدٌ لهما[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِن شُمولِ عِلمِه تعالَى لسِرِّهم وعلَنِهم، أي: هو محيطٌ بجميعِ المُضمَراتِ المُستكِنَّةِ في صُدورِ النَّاسِ؛ بحيثُ لا تُفارِقُها أصلًا، فكيفَ يَخْفَى عليه ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه(١)؟!

- وإظهارُ الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، وتأكيدِ استِقلالِ الجُملةِ(٢).

- وتَقديمُ تَقريرِ القُدرةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] على العِلمِ؛ لأنَّ دَلالةَ المخلوقاتِ على قدرتِه بالذَّاتِ، وعلى عِلمِه بما فيها مِنَ الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ(٣).

- و(ذاتِ الصُّدورِ) قيل: هي صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، نُزِّلَتْ مَنزِلةَ مَوصوفِها، أي: صاحباتِ الصُّدورِ، أي: المكتومةِ فيها، والتَّقديرُ: بالنِّيَّاتِ والخواطرِ ذاتِ الصُّدورِ(٤).

وقيل: قولُه: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما في القلوبِ الَّتي في الصُّدورِ مِن الضَّمائرِ الخفيَّةِ، ووُصِفَت بذلك؛ لأنَّها لتمكُّنِها مِن الصُّدورِ جُعِلت كأنَّها مالِكةٌ لها، فـ(ذاتُ) بمعنى صاحبة، لا بمعنى ذاتِ الشَّيءِ ونفْسِه، وعُبِّر بذاتِ الصُّدورِ دونَ ذاتِ القُلوبِ مع أنَّ التَّعبيرَ الثَّانيَ أَولى بها؛ لأنَّ القلوبَ محلُّها بلا واسِطةٍ، ومَحَلِّيَّةُ الصُّدورِ لها بحسَبِ الظَّاهِرِ بواسِطةِ القلوبِ؛ لأنَّ (ذاتَ الصُّدورِ) بمعنى الأشياءِ الَّتي لا تَكادُ تُفارِقُ الصُّدورَ لِكَونِها حالَّةً فيها بل تُلازِمُها وتُصاحِبُها أشملُ مِن (ذاتِ القلوبِ)؛ لِصِدْقِ الأُولى على الأسرارِ الَّتي في القلوبِ، وعلى القلوبِ أنفُسِها؛ لأنَّ كُلًّا مِن هذَينِ الأمْرَينِ مُلازِمٌ للصُّدورِ باعتِبارِ كَونِه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧).

حالًّا فيها دونَ الثَّانيةِ؛ لأنَّها لا تَصدُقُ إلَّا على الأسرارِ؛ لأنَّها الحالَّةُ فيها دونَ الصُّدورِ، فحينَئذٍ يُمكِنُ أن يُرادَ مِن ذاتِ الصُّدورِ هذا المعنى الشَّاملُ، ويكونُ التَّعبيرُ بها لذلك. والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه سُبحانَه لم يَزَلْ عالِمًا بذلك[1].

- وقد ابتَدَأَ الله تعالى بالعِلمِ الشَّاملِ للعالَمِ كلِّه، ثُمَّ بخاصِّ العِبادِ مِن سِرِّهم وإعلانِهم، ثُمَّ ما خَصَّ مِنه، وهو ما تَنْطوي عليه صُدورُهم مِن خَفِيِّ الأشياءِ وكامِنِها، وهذا كلُّه في معنى الوعيدِ؛ إذْ هو تعالَى المُجازِي على جميعِ ذلكَ بالثَّوابِ والعِقابِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩).

الآيات (٥-٨)

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: أي: جزاءَ ذنْبِهم، وعاقِبةَ أمرِهم مِن الشَّرِّ، والوَبالُ: الوَخامةُ وسُوءُ العاقِبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ، وتجَمُّعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن الأممِ السَّابقةِ، وما نزَل بهم مِن العذابِ؛ لمخالفتِهم الرُّسلَ وتكذيبِهم بالحقِّ، فيقولُ تعالى: ألم يأتِكم خبَرُ الَّذين كفَروا مِن قَبْلِكم مِنَ الأقوامِ السَّابقةِ، فذاقَوا عُقوبةَ كُفرِهم، فأهلَكَهم اللهُ في الدُّنيا، ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخِرةِ؟

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ إلى سوءِ عاقِبةِ هذه الأُممِ، فيقولُ: وقَعَ بهم العذابُ بسَبَبِ أنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالحُجَجِ الواضِحةِ فكَذَّبوهم بدَعْوى أنَّهم بشَرٌ مِثلُهم، واستبعَدوا أن يَكونوا هُداةً لهم! فكَفَروا، وأعرَضوا عن اتِّباعِ الحَقِّ، واستَغْنى اللهُ عنهم وعن إيمانِهم، واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، محمودٌ في أقوالِه وأفعالِه وصِفاتِه، حامِدٌ لِمَن يَستحِقُّ الحمدَ مِن عبادِه.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

ثمَّ يخبرُ تعالى عن عِنادِ الكافِرين، وتكذيبِهم بالبعثِ، فيقولُ: زَعَم الكُفَّارُ كَذِبًا أنَّ اللهَ لن يَبعَثَهم! قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: بلى، ورَبِّي لَتُبعَثُنَّ، ثمَّ لَتُخبَرُنَّ يومَ القيامةِ بما عَمِلتُم، وذلك أمرٌ سَهلٌ على الله.

ثمَّ يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بما يَنفَعُهم يومَ القيامةِ: فآمِنوا باللهِ ورَسولِه والقُرآنِ الَّذي أنزَلْناه، واللهُ خَبيرٌ بجَميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِن أوصافِه الكامِلةِ العَظيمةِ ما به يُعرَفُ ويُعبَدُ، ويُبذَلُ الجُهدُ في مَرضاتِه، وتُجتَنَبُ مَساخِطُه؛ أخبَرَ بما فَعَل بالأُمَمِ السَّابِقينَ، والقُرونِ الماضينَ الَّذين لم تزَلْ أنباؤُهم يَتحَدَّثُ بها المتأخِّرونَ، ويُخبِرُ بها الصَّادِقونَ، وأنَّهم حينَ جاءتهم الرُّسُلُ بالحَقِّ كَذَّبوهم وعانَدوهم؛ فأذاقَهم اللهُ وَبالَ أمْرِهم في الدُّنيا، وأخزاهم فيها(١).

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن ذِكرِ بَيانِ العَظَمةِ له سُبحانه؛ جاء بالتَّهديدِ والوعيدِ، وقال(٢):

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾.

أي: ألم يَأتِكم خَبَرُ الكافِرينَ مِن قَبْلِكم، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قيل: الخِطابُ هنا لمُشرِكي قُرَيشٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير =

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.

أي: فذاقَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ عُقوبةَ كُفرِهم، فأهلَكَهم اللهُ في الدُّنيا[١].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ في الآخِرةِ[٢].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أحَلَّه بالَّذين كَفَروا مِن قَبلُ، وأشار إلى القَطْعِ بأنَّه مِن عِندِه باتِّساقِه في خَرْقِه العوائِدَ بالاستئصالِ لِمَن كَذَّب الرُّسُلَ، والتَّنجيةِ لِمَن صَدَّقهم؛ عَلَّله بقَولِه[٣]:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾.

أي: ذلك الوَبالُ في الدُّنيا والعذابُ في الآخِرةِ لكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ واقِعٌ بسَبَبِ أنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالحُجَجِ الواضِحةِ والدَّلائِلِ الباهِرةِ، فكَذَّبوهم واستَكبَروا

= ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وممَّن جعَلَه لعُمومِ النَّاسِ: البِقاعي، فقال: (﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي: أيُّها النَّاس، ولا سِيَّما الكُفَّار). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٢).

عن اتِّباعِهم بدَعْوَى أنَّهم بشَرٌ مِثلُهم، واسْتَبْعدوا أنْ يكونوا هُداةً لهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ * قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾.

أي: فكفَروا باللهِ ورُسُلِه، وأعرَضوا عن اتِّباعِ الحَقِّ[٢].

﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾.

أي: واستَغنى اللهُ عنهم وعن إيمانِهم به وبرُسُلِه؛ فليس له حاجةٌ إليهم، ولا يُبالي بهم، ولا يَضُرُّه سُبحانَه كُفرُهم[٣]!

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾.

أي: واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، وغيرُ مُحتاجٍ إليهم ولا إلى عِبادتِهم، وهو محمودٌ في أقوالِه وأفعالِه وأوصافِه، ومحمودٌ مِن كلِّ مخلوقاتِه بلِسانِ المقالِ والحالِ، فله الحَمدُ، وهو أيضًا حامِدٌ لِمَن يَستحِقُّ الحمدَ مِن عبادِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا ضَربٌ ثالِثٌ مِن ضُروبِ كُفرِ المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بقَولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [التغابن: ٥] الآيةَ، وهو كُفرُهم بإنكارِهم البَعثَ والجَزاءَ[١].

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾.

أي: ادَّعى الكُفَّارُ كَذِبًا أنَّ اللهَ لن يَبعَثَهم بعدَ مَوتِهم للحِسابِ والجَزاءِ[٢].

= (٣٠/ ٥٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٠).

قال الرازي: (الحميدُ بمعنى المحمودِ، أي: المُستَحِقِّ للحَمدِ بذاتِه، ويكونُ بمعنى الحامِدِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣).

وقال ابن عثيمين: («فَعيل» تأتي بمَعنَى «مفعول»، ومنه قَولُهم: قَتيلٌ بمعنى مقتول، وجَريحٌ بمعنى مجروح، لكنَّها تأتي بمَعنَى «الفاعِلِ» أيضًا؛ مِثلُ عَليمٍ بمَعنى عالِمٍ، عَزيزٍ بمعنى عازٍّ، حكيمٍ بمعنى محُكِمٍ، وهكذا تأتي بهذا المعنى.

فإذا كانت تأتي بالوجهَينِ جميعًا، أي: بالفاعِلِ والمَفعولِ؛ فهل الأَوْلى أن نَجعَلَها مَقصورةً على المَفعولِ، أو نَجعَلَها شامِلةً؟ الجوابُ: الأَوْلى أن نَجعلَها شامِلةً؛ فهو عزَّ وجلَّ حميدٌ بمعنى حامِدٍ، وبمعنى محمودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحديد (٣٤/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ أي: ظَنُّوا. الزَّعمُ هو القولُ بالظَّنِّ. وقال شُرَيحٌ: لكلِّ شَيءٍ كُنيةٌ، وكنيةُ الكذبِ زعَموا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥). =

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ: بلى، أُقسِمُ برَبِّي لَتُخرَجُنَّ من قُبورِكم أحياءً[1].

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡ﴾.

أي: ثمَّ لَتُخبَرُنَّ يومَ القيامةِ بجَميعِ ما عَمِلتُموه في الدُّنيا، وتُجازَونَ عليه[2].

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

أي: وبَعْثُ اللهِ عِبادَه مِن قُبورِهم أحياءً بعْدَ مَوتِهم للحِسابِ والجَزاءِ أمرٌ سَهلٌ عليه[3].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾.

= وقال الراغب: (الزَّعْمُ: حكايةُ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذِبِ؛ ولهذا جاء في القرآنِ في كلِّ موضعٍ ذُمَّ القائلونَ به). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٣٨٠).

وقال محمد رشيد رضا: (الزَّعْمُ في أصلِ اللُّغةِ القولُ والدَّعوَى، سواءٌ أكانَ ذلك حَقًّا أمْ باطلًا... لُغَةُ القرآنِ أنَّ الزَّعْمَ يُستعمَلُ في الباطلِ والكذِبِ، وهو يَرُدُّ على الزَّاعِمينَ، ولا يُقِرُّهم على شيءٍ). ((تفسير المنار)) (٥/ ١٨٢).

وقال النووي: (الزَّعمُ يُطلَقُ على القولِ المُحقَّقِ والكذبِ وعلى المشكوكِ فيه، ويُنزَّلُ في كلِّ موضعٍ على ما يَليقُ به). ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَرَّر الإيمانُ باللهِ تعالى مِن أنَّه الملِكُ الَّذي له وَحْدَه المُلْكُ، وأشار بما يُشاهَدُ مِن انقِسامِ عَبيدِه إلى مؤمِنٍ وكافرٍ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن الأخذِ على يدِ الظَّالمِ منهما، كما هي عادةُ الملوكِ، لا يَسوغُ في الحِكمةِ ولا في العادةِ غيرُ ذلك، وأخبَرَ أنَّ عِلْمَه محيطٌ لِنسبتِه إلى العُلويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ والظَّواهِرِ والبواطِنِ على حَدٍّ سواءٍ- أتْبَعَ ذلك وُجوبَ الإيمانِ برُسُلِه؛ لجَمعِ الكَلِمةِ عليه سُبحانَه، لِنُكمِلَ الحياةَ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ؛ لئلَّا يقَعَ الخِلافُ فتَفسُدَ الحياةُ، ووُجوبَ الاعتبارِ بمَن مضَى مِن أُمَمِهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنكارَ مَن أنكَرَ البَعثَ، وأنَّ ذلك منهم مُوجِبٌ كُفْرَهم باللهِ وآياتِه؛ أمَرَ بما يَعصِمُ مِن الهَلَكةِ والشَّقاءِ، وهو الإيمانُ باللهِ ورَسولِه وكِتابِه[2].

وأيضًا لَمَّا بالَغَ في الإخبارِ عن البَعثِ -والاعترافُ بالبَعثِ مِن لوازمِ الإيمانِ-؛ قال[3]:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَا﴾.

أي: فآمِنوا باللهِ ورَسولِه، وآمِنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلْناه؛ تَهتَدوا به مِن ظُلُماتِ الضَّلالِ[4].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال ابنُ عاشور: (الفاءُ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمتُم هذه الحُجَجَ، =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ظَواهِرِها وبَواطِنِها، ونيَّاتِكم فيها، وسيُجازيكم عليها(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ سَمَّاه اللهُ تعالى نورًا؛ فإنَّ النُّورَ ضِدُّ الظُّلمةِ، وما في الكِتابِ الَّذي أنزَلَه اللهُ من الأحكامِ والشَّرائِعِ والأخبارِ أنوارٌ يُهتَدى بها في ظُلُماتِ الجَهلِ المُدْلَهِمَّة، ويُمشَى بها في ظُلُماتِ اللَّيلِ البَهيمِ، وما سِوى الاهتداءِ بكِتابِ اللهِ فهي علومٌ ضَرَرُها أكثَرُ مِن نَفعِها، وشَرُّها أكثَرُ مِن خيرِها، بل لا خَيرَ فيها ولا نَفْعَ، إلَّا ما وافَقَ ما جاءت به الرُّسُلُ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تحذيرُ الإنسانِ من المُخالَفةِ؛

= وتذَكَّرتُم ما حَلَّ بنُظَرائِكم مِن العِقابِ، وما ستُنَبَّؤونَ به مِن أعمالِكم؛ فآمِنوا باللهِ ورَسولِه والقُرآنِ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

لأنَّ هذا يُوجِبُ ألَّا نُخالِفَ اللهَ تعالى، ما دُمْنا نَعلَمُ أنَّه خَبيرٌ بما نَعمَلُ فإنَّه لا يُمكِنُ أنْ نخالِفَ اللهَ عزَّ وجلَّ، مِثلَما لو قال رجلٌ لآخرَ: اذهبْ وأنا أعلَمُ ما تَفعَلُ، فالمرادُ: التَّهديدُ والتَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ فكلُّ نَصٍّ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى فيه أنَّه يَعلَمُ ما نَعمَلُ، فهو تحذيرٌ لنا مِن مُخالفته(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ هذه هِدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ بكَلامِه وبعِلمِه، وأمْرِه ونَهيِه، وتَرغيبِه وتَرهيبِه، وأمَّا حُصولُ الهُدى في القَلبِ فهذا لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، باتِّفاقِ المسلمينَ؛ سُنِّيِّهم وقَدَرِيِّهم(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ تعميمٌ يُفهَمُ منه التَّوَلِّي، فما الحاجةُ إلى ذِكْرِه؟

الجوابُ: أنَّهم كَفَروا وقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾، وهذا في معنى الإنكارِ والإعراضِ بالكُلِّيَّةِ، وهذا هو التَّوَلِّي، فكأنَّهم كَفَروا وقالوا قولًا يدُلُّ على التَّوَلِّي؛ فلهذا قال: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾. وقيل: إنَّهم كَفَروا بالرُّسُلِ، وتَوَلَّوا عن البُرهانِ، وأعرَضوا عن الإيمانِ والمَوعِظةِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو الغِنى الواسِعِ، ومع ذلك فإنَّ غِناه مَقرونٌ بحَمدِه؛ ولهذا قال: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾، وقال: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فهو غنيٌّ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه يَجُودُ به على غَيرِه، لكِنَّ بني آدمَ قد يكونُ الإنسانُ منهم غنيًّا ولكِنْ ليس حميدًا، فإذا كان غنيًّا وتَسَلَّطَ بغِناه على غَيرِه، وفَخَر به على النَّاسِ، ولم يَقُمْ بما يَجِبُ عليه؛ صار غنيًّا غيرَ حميدٍ، لكنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٢٨).

اللهَ عزَّ وجلَّ غَنيٌّ حَميدٌ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ أنَّ مُنكِرَ البَعثِ كافِرٌ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أنَّ الحَلِفَ إذا دَعَتِ الحاجةُ إليه أوِ اقتَضَتْه المصلحةُ، فإنَّه جائزٌ، بل قد يكونُ مَندوبًا إليه(٣).

٦- أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُقسِمَ على الجَزاءِ والمَعادِ في ثلاثِ آياتٍ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

والثانية: قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣].

والثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]؛ وهذا لأنَّ المَعادَ إنَّما يَعلَمُه عامَّةُ النَّاسِ بإخبارِ الأنبياءِ(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أنَّه يجوزُ للمُفتي والمُناظِرِ أنْ يَحلِفَ على ثُبوتِ الحُكمِ عندَه، وإنْ لم يكُنْ حَلِفُه مُوجِبًا لثُبوتِه عندَ السَّائلِ والمُنازِعِ؛ لِيُشْعِرَ السَّائلَ والمُنازِعَ له أنَّه على ثِقةٍ ويَقينٍ ممَّا قال له، وأنَّه غيرُ شاكٍّ فيه(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُفيدُ القسَمُ في إخبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٦).

عن البَعثِ، وهم قد أنكَروا رِسالتَه؟

الجوابُ: أنَّهم وإن أنكَروا الرِّسالةَ، لكِنَّهم يَعلَمونَ أنَّه لا يُقدِمُ على القَسَمِ برَبِّه إلَّا أن يكونَ صِدقُ هذا الإخبارِ أظهَرَ مِن الشَّمسِ عِندَه وفي اعتِقادِه، والفائدةُ في الإخبارِ مع القَسَمِ ليست إلَّا هذا، ثمَّ إنَّه أكَّدَ الخَبرَ باللَّامِ والنُّونِ، فكأنَّه قَسَمٌ بعْدَ قَسَمٍ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾، قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بطَريقِ الإضافةِ، ولم يَقُلْ: (ونُورِه الَّذي أنزَلْنا) بطَريقِ الإضافةِ، مع أنَّ النُّورَ هاهنا هو القُرآنُ، والقُرآنُ كَلامُه ومُضافٌ إليه؟

الجوابُ: الألِفُ واللَّامُ في النُّورِ بمعنى الإضافةِ، كأنَّه قال: (ورَسولِه ونُورِه الَّذي أنزَلْنا)[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الشَّيءَ إذا سُمِّيَ باسمٍ، ثُمَّ سُمِّيَ به غيرُه؛ لَزِمَ أنْ يُشبِهَه بجَميعِ جِهاتِه! وقد سمَّى اللهُ جَلَّ جلالُه القُرآنَ هاهنا نورًا، كما سمَّى نفْسَه نورًا[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالظَّاهِرِ والخَفيِّ؛ فالخبيرُ هو العَليمُ ببَواطِنِ الأمورِ، ومَن كان عليمًا ببَواطِنِ الأمورِ كان عليمًا بظَواهِرِها مِن بابِ أَولى[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٨).

- هو انتقالٌ مِنَ التَّعريضِ الرَّمزيِّ بالوعيدِ الأخرويِّ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، إلى قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وقولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]؛ إلى تَعريضٍ أوضَحَ مِنه بطريقِ الإيماءِ إلى وَعيدٍ لعذابٍ دُنيويٍّ وأخرويٍّ معًا؛ فإنَّ ما يُسمَّى في بابِ الكِنايةِ بالإيماءِ أقلُّ لوازِمَ مِنَ التَّعريضِ والرَّمزِ، فهو أقرَبُ إلى التَّصريحِ. وهذا الإيماءُ بضربِ المَثَلِ بحالِ أُمَمٍ تَلَقَّوْا رُسلَهم بمِثْلِ ما تلقَّى به المُشرِكونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَحذيرًا لهم مِن أنْ يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حلَّ بأولئك، فالجُملةُ ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّها عَدٌّ لصِنْفٍ ثانٍ مِن أصنافِ كفرِهم، وهو إنكارُ الرِّسالةِ؛ فالخِطابُ لخُصوصِ الفريقِ الكافرِ، بقَرينةِ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾؛ فهذا الخِطابُ مُوجَّهٌ للمشركينَ الَّذين حالُهم كحالِ مَن لم يَبلُغْهم نَبأُ الَّذين كَفَروا مِثلَ كُفْرِهم، مِثلُ عادٍ وثمودَ ومَدْينَ وقومِ إبراهيمَ[1].

- قولُه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ الاستِفهامُ تَقريريٌّ توبيخيٌّ، وأُتِيَ معه بالجُملةِ مَنفيَّةً؛ تَوسِعةً على المُقرَّرِ إنْ كان يُريدُ الإنكارَ، حتَّى إذا أقرَّ لم يَستطِعْ بَعْدَ إقرارِه إنكارًا؛ لأنَّه قد أُعْذِر له مِن قَبْلُ بتَلْقينِه النَّفيَ[2].

- وحُذِفَ ما أُضِيفَ إليه ﴿قَبۡلُ﴾ ونُوِيَ معناهُ، والتَّقديرُ: مِن قَبْلِكم، أي: في الكفرِ، بقرينةِ قولِه: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ [التغابن: ٢]، والكافِرونَ يَعلَمونَ أنَّهمُ المقصودُ؛ لأنَّهم مُقدِمونَ على الكفرِ، ومُستمِرُّونَ عليه[3].

- والذَّوقُ مُعبَّرٌ به عن مُطلَقِ الإحساسِ والوِجدانِ، شُبِّهَ ما حلَّ بهم مِنَ العذابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧، ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

بشَيءٍ ذي طعْمٍ كَريهٍ يَذوقُه مَن حلَّ به ويبتلِعُه؛ لأنَّ الذَّوقَ باللِّسانِ أشدُّ مِنَ اللَّمسِ باليَدِ أو بالجِلدِ، والمعنى: أحَسُّوا العذابَ في الدُّنيا إحساسًا مَكينًا(١).

- قولُه: ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَمْرِهِمْ﴾ هو كفرُهم، وعُبِّرَ عنه بذلك؛ للإيذانِ بأنَّه أمْرٌ هائلٌ، وجنايةٌ عظيمةٌ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ ارتقاءٌ في التَّعريضِ إلى ضرْبٍ مِنه قريبٍ مِنَ الصَّريحِ، وهو المسمَّى في الكنايةِ بالإشارةِ؛ كانت مَقالةُ الَّذينَ من قبْلُ مُماثِلةً لمَقالةِ المُخاطَبينَ، فإذا كانت هي سببَ ما ذاقوهُ مِنَ الوَبالِ، فيُوشِكُ أنْ يَذوقَ مُماثِلوهم في المقالةِ مِثلَ ذلكَ الوَبالِ، فاسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى المذكورِ مِنَ الوَبالِ والعذابِ الأليمِ، فهذا عَدٌّ لكفرٍ آخَرَ مِن وُجوهِ كفْرِهم، وهو تَكذيبُهمُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتكذيبُهم بالقرآنِ؛ فإنَّ القرآنَ بيِّنةٌ مِنَ البيِّناتِ؛ لأنَّه مُعجِزةٌ(٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباءُ للسَّببيَّةِ؛ فالجُملةُ في مَوقعِ العِلَّةِ، أي: ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسببِ أنَّ الشَّأنَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمُعجِزاتِ(٤).

- والضَّميرُ في ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ؛ لقصْدِ تَهويلِ ما يُفسِّرُ الضَّميرَ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

جُملةُ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إلى آخِرِها[١].

- والاستِفهامُ في ﴿أَبَشَرٌ﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَعجُّبٍ وإبطالٍ، فهُمْ أحالوا أنْ يكونَ بشَرٌ مِثلُهم يَهْدُونَ بشَرًا أمثالَهُم، فقالوا على سبيلِ الاستِغراب: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؛ وذلكَ أنَّهم يقولونَ: نحنُ مُتساوُونَ في البشَريَّةِ، فأنَّى يكونُ لهؤلاءِ تَمييزٌ علينا بحيثُ يَصيرونَ هُداةً لنا؟! وهذا مِن جَهلِهم بمَراتبِ النُّفوسِ البشريَّةِ ومَن يَصطفيهِ اللهُ منها، ويَخلُقُه مُضْطَلِعًا بتبليغِ رسالتِه إلى عِبادِه، وجَهِلوا أنَّه لا يَصلُحُ لإرشادِ النَّاسِ إلَّا مَن هو مِن نَوعِهم، ومِن جَهلِهم أنَّهم أنكَروا أنْ تكونَ الرُّسلُ بشَرًا، ولم يُنكِروا أنْ يكونَ اللهُ حجَرًا! ولَمَّا أحالوا أنْ يكونَ البشَرُ أهلًا لهدايةِ بشَرٍ مِثلِه، جعَلوا ذلكَ كافيًا في إعراضِهم عن قَبولِ القرآنِ والتَّدبُّرِ فيه[٢].

- قولُه: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، أي: قال كلُّ قومٍ مِن المذكورينَ في حقِّ رسولِهم، وقد أُجمِلَ في الحكايةِ، فأُسنِدَ القولُ إلى جميعِ الأقوامِ[٣]. وأُرِيدَ بالبشَرِ الجِنسُ؛ فوُصِفَ بالجَمعِ[٤].

- وتَنكيرُ (بشَرٌ) للنَّوعيَّةِ؛ لأنَّ مَحطَّ الإنكارِ على كَونِهم يَهدونَهم هو نَوعُ البشريَّةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَبَشَرٌ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَهْدُونَنَا﴾؛ لقَصْدِ تَقَوِّي حُكمِ الإنكارِ، وما قالوا ذلك حتَّى اعتقَدوهُ؛ فلذلك أقدَموا على الكفرِ برُسلِهم؛ إذْ قدِ اعتَقَدوا استِحالةَ إرسالِ اللهِ إيَّاهُم، فجَزَموا بكَذِبِهم في دَعوى الرِّسالةِ؛ فلذلك فُرِّعَ عليهِ: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ العطفُ بالفاءِ يدُلُّ على تعقُّبِ كفرِهم مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ، أي: لم يَنظُروا في تلك البيِّناتِ ولا تأمَّلوها، بل عقَّبوا مَجيئَها بالكفرِ[(٢)].

- وقيلَ: الفاءُ في قولِه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ عاطِفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ لا التَّعقيبَ، أي: فكفَروا بسبَبِ هذا القَولِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿وَّٱسْتَغْنَى﴾ السِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، والمعنى: غَنِيَ اللهُ عن إيمانِهم. والواوُ واوُ الحالِ، أي: والحالُ أنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم مِن زمنٍ مَضَى؛ فإنَّ غِنَى اللهِ عن إيمانِهم مُقرَّرٌ في الأزَلِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: واستَغْنى اللهُ عن إعادةِ دَعوتِهم؛ لأنَّ فيما أظهَرَ لهم مِنَ البيِّناتِ على أيدي رُسلِهم ما هو كافٍ لحُصولِ التَّصديقِ بدَعوةِ رُسلِهم لولا المُكابَرةُ؛ فلذلك عجَّلَ لهم بالعذابِ، وعلى الوجهَينِ فمُتعلَّقُ (اسْتَغْنَى) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾، وقولُهُ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، والتَّقديرُ: واستَغْنى اللهُ عن إيمانِهم[(٤)]. وقيل: أُطلِقَ الاستغناءُ ليَتناولَ كلَّ شيءٍ، ومِن جملتِه إيمانُهم وطاعتُهم[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧).

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تَذييلٌ، أي: غنيٌّ عن كلِّ شَيءٍ فيما طلَبَ منهم، حَميدٌ لِمَنِ امْتَثَل وشكَر[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ هذا ضَرْبٌ ثالثٌ مِن ضُروبِ كفرِ المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بقولِه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ [التغابن: ٥] إلخ، وهو كفرُهم بإنكارِهمُ البعثَ والجزاءَ، والجملةُ ابتدائيَّةٌ، وهذا الكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾، وليس هذا مِنَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، ولا مِنَ الالتفاتِ، بل هو ابتداءُ غرَضٍ مُخاطَبٍ به غيرُ مَن كانَ الخطابُ جاريًا معهم[2].

- واجتلابُ حرفِ ﴿لَّن﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، فكانوا مُوقنينَ بانتفاءِ البعثِ؛ ولذلك جِيءَ إبطالُ زعمِهم مؤكَّدًا بالقسَمِ؛ لِيَنْقُضَ نفيَهم بأشَدَّ منه، فأُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبلِّغَهم عن اللهِ أنَّ البعثَ واقعٌ، وخاطَبَهم بذلك تسجيلًا عليهم ألَّا يقولوا ما بُلِّغْنا ذلكَ[3].

- وحرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ للإبطالِ، خاصٌّ بجوابِ الكلامِ المنفيِّ لإبطالِه[4].

- قولُه: ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡ﴾ جملةٌ مُستقِلَّةٌ داخلةٌ تحتَ الأمرِ، واردةٌ لتأكيدِ ما أفادَته كلمةُ (بَلَى) مِن إثباتِ البعثِ، وبيانِ تحقُّقِ أمرٍ آخَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتفرِّعٍ عليه، مَنُوطٍ به؛ ففيه تأكيدٌ لتحقُّقِ البعثِ بوجهَيْنِ[١].

- وجملة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ارتقاءٌ في الإبطالِ. و(ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ فإنَّ إنباءَهم بما عمِلوا أهَمُّ مِن إثباتِ البعثِ؛ إذْ هو العِلَّةُ للبعثِ[٢].

- والإنباءُ: الإخبارُ، وإنباؤُهم بما عمِلوا كنايةٌ عن مُحاسَبتِهم عليه، وجزائِهم عمَّا عمِلوه؛ فإنَّ الجزاءَ يَستلزمُ عِلمَ المُجازَى بعملِه الَّذي جُوزِيَ عليه، فكان حُصولُ الجزاءِ بمَنزلةِ إخبارِه بما عمِلَه؛ كقولِه تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣]. وهذا وعيدٌ وتهديدٌ بجزاءٍ سيِّئٍ؛ لأنَّ المَقامَ دليلٌ على أنَّ عملَهم سيِّئٌ، وهو تكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنكارُ ما دعاهُمْ إليه[٣].

- وجُملةُ ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٤].

- واسمُ الإشارةِ: إمَّا عائدٌ إلى البعثِ المفهومِ مِن ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾، وإمَّا عائدٌ إلى معنى المذكورِ مِن مَجموعِ ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، وأُخبِرَ عنه بـ﴿يَسِيرٌ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (واقعٌ)؛ لأنَّ الكلامَ لردِّ إحالتِهم البعثَ بعِلَّةِ أنَّ أجزاءَ الجسدِ تفرَّقَتْ، فيَتعذَّرُ جَمْعُها، فذُكِّروا بأنَّ العسيرَ في مُتعارَفِ النَّاسِ لا يَعْسُرُ على اللهِ، وقد قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٥] [الروم: ٢٧].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- الفاءُ فصيحةٌ مُفصِحةٌ عن شرْطٍ قد حُذِفَ؛ ثِقةً في ظُهورِه، أي: إذا كان الأمْرُ كذلكَ، أو إذا علِمْتُم هذِه الحُجَجَ، وتذكَّرْتُم ما حَلَّ بنُظرائِكم مِنَ العِقابِ وما ستُنبَّؤونَ به مِن أعمالِكم، ﴿فَـَٔامِنُواْ ...﴾[1].

- والمرادُ بالنُّورِ الَّذي أنزَلَ اللهُ: القرآنُ، وُصِفَ بأنَّه نُورٌ؛ لأنَّه أشبَهَ النُّورَ في إيضاحِ المطلوبِ باستقامةِ حُجَّتِه، وبلاغةِ كلامِه، وأشبَهَ النُّورَ في الإرشادِ إلى السُّلوكِ القويمِ، وفي هذا الشَّبهِ الثَّاني تُشارِكُه الكتبُ السَّماويَّةُ[2].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لزِيادةِ التَّرغيبِ في الإيمانِ بالقُرآنِ؛ تَذكيرًا بأنَّه مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ ضَميرَ التَّكلُّمِ أشَدُّ دَلالةً على مَعادِه مِن ضَميرِ الغائبِ، ولتقويةِ داعي المأمورِ، كما أنَّ الالتفاتَ إلى نونِ العظَمةِ لإبرازِ كمالِ العِنايةِ بأمْرِ الإنزالِ[3].

- وإنَّما جُعِلَ الإيمانُ بصِدقِ القُرآنِ داخلًا في حَيِّزِ فاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّ ما قبْلَ الفاءِ تضمَّنَ أنَّهم كذَّبوا بالقُرآنِ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، كما قال المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، والإيمانُ بالقُرآنِ يَشملُ الإيمانَ بالبعثِ، فكان قولُه تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ شاملًا لِمَا سبَقَ الفاءَ مِن قولِه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧] إلخ[4].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ لجُملةِ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ الأمرِ، ويَقتضي وعْدًا إنْ آمَنوا، ووعيدًا إنْ لم يؤمِنوا[١].

- وفي ذِكْرِ اسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً جاريةً مَجْرَى المَثَلِ والكَلِمِ الجوامعِ، ولأنَّ الاسمَ الظَّاهرَ أقوى دَلالةً مِنَ الضميرِ؛ لاستِغنائِه عن تطلُّبِ المَعادِ، وفيه مِن تربيةِ المَهابةِ ما في قولِ الخليفةِ: (أميرُ المُؤمِنينَ يأمُرُكُم بكذا)[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ جِيءَ بصفةِ (الخَبيرِ) دونَ (البصيرِ)؛ لأنَّ ما يَعمَلونَه منه مَحسوساتٌ ومنه غَيرُ محسوساتٍ، كالمُعتقَداتِ، ومِنها الإيمانُ بالبعثِ، فعُلِّقَ بالوَصفِ الدَّالِّ على تعلُّقِ العِلمِ الإلهيِّ بالموجوداتِ كلِّها، بخِلافِ قولِه فيما تقدَّمَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ فإنَّ لكُفرِ الكافِرينَ وإيمانِ المُؤمِنينَ آثارًا ظاهرةً محسوسةً؛ فعُلِّقَتْ بالوصفِ الدَّالِّ على تعلُّقِ العِلمِ الإلهيِّ بالمحسوساتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أصْلُه: (واللهُ خبيرٌ بما تعملون)، وقَدَّمَ المعمولَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا الحصرُ إضافيٌّ[٤]، والغرضُ منه التَّحذيرُ، فإفادةُ الحصرِ هنا لتمامِ التَّحذيرِ، يعني: كأنْ يُقالَ: لو لَمْ يكُنْ خبيرًا بشيءٍ؛ لَكان خبيرًا بأعمالِكم؛ فاحذَروا المُخالَفةَ[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٧).

الآيتانِ (٩-١٠)

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: أي: يومُ القيامةِ الَّذي يَربَحُ فيه المُؤمِنونَ ويَخسَرُ الكافِرونَ، والغَبْنُ: أن يُعطَى البائعُ ثَمَنًا لِمَبيعِه دونَ حَقِّ قِيمتِه الَّتي يُعَوَّضُ بها مِثلُه، ويُطلَقُ على مُطلَقِ الخُسرانِ، وأصلُ (غبن): يدُلُّ على الخَفاءِ، ومنه مَغابِنُ الجَسَدِ، وهي: ما يَخفى عن العَينِ، وسُمِّيَ الغَبْنُ في البَيعِ؛ لِخَفائِه عن صاحِبِه[1].

﴿يُكَفِّرْ﴾: أي: يَمحُ ويَستُرْ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى محذِّرًا عبادَه مِن أهوالِ يومِ القيامةِ: يَومَ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا لِيَومِ القيامةِ، ذلك اليَومُ هو اليَومُ يَغبِنُ فيه بعضُ أهلِ المَحشَرِ بعضًا؛ فيَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطِلِ، ويَغبِنُ فيه أهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، وأهلُ الطَّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ.

ثمَّ يُفصِّلُ اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ في هذا اليومِ، فيقولُ: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤، ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

بطاعتِه يَمْحُ اللهُ عنه ذُنوبَه، ويُدخِلْه جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، خالدينَ فيها أبَدًا، ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ.

والَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بآياتِه أولئك أصحابُ النَّارِ، خالدينَ فيها أبَدًا، وبِئْسَ المَرجِعُ هيَ!

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بالبَعثِ، وأقسَمَ عليه، وأشار إلى دليلِه السَّابِقِ، وسَبَّب عنه ما يُنَجِّي في يَومِه؛ ذكَرَ يَومَه وما يكونُ فيه؛ لِيُحذَرَ، فقال تعالى[(١)]:

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾.

أي: يَومَ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا؛ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم- لِيَومِ القيامةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قيلَ: ﴿يَوۡمَ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ﴿خَبِيرٞ﴾ في قَولِه تعالى السَّابِقِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: هو بما تَعملونَ خَبيرٌ يَومَ يَجمَعُكم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥).

وقيلَ: ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾. أي: لَتُنَبَّؤُنَّ يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

وقيلَ: ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُروا. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ

= قال الرازي: (وفي تسميتِه بيوم الجَمع وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ الخلائقَ يُجمَعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾، فيَجتمِعُ فيه أهلُ السَّمواتِ مع أهلِ الأرضِ.

الثَّاني: أنَّه يجمَعُ بيْن الأرواحِ والأجسادِ.

الثَّالثُ: يجمعُ بيْنَ كلِّ عاملٍ وعمَلِه.

الرَّابعُ: يجمعُ بيْنَ الظَّالمِ والمظلومِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ الجمعَ للخلائقِ؛ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأهلِ السَّمَواتِ وأهلِ الأرضِ-: السَّمْعانيُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠).

وممَّن اقتصَر على أنَّ المرادَ جمْعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ: ابنُ كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ وهو يومُ القيامةِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُجمَعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ الجَمعُ الَّذي في قَولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، وهذا زيادةُ تحقيقٍ للبَعثِ الَّذي أنكَروه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

وجمَع الشَّوكانيُّ بيْن بعضِ الأوجُه، فقال: (ومعنى ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ ليوم القيامةِ؛ فإنَّه يُجمَعُ فيه أهلُ المَحشَرِ للجزاءِ، ويُجمَعُ فيه بيْنَ كلِّ عامِلٍ وعمَلِه، وبيْن كلِّ نبيٍّ وأمَّتِه، وبيْن كلِّ مَظلومٍ وظالِمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ))[١].

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَغبِنُ فيه بعضُ أهلِ المَحشَرِ بعضًا؛ فيَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطِلِ، ويَغبِنُ فيه أهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، وأهلُ الطَّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بيوم التَّغابُنِ: يوم يَغبِنُ فيه أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، والمؤمنونَ الفاسِقين، وأهلُ الهدى أهلَ الضَّلالةِ، ومَن ارتفعتْ مَنزِلَتُه في الجنَّةِ مَن كان في دُونِ مَنزِلَتِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، وابن عطية، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قال الواحدي: (قال المُقاتِلانِ: هو يوم يَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطِلِ، وأهلُ الهدى أهلَ الضَّلالةِ، وأهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، فلا غَبْنَ أبْيَنُ منه، هؤلاء يَدخُلونَ الجنَّةَ، وهؤلاء يدخلون النَّارَ، وهذا معنى قولِ جماعةِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ٤٨٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥٢).

وقال ابن عطيَّة: (وهو يَومُ التَّغابُنِ؛ وذلك أنَّ كلَّ واحدٍ يَنبعِثُ من قبرِه وهو يَرجو حظًّا ومَنزِلةً، فإذا وقَع الجزاءُ غبَنَ المؤمنونَ الكافِرين؛ لأنَّهم يَحوزونَ الجنَّةَ، ويَحصُلُ الكفَّارُ في النَّارِ. نحا هذا المنحى مجاهدٌ وغيرُه، وليس هذا الفِعلُ مِنَ التَّغابُنِ مِن اثنَينِ، بل كتَواضَعَ وتَحامَلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩).

وقيل: إنَّ المرادَ: يَغبِنُ بعضُهم بعضًا؛ لِنُزولِ السُّعداءِ مَنازِلَ الأشقياءِ الَّتي كانوا يَنزِلونها لو كانوا سُعداءَ، ونُزولِ الأشقياءِ مَنازِلَ السُّعداءِ الَّتي كانوا يَنزِلونها لو كانوا أشقياءَ. وفيه تهكُّمٌ =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿... أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩، ٥٠].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومنزِلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ

= بالأشقياءِ؛ لأنَّ نُزولَهم ليس بغَبْنٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو حيان، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٠٣).

وقيل: يَظهَرُ يومَئذٍ غَبْنُ كلِّ كافرٍ بتَركِه الإيمانَ، ويَظهَرُ غَبْنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيرِه في الإحسانِ. وممَّن اختاره: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٦).

وقال السمرقندي: (يَغبِنُ فيه الكافرُ نفْسَه وأهْلَه ومَنازِلَه في الجنَّةِ، يعني: يكونُ له النَّارُ مكانَ الجنَّةِ، وذلك هو الغَبنُ والخُسرانُ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦).

وقال القرطبي: (أي: أنَّ أهلَ الجنَّة أخَذوا الجنَّةَ، وأخَذَ أهلُ النَّارِ النَّارَ على طريقِ المُبادَلةِ؛ فوَقَع الغَبنُ لأجْلِ مُبادَلتِهم الخَيرَ بالشَّرِّ، والجَيِّدَ بالرَّديءِ، والنَّعيمَ بالعَذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٦).

وقال ابنُ عاشور: (وأمَّا صِيغةُ التَّفاعُلِ فحَمَلَها جُمهورُ المفَسِّرينَ على حقيقتِها مِن حُصولِ الفِعلِ مِن جانِبَين، ففَسَّروها بأنَّ أهلَ الجنَّةِ غَبَنوا أهلَ النَّارِ؛ إذ أهلُ الجنَّةِ أخَذوا الجنَّةَ، وأهلُ جَهنَّمَ أخَذوا جَهنَّمَ. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، والحَسَنُ. فحَمَل القُرطبيُّ وغَيرُه كلامَ هؤلاء الأئمَّةِ على أنَّ التَّغابُنَ تمثيلٌ لحالِ الفريقَين بحالِ مُتبايعَين أخَذ أحدُهما الثَّمَنَ الوافيَ، وأخَذَ الآخَرُ الثَّمَنَ المَغبونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧).

فدَخَل النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قولُه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[١].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ الَّذي يَظهَرُ فيه التَّغابُنُ والتَّفاوُتُ بيْن الخلائقِ، ويَغبِنُ المؤمنونَ الفاسِقين، ويَعرِفُ المجرمون أنَّهم هم الخاسِرون؛ فكأنَّه قيل: بأيِّ شَيءٍ يَحصُلُ الفَلاحُ والشَّقاءُ، والنَّعيمُ والعذابُ؟ فذكر تعالى أسبابَ ذلك بقولِه[٢]:

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

أي: ومَن يؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ بطاعتِه، يَمْحُ اللهُ عنه ذُنوبَه[٣].

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ويُدخِلْه اللهُ جناتٍ تَجري أنهارُها فيها مِن تَحتِ قصورِها وأشجارِها[٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه (٤٣٤١)، والبَيْهَقيُّ في ((البعث والنشور)) (٢٤١).
صحَّح إسنادَه القُرطبيُّ في ((التذكرة)) (ص: ٤٣٥)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦): (إسنادُه صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

أي: لابِثينَ في تلك الجَنَّاتِ أبدًا، فلا يَموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

أي: تكفيرُ السَّيِّئاتِ والخُلودُ في الجنَّاتِ: هو الظَّفَرُ العَظيمُ الجالِبُ للمَسارِّ، والمُنجِي مِن المَضارِّ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الفائِزَ بلُزومِه التَّقوى؛ ترغيبًا- أتْبَعَه الخائِبَ بسَبَبِ إفسادِ القُوَّتَينِ الحاملتَينِ على التَّقْوى: العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ؛ تَرهيبًا[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: والَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بآياتِه أولئك أصحابُ النَّارِ الملازِمونَ لها دَومًا، الماكِثونَ فيها أبَدًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المَرجِعُ والمُنقلَبُ الَّذي يَصيرُ إليه الكفَّارُ في الآخِرةِ: النَّارُ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

اشترِ نفْسَك اليَومَ؛ فإنَّ السُّوقَ قائمةٌ، والثَّمنَ موجودٌ، والبضائعَ رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السُّوقِ والبضائعِ يومٌ لا تصِلُ فيها إلى قليلٍ ولا كثيرٍ، ذلك يَومُ التَّغابُنِ، يومَ يَعَضُّ الظَّالمُ على يدَيه[٢]. وقد أعطى اللهُ تعالى كلَّ إنسانٍ رأسَ مالٍ، وأمَرَه بالتِّجارةِ فيه مع خالِقِه، ورأسُ هذا المالِ هو ساعاتُ العُمُرِ ودقائقُه وثَوانيه، فلا مثيلَ لها في الدُّنيا، ولا يوجَدُ شَيءٌ أكبَرُ منها فائدةً إذا أُعمِلَتْ على الوجهِ الأتَمِّ، هذا رأسُ مالك أيُّها الإنسانُ، وأنت مأمورٌ بتحريكه والتِّجارةِ فيه مع الله، فإن كنتَ رجُلًا عاقلًا يُقدِّرُ الأمورَ ويَخافُ العَواقِبَ السَّيِّئةَ حرَّكْتَ عُمُرَك، وتاجَرْتَ فيه مع خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ تجارةً، وذلك أن تَصرفَ ساعاتِ العُمُرَ وأوقاتَه ودقائقَه وثوانيَه فيما يُرضيه، وتَحذَرَ أن تَصرفَ شيئًا منه فيما يُسخِطُه، فتَنظُرَ في أوقاتِ عُمُرِك الوقتَ الَّذي يَتَوجَّهُ إليك فيه أمرٌ من السَّماءِ -كأوقاتِ الصَّلَواتِ، وأوقاتِ الصَّومِ، وأوقاتِ الحجِّ، وما جرى مَجرى ذلك- فتُبادِرَ إلى امتِثالِ أمْرِك بنفْسٍ طَيِّبةٍ مُسارِعةٍ راغِبةٍ فيما عندَ الله، والأوقاتُ الَّتي لم يتَوجَّهْ عليك طلبٌ مخصوصٌ فيها تَستزيدُ من الخَيرِ، وتَحذَرُ كلَّ الحذَرِ من أن تَرتَكِبَ شيئًا يُغضِبُ خالِقَك ويُسخِطُه، فإذا اتَّجَرْتَ مع الله هذه التِّجارةَ رَبِحْتَ رِبحًا عظيمًا؛ رَبِحتَ مُجاوَرةَ ربٍّ غيرِ غَضْبانَ، والنَّظرَ إلى وجْهِه الكريم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٤٩).

وسُكْنى الجنَّةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ إنْ قيلَ: فأيُّ مُعامَلةٍ وقَعَت بيْنَهما حتَّى يقَعَ الغَبْنُ فيها؟!

فالجوابُ: هو تمثيلُ الغَبْنِ في الشِّراءِ والبَيعِ -على قولٍ-، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، ولَمَّا ذَكَر أنَّ الكُفَّارَ اشتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدى وما رَبِحوا في تجارتِهم بل خَسِروا، وذكَرَ أيضًا أنَّهم غُبِنوا؛ وذلك أنَّ أهلَ الجنَّةِ اشتَرَوُا الآخِرةَ بتَرْكِ الدُّنيا، واشترى أهلُ النَّارِ الدُّنيا بتَرْكِ الآخِرةِ، وهذا نوعُ مُبادَلةٍ، وقد فَرَّق اللهُ سُبحانَه وتعالى الخَلْقَ فَريقَينِ: فريقًا للجَنَّةِ، وفريقًا للنَّارِ، ومَنازِلُ الكُلِّ مَوضوعةٌ في الجنَّةِ والنَّارِ، فقد يَسبِقُ الخِذْلانُ على العَبدِ فيَكونُ مِن أهلِ النَّارِ، فيَحصُلُ الموفَّقُ على مَنزِلِ المخذولِ، ومَنزِلُ الموفَّقِ في النَّارِ للمَخذولِ، فكأنَّه وقَعَ التَّبادُلُ؛ فحَصَلَ التَّغابُنُ، والأمثالُ موضوعةٌ للبيانِ في حُكمِ اللُّغةِ والقُرآنِ[٢]، وأيضًا فأهلُ الجنَّةِ بايَعوا على الإسلامِ بالجنَّةِ فرَبِحوا، وأهلُ النَّارِ امْتَنَعوا مِن الإسلامِ فخَسِروا؛ فشُبِّهوا بالمُتبايِعَينِ يَغْبُنُ أحدُهما الآخَرَ في بَيعِه، ويُؤَيِّدُ ذلك قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا أُريَ مَقْعَدَه مِن النَّارِ لو أساءَ؛ لِيَزدادَ شُكرًا، ولا يَدخُلُ أحدٌ النَّارَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَه مِن الجنَّةِ لو أَحْسَنَ؛ لِيَكونَ عليه حَسْرةً))[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ استُدِلَّ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٥٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٦٩) مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ على أنَّه لا يجوزُ الغَبْنُ في مُعاملةِ الدُّنيا؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَصَّص التَّغابُنَ بيوم القيامةِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، وهذا الاختِصاصُ يُفيدُ أنَّه لا غَبْنَ في الدُّنيا؛ فكُلُّ مَنِ اطَّلَع على غَبْنٍ في مَبيعٍ فإنَّه مردودٌ[(١)] على خِلافٍ بيْنَ الفُقهاءِ في ذلك[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ فيه سُؤالٌ: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾ بلَفظِ الواحِدِ، و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلَفظِ الجَمعِ؟

الجوابُ: أنَّ ذلك بحَسَبِ اللَّفظِ، وهذا بحَسَبِ المعنى[(٣)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بلَفظِ المُستَقبَلِ، وفي الكُفْرِ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ وذلك أنَّ تقديرَ الكَلامِ: ومَن يؤمِنْ باللهِ مِن الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِنا، يُدخِلْه جنَّاتٍ، ومَن لم يؤمِنْ منهم فأولئك أصحابُ النَّارِ[(٤)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذان هما الأساسانِ للكُفرِ؛ لأنَّ الكُفرَ يَدورُ على شيئينِ: إمَّا استِكبارٍ، وإمَّا جُحودٍ، فكُفرُ إبليسَ: كُفْرُ استكبارٍ؛ لأنه مُقِرٌّ باللهِ، لكنَّه استكبَرَ، وكُفْرُ فِرعَونَ وقَومِه: كُفْرُ جُحودٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: ١٤]، فَهُمْ في ألْسِنَتِهم

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦١).

(٢) اتَّفق الأئمَّةُ الأربعةُ: أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ على أنَّ الغَبْنَ في البَيعِ بما لا يَفحُشُ لا يؤثِّرُ في صِحَّتِه، ثمَّ اختلَفوا إذا كان الغَبْنُ فيه بما لا يَتغابَنُ النَّاسُ بمِثلِه في العادةِ؛ فقال مالكٌ وأحمدُ: يَثبُتُ الفَسخُ، وقدَّره مالكٌ بالثُّلُثِ ولم يُقَدِّرْه أحمدُ، وقال أبو حَنيفةَ والشَّافِعيُّ: ليس له الفَسخُ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هُبَيْرةَ (١/ ٣٥٦)، ((المغني)) لابن قدامة (٣/ ٤٩٨)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُكَذِّبُون، لكنَّهم في نُفوسِهم مُصَدِّقُون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[١] [النمل: ١٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، بعدَ قَولِه تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وذلك بِئسَ المصيرُ؟

الجوابُ: ذلك وإن كان في معناه فلا يدُلُّ عليه بطَريقِ التَّصريحِ؛ فالتَّصريحُ مِمَّا يؤَكِّدُه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: الملازِمون لها؛ ولهذا لا تأتي «أصحابُ النَّارِ» إلَّا في الكُفَّارِ، لا تأتي في المؤمِنينَ أبدًا! لأنَّ المرادَ الَّذين هم مُصاحِبون لها، والمصاحِبُ لا بُدَّ أنْ يُلازِمَ مَن صاحَبَه[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠] تَفصيلٌ لِما أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨] الَّذي هو تَذييلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

- وانتصبَ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ [التغابن: ٩] بقولِه: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، أو بـ ﴿خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]، بما فيه مِن معنى الوَعيدِ والجزاءِ، أو بمحذوفٍ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: تَتفاوَتونَ يومَ يَجْمَعُكُم. وقيلَ: هو مفعولٌ به لِفِعلٍ محذوفٍ، أي: اذْكُروا[١].

وعلى القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧]، الَّذي هو كِنايةٌ عن «تُجازَوْنَ» على تَكذيبِكُم بالبعثِ، فيكونُ مِن تمامِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه لهمُ ابتِداءً مِن قولِه تعالَى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[٢] [التغابن: ٧].

- واللَّامُ في ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّعليلِ، أي: يَجمَعُكم مِن أجْلِ اليَومِ المعروفِ بالجمعِ المخصوصِ، وهو الَّذي مِن أجْلِ جمْعِ النَّاسِ، أي: يَبعَثُكم مِن أجْلِ أنْ يَجمَعَ النَّاسَ كلَّهم للحسابِ، فمعنى الجمعِ هذا غَيرُ معنى الَّذي في: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ [التغابن: ٩]، فليس هذا مِن تعليلِ الشَّيءِ بنفْسِه، بل هو مِن قَبيلِ التَّجنيسِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اللَّامُ بمعنى (في)، والأحسَنُ أنْ يكونَ اللَّامُ للتَّوقيتِ، وهي الَّتي بمعنى (عِندَ)؛ كالَّتي في قولِهم: كُتِبَ لِكَذا مَضَيْنَ مثلًا، وهو استِعمالٌ يدُلُّ على شدَّةِ الاقتِرابِ؛ ولذلك فسَّروهُ بمعنى (عِندَ)، ويُفيدُ هُنا أنَّهم مَجموعونَ في الأجَلِ المُعيَّنِ دونَ تأخيرٍ؛ ردًّا على قولِهم: ﴿لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، فيَتعلَّقُ قولُه: ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بفِعلِ ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾، فيومُ الجَمعِ هو يومُ الحشرِ، جُعِلَ هذا المُركَّبُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١١).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية التَّفسير (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

الإضافيُّ لقبًا ليوم الحشرِ(١).

- قولُه: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ اعتراضٌ بيْن جُملةِ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧] بمُتعلَّقِها وبيْن جُملةِ ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ اعتراضًا يُفيدُ تَهويلَ هذا اليومِ؛ تَعريضًا بوَعيدِ المُشركينَ بالخَسارةِ في ذلك اليومِ، أي: بسُوءِ المُنقلَبِ(٢).

- قولُه: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ في مَقامِ الضَّميرِ؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بهذا اليَومِ بتَمييزِه أكمَلَ تمييزٍ، مع ما يُفيدُه اسمُ إشارةِ البعيدِ مِن عُلُوِّ المرتبةِ(٣).

- قولُه: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أفادَ تَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ قصرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، أي: قصرَ جنسِ يومِ التَّغابُنِ على يومِ الجَمْعِ المُشارِ إليه باسمِ الإشارةِ، وهو مِن قَبيلِ قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا ادِّعائيًّا(٤)، أي: ذلك يومُ الغَبْنِ، لا أيَّامُ أسواقِكم ولا غَيرُها؛ فإنَّ عدمَ أهمِّيَّةِ غَبْنِ النَّاسِ في الدُّنيا جعَلَ غَبْنَ الدُّنيا كالعدمِ، وجعَلَ يومَ القيامةِ مُنحصِرًا فيه جنسُ الغَبْنِ(٥).

- قولُه: ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ قيل: التَّغابُنُ تَمثيلٌ لحالِ الفريقَينِ بحالِ مُتبايعَيْنِ أخَذَ أحَدُهُما الثَّمَنَ الوافيَ، وأخَذَ الآخَرُ الثَّمَنَ المغبونَ، وأنَّ قولَه عَقِبَه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ قَرينةٌ على المرادِ مِنَ الجانبَينِ، ويكونُ قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تفصيلًا للفريقَيْنِ؛ فيكونُ في الآيةِ تَشبيهٌ وتمثيلٌ؛ فالتَّمثيلُ في صِيغةِ التَّغابُنِ، وهو تَشبيهٌ مُركَّبٌ بمنزلةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ إذِ التَّقديرُ: ذلكَ يومٌ مِثْلُ التَّغابُنِ(١).

والكلامُ تَهديدٌ للمُشركينَ بسُوءِ حالتِهم في يومِ الجَمعِ؛ إذِ المعنى: ذلك يومُ غَبْنِكم الكثيرِ الشَّديدِ، بقَرينةِ قولِه قَبْلَه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ [التغابن: ٨]، والغابنُ لهم هو اللهُ تعالَى، ولولا قَصْدُ ذلك لَمَا اقتُصِرَ على أنَّ ذلكَ يومُ تغابُنٍ؛ فإنَّ فيه رِبحًا عظيمًا للمُؤمنينَ باللهِ ورسولِه والقرآنِ(٢).

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبيانِ التَّغابُنِ وتفصيلِه(٣).

- قولُه: ﴿يُكَفِّرۡ﴾ ﴿وَيُدۡخِلۡهُ﴾ قُرِئَ بياءِ الغَيْبةِ على مُقْتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجَلالةِ يُؤْذِنُ بعِنايةِ اللهِ بهذا الفريقِ، وعلى قِراءةِ ﴿نُكَفِّرْ﴾ ﴿ونُدْخِلْهُ﴾ -بنونِ العظَمةِ(٤)- فيكونُ فيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لأنَّ مَقامَ الوعدِ مَقامُ إقبالٍ، فناسَبَه ضَميرُ التَّكلُّمِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١١).

(٤) قرأهما المَدَنيَّانِ -نافعٌ وأبو جعفرٍ-، وابنُ عامرٍ بالنُّونِ، وقرأهما الباقونَ بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ[(١)]. والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مَجموعِ الأمْرَينِ -تَكفيرِ السَّيِّئاتِ، وإدْخالِ الجَنَّاتِ-؛ ولذلك جعَلَه الفَوزَ العظيمَ؛ لأنَّه جامعٌ للمَصالحِ: مِن دَفعِ المَضارِّ، وجَلبِ المَنافعِ[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وقال في سُورةِ (الطَّلاقِ): ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فخصَّصَ الآيةَ الأُولى بقولِه: ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، وخَلَتِ الآيةُ الثَّانيةُ منه؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى جاءتْ بعْدَ قولِه مُخبِرًا عن الكفَّارِ: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ * زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٦، ٧]، فهذه سيِّئاتٌ تَحتاجُ إلى تَكفيرٍ إذا آمَنَ باللهِ بعْدَها، فقال: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ في مُستقبَلِ عُمُرِه، يَمسَحْ عنه ما سبَقَ مِن كُفرِه، ثمَّ يُوجِبْ له جنَّاتٍ، والآيةُ الثَّانيةُ لم يَتقدَّمْها خبَرٌ عن كُفَّارٍ بسيِّئاتٍ فيُوعَدوا بتَكفيرِها إذا أقْلَعوا عنها وتابوا منها وعَمِلوا الصَّالحاتِ مَكانَها، وكان مَضمونًا تَكفيرُ السَّيِّئاتِ عندَ الإيمانِ، وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ فلم يُحتَجْ إلى ذِكرِه كما كان الأمرُ في غيرِه[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨١، ١٢٨٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٨).

فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾، أي: كفَروا وكذَّبوا مِنْ قَبْلُ، واستمَرُّوا على كفرِهم وتكذيبِهم، فلم يَسْتَجيبوا لهذه الدَّعوةِ، ثَبَت لهم أنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ ولذلك جِيءَ في جانبِ الخَبرِ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ لعَراقتِهم في الكفرِ والتَّكذيبِ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ لتَمييزِهم تمييزًا لا يَلتبِسُ معه غيرُهم بهم، مع ما يُفيدُه اسمُ الإشارةِ مِن أنَّ استِحقاقَهم لِمُلازَمةِ النَّارِ ناشئٌ عن الكُفرِ والتَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، وهذا وعيدٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ؛ لزيادةِ تَهويلِ الوعيدِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١-١٣)

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣ ﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا أنَّ كلَّ شيءٍ بقضائِه وقدَرِه: ما أُصيبَ أحدٌ بمُصيبةٍ إلَّا بقَضاءِ اللهِ تعالى ومَشيئتِه، ومَن يُؤمِنْ باللهِ وبأنَّ المصائِبَ بإذْنِه وقدَرِه، يَهْدِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ، واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عليمٌ.

ثُمَّ يَحُضُّ اللهُ تعالى عبادَه على طاعتِه والتَّوكُّلِ عليه، فيقولُ: وأطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، فإنْ أعرَضْتُم فإنَّما على رَسولِنا البلاغُ الواضِحُ الَّذي تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم، اللهُ لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تتعَلَّقُ بقَولِه تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التغابن: ٨]؛ لِما أنَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ فيُصَدِّقُه يَعلَمُ أنَّه لا تُصيبُه مُصيبةٌ إلَّا بإذنِ اللهِ(١).

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما أُصيبَ أحدٌ بأيِّ مُصيبةٍ كانت إلَّا بقَضاءِ اللهِ تعالى وتَقديرِه ومَشيئتِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) =

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعلَمْ أنَّ المصائِبَ بإذْنِه وقَدَرِه، يُوَفِّقِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ؛ فيُسلِّمَ لأمْرِه، ويَرْضى بقَضائِه، فتهُونَ عليه مُصيبتُه(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ! إنَّ أمْرَه كُلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيرًا له))(٢).

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ أقوالَ خَلْقِه وأفعالَهم، وضَمائِرَهم وأحوالَهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه(٣).

= لابن تيمية (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨).

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان تقديرُ ما سَبَق: فاصبِروا عندَ هُجومِ المصائبِ، عَطَف عليه قَولَه؛ تحذيرًا مِن أن يُشتغَلَ بها، فتُوقِعَ في الهلاكِ، وتَقطَعَ عن أسبابِ النَّجاةِ، دالًّا على تعَلُّمِ أُمورِ الدِّينِ، مُشيرًا إلى أنَّ العبادةَ لا تُقبَلُ إلَّا بالاتِّباعِ لا بالابتِداعِ: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ الآيةَ[1].

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتِثالِ ما أمَرَ اللهُ به ورسولُه، واجتنابِ ما نَهَى اللهُ عنه ورسولُه[2].

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

أي: فإنْ أعرَضْتُم عن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، فإنَّما على رَسولِنا محمَّدٍ إبلاغُ ما أرسَلَه اللهُ به إبلاغًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ، ويَنقَطِعُ به العُذرُ، وليس عليه حِسابُكم، بل اللهُ تعالى هو الَّذي يتولَّى ذلك، ويُعاقِبُكم على تولِّيكم[3].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو وَحْدَه؛ فلا تَصلُحُ العِبادةُ لِغَيرِه[1].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ، ويُفَوِّضوا جميعَ أُمورِهم إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ هذا عامٌّ لجَميعِ المصائِبِ؛ في النَّفْسِ والمالِ، والولَدِ والأحبابِ ونَحوِهم، فجميعُ ما أصاب العِبادَ فبِقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، قد سَبَق بذلك عِلمُ اللهِ تعالى، وجرى به قَلَمُه، ونَفَذَت به مَشيئتُه، واقتَضَتْه حِكمتُه، والشَّأنُ كُلُّ الشَّأنِ: هل يقومُ العَبدُ بالوظيفةِ الَّتي عليه في هذا المقامِ أو لا يقومُ بها؟ فإنْ قام بها فله الثَّوابُ الجَزيلُ، والأجرُ الجَميلُ في الدُّنيا والآخِرةِ، فإذا آمَنَ أنَّها من عندِ اللهِ، فرَضِيَ بذلك، وسَلَّم لأمْرِه؛ هدى اللهُ قَلْبَه، فاطمأنَّ ولم يَنزعِجْ عندَ المصائبِ كما يَجري لِمَن لم يَهْدِ اللهُ قَلْبَه، بل يَرزُقُه الثَّباتَ عندَ وُرودِها، والقيامَ بمُوجَبِ الصَّبرِ؛ فيَحصُلُ له بذلك ثَوابٌ عاجِلٌ، مع ما يَدَّخِرُ اللهُ له يومَ الجَزاءِ مِنَ الثَّوابِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وعُلِم مِن هذا أنَّ مَن لم يُؤمِنْ باللهِ عِندَ وُرودِ المصائِبِ بأنْ لم يَلحَظْ قَضاءَ اللهِ وقَدَرَه، بل وَقَف مع مجرَّدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

الأسبابِ: أنَّه يُخذَلُ، ويَكِلُه اللهُ إلى نفْسِه، وإذا وُكِلَ العَبدُ إلى نفْسِه فالنَّفسُ ليس عِندَها إلَّا الجَزَعُ والهَلَعُ، الَّذي هو عُقوبةٌ عاجِلةٌ على العبدِ قبْلَ عُقوبةِ الآخِرةِ، على ما فَرَّط في واجِبِ الصَّبرِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أنَّ مِن الإيمانِ باللهِ الصَّبرَ على أقدارِ اللهِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ القَصدُ مِن هذا تعليمُ المُسلِمينَ الصَّبرَ على ما يَغلِبُهم مِن مصائِبِ الحوادِثِ؛ لكي لا تُفَلَّ عزائِمُهم، ولا يَهِنوا، ولا يُلهيَهم الحُزنُ عن مُهِمَّاتِ أُمورِهم، وتدبيرِ شُؤونِهم، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾(٣) [الحديد: ٢٣].

٤- مِن فوائِدِ الإيمانِ بالقَدَرِ هَونُ المصائبِ على العَبدِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّها مِن عندِ اللهِ هانتْ عليه المُصيبةُ، كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(٤).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَنْ آمَنَ الإيمانَ المأمورَ به؛ مِن الإيمانِ باللهِ، ومَلائِكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ؛ خَيرِه وشَرِّه، وصَدَّق إيمانَه بما يَقتَضيه الإيمانُ مِن القيامِ بلَوازِمِه وواجباتِه: أنَّ هذا السَّبَبَ الَّذي قام به العَبدُ أكبَرُ سَبَبٍ لهدايةِ اللهِ له في أحوالِه وأقوالِه وأفعالِه، وفي عِلمِه وعمَلِه. وهذا أفضَلُ جَزاءٍ يُعطيه اللهُ لأهلِ الإيمانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فيه عُمومُ عِلمِ اللهِ سُبحانَه، وفائدةُ ذِكْرِ عُمومِ العِلمِ: التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ مَن عَلِم بك مُمتثِلًا أو مخالِفًا فسوف يُجازيك على ذلك، فإنْ كان الأمرُ هكذا ففي كلِّ آيةٍ فيها إثباتُ العِلمِ تحذيرٌ مِن مُخالَفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لئلَّا يَقعَ الإنسانُ فيما يُسخِطُ اللهَ سُبحانَه وتعالى عليه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وُجوبُ طاعةِ اللهِ ورَسولِه[2]، وفيه تحذيرٌ مِن عِصيانِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه أنَّه بحَسَبِ إيمانِ العَبدِ يكونُ توكُّلُه؛ فكُلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التَّوكُّلُ[4]، فقد ذَكَر سُبحانَه اسمَ الإيمانِ هاهنا دونَ سائرِ أسمائِهم؛ دَلالةً على استدعاءِ الإيمانِ للتَّوكُّلِ، وأنَّ قُوَّةَ التَّوكُّلِ وضَعْفَه بحَسَبِ قُوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِه، وكُلَّما قوِيَ إيمانُ العبدِ كان توكُّلُه أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُّلُ، وإذا كان التَّوكُّلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضَعْفِ الإيمانِ ولا بُدَّ[5].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ذِكْرُ الإذْنِ الكَونيِّ -وهو المتعلِّقُ بالخَلْقِ والتَّكوينِ- وهذا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، ويُقابِلُه الإذْنُ الشَّرعيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

-وهو ما يَتعَلَّقُ بالشَّرعِ والعِبادةِ-، مثالُه: قولُه تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، والفرقُ بيْنَهما أنَّ المأذونَ به شرعًا قد يقَعُ وقد لا يقعُ، وأمَّا المأذونُ به قَدَرًا فواقِعٌ لا مَحالةَ، ومِن جهةٍ أُخرى: أنَّ المأذونَ به شرعًا محبوبٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والمأذونَ به قَدَرًا قد يكونُ محبوبًا، وقد يكونُ غيرَ محبوبٍ(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ التَّنصيصُ على المُصيبةِ هنا؛ لِيَدُلَّ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يَنالُ العَبدَ إنَّما هو بإذنِ اللهِ؛ لأنَّ الجِبِلَّةَ تأبَى المصائِبَ وتتَوَقَّاها، ومع ذلك تُصيبُه، وليس في مَقدورِه دَفْعُها، بخِلافِ الخَيرِ؛ قد يدَّعي أنَّه حَصَّله باجتِهادٍ منه، كما قال قارونُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾(٢) [القصص: ٧٨].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ دالَّةٌ على مَعانٍ هي صِفاتُه، فاللهُ تعالى يُعَلِّقُ بأسمائِه المعمولاتِ مِن الظُّروفِ والجارِّ والمجرورِ وغَيرِهما، ولو كانت أعلامًا مَحْضَةً لم يَصِحَّ فيها ذلك(٤)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ طاعةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مستقلَّةٌ، بمعنى: أنه إذا أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بشَيءٍ، لا نقولُ: هل يوجَدُ في القرآنِ هذا الأمرُ أو لا يوجدُ؟ بل طاعتُه مستقلَّةٌ؛ وجهُ ذلك: أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

أعاد فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وإعادةُ الفِعلِ تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ مستقلَّةٌ، بمعنى أنَّنا لا نحتاجُ إلى شاهدٍ مِن القرآنِ فيما أمَرَ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم. لكنْ هل يمكنُ أنْ يكونَ أَمْرُ اللهِ وأمْرُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُتناقِضَينِ؟

الجوابُ: لا يقَعُ التَّناقضُ؛ لأنَّه لو وقَعَ لَكانت طاعةُ الرَّسولِ مَعصيةً للهِ، وطاعةُ اللهِ معصيةً للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم! وهذا تناقُضٌ؛ لأنَّ التَّناقضَ يكونُ النَّقيضُ حُكْمُه ضد حُكْمِ نقيضِه، فلو قُلْنا: إنَّه يَقَعُ التَّناقضُ لَزِمَ مِن ذلك ما تقَدَّمَ مِن أنَّ طاعةَ اللهِ تكونُ معصيةً للرَّسولِ، وطاعةَ الرَّسولِ تكونُ معصيةً للهِ[1]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ أصلٌ يُرجَعُ إليه[2].

٧- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الرِّسالةَ مِن أَفْخَرِ الأوصافِ الَّتي يَتَّصِفُ بها العبدُ، ولا شكَّ أنَّ الرَّسولَ يَفْضُلُ ويَشرُفُ بحَسَبِ مَنزلةِ مُرْسِلِه، لو جاء رسولٌ مِن عندِ رجُلٍ شريفٍ عالي المنزلةِ، فهل يكونُ في نُفوسِنا كرَسولٍ جاء مِن عامَّةِ النَّاسِ؟ الجوابُ: لا، بل يكونُ في نُفوسِنا لهذا الرَّسولِ بمِقدارِ ما يَستَحِقُّه مِن مَنزلةِ مَن أَرْسَله؛ فعليه تكونُ الرِّسالةُ فخرًا لِمَن أُرْسِلَ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تحريضٌ للمُؤمنينَ على مُكافَحةِ الكُفَّارِ، والصَّبرِ على دينِ اللهِ[4].

٩- قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فجِيءَ في ذلك بصيغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٠).

أمْرِ المُؤمِنينَ بالتَّوكُّلِ على اللهِ دونَ غَيرِه؛ ربطًا على قلوبِهِم، وتثبيتًا لنُفوسِهِم؛ كَيْ لا يأسَفوا مِن إعراضِ المُشرِكينَ وما يُصيبُهم منهم، وأنَّ ذلك لنْ يَضُرَّهم، فإنَّ المُؤمِنينَ لا يَعتزُّونَ بهم، ولا يتقوَّوْنَ بأمثالِهم؛ لأنَّ اللهَ أمَرَهُم ألَّا يَتوكَّلوا إلَّا عليه، وفيه إيذانٌ بأنَّهم لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ، وذلك يَغيظُ الكافِرين[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ استئنافٌ انتُقِلَ إليه بعدَ أنْ تُوُعِّدَ المُشرِكونَ بما يَحصُلُ لهم مِن التَّغابُنِ يومَ يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ الحسابِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ تَهديدَ المُشرِكينَ بيومِ الحسابِ يُثيرُ في نُفوسِ المُؤمِنينَ التَّساؤُلَ عن الانتصافِ مِنَ المُشرِكينَ في الدُّنيا على ما يَلْقاهُ المُسلِمونَ من إضرارِهم بمكَّةَ؛ فإنَّهم لم يَكُفُّوا عن أذى المُسلِمينَ وإصابتِهم في أبدانِهم وأموالِهم، والفِتنةِ بيْنَهم وبيْنَ أزواجِهم وأبنائِهم[٢]. أو هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للرَّدِّ على الكفَّارِ الَّذينَ قالوا: لو كانَ المُسلِمونَ على حقٍّ لَصانَهمُ اللهُ مِنَ المصائبِ في الدُّنيا[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، أي: يَهْدِ قلبَه عِندَما تُصيبُه مُصيبةٌ؛ فحَذَف هذا المُتعلَّقَ لظُهورِه مِن السِّياقِ[٤].

- ومفعولُ ﴿أَصَابَ﴾ محذوفٌ، أي: ما أصابَ أحدًا، والفاعلُ ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾، و(مِنْ) زائدةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠).

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، قال ذلك مع أنَّ الهداية سابقةٌ على الإيمانِ؛ لأنَّه ليس المُرادُ ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للإيمانِ، بل المرادُ: يَهْدِه لليقينِ عِندَ نُزولِ المصائبِ؛ فيَعلَمْ أنَّ ما أخطأهُ لم يكُنْ لِيُصيبَه، وما أصابَه لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، أو يَهْدِه للرِّضا والتَّسليمِ عندَ وُجودِ المصائبِ، أو للاستِرجاعِ عندَ نزولِها بأنْ يقولَ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعونَ[١].

- والخبرُ في قولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إيماءٌ إلى الأمرِ بالثَّباتِ والصَّبرِ عِندَ حلولِ المصائبِ؛ لأنَّه يَلْزَمُ مِن هَدْيِ اللهِ قلْبَ المؤمنِ عندَ المصيبةِ تَرغيبُ المُؤمنينَ في الثَّباتِ والتَّصبُّرِ عِندَ حلولِ المصائبِ؛ فلذلك ذُيِّلَ بجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهو تَذييلٌ للجملةِ الَّتي قَبْلَها، وارِدٌ على مُراعاةِ جميعِ ما تضَمَّنَتْه؛ مِن أنَّ المصائبَ بإذْنِ اللهِ، ومِن أنَّ اللهَ يَهْدي قلوبَ المُؤمنينَ للثَّباتِ عندَ حُلولِ المصائبِ، ومِنَ الأمرِ بالثَّباتِ والصَّبرِ عندَ المصائبِ، أي: يَعلَمُ جميعَ ذلك[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ كِنايةٌ عن مُجازاةِ الصَّابرينَ بالثَّوابِ؛ لأنَّ فائدةَ عِلمِ اللهِ الَّتي تُهِمُّ النَّاسَ هي التَّخلُّقُ، ورجاءُ الثَّوابِ ورفْعِ الدَّرَجاتِ[٣].

٢- قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ لأنَّها تضمَّنَتْ أنَّ المُؤمِنينَ مُتهيِّئونَ لطاعةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٨، ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَدْعُوانِهم إليه مِن مصالحِ الأعمالِ، كما يدُلُّ عليه تذييلُ الكلامِ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]، ولأنَّ طلَبَ الطَّاعةِ فرْعٌ عن تحقُّقِ الإيمانِ(١).

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كرَّر الأمْرَ بالطَّاعةِ للتَّأكيدِ، والإيذانِ بالفَرقِ بيْنَ الطاعتَيْنِ في الكَيفيَّةِ(٢).

- وتَفريعُ قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ تَحذيرٌ مِن عِصيانِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿رَسُولِنَا﴾ بالإضافةِ؛ لقَصْدِ تعظيمِ شأنِه بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالَمينَ. وهذا الضَّميرُ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ يُفيدُ تشريفَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعِزِّ الإضافةِ إلى المُتكلِّمِ(٤).

- وأيضًا إظهارُ الرَّسولِ مُضافًا إلى نونِ العظَمةِ في مَقامِ إضمارِه؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والإشعارِ بمَدارِ الحُكْمِ الَّذي هو كَونُ وَظيفتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَحضَ البلاغِ، ولزيادةِ تَشنيعِ التَّولِّي عنه(٥).

- ومعْنى الحَصرِ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قصرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على كَونِ واجبِه البلاغَ، قصْرَ مَوصوفٍ على صفةٍ؛ فالرّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَقصورٌ على لُزومِ البلاغِ له، لا يَعْدُو ذلكَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

لزومِ شَيءٍ آخَرَ، وهو قصرُ قلبٍ[١]؛ تَنزيلًا لهم في حالةِ العِصيانِ المفروضِ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ اللهَ لو شاءَ لَألجأهم إلى العَملِ بما أمَرَهم به؛ إلْهابًا لنُفوسِهم بالحثِّ على الطَّاعةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [التغابن: ١٢] وجُملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، واسمُ الجَلالةِ مُبتدأٌ، وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خَبرٌ، وهذا تَذكيرٌ للمُؤمِنينَ بما يَعلمونَه، أي: مَنْ آمَنَ بأنَّ اللهَ لا إلهَ إلَّا هو، كان حقًّا عليه أنْ يُطِيعَه، وألَّا يَعبَأَ بما يُصيبُه في جانِبِ طاعةِ اللهِ مِن مصائِبَ وأذًى. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ [التغابن: ١٢]، وتُفيدُ أيضًا تَعليلَ جُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [التغابن: ١٢]؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ ترجِعُ إلى طاعةِ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[٣] [النساء: ٨٠].

- وافتتاحُ الجُملةِ باسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -إذْ لم يقُلْ: (هُوَ لا إلهَ إلَّا هُوَ)-؛ لاستِحضارِ عَظَمةِ اللهِ تعالَى بما يَحْويهِ اسمُ الجَلالةِ مِن معاني الكَمالِ، ولِتَكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها، فتكونَ جاريةً مَجْرى الأمثالِ والكَلِمِ الجوامِعِ[٤].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ عطفٌ على ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٢).

[التغابن: ١٢]، فهو في معنى: وتوَكَّلوا على الله؛ فإنَّ المُؤمِنينَ يَتوكَّلونَ على اللهِ لا على غَيرِه، وأنتُم مُؤمِنونَ؛ فتوَكَّلوا عليه[١].

- وتقدُّمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: إنَّ المُؤمنينَ لا يَتوكَّلونَ إلَّا على اللهِ، أي: عليه تعالَى خاصَّةً دُونَ غَيرِه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا[٢].

- والإتيانُ باسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً، فتَسيرَ مَسْرى المثَلِ؛ ولذلكَ كان إظهارُ لفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولم يَقُلْ: وعلى اللهِ فَلْيَتوكَّلوا، ولِمَا في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنَ العُمومِ الشَّاملِ للمُخاطَبِينَ وغَيرِهم؛ لِيَكونَ معنى التَّمثيلِ[٣]. وأيضًا إظهارُ الجلالةِ في مَوضعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ التَّوكُّلِ والأمرِ به؛ فإنَّ الألوهيَّةَ مُقتضيةٌ للتَّبتُّلِ إليه تعالَى بالكلِّيَّةِ، وقطْعِ التَّعلُّقِ عمَّا سِواهُ بالمرَّةِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

الآيات (١٤-١٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾: أي: تُعرِضوا، وتَترُكوا التَّثريبَ، يُقالُ: صَفحتُ عنه: إذا أعرَضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحة عُنُقِه، وصرَفَ عنه وجْهَه[١].

﴿فِتۡنَةٞ﴾: أي: بلاءٌ واختِبارٌ وامتحانٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتلاءٍ[٢].

﴿شُحَّ﴾: الشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[٣].

﴿شَكُورٌ﴾: أي: يَرضى بيَسيرِ الطَّاعةِ، ويَقْبَلُ القليلَ مِن العملِ، ويُثيبُ عليه الكثيرَ مِنَ الثَّوابِ، ويُقالُ: إنَّ حَقيقةَ الشُّكرِ الرِّضا باليَسيرِ، والشَّكورُ مِن الدَّوابِّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحشر (٣٧/ ٤٥٩).

ما يَكفيه العلَفُ القليلُ لِسِمَنِه، فيُظهِرُ مِنَ السمَنِ فوقَ ما يُعطَى مِن العلَفِ، وأصلُ الشُّكْرِ في الكلامِ: الظُّهورُ، يُقالُ: شكَرَ الضَّرعُ: إذا امْتَلأ، وامتِلاؤُه ظُهورُه، وأصلُ (شكر) هنا: الامْتِلاءُ والغُزْرُ في الشَّيءِ[1].

﴿حَلِيمٌ﴾: أي: لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ، فهو ذو الصَّفحِ والأنَاةِ، الَّذي لا يَستَفِزُّه غضَبٌ، ولا يَستَخِفُّه جَهْلُ جاهِلٍ، ولا عِصيانُ عَاصٍ، يُقالُ: حَلُمَ فُلانٌ عن فُلانٍ: إذا لم يُقابِلْه على إساءتِه ولم يُجازِه عليها، والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم) هنا: يدُلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾

في نَصبِ ﴿خَيْرًا﴾ وُجوهٌ مِنَ الإعرابِ:

أحَدُها: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بِفعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: وأْتُوا خيرًا لأنفُسِكم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٧)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٨٧)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٤٨).

قال ابن القيِّم بعدَ أن ذكَرَ اشتِقاقَ كلمةِ الشُّكرِ وحقيقتَها في اللُّغةِ: (تأمَّلْ هذا الاشتِقاقَ وطابِقْ بيْنَه وبيْنَ الشُّكرِ المأمورِ به، وبيْنَ الشُّكرِ الَّذي هو جزاءُ الرَّبِّ الشَّكورِ، كيف تجدُ في الجميعِ معنَى الزِّيادةِ والنَّماءِ). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٥)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٩٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٤).

الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ(أنفِقُوا)، على أن يكونَ المرادُ بالخَيرِ المالَ، كقَولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

الثَّالِثُ: أنَّه خَبَرُ (يكن) محذوفًا مع اسمِه، أي: أنفِقوا يَكُنِ الإنفاقُ خَيرًا لأنفُسِكم.

الرَّابعُ: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المَصدَرِ لأنَّه صِفتُه، أي: وأنفِقوا إنفاقًا خَيرًا.

الخامِسُ: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ مَصدَرِ الفِعلِ. أي: أنفِقوا الإنفاقَ خيرًا(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى محذِّرًا مِن فِتنةِ الأزواجِ والأولادِ والأموالِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنَّ بَعضَ أزواجِكم وأولادِكم أعداءٌ لكم؛ إذ يُثبِّطونَكم عن طاعةِ اللهِ، أو يَحمِلونَكم على مَعصيتِه؛ فاحذَروا الوُقوعَ في ذلك، وإنْ تَعْفُوا -أيُّها المؤمِنونَ- عنهم، وتَترُكوا عُقوبتَهم وتأنيبَهم، وتَستُروا عليهم ذُنوبَهم، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

إنَّما أموالُكم وأولادُكم بلاءٌ واختِبارٌ لكم، واللهُ عِندَه ثَوابٌ عظيمٌ لِمَن لم تَشغَلْه أموالُه وأولادُه وأزواجُه عن طاعةِ اللهِ تعالى.

ثمَّ يحضُّ الله تعالى عبادَه على تَقْواه، ويحذِّرُهم مِن البخلِ والشُّحِّ، فيقولُ: فاتَّقوا اللهَ -أيُّها المُؤمنونَ- قَدْرَ استِطاعتِكم، واسمَعوا ما يأمُرُكم به اللهُ ورَسولُه، وأطيعُوا، وابذُلوا مِن أموالِكم في الزَّكَواتِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ؛ هو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرةِ. ومَن يَقِهِ اللهُ شِدَّةَ حِرصِ نفْسِه على جَمعِ المالِ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٩٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ٧٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٠)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٨٢٧).

فأولئك هم الفائِزونَ.

ثُمَّ يقولُ تعالى مرغِّبًا في النَّفقةِ: إنْ تُنفِقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بلا مَنٍّ ولا أذًى محتَسِبينَ للأجرِ عِندَ رَبِّكم، يُضاعِفِ اللهُ لكم الأجرَ، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، واللهُ شَكورٌ يجزي بالجزاءِ الكثيرِ على العملِ القليلِ، حَليمٌ على عبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ذُنوبِهم، عالِمُ ما يَغيبُ عن عِبادِه وما يُشاهِدونَه؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ، وهو تعالى العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾، ثمَّ أمرَ بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه؛ حَذَّر ممَّا يَلحَقُ الرَّجُلَ مِن امرأتِه ووَلَدِه، بسبَبِ ما يَصدُرُ مِن بَعضِهم مِن العَداوةِ[(١)].

وأيضًا فالمُناسَبةُ بيْنَها وبيْن الآيةِ الَّتي قَبْلَها أنَّ كِلْتَيْهما تسليةٌ على ما أصاب المؤمنينَ مِن غَمٍّ مِن مُعاملةِ أعدائِهم إيَّاهم، ومِن انحرافِ بعضِ أزواجِهم وأولادِهم عليهم[(٢)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنَّ بعضَ أزواجِكم وأولادِكم أعداءٌ لكم؛ إذ يُثَبِّطونَكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٣).

عن طاعةِ اللهِ، أو يَشغَلونَكم عنها، أو يَحْمِلونَكم على مَعصيتِه؛ فاحذَروا الوُقوعَ في ذلك(١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

قال ابن تيميَّة: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ مِنْ: للتَّبعيضِ بالاتِّفاقِ). ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٤٧).

وقال ابن العربي: (العَدُوُّ لم يكُنْ عَدُوًّا لِذَاتِه، وإنَّما كان عدُوًّا لفِعْلِه؛ فإذا فَعَل الزَّوجُ والوَلَدُ فِعلَ العَدُوِّ كان عَدُوًّا، ولا فِعلَ أقبَحُ مِن الحَيلولةِ بيْن العبدِ وبيْن الطَّاعةِ... عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «إنَّ الشَّيطانَ قَعَد لابنِ آدَمَ في طريقِ الإيمانِ، فقال له: أتؤمِنُ وتَذَرُ دِينَك ودينَ آبائِك؟ فخالَفَه فآمَنَ. ثمَّ قَعَد له على طريقِ الهِجرةِ، فقال له: أتُهاجِرُ وتَترُكُ أهْلَك ومالَك؟ فخالَفَه فهاجَرَ. فقعَد له في طريقِ الجِهادِ، فقال: أتُجاهِدُ فتُقْتَلَ نفْسُك وتُنكَحَ نِساؤُك ويُقسَمُ مالُك؟ فخالفه فجاهَدَ فقُتِلَ، فحَقٌّ على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ» [النسائي «٣١٣٤»، وأحمد «١٥٩٥٨»]. وقُعودُ الشَّيطانِ يكونُ بوجهَينِ؛ أحَدُهما: يكونُ بالوَسوَسةِ. والثَّاني: بأن يَحمِلَ على ما يُريدُ مِن ذلك الزَّوجَ والوَلَدَ والصَّاحِبَ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٦٤).

وقال ابنُ القَيِّم: (ليس المرادُ مِن هذه العَداوةِ ما يَفهَمُه كثيرٌ مِن النَّاسِ أنَّها عداوةُ البَغضاءِ والمُحادَّةِ، بل إنَّما هي عداوةُ المحبَّةِ الصَّادَّةِ للآباءِ عن الهِجرةِ والجِهادِ، وتَعَلُّمِ العِلمِ والصَّدَقةِ، وغَيرِ ذلك مِن أمورِ الدِّينِ وأعمالِ البِرِّ... وما أكثَرَ ما فات العَبدَ مِن الكمالِ والفلاحِ بسَبَبِ زَوجتِه ووَلَدِه!). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٦٤).

وقال ابن عاشور: (الإخبارُ عن بعضِ الأزواجِ والأولادِ بأنَّهم عدُوٌّ يجوزُ أن يُحمَلَ على الحقيقةِ؛ فإنَّ بعضَهم قد يُضمِرُ عداوةً لِزَوجِه، وبعضَهم لأبوَيه مِن جَرَّاءِ المُعامَلةِ بما لا يَروقُ عِندَه، مع خَباثةٍ في النَّفْسِ، وسوءِ تفكيرٍ، فيصيرُ عدوًّا لِمَن حقُّه أن يكونَ له صديقًا، ويَكثُرُ أن تأتيَ هذه العداوةُ مِن اختلافِ الدِّينِ، ومِن الانتماءِ إلى الأعداءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٤). وأجاز أيضًا أن يكون المعنى على التشبيه أي: أنهم كالعدو. يُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٤٧٦، ٤٧٧).

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّهيُ عن طاعةِ الأزواجِ والأولادِ فيما هو ضَرَرٌ على العَبدِ، والتَّحذيرُ مِن ذلك: قد يُوهِمُ الغِلْظةَ عليهم وعِقابَهم- أمَرَ تعالى بالحَذَرِ منهم، والصَّفحِ عنهم والعَفوِ؛ فإنَّ في ذلك مِن المصالحِ ما لا يُمكِنُ حَصْرُه، فقال[1]:

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنْ تَعْفوا -أيُّها المؤمِنونَ- عن أزواجِكم وأولادِكم، وتَترُكوا عُقوبتَهم وتأنيبَهم، وتَستُروا عليهم ذُنوبَهم؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحيمٌ بهم، ويَغفِرُ للَّذينَ يَغفِرونَ، ويَرحَمُ الَّذين يَرحَمونَ[2].

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾.

أي: إنَّما أموالُكم وأولادُكم بلاءٌ واختِبارٌ لكم؛ فاحذَروا أن تَقَعوا -بسَبَبِ الشُّغلِ بهم- في المَنهيَّاتِ، أو تَترُكوا امتِثالَ المأموراتِ، أو تُقَصِّروا في أداءِ الطَّاعاتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

قال البقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: يَغفِرِ اللهُ لكم؛ سَبَّبَ عنه قَولَه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾... ﴿غَفُورٞ﴾... جزاءً لكم على غُفرانِكم لهم، وهو جديرٌ بأن يُصلِحَهم لكم بسَبَبِ غُفرانِكم لهم؛ فإنَّه ﴿رَّحِيمٌ﴾ يَزيدُكم بعدَ ذلك السَّترِ الإكرامَ بالإنعامِ إن أكرَمْتُموهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٩)، ((فتح الباري)) =

كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وعن بُرَيدةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخطُبُ، فجاء الحَسَنُ والحُسَينُ رَضِيَ اللهُ عنهما، وعليهما قَميصانِ أحمرانِ يَعْثُرانِ[(١)] فيهما، فنزَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقطَع كَلامَه، فحَمَلَهما ثمَّ عاد إلى المِنبَرِ، ثمَّ قال: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيْتُ هذَينِ يَعثُرانِ في قَميصَيْهما، فلم أَصبِرْ حتَّى قَطعْتُ كَلامي فحَمَلْتُهما!))[(٢)].

وعن كَعبِ بنِ عِياضٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ فِتنةً، وفِتنةُ أُمَّتي المالُ))[(٣)].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ[(٤)]، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيف تَعمَلونَ؛ فاتَّقوا

= لابن رجب (٤/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(١) يَعثُرانِ: أي: يَسقُطانِ على الأرضِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٩٨١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٠٩)، والترمذيُّ (٣٧٧٤)، والنسائيُّ (١٤١٣) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٣٦٠٠)، وأحمدُ (٢٢٩٩٥).

صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٦٠٣٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٤٢٤) -وقال: (على شرطِ مسلمٍ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٤١٣)، وصحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: الضِّياءُ المَقدِسيُّ في ((السنن والأحكام)) (٢/ ٣٧٥)، والنَّوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ٨٠٣)، وابنُ عبد الهادي في ((تنقيح تحقيق التعليق)) (٢/ ٨١).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٣٣٦) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١٧٤٧١).

صحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٣٢٢٣)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستيعاب)) (٣/ ٣٨١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٣٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٩/ ١٥).

(٤) حُلْوةٌ خَضِرةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفها بالخَضِرةِ؛ لأنَّ العربَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخَضْراواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: =

الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بَني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))(١).

وعن يَعْلَى العامِريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء الحَسَنُ والحُسَينُ يَسعَيانِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضَمَّهما إليه، وقال: إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلةٌ مَجْبَنةٌ(٢)))(٣).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: واللهُ عِندَه ثوابٌ عَظيمٌ لِمَن لم تَشغَلْه أموالُه وأولادُه وأزواجُه عن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فلا تُؤْثِروهم على ما عِندَه سُبحانَه(٤).

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

= ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازَري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) مَبخَلةٌ مَجْبنةٌ: أي: يَحمِلُ أبَويه على البُخلِ والجُبْنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٠٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٠).

(٣) أخرجه ابنُ ماجه (٣٦٦٦) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١٧٥٦٢) مطوَّلًا.

صحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣/ ١٧٩) -وقال: (على شرطِ مسلمٍ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦٦)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((المهذب)) (٨/ ٤٢١٠)، وصحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٩٩)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في الشَّواهد في تخريج ((شرح السُّنَّة)) (١٣/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

قيل: المرادُ بالأجرِ العَظيمِ: الجنَّةُ. وممَّن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، وابنُ العربي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٨٥).

أي: فاتَّقوا اللهَ -أيُّها المُؤمِنونَ- بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، بقَدْرِ طاقتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((دَعُوني ما ترَكْتُكم، إنَّما هَلَك مَن كان قَبْلَكم بسُؤالِهم واختِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا نَهَيْتُكم عن شَيءٍ فاجتَنِبوه، وإذا أمَرْتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استطَعْتُم))[٢].

﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾.

أي: واسمَعوا ما يأمُرُكم به اللهُ ورَسولُه، وكونوا مُنقادِينَ له، فلا تَترُكوا ما أُمِرْتُم به، ولا تأتُوا ما نُهيتُم عنه[٣].

﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

أي: وابذُلوا مِن أموالِكم بإخراجِ الزَّكَواتِ المفروضةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ؛ فذلك خيرٌ لأنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٢٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).
قال ابنُ عاشور: (الأمرُ بالسَّمعِ أمرٌ بتلَقِّي الشَّريعةِ، والإقبالِ على سماعِ مَواعِظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك وسيلةُ التَّقْوى؛ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير =

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: ومَن سلَّمه اللهُ مِن شِدَّةِ حِرصِ النَّفْسِ على جَمعِ المالِ، فخالَفَ هواها في إمساكِ المالِ فأنفَقَ؛ فأولئك هم الفائِزونَ الذينَ أدْرَكوا المطلوبَ، ونَجَوا مِن المَرْهوبِ[1].

عن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكم؛ حمَلَهم على أن سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا مَحارِمَهم[2]))[3].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ((إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هَلَك مَن كان قَبْلَكم بالشُّحِّ؛ أمَرَهم بالبُخلِ فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا))[4].

= ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

قيل: المرادُ بالخَيرِ هنا: المالُ، فالمعنى: أنفِقوا مالًا مِن أموالِكم لأنفُسِكم تَستَنْقِذوها من عذابِ اللهِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥١٤).

وقيل: الخَيرُ هنا مَنصوبةٌ على الخَبَرِيَّةِ بـ(كان) المحذوفة، فيكونُ المعنى: أنفِقوا فيكونَ ذلك خيرًا لكم، وإن لم تَفعَلوا يكُنِ امتناعُكم شَرًّا لكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الثعلبيُّ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨). ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٤٥٥، ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤، ٩٥).

(٢) أي: استباحوا نساءَهم، أو ما حرَّم اللهُ مِن أموالِهم وغيرِها، وهذا على سبيلِ الاستئنافِ؛ فإنَّ استِحلالَ المَحارِمِ جامعٌ لجميعِ أنواعِ الظُّلْمِ، وعَطْفُه على سَفكِ الدِّماءِ عطفُ عامٍّ على خاصٍّ. يُنظر: ((فيض القدير)) للمُناوي (١/ ١٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٤) أخرجه من طُرُقٍ: أبو داودَ (١٦٩٨) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨٣)، وأحمدُ (٦٤٨٧). =

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عَبدٍ أبَدًا))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ؟ فقال: أن تَصَدَّقَ وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخشى الفقرَ، وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلُ[2] حتَّى إذا بلَغَت الحُلْقُومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كذا، ولِفُلانٍ كذا[3]، ألَا وقد كان لِفُلانٍ[4]!))[5].

= صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٥١٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٩٨)، وصحَّح إسنادَه الطَّبَريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٠١)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٩٨).

(١) أخرجه مُطَوَّلًا النَّسائيُّ (٣١١٠) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٦٩٣).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٣٢٥١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٣١١٠)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ بطُرُقِه وشَواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٤٣٣)، وصحَّح إسنادَه الطَّبَريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٢).

(٢) مِن الإمهالِ، وهو بالرَّفعِ على أنَّه خبرٌ، ويجوزُ بالنَّصبِ عطفًا على (تَصَدَّقَ)، أو بالجزمِ على النَّهي، أي: ولا تؤخِّرِ الصَّدقةَ، أي: ولا تُمهِلْ نفْسَك. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٣) لِفُلانٍ: كِنايةٌ عن الموصَى له (كذا) كِنايةٌ عن الموصَى به. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٤) وقد كان لِفُلانٍ: أي: الوارِث، قيل: جملةٌ حاليَّةٌ، أي: وقد صار المالُ الَّذي تتصرَّفُ فيه في هذه الحالةِ ثُلُثاهُ حقًّا للوارِثِ وأنت تتصَدَّقُ بجميعِه، فكيف يُقْبَلُ منك؟! وقيل: أي: وقد صار ما أَوصى به للوارِثِ، فيُبطِلُه إن شاء إذا زاد على الثُّلثِ، أو أوصى به لوارِثٍ آخَرَ. وقيل: المعنى: أنَّه قد خرَج عن تصَرُّفِه وكمالِ ملكِه واستِقلالِه بما شاء مِن التَّصرُّفِ، فليس له في وصيَّتِه كبيرُ ثَوابٍ وكثيرُ فضلٍ بالنِّسبةِ إلى صدقةِ الصَّحيحِ الشَّحيحِ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٥) رواه البخاريُّ (١٤١٩)، ومسلمٌ (١٠٣٢) واللَّفظُ له.

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالإنفاقِ، ورهَّبَ مِن ضِدِّه على وَجْهٍ أعَمَّ، رَغَّب فيه؛ تأكيدًا لأمْرِه لِما فيه مِن الصُّعوبةِ، لا سِيَّما في زمانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ المالَ فيه كان في غايةِ العِزَّةِ[(١)].

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾.

أي: إنْ تُنفِقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم احتِسابًا للأجرِ عِندَ رَبِّكم بلا مَنٍّ ولا أذًى، فاللهُ يُثيبُكم على إنفاقِكم هذا بأُجورٍ كَثيرةٍ، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئةِ ضِعفٍ أو أكثَرَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تَصَدَّقَ أحَدٌ بصَدَقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تَمْرةً، فتَربُو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تَكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه[(٣)]))[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) الفَلُوُّ: المُهْرُ الصَّغيرُ، وهو ولَدُ الفَرَسِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه فُلِيَ عن أمِّه، أي: فُصِلَ وعُزِلَ. والفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أُمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاريُّ (١٤١٠)، ومسلمٌ (١٠١٤) واللَّفظُ له.

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فَمِ امْرأتِك))[١].

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾.

أي: ويَغفِرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، بسَترِها عليكم، ووقايتِكم مِن شرِّها؛ جزاءً لكم على إنفاقِكم[٢].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو شُكرٍ بالِغٍ وكثيرٍ للمُنفِقينَ في سَبيلِه، ويَجزيهم على القَليلِ بالكثيرِ، حَليمٌ على عبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ذُنوبِهم، بل يُمهِلُهم[٣].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: عالِمُ كُلِّ ما يَغيبُ عن عِبادِه، وجَميعِ ما يُشاهِدونَه؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ[٤].

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: العَزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه

(١) رواه البخاريُّ (٥٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

اللَّائِقِ به[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ هذا تحذيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ مِن الاغترارِ بالأزواجِ والأولادِ؛ فإنَّ بَعضَهم عدُوٌّ لكم، والعَدُوُّ هو الَّذي يُريدُ لك الشَّرَّ، ووظيفتُك الحَذَرُ مِمَّن هذا وَصْفُه، والنَّفسُ مَجبولةٌ على محبَّةِ الأزواجِ والأولادِ؛ فنَصَح اللهُ تعالى عِبادَه أن تُوجِبَ لهم هذه المحبَّةُ الانقيادَ لمطالِبِ الأزواجِ والأولادِ ولو كان فيها ما فيها مِن المحذورِ الشَّرعيِّ، ورَغَّبَهم في امتِثالِ أوامِرِه، وتقديمِ مَرضاتِه بما عِندَه مِن الأجرِ العَظيمِ المُشتَمِلِ على المطالِبِ العاليةِ، والمَحابِّ الغاليةِ، وأن يُؤثِروا الآخِرةَ على الدُّنيا الفانيةِ المُنقَضِيةِ[٢].

٢- علَّم اللهُ تعالى الإنسانَ كيف يُعاشِرُ أقرَبَ النَّاسِ إليه؛ زوجتَه وأبناءَه وأُسرتَه الأدنَيْنَ، أمَرَه أن يَتحفَّظَ منهم غايةَ التَّحفُّظِ لدينِه ودُنياه؛ لأنَّهم رُبَّما أوقعوه فيما لا يَنبغي، ثمَّ أمَرَه إذا وجَد منهم ما لا يُحِبُّ أن يُعامِلَهم باللِّينِ والصَّفحِ والمَغفرةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، فمِن شدَّةِ حِكمتِه يُعَلِّمُ الإنسانَ كيف يُعاشِرُ أُسرتَه الأدنَينَ، وأن يَحذَرَ من شرِّ امرأتِه وأولادِه؛ لئلَّا يُضَيِّعوا عليه دينَه أو دُنياه، ثمَّ إذا عثَر منهم على ما لا يَنبغي أمَرَه ألَّا يُعامِلَهم بالشِّدَّةِ والمكروهِ؛ ولذا قال في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ ثمَّ قال -إذا رأى منهم ما يَكرَهُ-: ﴿وَإِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ دليلٌ على تثبيتِ الاحتِرازاتِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ عزاءٌ لِمَن بُلِيَ بزَوجةٍ مُؤذيَةٍ، أو وَلَدٍ عاقٍّ، فَصَبَرَ على أذاهما، وعفا وصَفَحَ عن زلَّاتِهما، ومكروهٍ يكونُ منهما، وفيما وَعَدَ اللهُ جلَّ جلالُه مِن الغُفرانِ مَن فَعَل ذلك: ما يُهَوِّنُ عليه، ويُعَظِّمُ بِشارتَه إذا احتملَ مَضَضَ غوائلِهما؛ طمَعًا في إنجازِ ما وَعَدَه اللهُ عليه[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾، لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فمَن عفا عفا اللهُ عنه، ومَن صَفَح صَفَح اللهُ عنه، ومَن غَفَر غَفَر اللهُ له، ومَن عامَلَ اللهَ فيما يحِبُّ، وعامَلَ عِبادَه كما يُحِبُّونَ وينفَعُهم؛ نال محبَّةَ اللهِ ومحبَّةَ عِبادِه، واستَوثَقَ له أمْرُه[4].

٦- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾، قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ تزهيدٌ في الدُّنيا، وترغيبٌ في الآخِرةِ[5].

٧- النَّاسُ مِنهم مَن يكونُ العِلمُ أيسَرَ عليه مِنَ الزُّهدِ، ومِنهم مَن يكونُ الزُّهدُ أيسَرَ عليه، ومِنهم مَن تكونُ العِبادةُ أيسَرَ عليه منهما؛ فالمشروعُ لكُلِّ إنسانٍ أن يَفعَلَ ما يَقدِرُ عليه مِنَ الخَيرِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، وإذا

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢).

ازدحمَت شُعَبُ الإيمانِ قَدَّمَ ما كان أرضى لله، وهو عليه أقدَرُ؛ فقد يكونُ على المفضولِ أقدَرَ منه على الفاضِلِ، ويَحصُلُ له أفضَلُ مِمَّا يَحصُلُ مِن الفاضِلِ؛ فالأفضَلُ لهذا أن يَطلُبَ ما هو أنفَعُ له، وهو في حَقِّه أفضَلُ، ولا يَطلُبَ ما هو أفضَلُ مُطلَقًا إذا كان مُتعَذِّرًا في حَقِّه، أو مُتعَسِّرًا يَفوتُه ما هو أفضَلُ له وأنفَعُ[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ فيه التَّحريضُ على الإنفاقِ بمَرتبَتَيه: الواجِبِ والمندوبِ، وهذا مِن الاهتِمامِ بالنَّزاهةِ عن فِتنةِ المالِ الَّتي ذُكِرَت في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ هذا الوَصفُ داعٍ إلى الإحسانِ؛ مِن حيثُ إنَّه يُوجِبُ للمُؤمِنِ تَرْكَ ظاهِرِ الإثمِ وباطِنِه، وكُلِّ قُصورٍ وفُتورٍ وغَفلةٍ وتَهاوُنٍ، فيَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ والمعنى: أنَّ مِن الأزواجِ والأولادِ عدوًّا، وليس المرادُ أنَّ كلَّ زوجٍ وولدٍ عدوٌّ؛ فإنَّ هذا ليس هو مدلولَ اللَّفظِ، وهو باطلٌ في نفْسِه؛ فإنَّه سُبحانَه قد قال عن عِبادِ الرَّحمنِ: إنَّهم يقولونَ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسَألوا اللهَ أنْ يَهَبَ لهم مِن أزواجِهم وأولادِهم قُرَّةَ أعيُنٍ، فلو كان كلُّ زوجٍ وولدٍ عدوًّا، لم يكُنْ فيهم قُرَّةُ أعيُنٍ؛ فإنَّ العدوَّ لا يكونُ قُرَّةَ عينٍ، بل سُخْنَةُ عَينٍ، وأيضًا فإنَّه مِن المعلومِ أنَّ مِثلَ إسماعيلَ وإسحاقَ ابنَيْ إبراهيمَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧).

ومِثلَ يحيى بنِ زكريَّا، وأمثالَهم: ليسوا أعداءً[(١)]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ كما أنَّ الرَّجُلَ يَكونُ له وَلَدُه وزَوجُه عَدُوًّا، كذلك المرأةُ يكونُ لها وَلَدُها وزَوجُها عَدُوًّا بهذا المعنى بعَينِه، وعُمومُ قَولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ يَدخُلُ فيه الذَّكَرُ والأُنثى كدُخولِهما في كُلِّ آيةٍ[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، لَمَّا أخبَرَ عن العداوةِ، عبَّر بما قد يُفهِمُ الواحدَ فقط تخفيفًا، ولَمَّا أمَرَ بالحذرِ جمَع؛ إشارةً إلى زيادةِ التَّحذيرِ والخَوفِ في كلِّ أحدٍ، ولو كان أقربَ الأقرباءِ[(٣)].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ معناه: على أنفُسِكم. والحذَرُ على النَّفْسِ يكونُ بوجهَينِ: إمَّا لضرَرٍ في البدنِ، وإمَّا لضررٍ في الدِّينِ، وضررُ البدنِ يَتعلَّقُ بالدُّنيا، وضررُ الدِّينِ يتعلَّقُ بالآخرةِ، فحذَّر اللهُ سُبحانَه العبدَ مِن ذلك وأنْذَرَه به[(٤)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أنَّه سُبحانَه لم يَجعَلْ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في دينِهم مِن حَرَجٍ، بل أراد بهمُ اليُسْرَ، ولم يُرِدْ بهم العُسْرَ؛ ولهذا فإنَّ ما أوجَبَه على عبادِه شَرَطَه بالاستطاعةِ[(٥)].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ واجِبٍ عَجَز عنه العَبدُ: أنَّه يَسقُطُ عنه،

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((العقود)) لابن تيمية (١/ ٣٧).

وأنَّه إذا قَدَر على بَعضِ المأمورِ، وعَجَز عن بَعضِه؛ فإنَّه يأتي بما يَقدِرُ عليه، ويَسقُطُ عنه ما يَعجِزُ عنه، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أمَرْتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استَطَعتُم))[1]. ويَدخُلُ تحتَ هذه القاعِدةِ الشَّرعيَّةِ مِن الفُروعِ ما لا يَدخُلُ تحتَ الحَصرِ[2]، فالإنسانُ إذا لم يَستَطِعِ القيامَ بأمرِ اللهِ على وجهِ الكَمالِ، فإنَّه يأتي منه بما قَدَرَ عليه، ومِن ذلك قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لعِمْرانَ ابنِ حُصَينٍ رضيَ الله عنه: ((صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تَستَطِعْ فقاعِدًا، فإنْ لم تَستطِعْ فعلى جَنْبٍ))[3]؛ فرَتَّبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّلاةَ بحسَبِ الاستِطاعةِ بأنْ يُصلِّيَ قائمًا، فإنْ لم يَستطِعْ فقاعدًا، فإنْ لم يَستطعْ فعلى جَنْبٍ، وهكذا أيضًا بقيَّةُ الأوامرِ[4].

٧- قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فأمَر بتقواه بقَدرِ الاستطاعةِ، فالمجتَهِدُ المُستَدِلُّ؛ مِن إمامٍ وحاكِمٍ، وعالِمٍ وناظِرٍ، ومُفْتٍ وغَيرِ ذلك: إذا اجتَهَد واستَدَلَّ فاتَّقى اللهَ ما استطاعَ؛ كان هذا هو الَّذي كَلَّفَه اللهُ إيَّاه، وهو مُطيعٌ لله مُستَحِقٌّ للثَّوابِ إذا اتَّقاه ما استطاعَ، ولا يُعاقِبُه اللهُ البتَّةَ -خِلافًا للجَهميَّةِ المُجْبِرةِ-، وهو مُصيبٌ، بمعنى: أنَّه مُطيعٌ لله، لكِنْ قد يَعلَمُ الحَقَّ في نفْسِ الأمرِ، وقد لا يَعلَمُه، خِلافًا للقَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ في قَولِهم: كُلُّ مَن استَفرَغَ وُسْعَه عَلِمَ الحَقَّ؛ فإنَّ هذا باطِلٌ، بل كُلُّ مَنِ استَفرَغَ وُسْعَه استَحَقَّ الثَّوابَ، وكذلك الكُفَّارُ؛ مَن بَلَغَه دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دارِ الكُفرِ، وعَلِمَ أنَّه رَسولُ اللهِ، فآمَنَ به وآمَنَ بما

(١) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٧٢٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٣٧) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١١٧).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥١٤).

أُنزِلَ عليه، واتَّقى اللهَ ما استطاع، كما فَعَل النَّجاشيُّ وغَيرُه، ولم تُمكِنْه الهِجرةُ إلى دارِ الإسلامِ، ولا التزامُ جَميعِ شَرائعِ الإسلامِ؛ لِكَونِه مَمنوعًا مِنَ الهِجرةِ ومَمنوعًا مِن إظهارِ دينِه، وليس عِندَه مَن يُعَلِّمُه جميعَ شَرائِعِ الإسلامِ- فهذا مُؤمِنٌ مِن أهلِ الجنَّةِ، كما كان مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ مع قَومِ فِرعَونَ، وكما كانت امرأةُ فِرعَونَ، بل وكما كان يوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السَّلامُ مع أهلِ مِصرَ؛ فإنَّهم كانوا كُفَّارًا، ولم يُمكِنْه أن يَفعَلَ معهم كلَّ ما يَعرِفُه مِن دينِ الإسلامِ، وكذلك النَّجاشيُّ هو وإن كان مَلِكَ النَّصارى، فلم يُطِعْه قَومُه في الدُّخولِ في الإسلامِ، بل إنَّما دَخَل معه نَفَرٌ منهم. وكثيرًا ما يَتولَّى الرَّجُلُ بيْن المُسلِمينَ والتَّتارِ قاضِيًا، بل وإمامًا، وفي نفْسِه أمورٌ مِن العَدلِ يُريدُ أن يَعمَلَ بها فلا يُمكِنُه ذلك، بل هناك مَن يَمنَعُه ذلك، ولا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها. وعُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ عُودِيَ وأُوذِيَ على بعضِ ما أقامَه مِنَ العَدلِ، وقيل: إنَّه سُمَّ على ذلك؛ فالنَّجاشيُّ وأمثالُه سُعَداءُ في الجنَّةِ وإن كانوا لم يَلتَزِموا مِن شرائِعِ الإسلامِ ما لا يَقدِرونَ على التزامِه، بل كانوا يَحكُمونَ بالأحكامِ الَّتي يُمكِنُهم الحُكمُ بها[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ وقَولِه: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أنَّه سُبحانَه أثْبَت للعَبدِ مَشيئةً واستِطاعةً -وهي القُدرةُ-؛ إلَّا أنَّهما تابِعتانِ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مُفَسِّرٌ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ورافِعٌ لظَنِّ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ أمرَ النَّاسَ بحَقِّ تُقاتِه الَّذي لا يَستطيعونَه، وهذا هو الَّذي أراده مَن قال مِن المتقَدِّمينَ: إنَّ هذه ناسِخةٌ لتلك، أرادوا أنَّها ناسِخةٌ للظَّنِّ الفاسِدِ مِن معناها، ولم يُريدوا أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢١٦-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٣٠١).

أمَرَ النَّاسَ بما لا يَستطيعونَه مِن تَقْواه، ثمَّ نَسَخ ذلك[1]!

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفْسِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الشُّحَّ مِن طِباعِ النفْسِ؛ فإنَّ النُّفوسَ شَحيحةٌ بالأشياءِ المُحبَّبةِ إليها[2]، وأنَّه شَديدُ التَّمكُّنِ منها.

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (مَنْ) اسمُ شَرطٍ، وهي مِن صِيَغِ العُمومِ، أي: كُلُّ مَن يُوقَ شُحَّ نفْسِه، والعُمومُ يدُلُّ على أنَّ (مَن) مُرادٌ بها جِنسٌ لا شَخصٌ مُعَيَّنٌ ولا طائِفةٌ، وهذا حُبٌّ اقتضاه حِرصُ أكثَرِ النَّاسِ على حِفظِ المالِ وادِّخارِه، والإقلالِ مِن نَفعِ الغَيرِ به، وذلك الحِرصُ يُسَمَّى الشُّحَّ. والمعنى: أنَّ الإنفاقَ يَقِي صاحِبَه مِن الشُّحِّ المنهيِّ عنه، فإذا يُسِّرَ على المرءِ الإنفاقُ فيما أَمَر اللهُ به، فقد وُقِيَ شُحَّ نَفْسِه، وذلك مِن الفلاحِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ تنبيهٌ للمُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ -المُنْكِرين أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ فالفَلاحُ شَيءٌ مفعولٌ بهم، وتعقيبُه ذلك بفِعلٍ مُضافٍ إليهم مِن إقراضِ القَرْضِ الحَسَنِ، وجَعْلُه كِلَيْهما في مَدْحِ الموصوفِينَ بفِعلينِ مُختَلِفَيِ اللَّفظِ مُتَّفِقَيِ المعنى، وهذا نظيرُ الإضلالِ الَّذي يُخْبِرُ به مَرَّةً عن نفْسِه أنَّه فاعِلٌ بهم، ومَرَّةً عنهم أنَّهم يَفعَلونَه بأنفُسِهم[4].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٨/ ٤٥٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٩، ٣٢٠).

أنَّ الذُّنوبَ يُكَفِّرُها اللهُ بالصَّدَقاتِ والحَسَناتِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إقبالٌ على خِطابِ المُؤمنينَ بما يُفيدُهم كمالًا، ويُجنِّبُهُم ما يَفتِنُهم؛ فهذه الآيةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا(٢).

- وإذا كانَتِ السُّورةُ كلُّها مكِّيَّةً كانت الآيةُ ابتِداءَ إقبالٍ على تخصيصِ المُؤمنينَ بالخِطابِ بعْدَ قَضاءِ حقِّ الغرضِ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ على عادةِ القُرآنِ في تعقيبِ الأغراضِ بأضْدادِها مِن ترغيبٍ أو ترهيبٍ، وثناءٍ أو مَلامٍ، أو نحوِ ذلك؛ لِيُوفَّى الطَّرَفانِ حَقَّيْهما(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ فيه تَقديمُ خبرِ (إنَّ) على اسمِها؛ للاهتِمامِ بهذا الخبرِ، ولِمَا فيه مِن تَشويقٍ إلى الاسمِ؛ لِيتمكَّنَ مَضمونُ هذا الخبَرِ في الذِّهنِ أتمَّ تمكُّنٍ؛ لِما فيه مِنَ الغرابةِ والأهمِّيَّةِ(٤).

- ولَمَّا كان الأزواجُ أقرَبَ عَداوةً مِنَ الأولادِ، قَدَّمَهنَّ(٥). وقيل: قدَّمَهنَّ لِكَونِ العداوةِ تأتي مِن الأزواجِ قبْلَ الأولادِ غالبًا، ثمَّ يتأثَّرُ بهِنَّ الأولادُ(٦).

- والإخبارُ عن بعضِ الأزواجِ والأولادِ بأنَّهم عدُوٌّ يجوزُ أن يُحمَلَ على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (٨/ ٤٦٧٢).

الحقيقةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ على معنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: كالعدُوِّ في المُعامَلةِ بما هو مِن شأنِ مُعامَلةِ الأعداءِ، كما قيلَ في المثَلِ: يفعَلُ الجاهلُ بنفْسِه ما يفعَلُ العدُوُّ بعدُوِّه(١).

- وعُطِفَ على قولِه: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ جُملةُ ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾ إلى آخِرِها عَطْفَ الاحتِراسِ؛ لأنَّه إذا كان العفوُ مطلوبًا محبوبًا إلى اللهِ تعالَى -وهو لا يكونُ إلَّا بعْدَ حصولِ الذَّنْبِ-، فإنَّ عدمَ المؤاخَذةِ على مُجرَّدِ ظنِّ العداوةِ أجدَرُ بالطَّلَبِ، ففُهِمَ النَّهيُ عن مُعامَلةِ الأزواجِ والأبناءِ مُعامَلةَ الأعداءِ مِن أجْلِ إيجاسِ العداوةِ، بلِ المقصودُ مِنَ التَّحذيرِ التَّوقِّي، وأخْذُ الحَيْطةِ، لا ابتِداءُ المؤاخَذةِ(٢).

- قولُه: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ العفوُ: ترْكُ المُعاقَبةِ على الذَّنْبِ بعْدَ الاستِعدادِ لها، ولو مع توبيخٍ، والصَّفحُ: الإعراضُ عن المذنِبِ، أي: ترْكُ عِقابِه على ذنْبِه دونَ التَّوبيخِ، والغَفْرُ: سترُ الذَّنْبِ، وعدَمُ إشاعتِه، والجمعُ بَيْنَها هنا إيماءٌ إلى تراتُبِ آثارِ هذِه العداوةِ، وما تَقتضيهِ آثارُها مِن هذِه المعامَلاتِ الثَّلاثِ(٣). وقيل: يريدُ بالعفوِ عن الظَّالمِ، وبالصَّفحِ عن الجاهلِ، وبالغُفرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٩).

قال البِقاعي: (﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ أي: تُوقِعوا المُجاوَزةَ عن ذُنوبِهم بعدمِ العِقابِ عليها؛ فإنَّه لا فائدةَ في ذلك؛ لأنَّ مَن طُبِع على شيءٍ لا يَرجِعُ، وإنَّما النَّافعُ الحذَرُ الَّذي أرشد إليه سُبحانَه لئلَّا يكونَ سببًا لـ «لو» المَنهيِّ عنه. ولَمَّا كان الرُّجوعُ عن الحُظوظِ صعبًا جدًّا، أكَّد سُبحانَه فقال: ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ أي: بالإعراضِ عن المُقابَلةِ بالتَّثريبِ باللِّسانِ ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ أي: بأن تَستُروا ذُنوبَهم سترًا تامًّا شاملًا للعَينِ والأثَرِ، بالتَّجاوُزِ بعْدَ تركِ العِقابِ عن العِتابِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٣٠).

قال الفيروزابادي: (وصَفَحْتُ عنه: أعرَضْتُ عن ذنْبِه وعن تثريبِه، وهو أبلَغُ مِن العفوِ، وقد =

للمُسيءِ[١].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ الأفعالِ الثَّلاثةِ (تعفوا- تصفحوا- تغفروا)؛ لِظُهورِ أنَّ المرادَ مِن أولادِكُم وأزواجِكُم فيما يَصْدُرُ منهم ممَّا يُؤذيكُم. ويجوزُ أنْ يكونَ حذْفُ المتعلَّقِ لإرادةِ عُمومِ التَّرغيبِ في العَفوِ[٢].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلُ جَوابِ الشَّرطِ المحذوفِ المُؤذِنُ بالتَّرغيبِ في العفوِ والصَّفحِ والغَفْرِ؛ فالتَّقديرُ: وإنْ تَعْفوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا يُحِبَّ اللهُ ذلك منكم؛ لأنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، أي: للَّذينَ يَغفِرونَ ويَرحمونَ، وجمَعَ وَصْفُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ الخِصالَ الثَّلاثَ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ فيه تَعميمَ أحوالِ الأولادِ بعْدَ أنْ ذُكِرَ حالٌ خاصٌّ ببعضِهم. وأُدْمِجَ في هذا التَّذييلِ الأموالُ؛ لأنَّها لم يَشمَلْها طَلَبُ الحذَرِ، ولا وصْفُ العداوةِ. ووَجْهُ إدماجِ الأموالِ هنا أنَّ المُسلمينَ كانوا قد أُصِيبوا في أموالِهم مِن المُشرِكينَ، فغلَبوهُم على أموالِهم، ولم تُذْكَرِ الأموالُ في الآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّ الغرَضَ هو التَّحذيرُ مِن أشدِّ الأشياءِ اتِّصالًا بهم، وهي أزواجُهم وأولادُهم، ولأنَّ فِتنةَ هؤلاءِ مُضاعَفةٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليها يكونُ مِن أنفُسِهم، ومِن مَساعي الآخَرينَ وتسويلِهم[٤].

= يعفوُ الإنسانُ ولا يَصفَحُ). ((بصائر ذوي التمييز)) (٣/ ٤٢١). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٨٦).

وقال القرطبي: (العفوُ: ترْكُ المؤاخَذةِ بالذَّنْبِ. والصَّفحُ: إزالةُ أثَرِه من النَّفْسِ). ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- وجُرِّدَ التَّذييلُ عن ذِكْرِ الأزواجِ هنا اكتِفاءً[١]؛ لدَلالةِ فِتنةِ الأولادِ عليهِنَّ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٢]؛ فإنَّ فِتنتَهنَّ أشدُّ مِن فتنةِ الأولادِ؛ لأنَّ جُرأتَهنَّ على التَّسويلِ لأزواجِهنَّ ما يُحاوِلْنَه منهم أشدُّ مِن جرأةِ الأولادِ[٣]. وقيل: كأنَّه سُبحانَه تَرَكَ ذِكْرَ الأزواجِ في الفِتنةِ؛ لأنَّ مِنهم مَن يكونُ صَلاحًا وعَونًا على الآخِرةِ[٤].

- والقصرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صفةٍ، أي: ليستْ أموالُكم وأولادُكم إلَّا فِتنةً، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[٥]؛ للمُبالَغةِ في كثرةِ مُلازَمةِ هذه الصِّفةِ للموصوفِ؛ إذْ يَنْدُرُ أنْ تخلُوَ أفرادُ هذَيْنِ النَّوعَينِ -وهُما أموالُ المُسلِمينَ وأولادُهم- عن الاتِّصافِ بالفِتنةِ لِمَن يتلبَّسُ بهما[٦].

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى؛ كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

- وقُدِّمَ ذِكْرُ الأموالِ على الأولادِ؛ لأنَّ الأموالَ لم يتقدَّمْ ذِكْرُها، بخِلافِ الأولادِ. أو قُدِّمَت الأموالُ على الأولادِ لأنَّها أعظمُ فِتنةً[١]. أو: لأنَّ الأموالَ لا تكادُ تُفارِقُها الفِتنةُ، وليسَتِ الأولادُ في اسْتِلزامِ الفِتنةِ مِثْلَها؛ فكانَ تقديمُها أولى[٢].

- والإخبارُ بـ﴿فِتۡنَةٞ﴾ للمُبالَغةِ، والمرادُ: أنَّهم سببُ فتنةٍ، سواءً أسَعَوْا في فِعلِ الفَتْنِ أم لم يَسْعَوْا؛ فإنَّ الشُّغلَ بالمالِ والعنايةِ بالأولادِ فيه فِتنةٌ[٣].

- وجاءَ في بابِ العَداوةِ ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ بحَرْفِ (مِنْ) الَّتي تَقْتَضي التَّبعيضَ، وفي الفِتنةِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ حكَمَ بها على الأموالِ والأولادِ؛ وذلكَ لِغَلَبةِ الفِتنةِ بهِما[٤]. فلمَّا ذكَرَ اللهُ العداوةَ أدخَلَ فيه (مِن) للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كلَّهم ليسوا بأعداءٍ، ولم يَذكُرْ (مِن) في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّها لا تخلو عن الفِتنةِ واشتِغالِ القلبِ[٥].

- وفي هذِه الآيةِ مِن خُصوصيَّاتِ عِلمِ المعاني التَّذييلُ والإدماجُ[٦]، وكِلاهُما مِنَ الإطنابِ[٧]. ....

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٦١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٥).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

(٧) الإطنابُ: هو زيادةُ اللَّفظِ على المعنى لفائدةٍ، أو هو تأديةُ المعنى بعبارةٍ زائدةٍ عن مُتعارَفِ أوساطِ البُلغاءِ؛ لفائدةِ تقويتِه وتوكيدِه. ويَنقسِمُ إلى: إطنابٍ بالبَسطِ، وإطنابٍ بالزِّيادةِ. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٠١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٦٢).

والاكتفاءُ، وهو مِنَ الإيجازِ. وفيها الإخبارُ بالمصدرِ، وهو فِتنةٌ، والإخبارُ به مِنَ المبالَغةِ؛ فهذِه أربعةٌ مِنَ المُحسِّناتِ البديعيَّةِ. وفيها القَصرُ[١]، وفيها التَّعليلُ، وهو مِن خُصوصيَّاتِ الفصلِ، وقد يُعَدُّ مِن مُحسِّناتِ البَديعِ أيضًا؛ فتلكَ سِتُّ خصوصيَّاتٍ[٢]، على ما سبَق بيانُه.

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ كِنايةٌ عن الجزاءِ عن تلكَ الفِتنةِ لِمَن يُصابِرُ نفْسَه على مُراجَعةِ ما تُسوِّلُه مِن الانحِرافِ عن مَرضاةِ اللهِ إنْ كانَ في ذلك تسويلٌ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ الفاءُ فصيحةٌ وتفريعٌ على ما تقدَّمَ، أي: إذا علِمْتُم هذا فاتَّقُوا اللهَ فيما يجِبُ مِنَ التَّقْوى في مُعامَلةِ الأولادِ والأزواجِ، ومصارِفِ الأموالِ، فلا يصُدَّكُم حُبُّ ذلكَ والشغلُ به عن الواجباتِ، ولا يُخرِجْكُم الغضبُ ونَحْوُه عن حدِّ العدلِ المأمورِ به، ولا حُبُّ المالِ عن أداءِ حُقوقِ الأموالِ، وعن طلَبِها من وُجوهِ الحلالِ؛ فالأمرُ بالتَّقْوى شامِلٌ للتَّحذيرِ، وللتَّرغيبِ في العفْوِ، ولِما عَدا ذلك[٤].

- وحذْفُ مُتعلَّقِ (اتَّقُوا)؛ لقَصدِ تَعميمِ ما يتعلَّقُ بالتَّقوى مِن جميعِ الأحوالِ،

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وبذلكَ يكونُ هذا الكلامُ كالتَّذييلِ؛ لأنَّ مضمونَه أعمُّ مِن مضمونِ ما قَبْلَه[١].

- و(مَا) في قولِه: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مَصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أي: مُدَّةَ استِطاعتِكم؛ لِيَعُمَّ الأزمانَ كلَّها، ويعُمَّ الأحوالَ تبعًا لعُمومِ الأزمانِ، ويعُمَّ الاستِطاعاتِ، فلا يَتخلَّوْا عن التَّقوى في شيءٍ مِنَ الأزمانِ، وجُعِلَت الأزمانُ ظرفًا للاستِطاعةِ؛ لئَلَّا يُقصِّروا بالتَّفريطِ في شَيءٍ يَستطيعونَه فيما أُمِروا بالتَّقوى في شأنِه ما لم يَخرُجْ عن حدِّ الاستطاعةِ إلى حدِّ المشَقَّةِ، فليس في قولِه: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ تَخفيفٌ ولا تشديدٌ، ولكنَّهُ عدلٌ وإنصافٌ، ففيه ما عليهم، وفيه ما لَهم[٢].

- وعطْفُ ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ على قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به، ولأنَّ التَّقْوى تَتبادرُ في ترْكِ المنهيَّاتِ؛ فإنَّها مُشتقَّةٌ مِن (وَقَى)، فتَقْوى اللهِ أنْ يَقيَ المرءُ نفْسَه ممَّا نهاهُ اللهُ عنه، ولَمَّا كان ترْكُ المأموراتِ يَؤُولُ إلى إتيانِ المَنهيَّاتِ -لأنَّ ترْكَ الأمرِ منهيٌّ عنه-؛ كان التَّصريحُ به بخُصوصِه اهتمامًا بكِلا الأمْرَينِ لِتَحصُلَ حقيقةُ التَّقوى الشَّرعيَّةِ، وهي اجتِنابُ المنهيَّاتِ، وامتثالُ المأموراتِ[٣].

- وعطْفُ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ تخصيصٌ بَعْدَ تخصيصٍ؛ فإنَّ الإنفاقَ ممَّا أمَرَ اللهُ به، فهو مِنَ المأموراتِ، وصيغةُ الأمرِ تشمَلُ واجبَ الإنفاقِ والمندوبَ، فلَمَّا كان الإنفاقُ شَديدًا، أكَّدَ أمْرَه بتَخصيصِه بالذِّكرِ[٤].

- و﴿خَيۡرًا﴾ مَنصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: وأْتُوا خيرًا لأنفُسِكُم، أو على إضمارِ (يَكُنْ) فيكونُ خبرًا، أو على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٣).

(أَنْفِقُوا)، والتَّقديرُ: إنفاقًا خيرًا لأنفُسِكُم، وافعَلوا ما هو خيرٌ لها وأنفَعُ، وهذا تأكيدٌ للحثِّ على امتِثالِ هذِه الأوامِرِ، وبيانٌ لأنَّ هذِه الأمورَ خيرٌ لأنفُسِكُم مِن الأموالِ والأولادِ، وما أنتُم عاكِفونَ عليه مِن حُبِّ الشَّهواتِ وزخارِفِ الدُّنيا؛ فيكونُ كالخاتمةِ لسائرِ الأوامرِ السَّابقةِ، وكالبيانِ للتَّرجيحِ على ما اعتقَدوا فيه الخيرَ مِنَ الأموالِ والأولادِ[(١)].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تَذييلٌ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لَمَّا كانَ وِقايةُ النَّفْسِ مِن الشُّحِّ فلاحًا عظيمًا، جِيءَ في جانبِه بصيغةِ الحَصرِ بطريقةِ تَعريفِ المسنَدِ، وهو قَصرُ جِنسِ المُفلحِينَ على جِنسِ الَّذينَ وُقُوا شُحَّ أنفُسِهم، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[(٣)]؛ للمُبالَغةِ في تَحقيقِ وَصْفِ المُفلِحينَ الَّذينَ وُقُوا شُحَّ أنفُسِهم، نُزِّلَ فلاحُ غيرِهم بمَنزِلةِ العدمِ[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فإنَّ مُضاعَفةَ الجزاءِ على الإنفاقِ مع المغفرةِ خَيرٌ عظيمٌ، وبهذا الموقعِ يعلَمُ السَّامعُ أنَّ القرضِ أُطْلِقَ على الإنفاقِ المأمورِ به، والمقصودُ الاعتناءُ بفَضلِ الإنفاقِ المأمورِ به اهتمامًا مُكرَّرًا، فبَعْدَ أنْ جُعِل خيرًا جُعِل سببَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

الفلاحِ، وعُرِّفَ بأنَّه قرْضٌ مِنَ العبدِ لربِّه، وكفَى بهذا ترغيبًا وتلَطُّفًا في الطَّلبِ والاستِدعاءِ إلى القرضِ؛ إذْ جُعِلَ المُنفِقُ كأنَّه يُعطِي اللهَ تعالَى مالًا، وذلك مِن معنى الإحسانِ في مُعامَلةِ العبدِ ربَّه(١).

- ولَمَّا أمَرَ بالإنفاقِ أكَّدَه بقولِه: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، ورتَّبَ عليه تضعيفَ القَرضِ، وغُفرانَ الذُّنوبِ، وفي لفظِ المُضاعَفةِ تأكيدٌ للبَذْلِ لوجهِ اللهِ تعالَى(٢).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ الشَّكورُ: فَعولٌ بمعنى فاعِلٍ مُبالَغةً، أي: كثيرُ الشُّكرِ، وأُطْلِقَ الشُّكرُ فيه على الجزاءِ بالخَيرِ على فِعلِ الصَّالحاتِ؛ تشبيهًا لِفعلِ المتفضِّلِ بالجزاءِ بشُكرِ المُنعَمِ عليه على نِعمةٍ، ولا نِعمةَ على اللهِ فيما يفعَلُه عِبادُه مِن الصَّالحاتِ؛ فإنَّما نَفْعُها لأنفُسِهم، ولكنَّ اللهَ تفضَّلَ بذلكَ حثًّا على صلاحِهِم، فرتَّبَ لهُمُ الثَّوابَ بالنَّعيمِ على تزكيةِ أنفُسِهم، وتلطَّفَ لهم فسمَّى ذلكَ الثَّوابَ شُكرًا، وجعَلَ نفْسَه شاكرًا، وقد أومَأَ إلى هذا المَقصدِ إتْباعُ صِفةِ ﴿شَكُورٌ﴾ بصِفةِ ﴿حَلِيمٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك من حِلْمِه بعبادِه دونَ حقٍّ لهم عليه سُبحانَه(٣).

- وأيضًا أتْبَعَ جوابَي الشَّرطِ بوصفَينِ: ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، أحَدُهما عائدٌ إلى المُضاعَفةِ؛ إذْ شُكرُه تعالَى مُقابِلٌ للمُضاعَفةِ، وحِلْمُه مُقابِلٌ للغُفرانِ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣).

- وَصْفُ اللهِ بأنَّه ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَتميمٌ للتَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالَى، مع مُناسَبتِها للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ اللَّذَيْنِ اشتمَلَتْ عليهِما الآياتُ السَّابقةُ كلُّها؛ لأنَّ العالِمَ بالأفعالِ ظاهِرِها وخَفيِّها لا يُفيتُ شيئًا مِنَ الجزاءِ عليها بما رتَّبَ لها، ولأنَّ العزيزَ لا يُعجِزُه شيءٌ[1].

- وقولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفَتا مُبالَغةٍ، أي: المُبالِغُ في القُدرةِ والحِكمةِ[2]؛ فالحَكيمُ: الموصوفُ بالحِكمةِ، لا يَدَعُ مُعامَلةَ النَّاسِ بما تَقتضيهِ الحِكمةُ مِن وَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها، ونَوْطِ الأمورِ بما يُناسِبُ حَقائقَها، والحكيمُ فَعيلٌ بمعنى المُحكِمِ، أي: المُتقِنِ في صُنْعِه ومُعامَلتِه، وهما معًا مِن صِفاتِه تعالَى؛ فهو وصْفٌ جامعٌ للمعنيَيْنِ[3].



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الطَّلاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩١).









الفهرس







الفهرس

سورةُ المُمْتَحَنةِ

سُورةُ الصَّفِّ

سُورةُ الجُمُعةِ

سُورةُ المُنافِقونَ

سورةُ التَّغابُنِ



تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠